هاروكي موراكامي



الغابة النروجية

رواية


المركز الثقافي العربي

هاروكي موراكامي

الغابة النروجية

رواية

ترجمة: سعيد الغانمي



المركز الثقافي العربي

هاروكي موراكامي

الغابة النروجية

العنوان الأصلي للرواية:

Haruki Murakami

Norwegian Wood

الكتاب

الغابة النروجية

تأليف

هاروكي موراكامي

ترجمة

سعيد الغانمي

الطبعة

الثانية، 2015

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-166-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص. ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص. ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

من أجل الكثير من الاحتفالات

(1)

كنت في السابعة والثلاثين، مشدوداً إلى مقعدي، حين كانت الطائرة العملاقة 747 تمخر عباب الغيم الكثيف مقتربة من مطار هامبورغ. كانت أمطار نوفمبر البارد قد رشت الأرض وبللتها، مضفية على كل شيء مسحة كئيبة من منظر ألماني: طاقم أرضي في معاطف مطرية، علم يرفرف فوق مبنى المطار، لوحة إعلانات البي أم دبليو. هكذا وصلنا ألمانيا إذن مرة أخرى.

ما إن حطت الطائرة على الأرض، حتى بدأت موسيقى ناعمة تنبعث من معزوفة عذبة من معزوفات الخنافس: «الغابة النروجية». كان اللحن دائماً يبعث فيَّ رجفة من نوع ما، لكنه هزني هذه المرة أقوى من السابق.

انحنيت إلى الأمام، ورأسي بين يديّ لأحمي جمجمتي من الانشطار. اقتربت مضيفة ألمانية طويلة وسألتني بالإنكليزية ما إذا كنت مريضاً.

قلت: «لا، بل دائخ وحسب».

«هل أنت متأكد؟»

«أجل، متأكد. شكراً».

ابتسمت وغادرت، فتغيرت الموسيقى إلى نغمة بيلي جول. مددت قامتي ونظرت خارج النافذة إلى الغيوم الداكنة المعلقة في بحر الشمال، مفكراً في كل ما ضيعته في مجرى حياتي: أزمنة مضت إلى الأبد،

أصدقاء ماتوا أو اختفوا، مشاعر لن أذوقها مرة أخرى.

بلغت الطائرة البوابة. وبدأ الناس بفك أحزمتهم وسحب أمتعتهم من الخزانات العلوية في الطائرة، بينما كنت أنا مستغرقاً في المرج. أستطيع أن أشم رائحة العشب، وأتحسس الريح على وجهي، وأسمع زقزقة الطيور. إنه ربيع 1969، وقريباً سأكون في العشرين من العمر.

جاءت المضيفة لتتأكد من حالتي مرة أخرى. هذه المرة جلست إلى جواري وسألت هل كل شيء على ما يرام. قلت بابتسامة:

«إنني بخير. شكراً. فقط أشعر بشيء من الكآبة».

قالت: «أعرف ما تعنيه. يحدث لي هذا بين الحين والآخر».

نهضت وهي تبتسم ابتسامة محببة: «حسناً، إذن، رحلة موفقة» ثم بالألمانية Auf Wiedersehen, Auf Wiedersehen

مضت ثماني عشرة سنة على ذلك، وما زلت قادراً على استعادة كل تفاصيل ذلك اليوم في المرج. كانت الجبال تكتسي بخضرة عميقة مشرقة، وقد غسلها رذاذ المطر المتساقط من غبار الصيف في النهار. وجعل نسيم أكتوبر يتمايل بالأوراق البيض لأطراف الأعشاب. عَبَرَ شريط طويل جداً من الغيوم المعلقة عبر زرقة القبة الجامدة. من المؤلم النظر إلى تلك السماء المبتعدة. زحفت نفحة ريح عبر المرج وعلى كتفيها قبل أن تنزلق إلى الغابة، لتهيج الأغصان وتعيد لنا صدى متقطعاً من نباح بعيد. صوت غامض بدا وكأنه يصلنا من مشارف عالم آخر. لم نسمع أصواتاً أخرى. ولم نقابل أشخاصاً آخرين. رأينا فقط طيرين أحمرين يقفزان وقد جفلا من منتصف المرج واندفعا إلى الغابة. ونحن نمشي باتجاه الغابة، حدثتني ناوكو عن الآبار.

الذاكرة شيء مضحك. حين كنت في غمرة المشهد، لم أعره

اهتماماً يذكر. لم أقف للتفكير به وكأنه شيء من شأنه أن يترك انطباعاً يبقى، وبالتأكيد لم أتخيل أبداً أنني سأستعيده بكل تفاصيله بعد ثماني عشرة سنة. لم أعر ذلك المشهد أدنى التفاتة في ذلك اليوم. كنت أفكر بنفسي. فكرت بالفتاة الجميلة التي تمشي إلى جواري. فكرت بكلينا معاً، ثم بنفسي مرة أخرى. كنت في عمر ومرحلة من الحياة يرتد فيها كل مشهد، وكل شعور، وكل خاطرة إلى ذاتي، كأنها لعبة خشب البومبرنغ الارتدادية. والأسوأ أنني كنت عاشقاً. بكل ما في الحب من عقد. كان المشهد آخر شيء علق في ذهني.

أما الآن فإن مشهد المرج هو أول شيء يخطر على بالي. رائحة العشب، قشعريرة ريح شاحبة، خط التلال، نباح كلب ما: تلك هي الأشياء الأولى، وإنها لتأتي بوضوح مطلق. أشعر وكأنني أستطيع بلوغها واقتفاء أثرها بأناملي. ولكن برغم وضوح هذا المشهد، فلم يكن ليظهر فيه أحد. لا أحد. ناوكو لم تكن هناك، ولم أكن أنا هناك أيضاً. أين كان بإمكاننا الاختفاء؟ وكيف حدث مثل ذلك الأمر؟ كان يبدو كل شيء مهماً في استعادته حينئذ، ناوكو والذات التي كنتها، والعالم الذي كان بين يدي حينئذ: أين ذهبت هذه كلها؟ حقاً أنني لا أستطيع استدعاء حتى وجهها - في الأقل ليس مباشرة. كل ما بقي لدي هو خلفية، مشهد خالص، ليس في واجهته أحد.

صحيح أنني إذا أُعطيت الوقت الكافي فسأتذكر وجهها. أبدأ بتجميع الصور -يدها الصغيرة الباردة، شعرها الأسود المسترسل، الناعم والبارد عند لمسه، قرطها الناعم المستدير، والشامة المجهرية تحته مباشرة، معطفها المصنوع من وبر الجمل الذي كانت ترتديه في الشتاء، عادتها في التطلع في عينيّ حين أسألها سؤالاً، والرجفة الخفيفة التي تتخلل صوتها بين الحين والآخر (وكأنها تتحدث من عاصفة)، وفجأة يحضر وجهها هناك، دائماً بصورة جانبية في البداية، لأننا ناوكو وأنا كنا دائماً نمشي معاً جنباً إلى جنب. ثم تلتفت إليّ وتبتسم، وتميل رأسها قليلاً، وتشرع

بالحديث، وتنظر إلى عيني وكأنها تريد الإمساك بصورة سمكة أفلتت في مياه ينبوع شفاف.

لكن وجه ناوكو يستغرق وقتاً لكي يظهر. وبمرور السنين صار الوقت الذي يحتاج إليه لكي يظهر يطول. والحقيقة المحزنة أن ما أتذكره في خمس ثوان، كان يحتاج إلى عشر ثم إلى ثلاثين، ثم إلى دقيقة كاملة، مثل ظلال تطول في ظلمة الغسق. أفترض يوماً ما أن الظلال ستبتلعها الظلمة. لم يكن أمامها من منفذ: فذاكرتي ما برحت تزداد ابتعاداً عن البقعة التي تعودت ناوكو أن تقف فيها، والبقعة التي تعودت ذاتي القديمة أن تقف فيها. ولم يعد يوجد شيء سوى المشهد، منظر ذلك المرج في أكتوبر، يعاودني المرة تلو المرة مثل مشهد رمزي في فيلم. كل مرة يظهر، يوجه وخزة إلى جزء من ذاكرتي، تقول: «**استيقظ. ما زلت هنا. استيقظ وفكر به. فكر لماذا ما زلت هنا**». لا تؤلمني وخزته أبداً. فلا ألم لها على الإطلاق. مجرد صوت أجوف يتردد صداه مع كل وخزة. مع ذلك فإنه محكوم بأن يتلاشى يوماً ما. لكن الوخزات في مطار هامبورغ كانت أطول وأقسى من المعتاد. ولهذا أكتب هذا الكتاب. لكي أفكر. لكي أفهم. يجب أن أكتب الأشياء لكي أحس بأنني ألمّ بها تماماً.

فلنرَ الآن عن ماذا كانت تتحدث ناوكو ذلك اليوم؟ بالطبع عن «بئر الحقل». لم تكن لديّ فكرة عن وجود مثل تلك البئر. وربما كان ذلك مجرد خاطرة أو علامة وجدت في داخل رأس ناوكو، مثل سائر الأشياء الأخرى التي تعودت أن تغزل وجودها في داخل عقلها تلك الأيام المظلمة. على أنني بمجرد أن وصفتها لي ذات مرة لم أعد قادراً على التفكير بمشهد المرج من دون البئر. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، صارت صورة شيء لم تقع عليه عيناي جزءاً لا يتجزأ من مشهد الحقل الفعلي الذي يمتد أمامي. وأستطيع أن أصف البئر بأدق تفاصيلها. فهي تقع تماماً على الحدود التي ينتهي عندها المرج وتبدأ عندها الغابة - فتحة مظلمة في

الأرض، سعتها باردة، تغطيها الأعشاب. لا سياج، لا حاجز حجري (في الأقل ليس من ذلك النوع الذي يرتفع فوق سطح الأرض). لم تكن سوى فتحة، وفم مفتوح على سعته. تلوحت أحجار طوقه وتحوّل لونها إلى لون أبيض موحل غريب. كانت متصدعة ضاعت كسرها، حتى انزلقت عظاية صغيرة إلى شق مفتوح. تستطيع أن تتمدد عند الحافة وتتطلع إلى الأسفل، فلا ترى شيئاً. كل ما عرفته عن البئر كان عمقها المخيف. كانت عميقة على نحو لا يقاس، محشورةً بالظلمة، كأن كل ما في العالم من ظلمة انصبّ في كثافته الشديدة. قالت ناوكو وهي تختار كلماتها بعناية: «إنه حقاً، حقاً عميق». كانت أحياناً تتحدث بتلك الطريقة، تبطئ قليلاً في الكلام لتجد الكلمة الدقيقة التي كانت تبحث عنها. أكملت: «لكن لا أحد يعرف أين هي. . . ما أعرفه يقيناً أنها في مكان ما هنا».

ابتسمت لي، وهي تدس يديها في جيبي سترتها الصوفية وكأنها تقول: «هذا حقيقي».

قلت: «لا بدَّ أن يكون خطيراً خطراً بالغاً. بئر عميقة، ولكن لا أحد يعرف أين هي. يمكن أن تقعي فيها، وستكون تلك نهايتك».

«النهاية. آآآآه ه ه! رشاش ماء. وانتهى الأمر».

«لا بدّ أن تحدث أشياء من هذا النوع».

«إنها تحدث بين الحين والآخر. ربما مرة كل سنتين أو ثلاث. يختفي أحدهم فجأة، ولا يجدون له أثراً. فيقول الناس هنا: لقد سقط في بئر الحقل».

قلت: «ليست هذه بالطريقة الجيدة للموت».

قالت ناوكو وهي تنفض عنقوداً من بذور الأعشاب عن سترتها:

«لا، بل هي طريقة مرعبة. أفضل ما فيها أنها قد تكسر رقبتك، ولكن من المحتمل أن تكسر ساقك، ثم لا تستطيع فعل شيء. قد تضج بالصياح من أعماق رئتك، لكن لن يسمعك أحد، ولن تتوقع أن يعثر عليك أحد، وقد تزحف عليك حشرات أم أربعة وأربعين وعناكب

تتراكض نحوك، وعظام من ماتوا قبلك متناثرة حولك، والجو مظلم ورطب، وليس فوق رأسك سوى دائرة صغيرة، صغيرة جداً، من الضوء مثل قمر شتوي. تموت في هذا المكان شيئاً فشيئاً، منفرداً تماماً».

قلت: «يا للرعب، مجرد التفكير به يبعث القشعريرة في جسدي. لا بدّ أن يجد أحد هذا الشيء ويبني حوله سياجاً».

«لا أحد يستطيع أن يجده. لذلك تأكد من سلامة مسلكك».

«لا تقلقي، لن أضيع».

أخرجت ناوكو يدها من جيبها وضغطت على يدي. قالت: «لا تقلق أنت. ستكون على ما يرام. تستطيع أن تجري هنا في منتصف الليل، ولن تسقط في البئر أبداً. وما دمت لصيقة بك، فلن أقع في البئر أيضاً».

«أبداً؟»

«أبدا!»

«كيف يمكنك التأكد من ذلك؟»

قالت وهي تزيد من شدّ قبضتها على يدي وتمشي في صمت: «إنني أعرف ذلك فقط. أعرف هذه الأشياء. وأنا مصيبة تماماً. أشياء لا علاقة لها بالمنطق. أشعرها في داخلي وحسب. مثلاً، حين أكون قربك كما أنا الآن، لن يخالجني شعور بالخوف أبداً. لن يساورني شيء مظلم أو شرير».

قلت: «حسناً. ذلك هو الجواب. كل ما تحتاجين إليه هو البقاء إلى جانبي مثلما أنت الآن طوال الوقت».

«هل تعني ذلك حقاً؟»

«بالطبع».

توقفت ناوكو قليلاً. فتوقفت أنا أيضاً. وضعت يدها على كتفي، وأمعنت النظر في عيني. التمع سائل أسود ثقيل في بؤبؤي عينيها التماعة غريبة. كانت تلك العينان الجميلتان تغوصان في داخلي زمناً طويلاً. ثم

انتصبت بطول قامتها، ولامست بخدها خدي. كانت إيماءة مذهلة، دافئة، أوقفت نبض قلبي للحظة.

«شكراً».

أجبت: «بكل سرور».

قالت بابتسامة حزينة: «أنا سعيدة جداً لقولك هذا. سعيدة حقاً. لكن ذلك مستحيل».

«مستحيل! لماذا؟»

«سيكون خطأ. سيكون مرعباً. سيكون...»

زمّت ناوكو شفتيها، وبدأت تمشي ثانية. أستطيع القول إن جميع أنواع الأفكار كانت تدور في رأسها، وحتى لا أتطفل عليها بقيت صامتاً ومشيت إلى جوارها. قالت بعد صمت طويل: «سيكون ذلك خطأ، خطأ بالنسبة لي، وخطأ بالنسبة لك».

تمتمت: «خطأ. كيف؟»

«ألا ترى؟ لا يمكن لشخص أن يعتني بآخر أبداً مدى الحياة. أعني افترض أننا تزوجنا. حينئذ لا بد أن تجد عملاً خلال النهار. من سيعتني بي حينما لا تكون معي؟ أو إذا ذهبت في رحلة عمل، من سيعتني بي حينئذ؟ هل يمكن أن ألتصق بك في كل دقيقة من حياتنا؟ أي نوع من التوازن سيكون في ذلك؟ أي نوع من العلاقة ستكون تلك؟ عاجلاً أو آجلاً ستجزع مني. ستتساءل عما كنت تفعله بحياتك، ولماذا تقضي وقتك كله وأنت ترعى هذه المرأة. لن أستطيع احتمال ذلك. ولن يحل هذا الأمر أياً من مشاكلي».

قلت وأنا ألمس ظهرها: «لكن مشاكلك لن تستمر طوال حياتك. ستنتهي ذات يوم. وحين تنتهي، ستتوقفين وتفكرين كيف تمضين من هناك. ربما سيكون من الواجب عليك مساعدتي. لن تديري حياتنا وفق تقرير حسابي. استخدميني إذا احتجتني. ألا ترين؟ لماذا تكونين صارمة

إلى هذا الحد؟ استرخي، وَضَعي عنك هذه الدفاعات. أنت متوترة جداً، ولذلك تتوقعين الأسوأ دائماً. أريحي جسدك، وسيضيء الباقي فيك».

قالت بصوت مفرغ من الإحساس:

«كيف تقول ذلك؟»

أشعرني صوت ناوكو باحتمال أنني قلت ما لا ينبغي قوله. قالت وهي تحدق في الأرض تحت قدميها:

«قل لي كيف يمكنك قول شيء كهذا. أنت لا تقول شيئاً لا أعرفه أصلاً. أريحي جسدك وسيضيء الباقي فيك. ما العبرة في قول هذا؟ إذا أرحت جسدي فقد أتداعى. لقد عشت دائماً على هذا النحو، وتلك هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها لأستمر في العيش. لو أنني استرخيت لحظة، فلن أجد طريق عودتي مرة أخرى. سأتبعثر قطعاً، وتتطاير هذه القطع متفرقة. لماذا لا ترى ذلك؟ كيف يمكنك الحديث عن رعايتي وأنت لا ترى ذلك؟»

لم أقل شيئاً.

«إنني مرتبكة، فعلاً مرتبكة. والأمر أعمق مما تتصور. أعمق.. وأظلم.. وأبرد. لكن قل لي شيئاً كيف تمكنت من النوم معي تلك المرة؟ كيف فعلت مثل ذلك الشيء؟ لماذا لم تتركني وحدي؟»

كنا الآن نمشي عبر الصمت المخيف لغابة الصنوبر. كانت أشلاء الزيز المتناثرة التي ماتت عند نهاية الصيف تلتمع على سطح الطريق، وتتكسر تحت أحذيتنا. وكأننا كنا نبحث عن شيء فقدناه، واصلنا ناوكو وأنا سلوك الطريق ببطء.

قالت وهي تأخذ ذراعي وتهز رأسها:

«آسفة. لم أقصد أن أجرحك. حاول أن تتجاهل ما قلته. آسفة، فعلاً. كنت فقط غاضبة من نفسي».

قلت: «أعتقد أنني لم أفهمك حقاً حتى الآن. لست بالذكاء الذي

تتصورين. فهمُ الأشياء يحتاج مني إلى بعض الوقت. ولكن إذا ما أتيح لي الوقت، فسأفهمك -أفضل من أي شخص آخر في العالم».

توقفنا عن المشي، ووقفنا نصغي إلى الغابة الصامتة. قلبت بقدمي مخروطات الصنوبر وأصداف الزيز، ثم تطلعت إلى قطع السماء التي تطل من خلال أغصان الصنوبر. وقفت ناوكو تفكر، ويداها في جيبَيْها، دون أن تركز عيناها على شيء محدد.

قالت: «قل لي شيئاً، تورو، هل تحبني؟»

«أنت تعرفين أنني أحبك..»

«هل يمكن أن تقدم لي معروفين؟»

«يا سيدتي، تستطيعين طلب ثلاث رغبات».

ابتسمت ناوكو وهزت رأسها: «كلا، تكفي اثنتان. إحداهما من أجلك، أن تدرك كم أنا ممتنة لأنك جئت لتراني هنا. أتمنى أن تفهم مقدار السعادة التي جلبتها لي. أعرف أنها ستنقذني، إذا كان لشيء أن ينقذني. قد لا أكشف عنها. ولكنها حقيقية».

قلت: «سأجيء لأراك مرة أخرى. فما الرغبة الثانية؟»

«أريدك دائماً أن تتذكرني. هل ستتذكر أنني كنت موجودة، وأنني وقفت إلى جوارك كما هو الحال الآن؟»

قلت: «دائماً. سأتذكرك دائماً».

مشت دون أن تتكلم. ترنحت أضواء الخريف التي تطل من خلال الأغصان فوق كتفيّ سترتها. نبح كلب مرة أخرى، أقرب من المرة السابقة. تسلقت ناوكو تلاً صغيراً، وتمشت خارج الغابة، واندفعت نازلة من منحدر خفيف. تبعتها بخطوتين أو ثلاث وراءها.

ناديت خلف ظهرها: «تمهلي هنا. قد تكون البئر في مكان ما هنا».

توقفت ناوكو وابتسمت وأخذت ذراعي. وتمشينا بقية الطريق جنباً إلى جنب. سألت بشبه همس قريب:

«هل تَعِدُ حقاً أنك لن تنساني أبداً؟»
قلت: «لن أنساك أبداً، ولن أستطيع أن أنساك أبداً».

لكن ذاكرتي تزداد سقوطاً في العتمة، ولقد نسيت عدداً من الأمور. حين أكتب من الذاكرة على هذا النحو، أشعر غالباً بغصة الرهبة. ماذا لو كان ما نسيته أهم الأشياء؟ ماذا لو كان في داخلي برزخ مظلم تتراكم فيه الذكريات المهمة حقاً وتتحول ببطء إلى وحول؟

مهما تكن الحال، فهذه هي الطريقة الوحيدة. كابحاً هذه الذكريات الناقصة، الشاحبة، المشحبة، في صدري، أستمر في كتابة هذا الكتاب بتوتر يائس لإنسان جائع ينهش عظماً. هذه الطريقة الوحيدة التي أعرفها للحفاظ على الوعد الذي أطلقته لناوكو.

مرة، منذ وقت طويل، حين كنت شاباً، وكانت الذكريات أكثر حيوية مما هي عليه الآن، حاولت مراراً أن أكتب عنها. لكنني لم أدوِّن سطراً واحداً. كنت أعرف أنني إذا كتبت السطر الأول، فستنهمر السطور الباقية على الصفحة، لكني لم أتمكن من جعل ذلك يحدث. كان كل شيء حاداً وواضحاً، ولذلك لم أعرف من أين أبدأ. وقد يكون الطريق الذي تدل عليه الخارطة أحياناً غير ذي جدوى. لكني أدرك الآن أن كل ما أضعه في هذا الوعاء الناقص من الكتابة هي ذكريات شاحبة وخواطر غير كافية. وكلما تلاشت ذكريات ناوكو في داخلي، ازددت قدرة على التعمق في فهمها. أعرف أيضاً لماذا طلبت مني ألا أنساها. كانت ناوكو تعرف بالطبع. كانت تعرف أن ذكرياتي عنها قد تتلاشى. وهذا هو السبب في أنها توسلت إليَّ ألا أنساها أبداً، وأن أتذكر أنها كانت موجودة.

تكاد تملأني الأفكار بحزن لا يطاق تقريباً، لأن ناوكو لم تحبني أبداً.

(2)

ذات مرة، منذ سنوات عدة، منذ عشرين سنة في الواقع، كنت أعيش في مهجع داخلي للطلبة. كنت في الثامنة عشرة، طالباً في السنة الجامعية الأولى. كنت جديداً على طوكيو، وجديداً على العيش وحدي، ولذلك وجد والداي المتلهفان لي مهجعاً داخلياً خاصاً لأعيش فيه، ولم يبحثا عن غرفة مفردة غالباً ما يأخذها أكثر الطلاب. كان المهجع يوفر وجبات الطعام والخدمات الأخرى مما قد يساعد ابن الثامنة عشرة المنزوي عن العالم على البقاء فيه. وكانت التكاليف أيضاً موضع اعتبار. فالمهجع المشترك يكلف أقل بكثير من الغرفة الخاصة. وما دام لديّ سرير ومصباح، فلا أحتاج أن أشتري الكثير من الأثاث. من ناحيتي، كنت أفضل أن أؤجر شقة وأعيش في عزلة مريحة، لكنني لمعرفتي بما كان يجب أن ينفقه والداي على التسجيل والدراسة في الجامعة الخاصة التي كنت سُجّلت فيها، لم أكن في موقع يمكنني أن أصر فيه. أضف إلى ذلك أنني ما كنت لأبالي أين أعيش.

كان المهجع يقع على تل في وسط المدينة يطل على مناظر مفتوحة، ويحتل موقعاً مربعاً كبيراً يحيط به سياج كونكريتي. كانت شجرة زلكوفا عملاقة تنتصب تماماً داخل البوابة الرئيسة. يقول الناس إن عمرها يزيد على 150 سنة. إذا وقفت عند قاعدتها، وتطلعت إلى الأعلى، فلن ترى السماء من خلال غطاء الأوراق الخضر الكثيف.

الطريق المعبّد الذي يبدأ من البوابة يطوق الشجرة ويستمر في ممر طويل ومستقيم إلى المربع الواسع، وهناك مبنيان كل منهما بثلاثة طوابق، يواجه كل منهما الآخر على جانبي الممر. كانا مبنيين كبيرين بنوافذ متعددة، يعطيان الانطباع إما بأنهما شقق تحولت إلى سجنين، أو سجنان تحوّلا إلى شقق. على أنهما يخلوان تماماً من أي قذارة، ولا يشعر الداخل إليهما بوجود الظلام. يمكنك سماع أصوات الراديوات من النوافذ المفتوحة، التي تشترك جميعاً بستائرها ذات الألوان الحليبية التي تخترقها أشعة الشمس.

خلف المهجعين، كان الطريق يؤدي إلى مدخل بناية مشتركة ذات طابقين، يحتوي الطابق الأول على قاعة طعام وحمامات، ويحتوي الثاني على قاعات استماع، وغرف اجتماع، وحتى غرف استقبال ضيوف، لم أفهم معنى استخدامها أبداً. بعد المبنى المشترك ينتصب مهجع ثالث، بثلاثة طوابق أيضاً. كانت المروج الخضر الواسعة تملأ المربع، والمرشات الدوارة تعكس حرارة الشمس حالما تدار. وخلف المبنى المشترك، يقبع حقل كان يستعمل كميدان لكرة السلة أو كرة القدم، وست مناضد للتنس. في المجمع كان يتوفّر جميع ما يمكن أن تحتاج إليه.

كانت هناك مشكلة واحدة في ذلك المكان: رائحته السياسية. كانت تديره مؤسسة عَطِنَة تهتم بالشباب اليميني المتطرف، وكان هناك شيء غريب تم تحريفه -بقدر ما همني الأمر- في الطريقة التي يديرون بها المكان. يمكنك رؤيته في الكراس الذي يعطونه للطلبة الجدد حول القواعد المتبعة في المهجع. كان الهدف المزعوم من «الروح التأسيسية» للمهجع أن «يسعى لتغذية الأمة بالموارد البشرية من خلال ما هو جوهري في المبادئ التربوية»، وقد أسهم كثير من القادة الماليين الذين وهبوا هذه «الروح» بأموالهم الخاصة في إنشاء هذا المكان. كان هذا هو الوجه المعلن للمشروع، لكن ما خفي وراءه كان غامضاً للغاية. قال بعضهم إنه كان مراوغة للضريبة، ورأى آخرون أنه كان بمثابة إعلان مثير للمساهمين،

بينما يزعم آخرون أن إنشاء المهجع لم يكن سوى غطاء للتمويه والاحتيال على الناس بصرف نظرهم عن اقتطاع الأراضي العامة. على أن هناك شيئاً مؤكداً: ففي المهجع كان يوجد نادٍ خاص يضم نخبة الطلاب من جامعات مختلفة. كوّنوا «جماعات دراسية» تلتقي عدة مرات في الشهر وكانت تضم بعض مؤسسي المهجع. وأي عضو من أعضاء النادي يستطيع أن يطمئن على حصوله على وظيفة جيدة بعد التخرج. لم تكن لديّ فكرة عن أي من هذه النظريات هي الصحيحة، لو صحت إحداها، لكنها تشترك جميعاً في افتراض وجود «شيء ما عَطِنٍ» بخصوص المكان.

على أية حال، قضيت سنتين، من ربيع 1968 إلى ربيع 1970، أعيش في هذا المهجع «العطن». لست أدري لماذا قررت البقاء فيه كل هذه المدة الطويلة. فيما يتعلق بالحياة اليومية، لم يكن يشكل فرقاً عملياً بالنسبة لي أن ينتمي المكان للجناح اليميني أو اليساري أو أي شيء آخر.

كان كل يوم يبدأ بالعادة المتبعة في رفع العلم. وإنشاد النشيد الوطني أيضاً بالطبع. إذ لا يمكن تأدية أحدهما دون الآخر. كانت سارية العلم تنتصب في مركز المجمّع، حيث يمكن رؤيتها من جميع نوافذ المهاجع الثلاثة. كان مدير المهجع الشرقي (المبنى الذي أقيم فيه) مسؤولاً عن العلم. وكان رجلاً طويل القامة، بعيني صقر، في أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات. كان شعره الكثّ مرقطاً بالشيب، وتحمل رقبته التي لفحتها الشمس ندبة طويلة. كان الناس يهمسون بأنه تخرّج من مدرسة ناكانو للجاسوسية أيام الحرب، غير أن أحداً لم يتيقن من ذلك. ووقف إلى جواره أحد الطلاب الذي مثّل دور مساعد له. وما من أحد كان يعرف هذا الشاب حقاً أيضاً. كان يرتدي أقصر ملابس في العالم، ويبدو دائماً في زي طالب بحرية. لم أعرف اسمه، أو في أية غرفة يعيش، ولم يسبق لي أن رأيته في غرفة الطعام أو في الحمام. بل إني لست متأكداً ما إذا كان طالباً، برغم أنك لا بد أن تتخيله طالباً، ما دام في هذا «الزي الموحد»، الذي سرعان ما أصبح لقباً له. مقارنة بالسيد ناكانو، كان «الزي الموحد»

قصيراً، مدحدحاً، ذا وجه عجيني. هذا الثنائي المروّع يرفع كل صباح راية شروق الشمس في السادسة.

حين دخلت المهجع لأول مرة، كان من شأن هذه الجديّة المطلقة لهذا الحدث أن تدفعني إلى الصحو مبكراً لمشاهدة هذا الطقس الوطني. يظهر الاثنان في ساحة المهجع تقريباً في تمام اللحظة التي يعلن فيها الراديو عن الساعة السادسة. يلبس «الزي الموحد» زيه الموحد بالطبع، مع حذاء جلدي أسود، ويلبس ناكانو سترة قصيرة، وملابس تدريب بيضاء. يحمل «الزي الموحد» صندوقاً احتفائياً مصنوعاً من خشب البوليوفوني العطر غير المعالج، بينما يحمل ناكانو مسجل أشرطة من نوع سوني إلى جانبه. يضعه عند قاعدة موقع العلم، بينما يفتح الزي الموحد الصندوق ليخرج الراية المطوية باعتناء. وبإجلال كبير، يسلمها لناكانو، الذي يثبتها على حبل السارية، كاشفاً بذلك عن الدائرة الحمراء المشعة للشمس المشرقة في ميدان البياض الخالص. ثم يضغط «الزي الموحد» زرّ عزف النشيد الوطني.

«عسى حكم مولانا....».

فترتفع الراية قليلاً.

«حتى يتحول الحصى إلى جلاميد...».

تصل الراية إلى منتصف السارية.

«فيكسوها الطحلب».

تكون الآن قد وصلت إلى القمة. يقف الاثنان في وضعية الاستعداد، ينظران بثبات إلى الراية، التي ترفرف خفاقة في الأيام الصافية حين تهب الريح.

كان يتم إنزال الراية في الغسق بالتوقير الاحتفائي نفسه، ولكن بالعكس. يصل أسفل الراية أولاً ويجد طريقه إلى الصندوق. فالعلم الوطني لا يرفرف خفاقاً في ظلمة الليل.

لم أعرف لماذا ينبغي إنزال العلم ليلاً. فالأمة تستمر في الوجود حين

تعمّ الظلمة، وكثير من الناس يعملون طوال الليل، طواقم إنشاء السكك الحديد، وسواق التكسيات، ومضيفات البارات، ورجال الإطفاء، والحراس الليليون. ولقد بدا لي من الظلم أن يُنكر على كل هؤلاء الناس الاحتماء بالعلم. ولعل هذه القضية لم تحظَ باهتمام أحد، فلم يعبأ بها سواي. بل إنني لم أهتم بها في الواقع أيضاً. إذ كانت مجرد خاطرة مرت في بالي.

كانت قواعد الانتساب تقضي بأن يشغل طلاب السنة الأولى والثانية غرفاً مزدوجة ذات سريرين، بينما يشغل طلاب السنة الثالثة والنهائية غرفاً مفردة. كانت الغرف المزدوجة أطول قليلاً وأضيق من غرف 9 × 12، ذات شبابيك مؤطرة بالألمنيوم على الحائط المقابل للباب ومنضدتين إلى جوار النافذة موضوعتين بحيث يدرس الطالبان اللذان يشغلان الغرفة وكل منهما يعطي ظهره للآخر. على يسار الباب يقف سرير معدني ذو طابقين. كان أثاث الغرفة عملياً وبسيطاً ويتضمن زوجاً من الدواليب، وطاولة قهوة صغيرة، وبعض الرفوف الجاهزة في الحائط. لا يجرؤ أكثر الملاحظين تشتتاً على أن يسمي هذا الوضع شعرياً. كانت أغلب الرفوف في الغرف تحمل مواد مثل راديووات ترانزستر، مجففات شعر، أباريق كهربائية وطباخات، قهوة جاهزة، أكياس شاي، مكعبات سكر، وقدور وأوعية بسيطة لتحضير الأطعمة الفورية. على الجدار علقت صور فتيات منتزعة من المجلات أو ملصقات سينمائية خليعة مسروقة. شاب واحد علق صورة لخنزيرين يتزاوجان، لكن هذه الصورة كانت استثناءً شاذاً لصور النسوة العاريات، أو المغنيات الشعبيات أو الممثلات. أما رفوف الكتب على الطاولات فكانت تحمل الكتب المنهجية والقواميس والروايات.

كانت قذارة هذه الغرف المفرطة الذكورية مرعبة. جلود صينية بالية مرمية في حضيض سلال المهملات. علب فارغة تستخدم كمنافض سجائر وهي تحمل أكواماً من أعقاب السجائر، التي ما إن تشارف على نهايتها حتى يتم إخمادها بالقهوة أو البيرة لتنبعث منها رائحة مقززة. سخام

مسود وبقايا مواد غير معروفة تعلق بجميع الأواني والأطباق على الرفوف، وأرضية الطوابق مترعة بمغلفات الأطعمة الجاهزة وعلب البيرة الفارغة والقناني المهملة. لم يحدث أبداً أن كنس أحد هذه المزبلة ورمى هذه الأشياء في القمامة. يمكن أن تهب الريح فتثير غيوماً من الغبار. في كل غرفة رائحتها الرهيبة، لكن مكونات تلك الرائحة تتشابه دائماً: مزيج من المعطرات الجسدية والقمامة. الملابس القذرة تتجمع تحت الأَسِرَّة، دون أن يعبأ أحد بتهوية الأفرشة وفق قاعدة منتظمة، مما يجعلها تصدر عطوراً لا شفاء منها. وإنه ليبدو من المذهل حقاً أن لا تتسبب أكوام القذارة هذه بحدوث وباء قاتل.

غرفتي، من ناحية أخرى، كانت صحية مثل مشرحة جثث. الأرضية والنوافذ بلا بقع. الأفرشة تتهوى كل أسبوع. جميع الأقلام تنتصب في المقلمة، حتى الستائر تغسل مرة في الشهر. أما شريكي في الغرفة فكان مهووساً في كره القذارة. ما من أحد من الآخرين في المهجع يصدقني حينما أخبرهم عن الستائر. ما كانوا يعرفون أن الستائر يمكن أن تنظف. بل كانوا يعتقدون أنها جزء من النافذة. يقولون عنه: «هناك شيء ما خطأ في ذلك الشاب»، فيسمونه بالنازي أو جندي العاصفة.

لم يكن في غرفتنا حتى ملصقات. لا، بل لدينا صورة قناة في أمستردام. وضعت لقطة عارية، لكن شريكي في الغرفة أزالها. قال: «ماذا تفعل يا واتانابي؟... إن-إني لست مجنوناً جداً بهذا النوع من الصور»، وعلق بدلاً منها صورة القناة. لم أكن مُغرَماً بالصور العارية، ولذلك لم أحتجّ.

«ما تلك بحق الجحيم؟» تلك كانت ردة الفعل العامة على مشاهدة قناة أمستردام حينما يدخل غرفتي أي من الشباب الآخرين.

أقول: «آه.. جندي العاصفة يعجبه النظر إلى هذه».

كنت أقصد أن قول ذلك على سبيل نكتة، لكنهم جميعاً اعتبروني جاداً، حتى بدأت أنا نفسي أصدق أنني كنت جاداً.

تعاطف الجميع معي لكون جندي العاصفة شريكي في الغرفة، لكني في حقيقة الأمر لم أكن مستاءً منه. فقد كان يتركني وحيداً ما دمت أحتفظ بالجزء الخاص من غرفتي نظيفاً. والحقيقة أن كونه شريكاً لي في الغرفة جعل الأشياء أسهل بالنسبة لي بطرق كثيرة. فهو يقوم بالتنظيف كله، وهو يهتم بتهوية الأفرشة في الشمس، ويرمي القمامة في الخارج. كان يتشممني ويتأفف ويقترح أن أستحمّ حين أنشغل عن الاغتسال. بل إنه يشير عليّ بأن أذهب إلى الحلاق حين يطول شعري وأن أنتف شعر أنفي. الشيء الوحيد الذي يزعجني فيه كانت الطريقة التي يرش فيها غيوماً من قاتل الحشرات إذا ما لاحظ وجود ذبابة واحدة في الغرفة، لأنني يجب أن ألجأ حينئذ إلى غرفة من أكوام القذارة المجاورة.

كان جندي العاصفة يدرس الجغرافية في جامعة قومية.

وكما قال لي حين التقينا لأول مرة: «أنا أدرس الخ-الخرا-الخرائط».

سألته: «هل تحب الخرائط؟»

«نعم، حين أتخرج سأعمل في معهد المسح الجغرافي وأعمل الخ-خرا-خرائط»

كنت مندهشاً لشتى الأحلام والأهداف التي يمكن أن تهبها الحياة. وكان هذا الانطباع واحداً من أول الانطباعات التي تلقيتها حين جئت إلى طوكيو للمرة الأولى. هزتني فكرة أن المجتمع يحتاج إلى قلة من الناس -قلة وحسب- يهتمون بل ينصرفون إلى عمل الخرائط. والغريب أن ذلك الذي يريد أن يعمل في معهد المسح الجغرافي الحكومي يتأتئ كل مرة ينطق فيها كلمة «خريطة». غالباً ما لا يتأتئ جندي العاصفة على الإطلاق، كما يتأتئ حين ينطق كلمة «خريطة»، التي يبلغ فيها التأكد درجة مئة في المئة.

سألني: «ما-ما الذي تدرسه؟»

قلت: «الدراما».

«هل ستؤلف مسرحيات؟»

«لا، بل أقرأ الكتب، وأكتب البحوث. راسين، يونيسكو، شكسبير وأشياء كهذه».

قال إنه سمع بشكسبير، ولكنه لا يعرف الآخرين. والواقع أنني ما كنت أعرف الآخرين أيضاً، بل وجدت أسماءهم في كراسة المحاضرات.

سأل: «هل تحب المسرحيات؟»

«ليس بشكل خاص».

أربكه ذلك، وحين يرتبك تسوء تأتأته. شعرت بالأسف لكوني سببت له ذلك.

قلت: «كان بوسعي اختيار أي شيء. الأثنولوجيا. التاريخ الآسيوي. ولكن حدث أنني اخترت الدراما. وهذا كل شيء». ولم يكن ذلك التفسير أكثر التفاسير إقناعاً مما يمكنني تقديمه.

قال، وهو يتطلع إليّ وكأنه لم يفهم حقاً: «لست أفهم. أنا أحب الخخ-الخر-الخرائط، ولذلك قررت المجيء إلى طوكيو، وأن أستحث والديّ لإرسال النقود لي حتى أدرس الخخ- الخر-الخرائط. لكنك لست كذلك.. تمام؟»

كانت مقاربته ذات معنى أكثر من تناولي. توقفت عن محاولة تفسير نفسي. ثم أجرينا القرعة (بأعواد الثقاب) لاختيار الأَسِرَّة. فحصل على السرير الأعلى.

كان طويل القامة، بارز الخدين، يرتدي دائماً الملابس نفسها: قميصاً أبيض، وبنطلوناً أسود، وأحذية سوداء، وسترة بحارة. يضيف إلى هذه الملابس سترة موحدة ومحفظة أوراق سوداء حين يذهب إلى الجامعة. مثال نموذجي لطالب من الجناح اليميني. وهذا ما جعل الآخرين يسمونه «جندي العاصفة». لكنه في الحقيقة لم يكن معنياً بالسياسة أبداً. كان يرتدي الزي الموحد حتى لا يزعج نفسه باختيار الملابس. الأشياء التي كانت تهمه هي من طراز التغييرات في خطوط

السواحل، أو إكمال نفق سكك حديد جديد. لا شيء آخر. ما إن يشرع بموضوع من هذا النوع حتى يمضي فيه ساعات كاملة، إلى أن تهرب عنه أو تغط في النوم.

ينهض في السادسة كل صباح مع نشيد «عسى حكم مولانا». وهذا ما يعني أن طقس رفع الراية التفاخري لم يكن عديم الفائدة تماماً. دائماً يرتدي ملابسه، ويذهب إلى الحمام، ويغسل وجهه. أحياناً يساورني شعور بأنه يجب أن يتناول أسنانه سناً سناً ليغسلها في وقت واحد. وحين يعود إلى الغرفة، يسوي الطيات على منشفته ويضعها فوق المجفف لتجف، ثم يعيد فرشاة أسنانه والصابون إلى الرف. وأخيراً يؤدي نداء الراديو مع بقية الأمة.

كنت متعوداً على القراءة إلى وقت متأخر في الليل ثم النوم حتى الساعة الثامنة، ولذلك حتى حين يبدأ باللخبطة في الغرفة وأداء تمارينه الرياضية، كنت أبقى غافلاً عنه، حتى يبدأ فصل القفز لديه. كان يقفز قفزاً جدياً، ويجعل السرير يتمايل في كل مرة حتى يضرب الأرض. تحملته ثلاثة أيام لأنهم أخبرونا أن الحياة الجماعية تتطلب درجة معينة من التنازل، لكنني في صباح اليوم الرابع لم أعد أستطيع تحمّله أكثر.

قلت: «ألا تستطيع أداء ذلك على السطح أو في مكان آخر؟ لا أستطيع أن أنام».

قال فاغر الفم: «لكنها ما زالت الساعة السادسة والنصف!».

«أعرف أنها السادسة والنصف. يفترض أن أكون نائماً. لا أعرف كيف أوضح الأمر لك بالضبط، لكن الأمور معي تجري بهذا الشكل».

«على أية حال، لا أستطيع أداءها على السطح. سيتشكى أحدهم في الطابق الثالث. أما هنا فنحن فوق غرفة المخزن».

«إذن، اذهب إلى الساحة، عند المرجة».

«ليس هذا بالأمر الجيد أيضاً، ليس لديّ مذياع ترانزستر. أحتاج إلى وصل المذياع بالكهرباء. ولا يمكن أداء التمارين من دون موسيقى».

حقاً كان مذياعه كومة أسلاك قديمة بلا بطاريات. أما مذياعي فكان محمولاً، لكني أثبته باستمرار على موجة أف أم لسماع الموسيقى.

قلت: «حسناً، فلنسوّ القضية. قُمْ بتمارينك ولكن توقف عن القفز. فهو ضجيج لعين. ماذا تقول؟»

«ق-ق-قفز؟ ما هو؟»

«القفز هو القفز. صعود ثم هبوط».

«لكن ليس هناك أي قفز».

بدأ رأسي يؤلمني. كنت على استعداد للتوقف، غير أني أردت توضيح وجهة نظري. نهضت عن سريري وبدأت التقافز صعوداً وهبوطاً مع غناء نشيد الراديو الجمنازي. قلت: «أنا أتحدث عن هذا».

«أنت تعني هذا إذن. أعتقد أنك مصيب. لم أنتبه له».

قلت وأنا أجلس على حافة السرير: «هل ترى ما أعني؟ فقط توقف عن هذا الجزء. أستطيع احتمال البقية. كف عن القفز ودعني أنام».

قال بنبرة جادة: «لكن ذلك مستحيل. لا أستطيع التخلي عن أي جزء. لقد كنت أقوم بالشيء نفسه كل يوم منذ عشر سنوات، وبمجرد أن أبدأ أؤدي كل شيء لاشعورياً. إذا ما تخليت عن شيء، فلن أتمكن من تأدية أي شيء آخر».

لم يبق لي شيء أقوله. ماذا كان بوسعي أن أقول سوى ذلك؟ كانت أفضل طريقة لإيقاف هذا الأمر هي الانتظار حتى يغادر الغرفة وحينئذ أرمي مذياعه اللعين من الشباك اللعين، لكنني أدركت أنني لو قمت بتلك اللعنة فسيتعسّر إصلاح الأشياء. يعامل جندي العاصفة كل شيء يمتلكه وكأنه كنز. ابتسم وهو يراني أجلس على السرير شاعراً بخذلان الكلمات، وحاول إراحتي.

«واتانابي، لماذا لا تحاول أداء التمارين معي؟» وذهب إلى الفطور.

ضحكت ناوكو حين أخبرتها بقصة جندي العاصفة ونشيده الجمنازي. لم يكن في نيتي إضحاكها، غير أن الأمر انتهى بضحكي أنا نفسي. وبرغم أن ابتسامتها انطفأت في لحظة، فقد تمتعت برؤيتها للمرة الأولى مدة من الزمن. تركنا القطار في يوتسويا ومشينا بمحاذاة جسر المحطة. كانت ظهيرة أحد في منتصف مايو. نظفت الأرض زخات المطر الخفيفة المتقطعة في الصباح قبل الظهيرة، وكنست ريح الشمال الغيوم الواطئة. أوراق أشجار الكرز الخضراء المتألقة انتفضت في الهواء، موزعة ضوء الشمس في كل الاتجاهات. كان ذلك يوماً صيفياً مبكراً. كان الناس الذين مررنا بهم يحملون سترهم وكنزاتهم فوق أكتافهم أو في أيديهم. بدا الجميع سعداء في شمس ظهيرة الأحد الدافئة. شباب يلعبون التنس في ملاعبهم تحت الجسر وهم يلبسون القمصان المخططة. وقد جلست راهبتان بأرديتهما الشتوية تتحدثان فوق مصطبة وقد اكتست كلتاهما بنظرة رضا وهما تتمتعان بتجاذب الأحاديث في الشمس.

بعد خمس عشرة دقيقة من الأحاديث تعرقتُ بما يكفي لكي أنزع قميصي القطني السميك وأقتصر على القميص نصف الكم. طوت ناوكو ردنَي كنزتها الرمادية اللماعة إلى المرفقين. كانت ذات لون حائل على نحو لطيف، ومن الواضح أنها غسلت مراراً متعددة. شعرت وكأنني رأيتها في ذلك القميص منذ مدة طويلة. ولم يكن هذا سوى شعور أحسست به، وليس تذكراً ناصعاً. إذ لم يكن لدي ما يدعوني إلى تذكر ناوكو في ذلك الوقت.

سألتْ: «كيف ترى الحياة الجماعية؟ هل من الممتع أن يعيش الإنسان مع عدد غفير من الناس؟»

«لا أعرف. لم أجرب ذلك إلا شهراً أو ما يقاربه. لكنه ليس على درجة كبيرة من السوء. أستطيع تحمله».

توقفتْ عند نبع وارتشفتْ منه رشفة وهي تمسح فمها بمنديل أبيض أخرجته من جيب بنطالها. ثم انحنت وأعادت ربط مشد حذائها بعناية.

«هل تعتقد أنني أستطيع القيام بذلك؟»

«ماذا؟ العيش في مهجع؟»

«أجل».

«أعتقد أنها مسألة موقف. يمكن أن تسمحي لكثير من الأشياء بإزعاجك إذا أردت: القواعد المتبعة، الحمقى الذين يتصورون أنهم براز هام، شريك الغرفة الذي يعزف النشيد الجمنازي في السادسة والنصف صباحاً. لكن من المحتمل أن هذا الأمر موجود في كل مكان، ويمكن تدبره».

قالت وهي تهز رأسها: «أظن ذلك». بدت وكأنها تقلب أمراً في ذهنها. ثم تطلعت في عيني باستقامة وكأنها تتمعن في موضوع غير عادي. حينئذ رأيت كم صفاء وهو عمق عينيها، اللتين جعلتا قلبي يثب من مكانه. أدركت أنني لم تتح لي الفرصة للتطلع في عينيها على هذا النحو من قبل. وكانت تلك هي المرة الأولى التي وصل فيها كل منا إلى هذا البعد في المشي معاً والتحدث بهذا الطول.

سألتها: «هل تفكرين في العيش في مهجع أو ما أشبه؟»

قالت: «كنت أتساءل فقط عن طبيعة الحياة الجماعية. و...».

بدا كما لو أنها تحاول العثور على الكلمات المناسبة، ولكنها تفشل في العثور على الكلمة الصحيحة أو التعبير الدقيق. ثم تنهدت ونظرت إلى الأسفل.

«لا أعرف. دعك من الأمر».

كانت تلك نهاية المحادثة. استمرت في التوجه شرقاً، وتبعتها أمشي وراءها.

مضت سنة تقريباً منذ أن رأيت ناوكو للمرة الأخيرة، وخلال تلك الفترة فَقَدَت كثيراً من وزنها، حتى صارت تبدو كأنها شخص مختلف.

الخدان الريانان اللذان كانا سمة مميزة لها اضمحلا، وأصبحت رقبتها نحيلة ذاوية. صارت تبدو كأنها ساورها مرض ما، أو كأن شيئاً غير طبيعي وقاسٍ قد ألمّ بها، وكأنها كانت مختفية في مكان طويل ضيق أكسبها النحول والذبول. غير أنها أجمل بكثير مما تذكرته. أردت أن أخبرها بذلك، لكنني لم أجد الطريقة المناسبة للتعبير عنه.

لم نخطط للقاء لكننا اندفعنا بعضنا إلى بعض عند خط التنقل في تشو. قررت أن تذهب إلى السينما بمفردها لتشاهد فيلماً، وكنت متوجهاً إلى المكتبات في كاندا، فلم يكن لدى أي منا شيء فوري. اقترحت أن نغادر القطار الذي كنا نستقله في يوتسويا، إلى حيث يجعل الجسر الأخضر من المكان مكاناً لطيفاً للتحدث عند القلعة القديمة. انسقنا معاً منفردين، وليس لدينا شيء خاص نتحدث حوله، ولم أكن متأكداً تماماً لماذا اقترحت ناوكو أن ننزل من القطار. في الواقع لم يكن لدينا ما نقوله لبعضنا.

بدأت ناوكو في السير في اللحظة التي لامست أقدامنا فيها الشارع، وأسرعت خلفها، تاركاً بضع خطى بيننا. كان بوسعي تقريب المسافة، لكن شيئاً ما أبقاني في الخلف. مشيت وعيناي على كتفيها وشعرها الأسود المسترسل. كانت تضع مشبكاً بنياً كبيراً، وحين التفتت برأسها لمحت التماعة قرط أبيض صغير. بين الحين والآخر تنظر إلى الخلف وتقول شيئاً ما، أحياناً تدلي بملاحظة يجب أن أرد عليها، وأحياناً أخرى لا أعرف كيف أرد. مراراً لم يكن بوسعي سماع ما تقوله. ولم يكن يبدو عليها أنها تبالي بأي من طرق استجابتي هذه. حالما انتهت من قول ما أرادت قوله، أدارت رأسها إلى الأمام واستمرت في المشي. قلت لنفسي حسناً، إنه يوم لطيف للتنزه.

احتكاماً إلى ذلك المشي، لم يكن ذلك سوى تنزه بالنسبة لناوكو. استدارت يميناً عند ليداباشي، وخرجت من النفق، وعبرت التقاطع عند جنبوتشو، وتسلقت التل في أتشونافيزو وبلغت هونغو. ومن هناك تابعت

خط الترام إلى كوماغومي. كان طريقاً للتحدي. وحين وصلنا إلى كوماغومي، كانت الشمس تنحدر إلى المغيب، وصار النهار مساءً ربيعياً ناعماً.

«أين نحن؟» سألتْ ناوكو وكأنها تلاحظ ما يحيط بنا للمرة الأولى.

قلت: «كوماغومي. ألم تعلمي؟ لقد قطعنا مسافة كبيرة».

«لماذا جئنا إلى هنا؟»

«أنتِ من جاء بنا إلى هنا. كنت أتبعك فقط».

دخلنا إلى محل في المحطة لتناول صحن من المعكرونة. ولأنني كنت عطشان، فقد طلبت قنينة بيرة لنفسي. لم ينبس أحد منا بكلمة من وقت طلبنا حتى انتهينا من الأكل. كنت منهكاً من ذلك المشي الطويل، بينما جلست هي ويداها على الطاولة، تمعن النظر في شيء ما مرة أخرى. يقولون في نشرات الأخبار إن جميع أماكن اللهو مزدحمة بالزبائن في هذا الأحد الدافئ. ونحن مشينا من يوتسويا إلى كوماغومي، قلت لنفسي.

قلت حين أنهيت صحن المعكرونة: «حسناً، نبدو بمنظر جيد».

«مندهش؟»

«نعم».

«هل أخبرتك أنني كنت عداءة مسافات طويلة في المدرسة؟ تعودت أن أشارك في سباق عشرة آلاف متر. وكان أبي يأخذني إلى تسلق الجبال في الآحاد منذ وقت لا أستطيع تذكره. أنت تعرف بيتنا هناك، خلف الجبل. لقد كان دائماً عندي سيقان قوية».

قلت: «لا يظهر ذلك».

أجابت: «أعرف. الجميع يعتقدون أنني تلك الفتاة الصغيرة النحيلة. لكنك لا تستطيع الحكم على الكتاب من غلافه». وأضافت إلى قولها ابتسامة سريعة.

قلت: «يصح هذا عليّ أيضاً. فقد تشققت».

«آه... آسفة. لقد كنت أجرجرك طوال النهار».

«لكنني سعيد لأننا وافتنا الفرصة للتحدث. لم يسبق لنا أن تحدثنا بهذا الشكل، نحن الاثنين فقط». قلت دون أن أنجح في تذكر ما كنا نتحدث عنه.

كانت تعبث بالمنفضة على الطاولة.

بدأت: «أتساءل... إذا لم.. تمانع.. أعني إذا لم يزعجك الأمر... هل تعتقد أن بوسعنا أن نرى بعضنا مرة أخرى؟ أعرف أنه ليس لديّ الحق في أن أطلب ذلك منك».

«الحق؟! ماذا تقصدين؟»

احمرَّ وجهُها. لعل رد فعلي كان فيه شيء من القوة قليلاً.

قالت وهي تطوي كُمّي كنزتها حول المرفقين وتعيد مدّهما: «لا أعرف... في الحقيقة لا أستطيع تفسير الأمر». شعّ الشعر الناعم على ذراعيها بلون ذهبي جميل في الضوء. «لم أقصد أن أقول (الحق) تماماً. كنت أبحث عن كلمة أخرى للتعبير عنه».

حدقت، ومرفقاها على الطاولة، في التقويم على الحائط، وكأنها كانت ترجو أن تعثر هناك على التعبير المناسب. وحين فشلت تنهدت وأغمضت عينيها وبدأت تعبث بمشبكها.

قلت: «لا يهمك. أعتقد أنني أفهم ما تريدين قوله، وأنا أيضاً لا أعرف كيف أعبر عنه».

استمرت ناوكو: «لا أستطيع أبداً قول ما أريد قوله. يحصل معي دائماً ما حصل قبل قليل. أحاول أن أقول شيئاً، لكن ما أجده هو الكلمات الخطأ- الكلمات الخطأ، أو الكلمات المناقضة تماماً لما أقصده. أحاول تصحيح نفسي، غير أن الأمور تسوء أكثر. فأنشدهُ عما كنت أحاول قوله لأبدأ به. وكأنني منشطرة إلى اثنتين، ألعب الغميضة مع

نفسي. يطارد النصف الأول النصف الآخر حول هذا البريد الكبير السمين. لدى ذاتي الأخرى الكلمات الصحيحة، لكن هذه الذات لا تستطيع لمسها». رفعت وجهها ونظرت إلى عينيّ: «هل تجد ما أقوله ذا معنى عندك؟»

قلت: «كل إنسان يشعر بهذا إلى حد ما. يحاول أن يعبر عن نفسه، وحين يجرب لا يصل إلى الكلمة المناسبة».

بدت الخيبة على ناوكو من جوابي: «لا، ليس الأمر على هذا النحو». قالت دون توضيح إضافي.

قلت: «على أية حال، أنا مسرور لرؤيتك مرة أخرى. دائماً أنا متفرغ أيام الآحاد، والمشي جيد بالنسبة لي».

ركبنا خط يامانوتي، وعند تشنجوكو انتقلت ناوكو إلى خط تشو. كانت تعيش في شقة صغيرة في الضاحية الغربية من كوكوبونجي.

قالت لي ونحن نغادر: «أخبرني. هل تغير شيء في الطريقة التي كنت أتحدث بها؟»

قلت: «أعتقد ذلك، لكني لست متأكداً ما هو. وإذا شئت الحقيقة، فأنا أعرف فقد رأيتك كثيراً من قبل، لكني لا أتذكر أنني تحدثت معك كثيراً».

قالت: «هذا صحيح. على أية حال، هل أستطيع مكالمتك يوم السبت؟»

«بالتأكيد. أنتظر أن أسمع منك».

رأيت ناوكو للمرة الأولى حين كنت طالباً في الصف السادس في المدرسة الثانوية. كانت هي أيضاً في الصف السادس في مدرسة بنات ممتازة تديرها بعثة تبشيرية مسيحية. كانت المدرسة من التهذيب بحيث يعدّونك غير مهذب إذا ما درست كثيراً جداً. كانت ناوكو صديقة أفضل

أصدقائي (أو هو صديقي الوحيد) كيزوكي. كانت تربطهما علاقات حميمة منذ الولادة تقريباً. إذ لم يكن يفصل بين بيتيهما سوى عدة ياردات.

وكما يحصل مع اثنين ترافقا منذ الطفولة، كان هناك انفتاح غير مقصود في علاقة كيزوكي بناوكو، وإحساس ضئيل بأنهما يريدان الاختلاء بمفردهما. كان كل منهما يزور بيت الآخر دائماً، ويلعب المهجونغ مع عائلة الآخر. ولطالما كان لي موعد معهما الاثنين عدة مرات. تجلب ناوكو معها إحدى صديقاتها في المدرسة، فنذهب نحن الأربعة إلى حديقة الحيوانات أو المسبح أو السينما. الفتيات اللواتي تجلبهنّ كنّ دائماً جميلات، لكنهن غير مناسبات لذوقي. لذلك كنت أفضل اصطحاب فتيات أكثر قساوة نوعاً ما، من مدرستي الحكومية ممن يسهل التحدث معهن. لم أتوصل إلى معرفة ما كان يدور في رؤوس الفتيات الجميلات اللواتي كانت ناوكو تجلبهن، ولعلهن لم يفهمنني أيضاً.

بعد فترة من الزمن توقف كيزوكي عن محاولة ترتيب المواعيد لي. وبدلاً من ذلك صرنا نحن الثلاثة نقوم بالأشياء. كيزوكي وناوكو وأنا: أمر غريب، لكنه التجمع الأكثر راحة لنا. إضافة شخص رابع إلى المزيج، يضفي على الأشياء قليلاً من القبح. كنا مثل فريق برنامج حوار تلفزيوني، معي أنا الضيف، وكيزوكي المضيف الموهوب، وناوكو مساعدته. كان جيداً في احتلال ذلك الموقع المركزي. حقاً كان لديه جانب تهكمي يدفع الناس إلى الاعتقاد بأنه متغطرس، لكنه في الواقع كان متزناً وفي غاية العدالة العقلية. كان يوزع ملاحظاته ونكاته على ناوكو وعليّ بالعدل، حريصاً على أن لا يرى أياً منا شاعراً بالإهمال. إذا بقي أحدنا صامتاً لفترة طويلة، فإنه يدير دفة الحوار في الاتجاه الذي يتحدث به من بقي صامتاً. ولعله يبدو الآن من الصعب أكثر من السابق، القول إنه كان يعرف كيف يسيطر على الوضعية وينظمها ثانية فثانية على هذا الأساس. أضف إلى ذلك أنه كان يتمتع بموهبة فريدة في العثور على الأجزاء المهمة من

التعليقات العمومية التي يطلقها المرء، حتى أنك لتشعر حين تتحدث معه أنك شخص مهم على نحو استثنائي يعيش حياة مهمة استثنائية.

مع ذلك فإنه كان انطوائياً قليلاً. كنت صديقه الحقيقي الوحيد في المدرسة. ولم أستطع أبداً أن أفهم لماذا لم يفتح، هذا المتحدث الذكي اللبق، مواهبه على العالم الأوسع حوله، بل بقي مكتفياً بالتركيز على ثالوثنا الصغير. كما لم أستطع أن أفهم لماذا اختارني لكي أكون صديقه. كنت مجرد فتى عادي يحب قراءة الكتب ويصغي إلى الموسيقى ولم يبرز بأية طريقة من شأنها أن تسترعي انتباه شخص من طراز كيزوكي للاهتمام به. غير أننا جرينا على هذا المنوال. كان أبوه طبيب أسنان، معروفاً بمهارته في المهنة وبأجوره العالية.

سألني بعد أن التقينا مباشرة: «هل ترغب في موعد جماعي؟ ستذهب صديقتي إلى إحدى صديقاتها في المدرسة، وستجلب معها إحدى الفتيات الجميلات لك».

«بالتأكيد». قلت. وكانت هذه هي الطريقة التي التقيت فيها ناوكو.

قضينا نحن الثلاثة وقتاً طويلاً معاً. لكن ما إن كان كيزوكي يغادر الغرفة، حتى نشعر ناوكو وأنا بالحرج من الحديث لبعضنا. لم نعرف أبداً كيف ندير الحديث. والواقع أنه لم يكن بيننا موضوع مشترك نتحاور بشأنه. وبدلاً من الحديث، نشرب الماء، أو ننشغل بشيء على الطاولة، وننتظر حتى يعود كيزوكي لنبدأ الحوار من جديد. لم تكن ناوكو ثرثارة، وكنت أحسن الإصغاء أكثر من التكلّم، لذلك كنت أشعر بعدم الارتياح حين أنفرد معها. لم نكن متناقضين، بل لا نعرف عن ماذا نتحدث وحسب.

التقينا ناوكو وأنا مرة واحدة فقط بعد جنازة كيزوكي. بعد أسبوعين من الحادث، التقينا في مقهى للتداول بشأن قضية بسيطة، حين فرغنا منها، لم نعد نجد ما نقوله. حاولت طرح كثير من الموضوعات المختلفة، لكن أياً منها لم يفض إلى مكان محدد. وحين كانت ناوكو

تتحدث، كان صوتها منفعلاً. بدت غاضبة مني، غير أني لم أعرف السبب. ولم يحدث أن التقينا بعد ذلك حتى كان ذلك اليوم الذي التقينا فيه عند خط تشو في طوكيو بعد سنة.

لعل ناوكو كانت غاضبة مني لأنني، أنا لا هي، كنت آخر من رأى كيزوكي. قد لا تكون هذه الطريقة أفضل طريقة للتعبير عن الفكرة، لكنني إجمالاً فهمتُ ما شعرتْ به. لو كنت أعرف الغيب، لقايضتها مكاني، ولكن حدث ما حدث، ولم يعد بالوسع تغييره.

قضينا ظهيرة لطيفة في مايو. بعد الغداء اقترح كيزوكي أن نترك المدرسة، ونمضي للعب في المسبح أو أي شيء آخر. لم يكن لديّ اهتمام خاص بالدروس بعد الظهر، ولذلك تركنا المدرسة معاً وذهبنا أسفل التل إلى مسبح على الشاطئ، ولعبنا أربع جولات بلياردو. حين فزت بالجولة الأولى الافتتاحية، انتابته الجدية، ففاز بالثلاث التالية. وهذا يعني أن أدفع أنا بدلاً منه وفقاً للعادة الجارية بيننا.

لم تصدر أية نكتة عن كيزوكي ونحن نلعب. ولم يكن ذلك بالأمر العادي. سألته ونحن ندخن بعدها:

«لماذا أنت جاد بهذا الشكل؟»

«لم أشأ أن أخسر اليوم». قال كيزوكي بابتسامة رضا.

مات تلك الليلة في مرآبه. أوصل خرطوماً مطاطياً من أنبوبة العادم في سيارته إلى النافذة، وألصق على فتحات النافذة قطعة مطاط، وأدار المحرك. لم تكن لديّ فكرة كم استغرق موته. كان أبواه في الخارج لزيارة قريب مريض، وحين فتحا المرآب ليضعا فيه السيارة، وجداه ميتاً. كان الراديو ما يزال يشتغل، وإيصالُ محطة البنزين معلق تحت الماسحة الأمامية.

لم يترك كيزوكي ما يشير إلى سبب موته. ولم يتخيل أحد أن لديه دافعاً للانتحار. ولأنني كنت آخر من رآه، فقد استدعيت للاستجواب لدى

الشرطة. أخبرت ضابط التحقيق بأن كيزوكي لم يعط أية إشارة لما كان سيقوم به، كما هي عادته دائماً. ومن الواضح أن الشرطي كوّن انطباعاً بائساً عن كيزوكي وعني، وكأن ارتكاب الانتحار أمر طبيعي جداً لأشخاص من هذا النوع يتركون صفوفهم الدراسية ويذهبون للعب في المسبح. ثم أغلقت القضية بملاحظة صغيرة على الورق. تخلص والدا كيزوكي من سيارته الحمراء. ولفترة من الوقت، بقيت زهور بيضاء على طاولته المدرسية.

في الشهور العشرة الفاصلة بين موت كيزوكي وامتحاناتي، كنت عاجزاً عن العثور على مكان لي في الوسط الذي يحيط بي. بدأت مضاجعة إحدى الفتيات في المدرسة، لكن ذلك لم يطل سوى ستة أشهر. وفي الحقيقة لم يصدر منها أي خطأ. قدمت لجامعة خاصة في طوكيو، وهي مكان لامتحان تمهيدي لم يتطلب مني الكثير من الدراسة، وقد نجحت فيه بلا بهجة. طلبت مني الفتاة ألا أذهب لطوكيو: «إنها تبعد 500 ميل عن هنا!». ولكن كان يجب أن أبعد عن كوبي مهما يكن الثمن. أردت أن أبدأ حياة جديدة حيث لم أعرف أحداً من قبل.

قالت وهي تبكي: «لم تعد تعيرني التفاتة لعينة منذ أن ضاجعتني».

أصررت: «ليس هذا صحيحاً. أحتاج أن أبتعد عن هذه المدينة فقط». لكنها لم تكن مهيأة لفهمي. وهكذا افترقنا. مفكراً بجميع الأمور التي جعلت منها ألطف من بقية الفتيات الأخرى في المدرسة، جلست في قطار طوكيو السريع، شاعراً بالرعب مما فعلته، ولكن لا حيلة لي في تجنبه. سأحاول نسيانها.

شيء واحد كان يدور في خلدي حين بدأت حياتي الجديدة في المهجع: التوقف عن أخذ كل شيء بجدية، وترك مسافة كافية بيني وبين كل شيء آخر. إنسَ طاولات بلياردو المسبح الخضراء، وسيارة كيزوكي الحمراء، والزهور البيضاء على طاولته المدرسية. إنسَ الدخان المتصاعد من المحارق، ومثبتات الورق في غرف استجواب الشرطة. بدا ذلك مفيداً

في البداية. حاولت جاهداً أن أنسى ولكن بقيت تشدني إلى ذلك الجو رابطة غامضة. وبمرور الزمن اكتسبت هذه الرابطة صورة واضحة وبسيطة، صورة تمكنت من صياغتها بالكلمات بهذه الطريقة:

الموت موجود، لا بوصفه نقيضاً للحياة، بل بوصفه جزءاً منها.

إنها عبارة متواترة تترجم إلى كلمات، لكني في ذلك الوقت لم أعشها كمجرد كلمات، بل كرابطة تشدني إلى ذلك الجو في داخلي. الموت موجود في مثبتات الورق، في الكرات الأربع الحمر والبيض على طاولة البليارد، ونحن نواصل العيش فيه وتنفسه في رئاتنا مثل غبار نقي.

حتى ذلك الوقت، كنت أفهم الموت بوصفه شيئاً منفصلاً تماماً ومستقلاً عن الحياة. شعرت أن يد الموت محكومة بأخذنا، لكنها حتى يحين موعد وصولها لنا، تتركنا وحدنا بلا مساس. بدت لي هذه الفكرة حقيقة بسيطة ومنطقية. الحياة هنا، والموت هناك. وأنا هنا، ولست هناك.

غير أنني في الليلة التي مات فيها كيزوكي، فقدت القدرة على رؤية الموت (والحياة) بمثل هذا الوضوح البسيط. لم يكن الموت نقيض الحياة. كان دائماً هنا، في داخل وجودي، دائماً هنا، ولن يسمح لي أي صراع بأن أتناسى وجوده. وحين انتزع الموت كيزوكي ذا السبعة عشر عاماً تلك الليلة في مايو انتزعني معه أيضاً.

عشت طوال الربيع التالي، في الثامنة عشرة، مع تلك الرابطة في صدري، لكنني كافحت باستمرار حتى لا أكون جاداً. الجدية لا تعني مقاربة الحقيقة مهما كانت غامضة. لكن الموت كان واقعة حقيقية، جدية، مهما كانت نظرتك له. أخذ هذا التناقض بخناقي، وجعلني أضيع في دوائر لا تنتهي.

حين أنظر إلى تلك الأيام الآن، أجدها أياماً غريبة. ففي خضمّ الحياة، كان يدور كل شيء حول الموت.

(3)

كلّمتني ناوكو في السبت التالي، الأحد كان لنا موعد. أفترض أنني أستطيع أن أسميه موعداً. فلست بقادر على التفكير بكلمة أفضل.

كالسابق، تجولنا في الشوارع. توقفنا في مكان ما لتناول القهوة، وتمشينا مرة أخرى، وتناولنا العشاء في المساء، ثم ودعنا بعضنا. مرة أخرى، لم تتحدث إلا قليلاً، لكن ذلك لم يكن ليزعجها على ما يبدو، ولم أبذل جهداً خاصاً للإبقاء على استمرار المحادثة. تطرقنا إلى كل ما يخطر في البال، أعمالنا الروتينية اليومية، كلياتنا، وكان الحديث عن كل موضوع نُتَفاً صغيرة لا تفضي إلى شيء. لم نقل عن الماضي أي شيء على الإطلاق. بل بقينا في الأساس نمشي ونمشي ونمشي. ولحسن الحظ، فطوكيو مدينة من السعة بحيث لم نستطع تغطيتها كلها.

بقينا نواصل المشي بهذه الطريقة كل عطلة نهاية أسبوع تقريباً. دائماً هي تقودني، وأنا أتبعها. لدى ناوكو أنواع متعددة من مشابك الشعر، وكانت دائماً تلبسها بما يتناسب مع القرط. أتذكرها بمزيد من الوضوح على هذا الشكل من الخلف. كانت تلهو بمشبك شعرها حيثما تشعر بالارتباك من شيء ما. دائماً كانت تضرب بمنديلها على فمها. تفعل ذلك حين يكون لديها شيء ما لتقوله. كلما تمعنت في ملاحظة عاداتها هذه، ازددت محبة لها.

ذهبت ناوكو إلى كلية بنات عند الحافة الريفية الغربية لطوكيو، وهو مكان صغير لطيف مشهور بحسن تدريسه الإنكليزية. بالقرب من المكان

تمتد قناة ري ضيقة ذات مياه رائقة، صافية، تعودنا أنا وناوكو المشي على ضفتيها. أحياناً تدعوني إلى شقتها وتطهو الطعام لي. ولم يبدُ عليها أنها مهتمة أبداً لكوننا بذلك القرب الحميم. كانت الغرفة صغيرة وأنيقة، وتخلو من البهرجة، بحيث لا تجد ما يدل على أن فتاة تعيش فيها سوى الجوارب المعروضة لتجف في الزاوية القريبة من النافذة. كانت تعيش حياة بسيطة، رقيقة، بلا أصدقاء تقريباً. لم يتخيلها أحد ممن عرفتهم في المدرسة بهذا الشكل. ففي المدرسة، كانت تتمتع بذوق رفيع وتحيط نفسها بمليون صديق. حين رأيت غرفتها، أدركت أنها مثلي أرادت أن تذهب إلى الكلية لتبدأ حياة جديدة في منأى عن كل من عرفتهم سابقاً.

قالت بابتسامة: «هل تعرف لماذا اخترت هذا المكان؟ لأنه ما من أحد من البيت سيأتي إلى هنا. والمفترض أننا جميعاً سنذهب إلى مكان ما بأناقة أكبر. هل تفهم ما أعنيه؟»

لكن علاقتي بناوكو لم تخل من تطور. شيئاً فشيئاً بدأنا نتعود على بعضنا. وحين انتهت العطلة الصيفية وبدأ فصل دراسي جديد، بدأت ناوكو تمشي إلى جواري، كأن من أكثر الأشياء طبيعية أن تمشي إلى جواري. فاستخلصت من ذلك أنها صارت تنظر إليّ الآن كصديق، والمشي جنباً إلى جنب مع تلك الفتاة الجميلة لم يكن مؤلماً على الإطلاق بالنسبة لي. واصلنا المشي حول طوكيو بالطريقة المتعرجة نفسها، نتسلق التلال، ونعبر الأنهار وخطوط السكك، نمشي ونمشي دون وجهة محددة. نجري دائماً إلى الأمام، وكأن المشي عندنا كان طقساً دينياً يراد له أن يشفي أرواحنا الجريحة. إذا أمطرت استخدمنا المظلات، لكننا كنا نصرّ على المشي على أية حال.

ثم جاء الخريف، وتدثرت أرض المهجع بأوراق شجرة الزلكوفا العملاقة. وصلت نكهة موسم جديد حين ارتديت كنزتي الصوفية الأولى. وإذ أبليت زوجاً من الأحذية، فقد اشتريت زوجاً جديداً من الجلد. لا يبدو أنني أستطيع تذكر ما كنا نتحدث عنه حينئذٍ. وأتوقع أننا لم نتحدث

عن شيء مميز. واصلنا تجنب أي ذكر للماضي، ونادراً ما تكلمنا عن كيزوكي. كنا نواجه بعضنا بعضاً فوق قدحي القهوة بصمت تام. كان يعجب ناوكو أن تسمعني أروي القصص عن «جندي العاصفة». ذات مرة كان لديه موعد مع طالبة زميلة (فتاة في قسم الجغرافية بالطبع) لكنه عاد في أول المساء والكآبة بادية عليه. «أخبِرْني وَ-وَ-واتانابي، عن ماذا تتحدث مع الفَ-فَ-فتيات؟» لا أتذكر كيف رددت عليه، لكنه اختار الشخص الخطأ ليسأله. في يوليو أخذ شخص ما من المهجع مشهد جندي العاصفة على قناة أمستردام وصوره بدلاً من ذلك عند جسر البوابة الذهبية. أخبرني أنه أراد أن يعرف ما إذا كان جندي العاصفة سيستمني عند جسر البوابة الذهبية. «لقد كان يحبها» قلت فيما بعد، وذلك ما دفع أحدهم إلى وضع صورة لقلعة جليدية. كل مرة تتغير الصورة بغيابه، يزداد جندي العاصفة ضيقاً.

تساءل: «من-من-من بحق الجحيم يفعل ذلك؟»

قلت: «أنا أتساءل أيضاً. ولكن ما الفرق؟ إنها جميعاً صور جميلة. يجب أن تشعر بالامتنان».

«نعم، من المف-مف-مفترض، لكنها تثير القلق».

قصصي عن جندي العاصفة تجعل ناوكو تضحك دائماً. لم تنجح أشياء كثيرة في جعلها تضحك، ولذلك غالباً ما كنت أتحدث عنه، برغم أنني لا أشعر بالفخر تماماً لاستعماله بهذه الطريقة. فقط حدث أن كان الابن الأصغر في عائلة ليست بالغة الثراء فنشأ على شيء من الجدية من أجل مصلحته الخاصة. كان رسم الخرائط هو حلمه الصغير في حياته الصغيرة. فمن يمتلك الحق في السخرية منه بسبب هذا؟

غير أن النكات عن جندي العاصفة أصبحت حينئذ مصدراً لا غنى عنه للأحاديث في المهجع، ولم تكن أمامي طريقة للإقلاع عما بدأته. بالإضافة إلى أن رؤية وجه ناوكو مبتسمة صار مصدراً خاصاً لمتعتي. فمضيت في تزويد الجميع بقصص جديدة عنه.

سألتني ناوكو ذات مرة، مرة واحدة فقط، ما إذا كان لديّ فتاة أحببتها. أخبرتها عن الفتاة التي تركتها ورائي في كوبي. قلت: «كانت جميلة. تمتعت بمضاجعتها، وإني لأفتقدها كل حين، لكنها أخيراً لم تحرك فيّ ساكناً. لا أعرف، أحياناً أفكر أن في قلبي نواة قاسية، لا يدخلها شيء على الإطلاق. وإنني لأشك في قدرتي على حب أي إنسان».

سألت ناوكو: «هل جربت الحب من قبل؟»

قلت: «أبداً».

لم تسألني أكثر من ذلك.

حين انتهى الخريف وبدأت الريح الباردة تجتاح المدينة، غالباً ما كانت ناوكو تمشي منكمشة تحت ذراعي. أستطيع أن أحس بأنفاسها من خلال الغلاف السميك لمعطفها الصوفي. قد تشبك ذراعها بذراعي، أو تدس يدها في جيبي، أو حين يشتدّ البرد، تتعلق بذراعي بقوة، وهي ترتجف. وليس في أي من هذه الأشياء معنى خاص. فقط بقيت أمشي ويداي مدسوستان في جيوبي. ما كانت أحذيتنا لتحدث أي صوت على بلاط القرميد، إلا حين نخطو فوق أوراق الجميز المتناثرة الجافة. كنت أعبّر عن أسفي لناوكو حينما أسمع ذلك الصوت. لم تكن ذراعي ما تحتاج إليه، بل ذراع شخص آخر سواي. لم يكن دفئي ما تحتاج إليه، بل دفء شخص آخر سواي. كنت تقريباً أشعر بالذنب لكوني إياي.

حين بلغ الشتاء ذروته، بدا أن الوضوح الشفاف في عيني ناوكو قد ازداد. كان وضوحاً ليس له من مكان آخر ليبارحها. أحياناً تثبّت ناوكو عينيها على عيني دون سبب واضح. كان يبدو أنها تبحث عن شيء ما، وهذا ما يعطيني شعوراً بالغربة والوحدة والخذلان نوعاً ما.

كنت أتساءل لعلها تريد نقل شيء ما، شيء ما لا تستطيع التعبير عنه بالكلمات، شيء ما يسبق الكلمات، فلا تستطيع الإمساك به في داخلها،

ولذلك تبدو عاجزة عن تحويله إلى كلمات. فتلجأ إلى العبث بمشبكها، أو النقر على فمها بمنديلها، أو النظر في عينيّ بتلك الطريقة الخالية من المعنى. أردتها أن لا تقوم بهذه الأمور حين يخالجها ذلك الانفعال، لكني ترددت وتراجعت عن الفكرة. كنت أخاف أن أجرحها. وهكذا بقينا نحن الاثنين نتسكع في شوارع طوكيو، وناوكو تبحث عن الكلمات في المكان.

كان الشباب في المهجع يضايقونني حين أتلقى اتصالاً من ناوكو أو أخرج في أمسية أحد معها. يفترضون واثقين بالطبع أنني وجدت صديقة. لم يكن هناك من سبيل لتفسير الحقيقة لهم، ولا حاجة لتفسيرها، ولذلك تركتهم يفكرون كما يشاءون. كان عليّ أن أواجه وابلاً من الأسئلة السخيفة في المساء: ما الوضعية التي اتخذناها؟ كيف كانت تبدو هناك؟ ما لون ملابسها الداخلية التي لبستها ذلك اليوم؟. أعطيتهم الأجوبة التي أرادوها.

هكذا عبرت من الثامنة عشرة إلى التاسعة عشرة. كل يوم تشرق فيه الشمس وتغرب، يرتفع فيه العلم وينزل. كل يوم أحد لي موعد مع صديقتي الميتة. لم تكن لديّ فكرة عما كنت أقوم به أو ما يفترض أن أقوم به. فيما يتعلق بالدراسة، قرأت كلوديل وراسين وإيزنشتاين، لكنهم لم يعنوا لي أي شيء. لم أكوّن صداقات مع الطلبة الذين يحضرون الدروس، وأكاد أقول لم أعرف أحداً في المهجع. ظن الآخرون في المهجع أنني أردت أن أكون كاتباً لأنني كنت دائماً أتفرد مع كتاب، غير أني لم يساورني مثل هذا الطموح. فما كنت لأرغب بشيء أبداً.

حاولت أن أتحدث عن هذا الشعور مع ناوكو. وقد فكرت أنها على الأقل ستتمكن من فهم ما أشعر به بدرجة معينة من الدقة. لكني لم أستطع العثور على الكلمات المناسبة للتعبير عن نفسي. والغريب أن مرض البحث عن الكلمات المناسبة عندها قد انتقل إليّ بالعدوى على ما يبدو.

في ليالي السبت، أجلس قرب التلفون في غرفة الاستقبال منتظراً

مكالمة ناوكو. كان أغلب الآخرين في الخارج، ولذلك كانت غرفة الاستقبال مهجورةً في العادة. أحدّق في خيوط الضوء المعلق في الفضاء الصامت، مكافحاً من أجل رؤية ما في قلبي. ماذا كنت أريد؟ وماذا أراد الآخرون مني؟ لكني لم أجد الأجوبة أبداً. أحياناً أكون على شفا الوصول وأحاول الإمساك بخيوط الضوء، لكن أصابعي لا تلامس شيئاً.

كنت أقرأ كثيراً، لكن ليس الكثير من الكتب المختلفة: أحب معاودة قراءة كتبي المفضلة مراراً. وهكذا عدت إلى قراءة ترومان كابوتي، وجون أبدايك، وسكوت فتزجيرالد، وريمون تشاندلر، لكني لم أر أحداً في المحاضرات أو المهجع يقرأ واحداً من هؤلاء الكتّاب. كانوا يحبون قراءة كازومي كاتاشاهي، كينزابورو أوي، يوكيو ميشيما، أو الروائيين الفرنسيين المعاصرين، وكان هذا سبباً آخر في أنني لا أدخر شيئاً مهماً أقوله لأي شخص، بل أحتفظ به لنفسي ولكتبي. بعينين مغمضتين، ألمس كتاباً مألوفاً وأستنشق عطره عميقاً في داخلي. وكان هذا كافياً لمنحي السعادة.

حين كنت في الثامنة عشرة كان كتابي المفضل هو «القنطور» لجون أبدايك، لكني بعد أن قرأته مراراً، بدأ يفقد رونقه الأوّل، ويعطي المرتبة الأولى لـ«غاتسبي العظيم». بقي غاتسبي في المرتبة الأولى مدة من الزمان، بعد ذلك سحبته من الرف حين داهمني المزاج العكر وقرأت مقتطفاً كيفما اتفق. لم يخيبني مرة أبداً. فليس في الكتاب كله صفحة واحدة مملة. أردت أن أقول للناس أية رواية مذهلة تكمن في هذا الكتاب، ولكن لم يقرأ «غاتسبي العظيم» أحد من الناس المحيطين بي. ولم يكن بمستطاع أحد أن يحث الناس على قراءة سكوت فتزجيرالد في عام 1968.

وأخيراً حين قابلت الشخص الوحيد في عالمي الذي قرأ «غاتسبي» صرنا أنا وهو أصدقاء بسببه. كان اسمه ناغاساوا، وكان أكبر مني بسنتين، ولأنه كان يدرس القانون في جامعة طوكيو المهيبة، فقد كان يسلك الطريق

السريع للزعامة القومية. كنا نسكن في المهجع نفسه، ونعرف بعضنا عن طريق النظر وحسب، حتى حدث ذات يوم أنني كنت أقرأ «غاتسبي» في بقعة يغمرها ضوء الشمس من غرفة الطعام. جلس إلى جواري وسألني ماذا أقرأ. حين أخبرته، سألني هل تمتعني قراءته. قلت: «هذه هي القراءة الثالثة لي، وفي كل مرة أجد شيئاً جديداً وأحبّه أكثر من المرة السابقة..». قال وكأنه يخاطب نفسه: «هذا الرجل يقول إنه قرأ غاتسبي ثلاث مرات. حسناً، صديق غاتسبي صديقي».

وهكذا أصبحنا صديقين. حدث ذلك في أكتوبر.

كلما تعمقت معرفتي بناغاساوا، بدا لي أكثر غرابة. لقد رأيت كثيرين من ذوي الحظ العاثر في زمني، لكن أياً منهم لم يكن غريباً غرابة ناغاساوا. كان قارئاً أكثر نهماً مني بكثير، لكنه اتخذ له قاعدة في أن لا يمسّ كتاباً لأي مؤلف لم يمت قبل ثلاثين سنة. قال: «ذلك هو النوع الوحيد من الكتب الذي أستطيع أن أثق به».

وأضاف: «هذا لا يعني أنني لا أؤمن بالأدب الحديث، لكني لا أريد تضييع الوقت الثمين بقراءة كتاب لم يعمّده الزمن. الحياة قصيرة جداً».

سألته وأنا أتكلم بنبرات محترمة جداً مع هذا الرجل الذي يتقدمني بسنتين:

«أي نوع من المؤلفين تحب أن تقرأ؟»

أجاب بدون تردد: «بلزاك، دانتي، جوزيف كونراد، ديكنز».

«ليسوا وفق الموضة تماماً».

«لهذا السبب أقرأهم. إذا كنت تقرأ الكتب التي يقرأها كل شخص سواك فقط، فلن تستطيع التفكير إلا بالطريقة التي يفكر بها كل شخص سواك. وهذا يعني عالم الريفيين والسذج. الناس الحقيقيون يشعرون بالعار لأنهم يفعلون ذلك. ألم تر لهذه النقطة يا واتانابي؟ أنت وأنا فقط أشخاص حقيقيون في هذا المهجع. أما الآخرون فحثالة».

جردني هذا القول من سلاحي: «كيف يمكنك أن تقول ذلك؟»

«لأنه صحيح. أعرف. أستطيع فهمه. سيمانا على وجوهنا. زد على ذلك، أننا الاثنين قرأنا غاتسبي العظيم».

أجريت عملية حسابية سريعة، قلت: «مات غاتسبي قبل ثمان وعشرين سنة».

«ثم ماذا؟ سنتان؟ فتزجيرالد متقدم على عصره».

لم يعرف أحد سواي في المهجع أن ناغاساوا كان قارئاً سرياً للروايات الكلاسيكية، ولعلهم ما كانوا ليعبأوا بذلك. كان ناغاساوا معروفاً بكونه ذكياً. انطلق كالسهم إلى جامعة طوكيو، وحاز على درجات عالية، وقد يحصل على امتحان الخدمة المدنية، فيلتحق بوزارة الخارجية، ليصبح دبلوماسياً. جاء من عائلة ثرية. يمتلك أبوه مستشفى كبيراً في ناغويا، وقد تخرج أخوه أيضاً من طوكيو، والتحق بكليّة الطب، وسيرث ذات يوم المستشفى. لدى ناغاساوا دائماً وفرة من النقود في جيبه، وهو يتعامل بكرم حقيقي. كان الناس يعاملونه باحترام، حتى مدير المهجع. حين يطلب من أحد القيام بشيء، يقوم به بلا احتجاج. لم يكن من خيار في هذه القضية.

لدى ناغاساوا خاصية فطرية معينة تجتذب الناس له وتجعلهم يتبعونه. كان يعرف كيف يقف على رأس الفريق، وكيف يقيّم الموقف، وكيف يصدر التعليمات الدقيقة واللبقة التي تجعل الآخرين يطيعونه. يتحلق فوق رأسه وهج أشبه بهالة الملائكة، مجرد مرآه يوحي للناس بالرهبة من هذا التفوق. ولهذا السبب صدم الجميع بكون ناغاساوا قد اختارني لصداقته، اختار شخصاً ليس لديه خصال تميّزه، ليكون صديقه الأثير. ما كنت لأعرف أن الناس يعاملونني ببعض الاحترام من أجل ذلك، لكن يبدو أن السبب في اختياره إياي كان بسيطاً للغاية، ألا وهو أنني عاملت ناغاساوا بطريقة تخلو من التملق الذي يحيطه به الناس الآخرون. لقد كان لديّ اهتمام بالجوانب الغريبة والمعقدة من طبيعته،

لكن هذه الأمور لم تثرني، ما أثارني هو درجاته العالية، والوهج الذي يسطع منه، ونظراته. ولا بدّ أن هذا كان شيئاً جديداً عليه.

كانت هناك جوانب في شخصية ناغاساوا تتناقض غاية التناقض. فإذا كنت أتأثر في بعض الأحيان بلطفه وعطفه، فإنه لا يقل عن ذلك مكراً وقساوة في أحيان أخرى. كان ذا نفس متعالية بشمم وروح ترزح في حضيض لا شفاء منه. يستطيع أن يمضي قدماً، قائداً متفائلاً، حين يتلوى قلبه في مستنقع الوحدة. وقد تبينت هذه الخصال المتناقضة لديه منذ البداية، ولم أستطع أبداً أن أفهم لماذا لم تتضح لعداي. كان يعيش في جحيمه الخاص به.

بقي أنني قررت دائماً أن أصوره في أفضل صورة ممكنة. كانت نزاهته هي فضيلته الكبرى. إذ لم يكن يتعفف عن الكذب وحسب، بل كان دائماً يعترف بتقصيره. لم يحاول أبداً إخفاء الأشياء التي تتسبب في إرباكه. وبقدر ما يعنيني الأمر، كان دائماً لطيف المعشر، يمد يد المدد والتعاون. ولو لم يكن موجوداً، لكانت حياتي في المهجع أقل حبوراً مما كانت عليه. على أنني لم أفتح له قلبي ولو مرة واحدة، وبهذا المعنى كانت علاقتي بناغاساوا تقف في تناقض شديد معي ومع كيزوكي. منذ أن رأيته سكران يعذب فتاة للمرة الأولى، واعدت نفسي بأنني لن أفتح له نفسي أبداً، مهما كانت الظروف.

كانت هناك عدة «أساطير» تدور حول ناغاساوا في أرجاء المهجع. وفقاً لإحداها، أنه أكل ذات مرة ثلاث يرقانات. وتهبه أسطورة أخرى قضيباً عملاقاً وتزعم أنه نام مع أكثر من مئة فتاة.

كانت قصة اليرقانات حقيقية. لقد أخبرني بها بنفسه. قال: «ثلاث أمهات كبار، ابتلعتهنّ كاملات».

«لمَ بحق الجحيم؟»

قال: «حسناً، حدث ذلك في السنة الأولى التي جئت بها إلى هنا. اندلع شجار خرائي بين طلاب السنة الأولى والسنة الثالثة. بدأ في أبريل

ووصل ذروته في سبتمبر. كممثل عن طلاب السنة الأولى، ذهبت لتسوية الأمر مع طلاب السنة الثالثة. أطياز الجناح اليميني الحقيقيين. كانوا يحملون في أيديهم أسياف الكندو الخشبية، وواضح أن آخر ما كانوا يفكرون به هو التوصل إلى تسوية. لذلك قلت لهم: «دعونا نضع حداً لهذا الأمر. افعلوا بي ما شئتم، ولكن اتركوا الشباب الآخرين وشأنهم»، فقالوا: «حسناً دعنا نرى هل تستطيع ابتلاع زوج من اليرقانات». قلت: «لا بأس، هاتوها». ذهب أبناء الحرام وجلبوا ثلاث يرقانات ضخمة، فابتلعتها».

«كيف كان طعمها؟»

«كيف كان طعمها؟ عليك أن تجرب ابتلاعها بنفسك. الكيفية التي تنزلق بها تحت حنجرتك إلى معدتك... إنها باردة، وتترك طعماً مقرفاً.. عاع.. تعتريني القشعريرة لمجرد التفكير بها. أردت أن أتقيأها لكني قاومت. أعني لو أنني تقيأتها لكان عليّ ابتلاعها كلها مرة أخرى. الثلاث معاً».

«وماذا حدث بعدئذ؟»

«ذهبت إلى غرفتي، وكرعت قنينة مياه مالحة. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟»

«نعم، أتخيل ذلك».

«لكن بعد ذلك، لم يجرؤ أحد على قول شيء لي. حتى ولا طلاب السنة الثالثة. فأنا الطالب الوحيد في هذا المكان الذي يستطيع ابتلاع ثلاث يرقانات».

«أراهن أنك تستطيع».

التأكد من حجم قضيبه كان بالغ السهولة. فقد ذهبت للاستحمام معه في حمام المهجع المشترك. لديه قضيب كبير فعلاً. لكن مئة فتاة قضية مبالغ فيها ربما. قال: «ربما خمس وسبعون. لا أتذكرهنّ كلهنّ، لكني

متأكد هنّ في الأقل سبعون». وحين أخبرته أنني نمت مع واحدة فقط، قال: «آه.. نستطيع ترتيب الأمر، سهل. تعال معي في المرة القادمة. سأمكنك من واحدة بمنتهى السهولة».

لم أصدقه، لكن ظهر أنه مصيب. كان الأمر سهلاً. تقريباً لا أسهل منه مع إثارة البيرة الصرف. ذهبنا إلى بار من نوع البارات في شيبويا أو شنجوكو (لديه باراته المفضلة)، ووجدنا زوجاً من الفتيات (كان العالم مليئاً بأزواج الفتيات)، تحدثنا معهما، شربنا، وذهبنا للفندق، ومارسنا معهما الجنس. كان متحدثاً بارعاً. لم يكن لديه شيء عظيم يقوله، لكن الفتيات يصغين إليه باهتمام، يشربن الكثير، فينتهي الأمر بالنوم معه. أتصور أنهن كن يتمتعن لكونهن مع شخص بهذه اللطافة والأناقة والذكاء. والأمر الغريب معي أنني، لمجرد أنني اصطحبته، فقد أصبحت مغرياً لهنّ مثله على ما يبدو. استحثني ناغاساوا على الكلام، واستجابت الفتيات لي بابتسامات الإعجاب نفسها التي كنّ يمنحنه إياها. كان يمارس سحره، وهو موهبة حقيقية يكتنزها تثيرني كل مرة. مقارنة بناغاساوا، كانت مواهب كيزوكي التحادثية مجرد لعبة طفل. كان ذلك مستوى مختلفاً تماماً من الإنجاز.

على أنني مهما وجدت نفسي واقعاً في حبائل سحر ناغاساوا، فإني ما زلت أفتقد كيزوكي. شعرت بإعجاب جديد لإخلاصه. مهما كانت المواهب التي يمتلكها فهو يريد أن يتقاسمها مع ناوكو ومعي وحدنا، في حين أن ناغاساوا كان ميالاً إلى تبذير مواهبه البينة على كل من حوله. ما كان ليحتضر من أجل أن ينام مع الفتيات اللواتي يجدهن: كان الأمر عنده لعبة لا أكثر.

لم أكن مهووساً بمضاجعة الفتيات اللواتي لم أعرفهن. بالطبع كانت طريقة سهلة لتبديد نوازعي الجنسية، وكنت أتمتع بالضم واللمس، لكنني كنت أكره الصباح التالي. أصحو صباحاً لأجد هذه الفتاة الغريبة تنام إلى جواري، والغرفة تعجّ برائحة الكحول، والسرير والإضاءة والستائر تحمل

بهرجة «فنادق الحب» الرخيصة، ورأسي ينوء بضباب الصداع. ثم تصحو الفتاة وتبدأ بتلمس طريقها بحثاً عن سروالها، وبينما هي تلبس جواربها، ستقول شيئاً مثل: «أرجو أن تكون قد استعملت واقياً الليلة الفائتة. إنه أسوأ يوم في هذا الشهر بالنسبة لي». ثم تجلس أمام المرآة وتبدأ بالتذمر من رأسها المصدوع أو مكياجها الذي لا يستجيب، بينما هي تعيد صبغ شفتيها بالحمرة، أو تثبت جفنيها الزائفين. أتمنى لو لم أقض الليلة بكاملها معهن، لكنك لا تستطيع أن تكترث بنواقيس التحريم في منتصف الليل وأنت تحاول إغراء امرأة (فذلك يجري ضد قوانين الطبيعة)، وهكذا أمضي لقضاء الليل. وهذا يعني تأجيل الأمر حتى الصباح، حيث أعود للمهجع، طافحاً بازدراء ذاتي، وبخيبة الأمل، حتى يطلع الصباح، وتطعنني الشمس في عيني، وفمي مشمع بالرمل، ورأسي ينتمي لشخص آخر سواي.

بعد أن نمت مع ثلاث أو أربع فتيات بهذه الطريقة، سألت ناغاساوا: «بعد أن قمت بذلك سبعين مرة، ألا يبدو لك الأمر خالياً من المعنى؟»

قال: «هذا يثبت أنك إنسان محترم. تهانينا. بالتأكيد لا يمكن اكتساب شيء على الإطلاق من مضاجعة امرأة غريبة بعد أخرى. الأمر فقط يتعبك ويجعلك تشمئز من نفسك. الأمران سيان عندي».

«إذن لماذا بحق الجحيم تستمر فيه؟»

«من الصعب الإجابة. أنت تعرف ما كتبه دوستويفسكي عن المقامرة. هي شبيهة بهذا. حين تكون محوطاً بإمكانيات لا نهاية لها، فإن من أصعب الأشياء عليك أن تجعلها تفلت من يديك. هل ترى ما أعني؟»

«نوعاً ما».

«انظر. تغيب الشمس. تخرج الفتيات وتشرب. يتجولن بحثاً عن شيء ما. وأنا أستطيع أن أمنحهنّ شيئاً ما. إنه أبسط شيء في العالم مثل شرب الماء من الحنفية. قبل أن تعرفه، يجب أن تدعهن ينزلن. هذا ما يتوقعنه. وهذا ما أعنيه بالإمكانية. إنها كل ما حولك. كيف تستطيع

تجاهلها؟ لديك القدرة والفرصة لاستخدامها: هل تستطيع أن تطبق فمك وتدعها تفلت؟»

قلت بابتسامة: «لا أعرف، فلم أمرّ بهذا الموقف من قبل. ولا أستطيع تخيله».

قال ناغاساوا: «تلك نعمة كبيرة».

تعلُّق ناغاساوا بالنساء هو السبب في أنه يعيش في مهجع بالرغم من خلفيته المرفهة. لخشية أبيه من أن يقتصر اهتمامه على النساء، إذا ما سمح له بأن يعيش وحده في طوكيو. أجبره على أن يعيش في المهجع طوال السنوات الأربع في الجامعة. غير أن الأمر لم يهم ناغاساوا كثيراً. فهو لن يسمح لبضع قواعد متبعة أن تزعجه. وحينما ينتابه الشعور بالإزعاج، كان يطلب رخصة لقضاء الليل في الخارج، ويذهب لاصطياد الفتيات أو يقضي الليلة في شقة صديقته. ولم تكن هذه الرخصة أمراً يسهل الحصول عليه، لكنها بالنسبة له كانت مثل الضربات الحرة، ولي أيضاً ما دام هو مقدم الطلب.

كان لدى ناغاساوا صديقة دائمة، تخرج معه منذ أن كان في السنة الأولى. كان اسمها هاتسومي. وهي بنفس عمر ناغاساوا. قابلتها عدة مرات، ووجدتها لطيفة جداً. لم يكن لها ذلك النوع من النظرات الذي يجذب الاهتمام مباشرة، بل في الحقيقة كانت عادية جداً بحيث تساءلت حين قابلتها للمرة الأولى لماذا لم يصادق ناغاساوا واحدة أفضل منها، غير أن من يتحدث معها سرعان ما تعجبه. هادئة، ذكية، مرحة، حساسة، تلبس دائماً ملابس تدل على ذوق محتشم. أعجبتني كثيراً، وعرفتُ أنني لو حظيت بصديقة مثل هاتسومي، لما قضيت الليل مع هاتيك الفتيات الرخيصات. وهي أيضاً أعجبت بي، وحاولت أن توثق علاقتي بطالبة في السنة الأولى، في النادي الذي تنتمي إليه، حتى نجتمع في مواعيد مزدوجة جديدة، لكنني اعتذرت تحاشياً لتكرار أخطاء الماضي. ذهبت هاتسومي لكلية فتيات القمة المطلقة في البلاد، ولم يكن

أمامي متسع للذهاب والتحدث إلى واحدة من هاتيك الأميرات الفائقات الثراء.

كانت لدى هاتسومي فكرة جيدة عن أن ناغاساوا ينام مع فتيات غيرها، لكنها لم تصدر عنها أية شكوى له. كانت تحبه حباً جماً، لكنها لم تطلب منه طلباً قط.

«لا أستحق فتاة مثل هاتسومي». قال لي ناغاساوا ذات مرة، وكان عليّ أن أوافقه.

في ذلك الشتاء عثرت على عمل بالساعة لدى محل تسجيلات صغير في شنجوكو. لم يدفعوا لي كثيراً، لكن العمل كان سهلاً، مجرد مراقبة المكان ثلاث ليالٍ في الأسبوع، وكانوا يسمحون لي بشراء التسجيلات بسعر مخفض. اشتريت لناوكو كهدية لعيد الميلاد ألبوم هنري مانسيني. غلّفته بنفسي وأضفت له شريطا أحمر لماعاً. وأعطتني زوجاً من القفازات حاكتها بنفسها. كانت قصيرة قليلاً عند الإبهام، لكن من شأنها أن تقي يدي من البرد.

قالت وقد احمرّ وجهها: «آسفة. أي عمل رديء!».

قلت وأنا أرفع يدي في القفازات لها: «لا تقلقي، إنهما مناسبتان تماماً».

«حسناً، على الأقل لن تحتاج إلى دس يديك في جيوبك، كما أظن».

لم تذهب ناوكو إلى بيتها في كوبي لقضاء العطلة الشتوية. وبقيت أنا في طوكيو أيضاً، أعمل في محل التسجيلات حتى نهاية السنة. لم تكن لدي أية متعة خاصة يمكن القيام بها في كوبي أو أي مكان آخر أردت رؤيته. كانت غرفة الطعام مغلقة في العطلة؛ لذلك كنت أمضي إلى شقة ناوكو لتناول الوجبات. وفي أمسية السنة الجديدة، تناولنا كعكات الرز والمرق كسائر الناس.

حدثت أشياء كثيرة في أواخر يناير وفبراير من تلك السنة، 1969.

في نهاية يناير سقط جندي العاصفة في الفراش ضحية حمى شديدة. مما عنى أن لا أذهب لناوكو ذلك النهار. لقد عانيت كثيراً لتمسك يداي بتذاكر مجانية لحفلة موسيقية. وكانت هي على الخصوص متلهفة للذهاب، لأن الفرقة الموسيقية تؤدي واحدة من معزوفاتها المفضلة: سمفونية براهم الرابعة. ولكن مع تقلب جندي العاصفة في السرير على حافة ما بدا أشبه بعذاب الموت، لم أستطع مبارحته، ولم أستطع العثور على شخص من الغباء بحيث يحل محلي. اشتريت بعض الثلج واستخدمت طبقات متعددة من أكياس البلاستيك لوضعها فوق جبينه، ماسحاً الوجنتين المتعرقتين بمناشف باردة، آخذاً حرارته كل ساعة، بل إنني أبدل له حتى ملابسه. بقيت الحمى مرتفعة يوماً كاملاً، لكنه حين استيقظ في الصباح التالي قفز من السرير وبدأ بممارسة تمارينه وكأن شيئاً لم يكن. كانت حرارته طبيعية تماماً. وكان من الصعب التصديق أنه كائن بشري.

قال جندي العاصفة: «عجيب. لم أصب في حياتي بالحمى». بدا لي كما لو أنه يلومني.

أصابني هذا بالجنون، فأصررت وأنا أعرض له التذكرتين الضائعتين: «لكنك أصبت بالحمى».

قال: «شيء جيد أنهما مجانيتان». أردت أن أنتزع منه الراديو وأرميه من الشباك، لكنني ذهبت إلى السرير شاعراً بالصداع.

تساقط الثلج عدة مرات في فبراير.

قرابة نهاية الشهر اشتبكت في شجار غبي مع أحد طلاب السنة الثالثة في الطابق نفسه ولكمته. صُدِمَ رأسه بالجدار الكونكريتي، لكنه لم يصب بجرح خطير، وسوّى ناغاساوا الأشياء بدلاً مني. لكنني استُدعيت إلى مكتب رئيس المهجع وأُعطيت إنذاراً. بدأت أشعر بعده بعدم الارتياح للعيش في هذا المهجع.

انتهت السنة الدراسية في مارس، لكنني حصلت على بعض الدرجات الواطئة. تتراوح درجاتي بمعدل متوسط، أكثرها «ج» و«د» مع قليل بدرجة «ب». وحصلت ناوكو على جميع الدرجات التي تحتاج إليها لبدء الفصل الدراسي في الربيع من سنتها الثانية. فقد أكملنا دورة فصول كاملة.

في منتصف أبريل، بلغت ناوكو العشرين. كانت أكبر مني بسبعة شهور، لأنني ولدت في نوفمبر. انتابني شعور غريب عندما بلغت العشرين. شعرت وكأن الشيء الوحيد الذي له معنى، سواء لناوكو أو لي، أن نظل نراوح بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. بعد الثامنة عشرة تأتي التاسعة عشرة، وبعد التاسعة عشرة، تأتي الثامنة عشرة.. لكنها بلغت العشرين. وفي الخريف، سأبلغ العشرين أيضاً. الموتى فقط يبقون في السابعة عشرة إلى الأبد.

أمطرت في يوم ميلادها. بعد المحاضرات، اشتريت كعكة من مكان قريب، وأخذت الترام إلى شقتها. قلت لها: «يجب أن نحتفل». ربما كنت سأختار الشيء نفسه لو كان موقفانا معكوسين. إذ لا بد أنه من الصعب قضاء يوم ميلادك العشرين وحيداً. كان الترام محشوراً بالناس، يتهادى بوحشية حتى أن الكعكة حين وصلت إلى شقة ناوكو، كانت تبدو وكأنها مدرج روماني. وما دمت قررت نصب عشرين شمعة، فقد جلبتها معي، وأشعلتها، وأسدلت الستائر، وأطفأت الأضواء، ليكتمل نصاب حفلة عيد الميلاد. شربنا، وأكلنا الكعك، وتمتعنا بعشاء بسيط. قالت: «لا أعرف، من الغباء أن تبلغ العشرين. لست متهيّئة. لدي شعور غريب. وكأن أحداً يدفعني إلى الخلف».

قلت ضاحكاً: «سأتهيأ، أمامي سبعة شهور».

قالت ناوكو بنبرة حسد: «ما أسعدك حظاً! ما زلت في التاسعة عشرة!».

حين كنا نأكل، حدثتها عن كنزة جندي العاصفة الجديدة. حتى ذلك

الحين، كانت لديه واحدة فقط، بلوفر بحري، ولذلك فالاثنتان نقلة كبيرة بالنسبة له. الكنزة جميلة جداً أصلاً، ذات لون أحمر وأسود وحيكت عليها صورة غزال، لكنها عليه مبعث ضحك. لم يتمكن من استيعاب ما يجري.

سألني وهو يجلس إلى جواري في غرفة الطعام: «ما المضحك واتانابي؟ هل التصق على جبيني شيء؟»

قلت محاولاً الاحتفاظ بنظراتي مستقيمة: «لا شيء. ما من شيء مضحك. كنزة جميلة».

قال مشرق القسمات: «شكراً».

أحبت ناوكو القصة، وقالت: «يجب أن أقابله. مرة واحدة».

قلت: «لا يمكن. ستضحكين في وجهه».

«هل تظن ذلك؟»

«أراهن على ذلك. أنا أراه كل يوم، وأحياناً لا أستطيع منع نفسي من الضحك».

نظفنا الطاولة وجلسنا على الأرض، نستمع إلى الموسيقى ونشرب ما تبقى من الخمر. شربت ناوكو كأسين في الوقت الذي لم أستطع إنهاء واحدة.

على غير عادتها كانت ناوكو ثرثارة تلك الليلة. حدثتني عن طفولتها ومدرستها وعائلتها. كل قصّة تستغرق وقتاً في روايتها، وتؤديها مع ما يناسبها من خلجات الألم على محياها. كنت مذهولاً بقوة ذاكرتها، ولكن حين جلست أصغي لها بدأ يساورني إحساس بأن ثمة خطأً في طريقة روايتها هذه القصص. شيء ما غريب، بل ملتوٍ. لكل حكاية منطقها الداخلي، لكن الرابطة بين حكاية وأخرى مفقودة. كانت الحكايات تتوالد: ما إن تعرف حكاية (أ) مثلاً حتى تصبح جزءاً من حكاية (ب)، التي كانت موجودة ضمناً في (أ)، ثم تأتي حكاية (ج) من حدثٍ ما في

حكاية (ب)، بلا نهاية تلوح في الأفق. في البداية وجدت ما أقوله استجابة لها، لكنني توقفت عن محاولة الرد بعد هنيهة. وضعت شريطاً في المسجل، وحين انتهى، أخرجته، ووضعت آخر. لم يكن لديها سوى ستة أشرطة. تساقط المطر وراء الشباك. وتحرك الزمن ببطء. واستمرت ناوكو بالحديث عن نفسها.

على حين غرة، تبين لي ما هو الخطأ: كانت ناوكو حريصة غاية الحرص وهي تتحدث على أن لا تمس بعض الأشياء. من هذه الأشياء بالطبع كان كيزوكي، لكن هناك أشياء أخرى سواه. وبرغم أنها كانت عازمة على تحاشي بعض الموضوعات، فقد استمرت بلا انتهاء بالإتيان على ذكر تفاصيل لا تصدق في الحديث عن أشياء تافهة عديمة القيمة. لم أسمعها تتحدث بتلك الكثافة من قبل، ولذلك لم أقاطعها.

لكن ما إن أعلنت الساعة الحادية عشرة حتى بدأت أشعر بالعصبية.

لقد استمرت تتحدث بلا توقف لمدة أربع ساعات. كان يجب أن أقلق بشأن القطار الأخير، وحظر التجول بعد منتصف الليل. رأيت فرصتي فقاطعتها.

قلت وأنا أنظر في ساعتي: «حان وقت انسحاب القوات إلى البيت. القطار الأخير يقترب».

بدا وكأن كلماتي لم تصلها. أو إذا وصلتها فهي لم تتمكن من فهم معناها. أطبقت فمها لثانية، ثم استمرت في قصتها. تخليت عن الفكرة، وغيرت وضعي إلى وضع أكثر راحة، وشربت ما تبقى من زجاجة الخمر الثانية. فكرت أن من الأفضل أن أدعها تسترسل. وعلى حظر التجول والقطار الأخير أن يهتما بنفسيهما.

على أنها لم تستمر طويلاً. إذ توقفت عن الحديث فجأة. بدا كما لو أن النهاية المثلومة لآخر كلمة نطقت بها تحلق في الهواء، حيث كان ينبغي أن تتناثر. والحقيقة أنها لم تُنْهِ ما بدأت قوله. لقد تبخرت كلماتها ببساطة. حاولت أن تستمر لكنها لم تتوصل إلى شيء. كان هناك شيء

يريد أن يحدث، ولكنني أنا من دمره. لقد وصلتها كلماتي أخيراً واستغرقت وقتاً لكي تفهمها، فأزالت تلك الكلمات الطاقة التي اختزنتها لتظل تتحدث طويلاً. انفرجت شفتاها قليلاً، وأدارت عينيها بنصف تركيز على عيني. بدت لي وكأنها آلة تظل تدمدم حتى يسحب أحدٌ سلكها الموصول بالكهرباء. ظهرت عيناها غائمتين، كما لو أنهما يغطيهما غشاء سميك شفاف.

قلت: «آسف على المقاطعة، لكن الوقت تأخر، و. . .».

تدحرجت دمعة كبيرة من عينها، وجرت على خدها حتى تناثرت على غطاء شريط التسجيل. وما إن انصبت تلك الدمعة حتى تبعها سيل لا ينقطع من الدموع. انحنت ناوكو إلى الأمام على أربع فوق الأرض، وهي تضغط براحتيها على البساط، وبدأت تنحب بقوة شخص يتقيأ. لم أر في حياتي أحداً يبكي بتلك الشدة. اقتربت منها ووضعت يداً على كتفها المرتجفة. ولاشعورياً أخذتها بين ذراعي. تبلل قميصي بدموعها وأنفاسها الحرى. وسرعان ما بدأت أناملها بالحركة على ظهري وكأنها تبحث عن شيء ما، شيء مهم أودعته هناك دائماً. أسندتُ ثقلها على ذراعي اليسرى، واستخدمتُ يدي اليمنى لتربيت شعرها المسترسل الناعم. وانتظرت. لكن بكاء ناكو لم يتوقف أبداً.

ضاجعتُ ناوكو تلك الليلة. هل كان ذلك شيئاً صحيحاً؟ لا أستطيع الجزم. وحتى الآن، بعد عشرين سنة، لست متأكداً تماماً. وأفترض أنني لن أعرف. لكنه في ذلك الوقت كان كل ما استطعت فعله. كانت في حالة قصوى من التوتر والارتباك، وأوضحت أنها أرادت مني أن أحررها من تلك الحالة. أطفأت الأضواء، وبدأتُ بنزع ملابسها، جزءاً فجزءاً، بأقصى ما لدي من رقة. ثم تعريت أنا. كانت ليلة نيسانية ممطرة، دافئة بما يكفي، ليتعلق كلانا بعري الآخر دون إحساس بالبرد. استكشف كل منا جسد الآخر في الظلمة بلا كلمات. قبّلتها وضممتها ضماتٍ ناعمة بين يدي. قبضت على انتصابي. كانت فتحتها دافئة ورطبة وتستحثني.

مع ذلك، حين نفذت في داخلها، توترت ناوكو متألمة. هل هذه تجربتها الأولى؟ سألتها، فهزت رأسها بالإيجاب. والآن جاء دوري للارتباك. لقد تصورت أن ناوكو كانت تضاجع كيزوكي دائماً. أوغلت إلى أبعد ما أستطيع وبقيت هكذا فترة طويلة، ممسكاً بناوكو، دون حركة. حينئذ، وقد ظهر أنها بدأت تسترد هدوءها، سمحت لنفسي بأن أتحرك في داخلها، محاولاً تأخير الوصول إلى الذروة وقتاً طويلاً، بحركات رقيقة، بطيئة. تصلب ذراعاها حولي في النهاية، حين قطعت صمتها أخيراً. وكانت الصرخة التي أطلقتها أكثر صوت نزغة مشوبة بالحزن سمعتها في حياتي.

حينٍ انتهى كل شيء سألتُ ناوكو لماذا لم تنم مع كيزوكي. كان ذلك خطأً. ما إن طرحت هذا السؤال حتى سحبت ذراعيها عني وبدأت بالنحيب الصامت مرة أخرى. سحبت فراشها، ونشرته على أرض البساط، ووضعتها بين الأغطية. راقبت أمطار أبريل التي لا تتوقف من وراء الشباك، وأنا أدخن.

توقف المطر حين أطل الصباح. كانت ناوكو نائمة وظهرها لي. أو ربما لم تنم على الإطلاق. وسواء قضت الليل نائمة أو يقظة، فقد غادرت الكلمات شفتيها، وبدا جسمها متيبساً، وكأنه تجمد. حاولت مراراً أن أتحدث معها، لكنها لم تجب أو تتحرك. حدقت طويلاً في كتفها العارية، لكني في النهاية فقدت الأمل في الحصول على استجابة منها، فقررت النهوض.

كانت الأرض لا تزال تكتسي بأغلفة الأشرطة، والزجاج، وقناني الخمر، والمنفضة التي استعملتها. نصف كعكة عيد الميلاد بقي على الطاولة. وكأن الزمن قد توقف عن الجريان. التقطت الأشياء عن الأرض، وشربت قنينتي ماء من المغسلة. على منضدة ناوكو يوجد قاموس ومذكرة عن تصريف الأفعال في الفرنسية. على الجدار مقابل المنضدة، يوجد تقويم معلق، تقويم بدون بيانات أو مصورات من أي

نوع، بل مجرد أرقام أيام الشهر. وليست هناك أية ملاحظات أو ذكريات مدونة إلى جوار التواريخ.

التقطتُ ملابسي وارتديتها. كان صدر القميص ما يزال مبللاً. علقت به رائحة ناوكو. على دفتر الملاحظات فوق المنضدة كتبت: «**أود أن أتحدث معك طويلاً حينما تهدئين. أرجو أن تتصلي بسرعة. عيد ميلاد سعيد**». ألقيت نظرة أخيرة على كتف ناوكو، وخطوت خارجاً، وبهدوء أغلقت الباب ورائي.

انقضى أسبوع ولم أتلقّ أية مكالمة. لم يكن في بيت ناوكو نظام لمكالمة الناس عبر التلفون، ولذلك أخذت القطار في صباح السبت إلى كوكوبونجي. لم تكن هناك، وقد أزيل اسمها من على الباب. النوافذ والمصاريع محكمة الإغلاق. أخبرني مدير المبنى أن ناوكو انتقلت قبل ثلاثة أيام. وليست لديه فكرة أين انتقلت.

عدت إلى المهجع وكتبت لناوكو رسالة مطولة عنونتها على بيتها في كوبي. حيثما ستكون سيبعثون لها برسالتي أخيراً.

قدمت لها نبذة صادقة عن مشاعري. قلت هناك الكثير ما زلت لا أفهمه، وبرغم أنني أبذل ما أستطيع لفهمه، فقد يأخذ مني زمناً. في المكان الذي أكون فيه ويتقضى الزمن، يكون من المستحيل عليّ أن أقول شيئاً، وهذا هو السبب في أني يستحيل أن أعطي موعداً أو طلباً، أو أن أدلي بكلمات دقيقة. لسبب وحيد، وهو أننا لا نعرف الكثير عن بعضنا. لكن لو أنها تعطيني الوقت الكافي، فسأهبه قصارى جهدي، وسيتعرف كلانا على الآخر بطريقة أفضل. على أية حال، طلبت منها أن أراها مرة أخرى وأن نخوض في حوار طويل. حين فقدت كيزوكي، فقدت الشخص الذي يمكنني أن أتحدث معه بإخلاص عن مشاعري، وأتخيل أن الشيء نفسه حصل مع ناوكو. كلانا بحاجة إلى الآخر أكثر بكثير مما يعرف كلانا. ودون شك فإن هذا هو السبب في أن علاقتنا قد أخذت هذا المنحى وانحرفت بمعنى من المعاني. وأضفت أخيراً: **ربما كان من**

الأفضل أن لا أفعل ما فعلت، مع ذلك أعتقد أنه أقصى ما كان بوسعي أن أفعله. فالدفء والقرب اللذان شعرت بهما نحوك في تلك اللحظة كانا شيئين لم أجرب طعمهما من قبل أبداً. أريد منك أن تردي على هذه الرسالة. مهما كان الجواب عليها فإنني بحاجة إليه.

لم يصل أي رد.

تداعى شيء ما في داخلي، ولم يحل محله شيء ليملأ هوته الفارغة. اعترت جسدي خفة غير سوية، صار فيها للأصوات صدى أجوف. ذهبت إلى المحاضرات بإخلاص أكثر من السابق. كانت المحاضرات مملة ولم أتحدث مع أي من الزملاء التلاميذ. ولكن لم يكن لدي شيء آخر أفعله. صرت أجلس وحدي في الصف الأول في قاعة المحاضرات، ولا أتحدث لأحد، وآكل وحدي. وتوقفت عن التدخين.

بدأ إضراب الطلاب في نهاية مايو. كانوا يتصايحون جميعاً: «جردوا الجامعة». فكرت: هيا اندفعوا لتجريدها من كل شيء. مزقوها. حطموها إرباً إرباً. لن أنبس بلعنة. سنتنفس الصعداء. أنا جاهز لكل شيء. سأساعد إذا استوجب الأمر. هيا اندفعوا وجردوها.

حين أُغلق المجمع وعُلّقت المحاضرات، بدأت العمل في شركة تسليم. أجلس مع السائق وأحمل اللوريات غير المحمّلة، وهذا النوع من الأعمال. كان عملاً أشق مما تصورت. في البداية، ما كنت أستطيع النهوض من الفراش في الصباح لفرط الألم. كانوا يدفعون لنا مبلغاً جيداً، وما دمت أبقي جسدي في حالة حراك، فإنني أستطيع أن أتناسى الفراغ الذي يداخله. كنت أعمل في اللوريات خمسة أيام في الأسبوع، وواصلت ثلاث ليالٍ في الأسبوع في وظيفتي في محل التسجيلات. الليالي التي تمر بلا عمل أقضيها مع الويسكي والكتب. جندي العاصفة لا يقرب الويسكي ولا يحتمل رائحته. لذلك حينما أتمدد في سريري لأشرب، فإنه يتشكى بأن رائحته تجعل من المستحيل عليه أن يدرس ويطلب مني تناول الزجاجة في الخارج.

هتفت به: «اخرج أنت بحق الجحيم».

«لكنك تعرف أن الشرب في المهجع مخالف للقوانين».

«لا أريد شجاراً. اخرج أنت».

توقف عن الشكوى، لكنني انزعجت. خرجت إلى السطح وشربت وحدي.

في يونيو كتبت رسالة أخرى مطولة لناوكو، على عنوان بيتها في كوبي. قلت فيها الأشياء نفسها كالأولى تماماً، لكنني في النهاية أضفت: «**انتظار جوابك واحد من أكثر الأشياء التي عشتها إيلاماً. على الأقل أخبريني ما إذا كنت قد سببت لك الألم أم لا**». حين أرسلتها، شعرت بأن الهوة في داخلي بدأت تتسع مرة أخرى.

في يونيو ذاك، ذهبت مع ناغاساوا مرتين أخريين لمضاجعة الفتيات. وكان الأمر سهلاً في كلتا المرتين. افتعلت الفتاة الأولى شجاراً قوياً حين حاولتُ تعريتها وسحبها إلى سرير الفندق، لكن حين بدأت القراءة وحدي لأنها لم تكن تستحق شجاراً، اقتربت مني وبدأت بمداعبتي. وبعد أن نمت مع الثانية، بدأت بطرح أسئلة شخصية عليّ من جميع الأنواع: كم فتاة نمت معها؟ من أين أنا؟ إلى أية جامعة ذهبت؟ أي نوع من الموسيقى أحب؟ هل سبق لي أن قرأت روايات أوسامو دازاي؟ إلى أين أذهب لو أتيح لي السفر إلى الخارج؟ هل أعتقد أن حلمتيها كبيرتان؟ أعطيتها بعض الإجابات وذهبت للنوم، لكنها في الصباح التالي قالت إنها تريد أن تتناول الفطور معي، وبقيت توجه لي وابل الأسئلة فوق صحن البيض الخالي من الطعم والخبز والقهوة. ما نوع العمل الذي يقوم به أبي؟ هل حصلت على درجات جيدة في المدرسة؟ في أي شهر ولدت؟ هل ذقت طعم الضفادع؟ سببت لي صداعاً، ولذلك ما إن أنهينا الطعام حتى قلت لها إنني يجب أن أذهب للعمل.

قالت بنظرة حزينة: «هل سأراك مرة أخرى؟»

قلت: «نعم، بالتأكيد، سنلتقي مرة أخرى قريباً في مكان ما».

وغادرت. ما الذي أفعله بحق الجحيم؟ بدأت بالتساؤل حالما انفردت بنفسي، شاعراً بالازدراء لذاتي. مع ذلك فهذا كل ما أستطيعه. كان جسدي يتضور جوعاً لامرأة. في كل مرة أنام فيها مع إحدى تلك الفتيات أفكر بناوكو: بياض جسدها العاري في الظلمة، تنهداتها، صوت المطر. كلما ازداد تفكيري بهذه الأشياء، ازداد جسدي جوعاً وتضوراً. خرجت إلى السطح مع قنينة الويسكي وسألت نفسي إلى أين أنا أتجه.

وأخيراً، في مطلع يوليو، جاءتني رسالة من ناوكو. رسالة قصيرة.

أرجو أن تسامحني لأني لم أجبك حالاً. لكن حاول أن تفهم. لقد استغرق مني وقتاً طويلاً قبل أن أكون في وضع يسمح لي بالكتابة، وقد بدأت هذه الرسالة عشر مرات في الأقل. الكتابة عندي عملية مؤلمة.

دعني أبدأ من النهاية. لقد قررت أن أستريح لمدة سنة من الكلية. من الناحية الرسمية هي إجازة قانونية، لكنني أشك في أني سأتمكن من العودة لها. لا شك في أن ذلك سيكون لك بمثابة مفاجأة، لكنني في الحقيقة كنت أفكر في القيام بذلك منذ مدة طويلة جداً. حاولت عدة مرات أن أذكر ذلك لك، لكني لم أتمكن من العثور على بداية مناسبة. كنت أخشى حتى من نطق الكلمات.

حاول ألا تبالغ في تقدير الأشياء. ومهما حصل -أو لم يحصل- فإن النتيجة النهائية ستكون واحدة. قد لا تكون هذه أفضل طريقة في التعبير، وأنا آسفة إذا كانت تؤلمك. ما أحاول أن أقوله لك هو أنني لا أريدك أن تلوم نفسك على ما حصل لي. فهو شيء كان يجب أن أواجهه بنفسي. لقد أجلته لأكثر من سنة، وهكذا انتهيت إلى جعل الأشياء بالغة الصعوبة عليك.

وربما لم يعد بوسعك أن تتخلى عنها بعد الآن.

بعد أن انتقلت من شقتي، عدت إلى بيت عائلتي في كوبي، وكنت أزور الطبيب لفترة. يقول لي إن هناك مكاناً في التلال خارج كيوتو سيكون ملائماً تماماً لي، وأنا أفكر بقضاء بعض الوقت هناك. ليس هو بالمستشفى بالمعنى الدقيق، بل هو أقرب إلى مصحة من نوع ما ذات أسلوب متحرر جداً في المعالجة. سأترك التفاصيل إلى رسالة أخرى. ما أحتاج إليه الآن هو أن أريح أعصابي في مكان هادئ منقطع الصلة عن العالم.

أشعر بالامتنان بطريقتي الخاصة لسنة من الرفقة منحتني إياها. أرجو ألا يصل بك الاعتقاد إلى هذا الحد، حتى لو لم تعتقد بسواه. لست أنت الشخص الذي آلمني. بالعكس أنا من فعلت ذلك. حقاً إنني أشعر بهذا.

الآن لست متهيِّئة لرؤيتك. لا أعني أنني لا أريد رؤيتك، بل أعني لست متهيِّئة فقط. وفي اللحظة التي أشعر فيها أنني جاهزة، سأكتب لك. ربما سيتاح لنا حينئذ أن نعرف بعضنا أفضل. وكما قلت: فلعل هذا هو ما يجب أن نفعله. أن يعرف كلانا الآخر أفضل.

إلى اللقاء.

أعدتُ قراءة رسالة ناوكو مراراً، وفي كل مرة يفعمني الحزن الذي لا يطاق نفسه الذي تعودت أن أشعر به حينما تحدق ناوكو في عيني. لا مهرب لدي من التعامل معه، ولا مكان لإخفائه. ومثل الريح التي تهب على جسدي، لا شكل له ولا وزن، ولا أستطيع حجب نفسي عنه. ينجرف الناس حولي، لكن الكلمات التي يقولونها لا تصل إلى مسمعي.

واصلتُ قضاء ليالي السبت جالساً في القاعة. لم يكن ثمة أمل في

استقبال مكالمة، لكني لم أعرف كيف أستطيع تبديد الوقت في شيء آخر. بوسعي أن أشغل لعبة البيسبول وأتظاهر بمراقبتها بمجرد أن أقطع المسافة الفاصلة بيني وبين التلفزيون. ثم أقطع الشريط إلى اثنين. وهكذا مراراً حتى يتبقى لدي مساحة صغيرة كافية لأن تبقى في يدي.

أطفئ التلفزيون عند العاشرة، وأعود إلى غرفتي، وأذهب للنوم.

عند نهاية الشهر، أعطاني جندي العاصفة يراعة. كانت في جرة قهوة جاهزة أحدثت فيها ثقوب لدخول الهواء، وهي تضم بعض أوراق الأعشاب وقليلاً من الماء. في الغرفة المضيئة بدت اليراعة مثل نوع من حشرة سوداء اعتيادية يمكنك أن تجدها حيثما كان، لكن جندي العاصفة أصر أنها يراعة حقيقية. قال: «أعرف اليراعة حين أراها». ولم يكن لدي داع أو أساس لتكذيبه.

قلت: «حسناً، إنها يراعة». كانت لها نظرة ناعسة في وجهها، لكنها بقيت تحاول تسلق جدران الجرة الزجاجية اللزجة وتسقط.

قال: «لقد وجدتها في الساحة».

«هنا، قرب المهجع؟»

«نعم، تعرف الفندق الذي في الشارع؟ إنهم يطلقون اليراعات في حديقتهم لضيوف الصيف. وقد ضلت هذه طريقها إلى هنا».

حين كان جندي العاصفة يتكلم كان مشغولاً بحشو ملابسه ودفاتره في حقيبته البوسطنية السوداء.

بقيت أسابيع عدة من العطلة الصيفية، وكنا نحن الاثنين كل من ظلَّ في المهجع تقريباً. فضلت الاستمرار في وظيفتيَّ على الذهاب إلى كوبي، وبقي هو ملتزماً في دورة تدريب عملية. والآن وقد انتهت دورته التدريبية، فسيعود إلى جبال ياماناشي.

قال: «تستطيع أن تعطي هذه لصديقتك، أنا متأكد أنها ستعجبها».

قلت: «شكراً».

بعد الظلام يسود المهجعَ السكونُ، وكأنه خرابة. تنزل الراية، وتتوهج الأضواء في شبابيك غرفة الطعام. وبسبب قلة الطلبة، فلم يوقد من الأضواء سوى نصفها في المكان، مبقية النصف اليمين مظلماً، والنصف اليسار مضيئاً. لكن رائحة العشاء حملت لي نوعاً من طبخة بالزبدة.

أخذت زجاجة يراعتي إلى السطح. لم يكن ثمة أحد سواي. هناك صديرية بيضاء معلقة على حبل الغسيل يبدو أن أحدهم نسي أن يأخذها، تلوح في نسيم المساء مثل صدفة مهملة لحشرة عملاقة. تسلقت سلماً معدنياً في زاوية السطح إلى قمة خزان مياه المهجع. كان الخزان ما يزال دافئاً بفعل حرارة الشمس التي امتصها أثناء النهار. جلست في الفسحة الضيقة فوق الخزان، متمدداً على الدرابزون، ومواجهاً البدر الأبيض الكامل.

التمعت أضواء شنجوكو على اليمين، وإكبوكورو على اليسار. وانعكست أضواء السيارات وهي تجري في جداول ساطعة من مستنقع ضوئي إلى آخر. حوّم فوق المدينة هدير غامض من أصوات مختلطة وكأنه غيمة.

أصدرت اليراعة التماعة خافتة في قعر الجرة، وكان ضوؤها في غاية الضعف، ولونها في غاية الشحوب. لم أر يراعة منذ سنوات، لكن اليراعات التي تختزنها ذاكرتي كانت ترسل ضوءاً شديداً في ظلمة الصيف، وتلك الصورة المشرقة الوهاجة كانت هي ما ظل في ذاكرتي عبر الزمن.

ربما كانت هذه اليراعة على حافة الموت. رجرجت الجرة عدة مرات. خبطت اليراعة على الجدران الزجاجية، وحاولت أن تطير، لكن ضوءها بقي خافتاً.

حاولت أن أتذكر متى كانت آخر مرة رأيت فيها يراعة، وأين حدث

ذلك. كان المشهد يلوح في ذهني، لكني لم أتمكن من تذكر الزمان أو المكان. أستطيع سماع صوت المياه في الظلمة ورؤية بوابة التحكم في المياه المصنوعة من القرميد على الطراز القديم. كان فيها مقبض تستطيع أن تديره لفتح البوابة أو إغلاقها. كان الجدول الذي تتحكم به صغيراً بما يكفي حتى تخفيه الأعشاب على ضفتيه. كانت الليلة مظلمة، شديدة الظلام بحيث إنني لم أر قدمي حين أدرت الكشاف في يدي. تقافزت مئات اليراعات فوق مستنقع المياه الذي أحدثته بوابة التحكم، وكان وهجها الساخن ينعكس في المياه مثل شلال من الشرارات.

أغمضت عيني وغمست نفسي في ظلمة أزمنة انصرمت. أصخت للريح بوضوح غير عادي. عَبَرَ فوقي نسيم خفيف، تاركاً ضوءاً غريب الألق في الظلمة. فتحت عيني لأجد ظلمة ليلة الصيف أعمق بعدة درجات مما كانت عليه.

رفعت غطاء الجرة، وأخرجت اليراعة، ووضعتها على حافة الخزان التي لا يتجاوز عرضها عرض إصبعين. بدا أنها لم تدرك الظروف الجديدة المحيطة بها. تعثرت حول رأس برغي حديدي، وهي تمسك بسيقانها بقايا الطلاء المتشققة. تحركت نحو اليمين حتى وجدت أمامها الطريق مسدوداً، فانحدرت راجعة إلى اليسار. وأخيراً، وبعد جهد جهيد، ارتقت رأس البرغي، وربضت هناك لهنيهة، بلا حراك، وكأنها تلتقط أنفاسها الأخيرة.

بقيت ممدداً على الخزان، أدرس اليراعة. لا أنا ولا هي تحركنا لفترة طويلة من الزمن. استمرت الريح تجرفنا، كلينا، في حين تخشخش أوراق لا حصر لها في شجرة الزلكوفا في الظلمة.

انتظرت إلى الأبد.

.

مضى وقت طويل قبل أن تحلّق اليراعة في الهواء. وكأن فكرة ما داهمتها على حين غرة، نشرت اليراعة جناحيها، وفي لحظة انطلقت فوق

الخزان لتحوم في الظلمة الشاحبة. سلكت قوساً لطيفاً على جانب خزان المياه وكأنها تحاول استرجاع فاصل مفقود من الزمن.

حينئذ، وبعد أن رفرفت هناك لعدة ثوانٍ وكأنها تريد أن تراقب خط الضوء المنحني وهو يختلط بالريح، حلقت أخيراً باتجاه الشرق.

بعد فترة طويلة من اختفاء اليراعة، بقي أثر من ضوئها في داخلي، شحوبها، رفرفتها ذات الوهج الخافت على جدار الظلمة السميك أمام ناظري مثل نفس ضائعة.

حاولت أكثر من مرة أن أمد يدي في الظلمة. لم تلمس أصابعي شيئاً. بقيت الالتماعة الخافتة بعيدة عن متناول أصابعي.

(4)

أثناء العطلة الصيفية استدعت الجامعة شرطة مكافحة الشغب. اقتحموا المتاريس وألقوا القبض على الطلبة في الداخل. ولم يكن هذا بالأمر الجديد. إذ كان هذا ما يقوم به الطلبة في كل مكان. لم يكن «تجريد» الجامعات بتلك السهولة. فقد استُثمرت فيها رؤوس أموال طائلة، ولن يُسمح لها بالذوبان لمجرد أن قلةً من الطلاب اعتراهم التوحش. والحقيقة أن الطلاب الذين أغلقوا المجمع ما كانوا يريدون تجريد الجامعة أيضاً. كل ما أرادوه في الواقع هو تغيير ميزان القوى في تركيبة الجامعة، وهو ما لم يكن يهمني كثيراً. ولذلك فحين تم سحق الإضراب أخيراً لم أشعر بشيء.

عدت إلى المجمع في سبتمبر متوقعاً أن أجد الخراب. لم يُمسَّ المكان. لم تُنقل كتب المكتبة من مواضعها، لم تُدمر مكاتب المحاضرين، لم يتم إحراق دائرة شؤون الطلبة وتسويتها بالأرض. كنت مصعوقاً. ماذا يفعلون بحق الجحيم وراء المتاريس؟

حين تمت تهدئة الإضراب وبوشرت المحاضرات من جديد تحت إشراف الشرطة، كان أول من عادوا إلى مقاعدهم في الصفوف هم أولئك الأطياز الذين قادوا الإضراب وأججوه. جلسوا في مقاعدهم يدوّنون الملاحظات، ويجيبون بكلمة «حاضر»، إذا ما قُرئ سجل الحضور، وكأن شيئاً لم يكن. لم أستطع تصديق ذلك. والحال أن الإضراب ما زال

قائماً من الناحية الفعلية. إذ لم يصدر إعلان بإنهائه. كل ما حدث هو أن الجامعة استدعت شرطة مكافحة الشغب، واقتحمت المتاريس، ولكن يفترض أن الإضراب نفسه ما زال مستمراً. كان الأطياز يهتفون بملء حناجرهم وقت الإضراب، منددين بالطلبة الذين عارضوه (أو حتى عبروا عن شكوكهم به)، بل إنهم أحياناً كانوا يحاولون إحالتهم إلى محاكم كناغر أقاموها. دعوت لزيارة أولئك الزعماء السابقين وسؤالهم لماذا يحضرون المحاضرات بدلاً من الاستمرار في الإضراب، لكنهم لم يعطوني جواباً شافياً. ماذا كان بوسعهم أن يقولوا؟ هل يقولون إنهم يخافون فقدان الدرجات لعدم الحضور؟ يا للسخرية! لقد كان هؤلاء البلداء يصيحون ويزعقون كأنهم سيحطمون الجامعة!! أية نكتة! ما إن تغير اتجاه الريح قليلاً، حتى انقلبت هتافاتهم إلى همسات.

فكرت مع نفسي: أحييك، كيزوكي، لم تفقد هذا العالم اللعين. هذا العالم مجرد خراء. يحصل الأطياز على العلامات العليا ويساعدون على خلق المجتمع من خلال صورتهم الزرية.

لمدة من الزمن كنت أحضر المحاضرات، ولكنني أرفض أن أرد على سجل الحضور. كنت أعرف أنها إيماءة لا قيمة لها، ولكنني شعرت بسوء الحظ إذ لم يكن لي خيار. وهكذا توصلت إلى قرار بأن أعزل نفسي أكثر من السابق عن الطلاب الآخرين. بالبقاء صامتاً حين ينادى باسمي أجعل الجميع غير مرتاحين لبضع ثوانٍ. لم يتحدث معي أحد من الطلاب الآخرين، ولم أتحدث مع أحد منهم.

مع الأسبوع الثاني من سبتمبر توصلت إلى نتيجة مفادها أن التعليم الجامعي لا معنى له. قررت أن أفكر فيه باعتباره تمريناً على تقنيات الاهتمام بالضجر. لم يكن لديّ شيء محدد أردت أن أحققه في المجتمع يستدعي مني التخلي عن دراساتي، ولذلك ذهبت إلى المحاضرات كل يوم، أدون الملاحظات، وأقضي وقت فراغي في المكتبة قارئاً أو متملياً في الأشياء.

برغم ذلك، فقد انقضى الأسبوع الثاني ولم تظهر أية علامة على عودة جندي العاصفة. كان ذلك تطوراً يهز الأرض هزاً، بطريقة غير مألوفة. استأنفت الجامعة محاضراتها، دون أن تدرك أن جندي العاصفة غائب عن محاضراته. تراكمت طبقة من الغبار فوق منضدته والراديو. قدحه البلاستيكي، وفرشاة أسنانه، وصفيحة شايه، ومِرَشَّة قاتل الحشرات وغير ذلك ما زالت تنتصب في صف مرتب على رفه.

أبقيت الغرفة نظيفة في غيابه. اقتبست منه عاداته في الترتيب بعد سنة ونصف من المعايشة معه، ومن دونه كان عليّ أن أهتمّ بالغرفة بنفسي. كنت أمسح الأرض كل يوم، وأنظف الشبابيك كل ثلاثة أيام، وأهوّي الأفرشة مرة في الأسبوع، متوقعاً أن يعود ويقول لي يا للعمل العظيم الذي قمت به.

لكنه لم يعد. عدت من المحاضرات في أحد الأيام لأجد جميع حاجاته قد اختفت واسمه أزيل من البطاقة على الباب. ذهبت إلى مكتب رئيس المهجع وسألته عما حدث.

قال: «لقد انسحب من المهجع. وستكون وحدك في الغرفة في الوقت الحاضر».

لم أستطع أن أعرف منه سبب اختفاء جندي العاصفة. فهذا رجل تتمثل متعته الكبرى في الحياة في السيطرة على كل شيء وترك الآخرين يتخبطون في الظلمة.

بقي ملصق القلعة الجليدية لجندي العاصفة في مكانه على الجدار زمناً، لكنني فجأة انتزعته وأبدلته بجيم موريسن ومايلز ديفس. وهذا ما جعل الغرفة تبدو غرفتي أكثر قليلاً من ذي قبل. أنفقت بعض النقود التي ادخرتها من عملي لشراء استريو صغير. في الليل أشرب وحيداً وأصغي إلى الموسيقى. كل حين كنت أفكر بجندي العاصفة، لكنني تمتعت بالعيش بمفردي.

ذات إثنين، في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً، بعد محاضرة

عن يوربيدس في تاريخ الدراما، مضيت في جولة لمدة عشر دقائق إلى مطعم صغير وتناولت الأومليت والسلطة في الغداء. كان مطعماً خلفياً هادئاً، وأغلى قليلاً من قاعة طعام الطلبة، لكنك تشعر بالراحة هناك، وهم يقدمون أومليت جيداً. «كانا» شخصين متزوجين نادراً ما يتكلمان مع بعضهما، بالإضافة إلى نادلة تعمل بالساعة. حين كنت جالساً هناك أتناول طعامي قرب النافذة، دخلت المطعم مجموعة من أربعة طلاب، طالبان وطالبتان، كانوا جميعاً يمتازون بالأناقة. جلسوا إلى الطاولة القريبة من الباب، وقضوا بعض الوقت ينظرون في قائمة المأكولات ويناقشون اختياراتهم، حتى بادر أحدهم إلى طلب ما أرادوه من النادلة.

لم يمر وقت طويل حتى لاحظت أن إحدى الفتاتين تحدق باتجاهي. كان شعرها قصيراً جداً، وتلبس نظارة شمسية سوداء وملابس قطنية بيضاء قصيرة. لم تكن لدي فكرة من هي. ولذلك واصلت تناول غدائي، لكنها سرعان ما انسلت من مقعدها وجاءت إلى حيث أجلس. وضعت يدها على حافة طاولتي وسألت: «أنت واتانابي.. أليس كذلك؟»

رفعت رأسي وتطلعت إليها عن قرب. لا أتذكر أنني رأيتها من قبل. كانت فتاة من نوع مميز، ولو كنت قد رأيتها من قبل لبادرت للتعرف إليها فوراً. لم يكن كثير من الناس في الجامعة يعرفونني بالاسم.

سألتْ: «هل تمانع إذا جلست؟ أم أنك بانتظار أحد؟»

هززت رأسي وأنا غير متيقن: «لا، لا أنتظر أحداً، تفضلي».

سحبتْ كرسياً أصدر صوت ارتطام، وجلست قبالتي، تحدق فيّ باستقامة من خلال نظاراتها الشمسية، ثم قالت وهي تنظر إلى الصحن أمامي:

«يبدو جميلاً».

«إنه لذيذ. أومليت كمأ وسلطة بازلاء».

قالت: «اللعنة. حسناً! سأطلبه في المرة القادمة. لقد طلبت الآن شيئاً آخر».

«ماذا تتناولين؟»

«معكرونة بالجبنة».

قلت: «معكرونتهم بالجبنة ليست بالرديئة أيضاً. بالمناسبة، هل أعرفك؟ لا أتذكر..».

قالت: «يوربيدس، إلكترا، ما من إله يصغي لصوت إلكترا الضائعة... أنت تعرف- لقد انتهت المحاضرة تواً».

تملّيتها جيداً. خلعت نظارتها. في النهاية تذكرتها -طالبة من السنة الأولى رأيتها أثناء محاضرة تاريخ الدراما. لقد منعني التغيير الصارخ في طريقة تصفيف شعرها من معرفتها.

قلت وأنا أمد يدي قليلاً تحت كتفي: «أوه، كان شعرك يسترسل حتى هنا قبل العطلة الصيفية».

قالت: «أنت محق. أجريت تبديلاً هذا الصيف. لقد كان شعري قبيحاً. كنت على وشك أن أقتل نفسي. كنت أبدو وكأنني جثة على الساحل اشتبكت الأعشاب البحرية فوق رأسها. ولذلك قررت أنني ما دمت على وشك الموت، فيجب أن أقص شعري أيضاً. على الأقل أبرَد في هذا الصيف الحار». مررت يدها على شعرها وابتسمت لي.

قلت وأنا ما أزال أمضغ الأومليت: «برغم ذلك، يبدو جميلاً. دعيني أراك من الجانب».

أدارت وجهها واتخذت وضعاً جانبياً لبضع ثوان.

«نعم، هذا ما فكرت فيه. حقاً يبدو جميلاً عليك. رأس حسن الشكل. الأذنان الجميلتان مكشوفتان أيضاً».

«إذن فلست مجنونة. لقد فكرت أنني سأبدو جميلة بمجرد قصه كله. برغم ذلك، لم يعجب أحداً من الشباب. الجميع يقولون لي بأنني أبدو كالناجي من معسكر تجنيد. ما الذي يعجب الفتيان بالفتيات ذوات الشعر الطويل؟ الفاشيون، كلهم عصابة. لماذا يظن الفتيان أن الفتيات

ذوات الشعر الطويل اكثر أناقة وجمالاً وأنوثة؟ أعني، أنا نفسي أعرف على الأقل 250 فتاة عديمات الأناقة بشعر طويل. فعلاً».

«أعتقد أنك تظهرين الآن أفضل من السابق». قلت، وأنا أعني ما أقول. بقدر ما أتذكر كانت بالشعر الطويل مجرد طالبة ذكية. أما الآن فتتدفق من الفتاة الجالسة أمامي قوة جديدة موّارة بالحياة. كانت أشبه بحيوان وديع زُجَّ به في العالم مع مجيء الربيع. تتحرك عيناها بحركة ذاتية مستقلة فياضة بالمتعة والضحك والغضب والذهول واليأس. لم أر وجهاً بهذا العنفوان والتعبير منذ مدة طويلة، وقد تمتعت بمراقبته يعيش ويتحرك.

قالت: «هل تعني ما تقول؟»

هززت رأسي موافقاً، وأنا أمضغ السلطة.

لبست نظارتيها، وتطلعت إلي من ورائهما.

«أنت لا تكذب، أليس كذلك؟»

قلت: «أحب أن أكون صادقاً».

«إلى حد بعيد».

«إذن، أخبريني، لماذا تلبسين هذه النظارات السوداء؟»

«عندما قصصت شعري فجأة شعرت أنني بلا دفاعات. وكأن أحداً رماني في زحام وأنا عارية تماماً».

قلت وأنا أتناول آخر ما بقي أمامي من الأومليت: «وجهة نظر لا تخلو من دلالة». راقبتني باهتمام شديد.

قلت وأنا أشير لرفاقها الثلاثة: «هل يجب عليك العودة إليهم؟»

«لا. سأعود حين يقدمون الطعام. هل أقاطعك عن طعامك؟»

قلت: «لم يعد هناك ما تقاطعينه». طلبتُ القهوة حين لم يبد عليها إشارة تدل على المغادرة. أخذت المرأة الصحون وجلبت لي الحليب والسكر.

قالت: «والآن أنت أخبرني. لماذا لم تجب اليوم حين قرأوا اسمك في سجل الحضور؟ أنت واتانابي، ألست هو؟ تورو واتانابي؟»

«هو أنا».

«إذن لماذا لم تجب؟»

«أنا اليوم لست على ما يرام».

نزعت نظارتها مرة ثانية، ووضعتها على الطاولة، ونظرت إليّ وكأنها تتطلع إلى حيوان نادر في حديقة الحيوانات: «أنا اليوم لست على ما يرام. تتكلم وكأنك همفري بوغرت. ببرود وخشونة».

«لا تكوني سخيفة. لست سوى فتى عادي مثل أي شخص آخر».

جلبت الزوجة قهوتي ووضعتها على الطاولة. تناولت رشفة دون إضافة سكر أو حليب.

«انظر. أنت تحتسيها سوداء».

أوضحت لها بصبر: «لا علاقة لذلك بهمفري بوغرت. فقط لا أريد أن تبقى الحلاوة في فمي. أعتقد أنك أسأت فهمي».

«لماذا اسمرَّ جلدك هكذا؟»

«قمت بجولة في الأسابيع القليلة الماضية. حقيبة ظهر. حقيبة نوم».

«أين ذهبت؟»

«كانازاوا. جزيرة نوتو. حتى نيغاتا».

«وحدك؟»

قلت: «وحدي. أحياناً أجد من يرافقني هنا أو هناك».

«رفقة رومانسية؟ امرأة جديدة في أماكن نائية؟»

«رومانسية؟ الآن أنا واثق أنك أسأت فهمي. كيف يمكن لشاب يحمل حقيبة نومه على ظهره وقد طال شعر لحيته أن يعثر على قصة رومانسية؟»

«هل تسافر وحدك دائماً بهذه الطريقة؟»

«أجل».

سألت وهي تضغط بيدها على خدها: «هل تتمتع بالعزلة؟ تسافر وحدك، تأكل وحدك، تجلس وحدك في قاعات المحاضرة...».

«ما من أحد يحب العزلة إلى هذا الحد. المسألة أنني لا أخرج باحثاً عن الصداقات. هذا كل شيء. فهذا يفضي إلى الخيبة».

تمتمت وحمالة نظارتها في فمها، بينما تتدلى النظارة إلى الأسفل: «لا أحد يحب العزلة. أنا فقط أكره الخيبة» ثم قالت: « تستطيع استخدام هذا السطر إذا كتبت سيرتك الذاتية يوماً ما».

قلت: «شكراً».

«هل تحب الخضرة؟»

«لماذا تسألين؟»

«أنت ترتدي قميص بولو أخضر».

«لم أقصد ذلك. ألبس أي شيء».

«لم أقصد ذلك. ألبس أي شيء. تعجبني طريقتك في الكلام. تشبه نشر اللاصق، لطيفة ورقيقة. هل أخبرك أحد بهذا؟»

قلت: «لم يخبرني أحد».

قالت: «اسمي ميدوري، خضراء، لكن اللون الأخضر يزعجني. يا للحظ! كأنما أنا ملعونة، هل تعتقد ذلك؟ اسم أختي موموكو، الفتاة الخوخية».

«هل يحلو عليها الوردي؟»

«تبدو عظيمة في الوردي. ولدت لتلبس الوردي. وهذا ظلم مطلق».

وصل الطعام إلى طاولة ميدوري، فنادى فتى يلبس سترة قطنية: «هيا، ميدوري تعالي للغداء». لوحت له وكأنها تقول: «أعرف».

قالت: «أخبرني، هل تدون الملاحظات من المحاضرات؟ في الدراما؟»

«نعم».

«أكره الطلب، ولكن هل لي أن أستعير دفتر ملاحظاتك؟ لقد أضعت دفتري مرتين، ولا أعرف أحداً في الصف».

قلت: «لا مشكلة». وسحبت دفتر ملاحظاتي من حقيبتي. بعد أن تأكدت أنني لم أكتب عليه أي شيء شخصي، سلمته لها.

قالت: «شكراً. هل ستأتي للمحاضرات بعد غد؟»

«نعم».

«قابلني هنا بعد الظهر. سأعيد دفتر ملاحظاتك، وأدفع ثمن غدائك. أعني.. .إن لم تصب بمغص في المعدة، أو إن لم تكن تحب الانفراد في الأكل...».

قلت: «لا، ولكن لا يجب أن تدفعي ثمن غدائي لمجرد أنني أعرتك دفتر ملاحظاتي».

قالت: «لا تقلق. أحب أن أدفع ثمن الغداء للناس. على أية حال، هل يجب أن تكتب ذلك في مكان ما؟ أم أنك لن تنساه؟»

«لن أنسى. بعد غد. الساعة الثانية عشرة. ميدوري، خضراء».

من الطاولة الأخرى نادى أحدهم: «أسرعي، ميدوري، أكلك يبرد».

تجاهلت النداء وسألتني: «هل تتحدث بهذه الطريقة دائماً؟»

قلت: «أعتقد ذلك. لم ألاحظ من قبل». والحقيقة ما من أحد أخبرني بأي شيء غير عادي في الطريقة التي أتكلم بها.

بدت كأنما ساورها شيء ما لبضع ثوان. ثم نهضت بابتسامة وغادرت إلى طاولتها. لوحت لي وأنا أخطو بالقرب من طاولتهم، لكن الآخرين لم يلقوا بنظرة باتجاهي.

ظهر الأربعاء لم أجد أية علامة على وجود ميدوري في المطعم. فكرت أنني يجب أن أنتظرها قليلاً فيما أشرب قدحاً من البيرة، لكن المكان بدأ يزدحم بالزبائن حالما وصل الشراب، ولذلك طلبت الغداء وأكلته وحدي. انتهيت منه في الساعة 12,35، لكن ميدوري لم تصل بعد. دفعت الفاتورة، وخرجت لأعبر الشارع إلى معبد صغير، حيث انتظرت عند العتبات الحجرية، حتى يصفو ذهني وتجيء ميدوري. توقفت عند الساعة الواحدة وذهبت للقراءة في المكتبة. في الثانية ذهبت لمحاضرة الألمانية.

عند انتهاء المحاضرة ذهبت إلى دائرة شؤون الطلبة وبحثت عن اسم ميدوري في لائحة طلاب صف تاريخ الدراما. كانت ميدوري الوحيدة في الصف تحمل اسم ميدوري كوباياشي. قلبت البطاقات الخاصة بملفات الطلبة ووجدت العنوان ورقم التلفون لميدوري كوباياشي التي دخلت الجامعة عام 1969. كانت تعيش في ضاحية في الشمال الغربي اسمها توشيما، مع عائلتها. اندفعت إلى التلفون وضربت الرقم.

رد عليّ رجل: «مكتبة كوباياشي». مكتبة كوباياشي؟

قلت: «آسف للإزعاج، ولكن أتساءل هل ميدوري موجودة؟»

قال: «لا، غير موجودة».

«هل تعتقد أنها في المجمع؟»

«ها... لا، ربما تكون في المستشفى. من يتكلم معي رجاءً؟»

بدلاً من الإجابة، شكرته وأغلقت التلفون. المستشفى؟ هل يمكن أن تكون تعرضت لحادث؟ لكن الرجل تحدث دون أن يشف صوته عن إحساس ولو ضئيل بحالة اضطرارية. لقد قال لي: «ربما تكون في المستشفى» بسهولة وكأنه يقول ذهبت إلى محل بيع الأسماك. فكرت في بعض الاحتمالات الأخرى حتى صار التفكير نفسه إشكالياً، فعدت إلى المهجع حينئذ وتمددت على سريري أقرأ «اللورد جم»، التي استعرتها من ناغاساوا. وحين أنهيتها، ذهبت إلى غرفته لأعيدها له.

كان ناغاساوا في طريقه إلى قاعة الطعام، ولذلك ذهبت معه لتناول العشاء.

سألته: «كيف تمشي معك الامتحانات؟» كان القسم الثاني من الامتحانات العليا لوزارة الخارجية قد أجري في أغسطس.

«كالعادة» رد ناغاساوا وكأنها لاشيء. «تدخلها وتنجح. نقاشات جماعية، مقابلات... كأنما نكاح دجاجة».

قلت: «بعبارة أخرى، سهلة. متى تكون النتيجة؟»

«الأسبوع الأول من أكتوبر. إذا نجحت سأدعوك إلى عشاء محترم».

«أخبرني، أي نوع من الشباب يشاركون في امتحانات القسم الثاني؟ هل كلهم من النجوم مثلك؟»

«لا تكن سخيفاً. ليسوا سوى عصابة من الأغبياء. أغبياء أو شواذ. 95 بالمئة من الشباب الذين يريدون أن يكونوا من النخبة البيروقراطية لا يساوون برازاً. لست أمزح. بالكاد يعرفون القراءة».

«إذن لماذا تحاول الالتحاق بوزارة الخارجية؟»

قال ناغاساوا: «لأسباب كثيرة. أحدها أني أحب فكرة العمل في الخارج. ولكن في الأساس أريد أن أختبر قدراتي. وإذا أردت أن أختبر قدراتي، فيجب أن أقوم بذلك على أكبر مستوى- مستوى الأمة. أريد أن أعرف الحد الذي أستطيع القفز إليه، وإلى أي مدى أستطيع الممارسة في هذا النظام البيروقراطي العملاق بجنون».

«يبدو الأمر كلعبة».

«إنها لعبة. لست أعبأ بالسلطة والمال في ذاتهما. فعلاً لا يهمانني. قد أكون ابن حرام وأنانياً، لكني بارد على نحو لا يصدق أمام خراء من هذا النوع. بل ربما أنا قديس بوذي. الشيء الذي يعنيني هو الفضول. أريد أن أرى ما أستطيع فعله في هذا العالم الواسع».

«أفترض أنك لن تستفيد من المُثُل».

«أبداً. الحياة لا تستدعي مُثُلاً، بل تستدعي مقاييس نجاح».

سألته: «لكن هناك طرقاً متعددة أخرى في الحياة، أليس كذلك؟»

«أنت تحب الطريقة التي أعيش بها؟ ألست كذلك؟»

قلت: «لا علاقة لهذا بالموضوع. لا أستطيع أن أصل إلى جامعة طوكيو، لا أستطيع أن أضاجع أي فتاة أشاء حينما أشاء، لست متحدثاً لبقاً، الآخرون لا يتطلعون إلي، ليست لدي صديقة، والمستقبل لا يفتح أبوابه بوجهي حين أحصل على شهادة بكالوريوس في الأدب من جامعة خاصة من الدرجة الثانية. فهل سيهم بعد ذلك أن تعجبني طريقتك في الحياة؟»

«ألست تقول إنك تحسدني على طريقتي في الحياة؟»

قلت: «لا، لم أقل ذلك. أنا متعود على كوني ما أنا عليه. والحقيقة أنني لا أعير التفاتاً لجامعة طوكيو أو وزارة الخارجية. الشيء الوحيد الذي أحسدك عليه هو أن عندك صديقة رائعة مثل هاتسومي».

صمت ناغاساوا وشرع يأكل. وحين انتهى العشاء قال: «تعرف يا واتانابي، لدي شعور ما، ربما بعد عشر سنوات أو عشرين سنة من مغادرتنا هذا المكان، سنلتقي مرة أخرى في مكان ما. بطريقة أو أخرى سنتصل ببعضنا».

قلت مبتسماً: «كما في روايات ديكنز».

قال وهو يرد بابتسامة: «هو ذاك. لكن حدسي لا يخطئ في العادة».

غادر كلانا قاعة الطعام وذهبنا إلى بار. بقينا نشرب هناك حتى بعد التاسعة.

سألته: «أخبرني يا ناغاساوا، ما هو مقياس النجاح الفعلي في حياتك؟»

قال: «ستضحك إذا أخبرتك...».

«لا، لن أضحك».

قال: «حسناً. أن أكون جنتلماناً».

لم أضحك، بل أوشكت أن أسقط من الكرسي:

«أن أكون جنتلماناً؟ جنتلمان؟»

«سمعت ما قلته».

«ماذا يعني أن تكون جنتلماناً؟ كيف تعرف ذلك؟»

«الجنتلمان هو الذي لا يفعل ما يريد، بل ما يجب أن يفعله».

قلت: «أنت أعجب إنسان قابلته في حياتي».

قال: «وأنت أقوم إنسان قابلته في حياتي». ودفع عنا نحن الاثنين.

ذهبت إلى محاضرة الدراما في الأسبوع التالي، لكن لم أر أيضاً علامة على حضور ميدوري كوباياشي. جولة سريعة في الغرفة أقنعتني أنها لم تكن حاضرة، فاتخذت مقعدي الاعتيادي في الصف الأمامي وكتبت رسالة لناوكو فيما كنت أنتظر وصول المحاضر. كتبت لها عن سفراتي الصيفية، الطريقة التي مشيت بها، المدن التي مررت بها، والناس الذين قابلتهم. **كل ليلة كنت أفكر فيك. والآن حين لم يعد بوسعي رؤيتك، أدرك كم أنا بحاجة إليك. الجامعة مملة بشكل لا يطاق، لكني ما زلت أذهب لجميع المحاضرات وأؤدي جميع الامتحانات من باب الانضباط الذاتي. منذ أن غادرت صار كل شيء بلا طعم. أود أن أدخل معك في حوار طويل وجميل. لو أمكن، فسأزورك في المصحة وألتقي بك عدة ساعات. ولو أمكن فإنني أود أن نخرج معاً ونمشي جنباً إلى جنب بالطريقة التي اعتدنا عليها. أرجو أن تحاولي الإجابة على هذه الرسالة حتى لو بملاحظة صغيرة، فلا يهم.**

ملأت أربع صفحات، وطويتها، ودسستها في مظروف، وعنونتها إلى رعاية عائلة ناوكو.

وصل المحاضر، وتناول سجل الحضور وهو يمسح العرق عن جبينه. كان رجلاً قصيراً، ذا منظر حزين يمشي على عكازة معدنية. وفي

حين لم تكن محاضراته مرحة تماماً، فإنها كانت حسنة الإعداد دائماً وقيّمة. وبعد إدلاء ملاحظة عن أن الجو صار ساخناً كالسابق، بدأ بالحديث عن استعمال تقنية «إنزال الإله في آلة» في مسرح يوربيدس، وكيف صار مفهوم «الإله» يختلف لدى يوربيدس عن مفهومه عند أسخيلوس أو سوفوكليس. تحدث لمدة 15 دقيقة، ثم انفتح باب قاعة المحاضرات ودخلت منه ميدوري. كانت تلبس قميصاً رياضياً أزرق، وبنطالاً قطنياً حليبي اللون، وتضع نظارتها الشمسية الاعتيادية. وبعد أن عبّرت عن اعتذارها للتأخير، ابتسم البروفيسور قليلاً، فجلست إلى جواري. حينئذ أخرجت دفتر ملاحظات -هو دفتري نفسه- من حقيبة ظهرها، وناولته لي. في داخله، وجدت ملاحظة صغيرة: «آسفة على الأربعاء، هل أنت غاضب؟».

مضى على المحاضرة نصفها تقريباً، وبينما كان الأستاذ يرسم مخططاً للمسرح اليوناني على اللوح، انفتح الباب مرة أخرى، ودخل طالبان بخوذتين. ظهرا وكأنهما فرقة كوميدية، أحدهما طويل ونحيف وشاحب، والآخر قصير وممتلئ وأسود اللون بلحية طويلة لا تليق عليه. كان الطويل يتأبط مجموعة من بيانات التهييج السياسي. توجه القصير نحو الأستاذ وقال له بأسلوب لا يخلو من التهذيب بأنهم يودون استثمار نصف المحاضرة الثاني في حوار سياسي مع الطلبة ويأملون منه التعاون معهم، مضيفاً أن «العالم مليء بمشاكل أكثر إلحاحاً وأهمية من المأساة اليونانية». وكان ذلك قراراً أكثر منه طلباً. أجاب الأستاذ : «أشك في أن العالم مليء بمشاكل أكثر إلحاحاً وأهمية من المأساة اليونانية، لكن لن تصغي لأي شيء أقوله، ولذلك افعل ما طاب لك». وضع يده على حافة الطاولة، ورجله على الأرض، والتقط عكازته، وانسل خارجاً من القاعة.

بينما وزع الطالب الطويل البيانات، مضى القصير إلى المنصة وبدأ يحاضر. كانت البيانات تزخر بشعارات مبسطة اعتيادية: «دمروا الانتخابات المخادعة لرئيس الجامعة!»، «وحدوا جميع القوى للإضراب

الجامعي الجديد!»، «حطموا مركب الصناعة التربوية الإمبريالية!». لم تكن لدي مشكلة مع ما يقوله. بل إن الكتابة كانت عرجاء. ما كانت تنطوي على ما يوحي بالثقة أو يثير التعاطف. وكانت خطبة السّمين لا تقل رداءة عن النبرة القديمة إلا بتبديل الكلمات. لم يكن عدو هذه العصبة الحقيقي يتمثل في سلطة الدولة، بل في نقصان الخيال.

قالت ميدوري: «لنخرج من هنا».

هززت رأسي ونهضت، وانطلق كلانا نحو الباب. هنا قال السمين لي شيئاً لم أتبينه. لوحتْ له ميدوري وقالت «سنلتقي لاحقاً».

سألتني ميدوري ونحن نمشي خارج القاعة: «هل نحن ضد الثوريين؟ هل سيعلقوننا على أعمدة التلفونات إذا نجحت الثورة؟»

«دعينا نتناول الغداء أولاً من باب الاحتياط».

«حسناً، هناك مكان أود أن أدعوك إليه. إنه بعيد قليلاً. هل لديك وقت كافٍ؟»

«نعم، أنا متفرغ حتى محاضرة الساعة الثانية».

أخذتني ميدوري بالحافلة إلى يوتسويا، وأرتني محلاً مسوراً لبيع الأطعمة الجاهزة في بقعة منزوية وراء المحطة. في اللحظة التي جلسنا فيها قدموا لنا حساء، ثم قدّموا الغداء في صندوق مربع أحمر صقيل. يستحق هذا المكان ركوب الحافلة للأكل فيه.

قلت: «طعام عظيم».

«ورخيص أيضاً. أنا أجيء إلى هنا منذ أن كنت طالبة ثانوية. ثانويتي كانت خلف هذا الشارع مباشرة. كانوا متشددين جداً، وعلينا أن نتسلل حتى نأتي ونأكل هنا. فقد يعاقبونك إذا وجدوك هنا».

من دون نظارتيها، بدت عينا ميدوري ناعستين أكثر من المرة السابقة. وحين لا تعبث بالسوار الفضي الضيق في رسغها الأيسر، فقد تحك زاويتَي عينيها بطرف إصبعها الصغير.

سألتها: «هل أنت متعبة؟»

قالت: «نوعاً ما. لم أنم بما يكفي. لكنني على ما يرام. لا تقلق. آسفة على ذلك اليوم. حصل شيء مهم ولم أستطع تجنبه. شيء مفاجئ في الصباح. فكرت بأن أكلمك في المطعم، لكني لم أتذكر اسمه، ولا أعرف رقم تلفونك. هل انتظرت طويلاً؟»

«ليس طويلاً جداً. كان لدي متسع من الوقت».

«متسع؟»

«عندي من الوقت أكثر مما أحتاج. أتمنى لو أستطيع منحك الوقت لتنامي».

وضعت ميدوري يدها على خدها وابتسمت لي.

«يا لك من فتى رائع».

قلت: «لست رائعاً. بل عندي وقت أريد قتله. بالمناسبة كلّمتك في البيت، فأخبرني أحدهم أنك كنت في المستشفى. هل هناك خطأ؟»

«اتصلت بي في البيت؟» سألت وقد تكوّن تجعد خفيف ما بين حاجبيها: «كيف حصلت على رقمي؟»

«بحثت عنه في دائرة شؤون الطلبة. بوسع أي شخص أن يفعل ذلك».

هزت رأسها مرة أو مرتين، وصارت تعبث بسوارها ثانية: «لم أفكر بذلك أبداً. ولو كنت أعرف لبحثت عن رقمك. على أية حال، سأحدثك في المرة القادمة عن قضية المستشفى. لا أحبذ ذلك الآن. آسفة».

«لا بأس. لم أقصد التطفل».

«لا. لست متطفلاً. فقط أنا متعبة نوعاً ما مثل قرد بلّله المطر».

«ألا ينبغي أن تذهبي إلى البيت لتنالي قسطاً من النوم؟»

«ليس الآن. فلنخرج من هنا».

أخذتني إلى مدرستها القديمة، على مسافة قصيرة من يوتسويا.

ونحن نعبر المحطة، فكرت في ناوكو ومشيها الذي لا ينتهي. كل شيء بدأ من هناك. أدركت أنني لو لم أقابل ناوكو في القطار ذلك الأحد من مايو، لكانت حياتي مختلفة عما هي عليه الآن. لكنني سرعان ما غيرت رأيي: كلا، حتى لو لم نتقابل ذلك اليوم، لما أحدث ذلك اختلافاً في حياتي. كان يجب أن نتلاقى. إن لم يكن في ذلك الوقت، ففي وقت آخر. لم يكن لدي أساس للتفكير بهذه الطريقة، بل كانت مجرد شعور.

جلسنا ميدوري كوباياشي وأنا معاً على مقعد في الحديقة ننظر إلى مدرستها القديمة. يتسلق اللبلاب على الجدران، وتحتشد الحمائم على الجملون، تريح أجنحتها. كان مبنى قديماً جميلاً. تنتصب شجرة بلوط في منتصف الساحة، وعمود من الدخان الأبيض يتصاعد إلى جانبها. أضفى ضوء الصيف على الدخان منظراً ناعماً ومغيماً.

سألتني ميدوري فجأة: «هل تعرف مما يتصاعد ذلك الدخان؟»

قلت: «ليست لدي فكرة».

«إنهم يحرقون الفوط الصحية».

«حقاً؟» لم أستطع التفكير بأي شيء آخر لأقوله.

قالت بابتسامة: «فوط صحية، ضمادات، أشياء من هذا القبيل. إنها مدرسة بنات. تجمعها الناظرة المسنة وتحرقها في محرقة القمامة. وهذا هو الدخان».

«مدهش».

«نعم. هذا ما تعودت قوله لنفسي عندما أكون في الصف وأرى من النافذة الدخان يتصاعد. (مدهش). فكر في ذلك. في المدرسة تقريباً ألف فتاة. افترض مثلا أن 900 منهن بلغن عمر الدورة الشهرية، وأن خمسهن يأتيهن الحيض في وقت واحد، أي 180 فتاة. هذه ثروة 180 فتاة وفُوَط في الأوعية كل يوم».

«أراهن أنك على صواب. برغم أنني لست واثقاً من الحساب».

«على أية حال، هي كثيرة. 180 فتاة. ما الذي تتصوره يعنيه جمع هذا القدر من المواد وإحراقه؟»

قلت: «لا أستطيع أن أتخيل. . كيف لي أن أتخيل ما الذي تشعر به العجوز التي تجمعها؟» مضينا ميدوري وأنا في مراقبة الدخان.

قالت ميدوري: «فعلاً لم أرد الذهاب إلى هذه المدرسة». هزت رأسها هزة خفيفة. «أردت أن أذهب إلى مدرسة حكومية اعتيادية تماماً مع أناس عاديين حيث أستطيع أن أرتاح وأمرح كبقية الفتيات. لكن والديّ رأيا أن من الأفضل لي أن أذهب إلى هذا المكان الخيالي. إنهما من أقحماني هنا. تعرف ما يحدث حين تحصل على معدل جيد في المدرسة الابتدائية. يقول المدرس لأبويك: (مع درجات بهذا المستوى، يجب أن تذهب إلى المدرسة الفلانية). وهكذا انتهيت إلى هنا. قضيت فيها ست سنين، ولم أحبها أبداً. كل ما كنت أفكر فيه هو الخروج منها. أنت تعلم أنني حصلت على شهادات استحقاق لعدم تأخري أو تغيبي يوماً واحداً عن المدرسة. ولهذا السبب أكره هذا المكان إلى هذا الحد. هل فهمت ما أقصد؟»

«لا، لم أفهم تماماً».

«إنه بسبب كرهي هذا المكان بهذا القدر. لم أتركه يهزمني. لو تركته يهزمني مرة لكنت انتهيت. كنت أخاف أن أظل أنزلق إلى الحضيض باستمرار. كنت أزحف إلى المدرسة بدرجة حرارة 103. تسألني المدرّسة هل تعانين من شيء ما؟ وأجيب لا. وحين غادرتها أعطوني شهادات حضور كامل وانضباط تام، بالإضافة إلى قاموس فرنسي. لهذا السبب اخترت الألمانية الآن. لا أريد أن أشعر بالدين لهذه المدرسة في أي شيء. لست أمزح».

«لماذا كرهتها إلى هذا الحد؟»

«هل كنت تحب مدرستك؟»

«حسناً، لم أكن أحبها، لكني لم أكرهها أيضاً. ذهبت إلى مدرسة حكومية اعتيادية، لكني لم أنظر إليها بهذه الطريقة أو تلك».

قالت ميدوري وهي تحك زاوية عينها بإصبعها الصغير: «حسناً، هذه المدرسة ليس فيها شيء سوى فتيات الطبقة الراقية، تقريباً ألف فتاة بخلفيات جيدة ونتائج عالية. فتيات غنيات. يجب أن يكنّ غنيات ليبقين. محاضرات عالية المستوى، تبرعات لا تنتهي، رحلات مدرسية مكلفة. على سبيل المثال، إذا ذهبنا إلى كيوتو، فيجب أن يأخذونا إلى مطعم من الدرجة الأولى، يقدمون لنا طعام حفلة شاي على طاولات لماعة، وكانوا يأخذوننا مرة في السنة إلى مطعم غال في طوكيو لدراسة آداب المائدة. أقصد أن هذه لم تكن مدرسة عادية. من بين 160 طالبة في صفي، كنت الوحيدة من سكان منطقة تنتمي إلى الطبقة الوسطى مثل توشيما. نظرت ذات مرة إلى سجل المدرسة لأرى أين تسكن الأخريات، فكانت كل واحدة منهن من منطقة غنية. لا، بل كانت هناك فتاة واحدة فقط تعيش على الطريق الزراعي الذي يفضي إلى تشيبا، ولذلك عقدت معها ما يشبه الصداقة. كانت لطيفة فعلاً. دعتني إلى بيتها، وإن كانت اعتذرت بأنني يجب أن أقطع كل هذه المسافة حتى أصل إلى هناك. ذهبت، فكان شيئاً لا يصدق. مساحة عملاقة من الأرض تحتاج إلى ربع ساعة لتقطعها. كان فيها حديقة مذهلة. وكلبان متلازمان يطعمونهما أفخر أنواع اللحوم. لكن الفتاة بقيت تشعر بالارتباك لأنها تعيش في تشيبا. تأخذها سيارة مرسيدس بينز، إذا تأخرت. يقودها سائق خاص. بيت باذخ في مزرعة، قفازات بيض. مع ذلك، يخالطها الشعور بعقدة النقص. هل تصدق؟»

هززت رأسي.

«كُنْتُ الفتاة الوحيدة التي تعيش في مكان مثل توشيما. وبرعاية والد، صاحب مكتبة. البنات في الصف كن يتصورنه أمراً رائعاً: يا لك من محظوظة تستطيعين قراءة أي كتاب تشائين. بالطبع كن يتصورنها مكتبة عملاقة مثل المكتبة في كينوكنيا. ينصفق الباب ولا ترى سوى المجلات.

الزبائن الدائمات هن النسوة المتبرجات اللواتي يبحثن عن آخر الصرعات الجنسية. تشتريها ربات البيوت المحليات ويجلسن إلى مائدة المطبخ ليقرأنها من الغلاف إلى الغلاف، ويحاولن تجريب ما قرأنه حين يعود أزواجهن إلى البيت. فيمارسن أكثر المواقف لامعقولية. هل هذا كل ما تفكر فيه ربات البيوت طوال النهار؟ النكتة الأخرى هي المبيعات الأخرى: المجلة، الأحد، القفزة. . . وبالطبع المجلات الأسبوعية. وهكذا فالمكتبة ليست سوى مجلات. نعم هناك بعض الكتب مثل الروايات البوليسية والقصص الغرامية. هذه هي المبيعات. كتب عن أفضل طريقة: أفضل طريقة في تعلم اللغة، في إلقاء خطب الزواج، في الحصول على وظيفة، في الإقلاع عن التدخين، في ممارسة الجنس، وغيرها. طبعاً نبيع بعض القرطاسية: أقلام حبر، أقلام رصاص، دفاتر، الخ. لن تجد لدينا (الحرب والسلام) أو كينزوبورو أوي، أو حارس في حقل الشوفان. تلك هي مكتبة كوباياشي. وهذا هو معنى كوني محظوظة. هل تعتقد أنني محظوظة؟»

«أرى المكان أولاً».

«تعرف ما أقصد. يرتاد مكتبتنا أناس من المنطقة، بعضهم يأتينا من سنوات، ونحن نعطيهم المجلات. وهو عمل جيد، لدعم عائلة تتكون من أربعة أفراد، ليس علينا ديون، أختان في الكلية، وهذا كل شيء. لا يوجد ما يزيد على ذلك. كان يجب ألا يرسلوني إلى مدرسة بهذا المستوى. هذه المدرسة وصفة للصدمة القلبية. يجب أن أسمعهم يتذمرون مني كل مرة تطلب فيها المدرسة تبرعاً ما، وكنت دائماً أخاف حتى الموت إذا خرجت مع صديقات المدرسة وأردن أكل شيء ما مكلف. هذه طريقة بائسة في الحياة. هل عائلتك غنية؟»

«عائلتي؟ لا، أبوايَ يعملان أعمالاً عاديّة، ليسوا بأغنياء ولا فقراء. أعرف أنه ليس من السهل عليهم إرسالي إلى جامعة خاصة في طوكيو، ولكني ابنهم الوحيد، ولذلك فالمسألة ليست بهذه الضخامة. لا يعطونني

الكثير لأعيش به، ولذلك أنا أعمل بالساعة. نعيش في بيت نموذجي فيه حديقة صغيرة وسيارتنا تويوتا موتوريلا».

«ما هي وظيفتك؟»

«أعمل في محل تسجيلات شنجوكو ثلاث ليال في الأسبوع. عمل سهل. فقط أجلس وأراقب المحل».

قالت ميدوري: «هل تمزح؟ لا أعرف، ولكن بمجرد النظر إليك أتصور أنك لم تذق المشقة يوماً».

«هذا صحيح. لا أُعاني من شيء. ولكن أيضاً ليست لدي أطنان من النقود. أنا مثل سائر الناس».

«حسناً، سائر الناس في مدرستي هم الأغنياء». قالت ميدوري وراحتاها في حجرها: «تلك هي المشكلة».

«الآن ستتاح لك فرص كثيرة لرؤية عالم يخلو من تلك المشكلة. ربما أكثر مما تريدين».

«أخبرني. ما هو أفضل شيء في كون الإنسان غنياً؟»

«لا أعرف».

«قدرتك على أن تقول ليس لدي نقود. افتراضاً، إذا اقترحتُ على صديقة أن نقوم بشيء ما، فيمكنها أن تقول (آسفة ليس لدي نقود). لكن هذا شيء لا أستطيع أن أقوله أبداً، إذا كانت الحال معكوسة. لو قلت (لا أملك نقوداً)، فإنها ستعني حقاً أنني لا أمتلك نقوداً. وهذا شيء محزن. مثلما لو أن فتاة جميلة تقول (أبدو قبيحة اليوم ولا أريد الخروج). فهذا لا بأس به. لكن لو قالت فتاة قبيحة العبارة نفسها، فسيضحك الناس عليها. هذا ما كانت عليه الحال بالنسبة لي. ست سنوات حتى السنة الأخيرة».

«ستتخلصين منه».

«أرجو ذلك. الجامعة نوع من الراحة. فهي ملأى بالناس العاديين». ابتسمت بطية صغيرة من شفتها وصففت شعرها القصير براحة يدها.

سألتها: «هل لديك عمل؟»

«نعم، أكتب ملاحظات على الخرائط. هل رأيت الكتيبات الصغيرة التي تأتي مع الخرائط؟ أوصاف مختلف الأمكنة، والأعداد السكانية، وما يتعلق بذلك من أمور. كأن تكتب عن الأثر الفلاني، أو الأسطورة العلانية، أو بعض الزهور أو الطيور الخاصة. أكتب نصوصاً عن هذه الأمور. وهي سهلة جداً!. لا تستغرق وقتاً على الإطلاق. أستطيع أن أكتب كتيباً كاملاً في غضون يوم واحد من البحث في المكتبة. كل ما تحتاج إليه هو أن تتمكن من السيطرة على بعض الأسرار، وستأتيك جميع أنواع العمل تلقائياً».

«أي نوع من الأسرار؟»

«فقط تعبّر عن شيء صغير لم يكتب عنه أحد، وسيعتقد الناس في شركة الخرائط أنك عبقرية أدبية، ويرسلون لك المزيد من العمل. لا يحتاج أن يكون شيئاً مهماً، فقط التقط شيئاً صغيراً. مثلاً لنقل، حين يبنون سداً في هذه المنطقة، تغمر المياه قرية بكاملها، لكنك تقول إن الطيور ما زالت تأتي إليها كل ربيع من الجنوب، وبوسعك أن تراها محلقة فوق البحيرة. بأحدوثة صغيرة من هذا القبيل يحبها الناس أكثر، وتضفي بعض العاطفة على الخارطة. عادة من يعمل بالساعة لا يزعج نفسه بمثل هذه الأشياء، لكني أستطيع أن أكوّن مما أكتبه مبلغاً معقولاً».

«نعم، ولكن يجب أن تعثري على هذه (الأحدوثات)».

«صحيح»، قالت ميدوري بهزة من رأسها، «لكنك إذا بحثت عنها، فستجدها في العادة. وإذا لم تجدها فتستطيع اختلاق شيء ما بلا ضرر».

«أها!».

قالت ميدوري: «رويدك».

قالت إنها أرادت أن تسمع عن المهجع الذي أعيش فيه، ولذلك حدثتها عن القصص الاعتيادية عن رفع العلم ونشيد راديو جندي العاصفة. جندي العاصفة بالتحديد جعل ميدوري تضحك، ويبدو أنه

يحدث الأثر نفسه في الجميع. قالت إنها فكرت بأن تلقي نظرة على المهجع. قلت لها لا يوجد شيء ممتع في المهجع «فقط عدة مئات من الفتيان في غرف قذرة، يشربون ويستمنون».

«هل هذا يشملك؟»

أوضحت لها: «إنه يشمل كل من على وجه الأرض. للبنات الدورات الشهرية، وللبنين الاستمناء. يشمل كل إنسان».

«حتى من لديهم صديقات؟ أعني شريكة جنسيّة».

«لا علاقة لهذا بذلك. طالب من كايو يعيش في غرفة مجاورة لغرفتي يمارس الاستمناء قبل أي موعد له مع صديقته. يقول إنه يريحه».

«لا أعرف الكثير عن هذه الأشياء. كنت في مدرسة بنات لمدة طويلة».

«أعتقد أن المجلات النسوية الخليعة لا تتصدى لمثل هذه الأمور».

«على الإطلاق». قالت ضاحكة. «على أية حال، واتانابي، هل لديك وقت هذا الأحد؟ هل لديك التزام ما؟»

«أنا متفرغ كل أحد. حتى السادسة على الأقل، أي حتى أذهب للعمل».

«لماذا لا تزورني؟ في مكتبة كوباياشي. المحل سيكون مغلقاً، لكنني يجب أن أظل هناك طوال النهار. يجب أن أنتظر مكالمة مهمة. ما رأيك بالغداء؟ سأطهو لك غداءً».

قلت: «أحب ذلك».

انتزعت ميدوري صفحة من دفتر ورسمت خارطة مفصلة بالطريق إلى المكان. استخدمت قلماً أحمر في رسم علامة (X) كبيرة على موقع البيت.

«لن تضل الطريق. هناك لافتة كبيرة: «مكتبة كوباياشي». تعال ظهراً. وستجد الغداء جاهزاً».

شكرتها ووضعت الخارطة في جيبي. قلت: «الآن من الأفضل أن أعود إلى المجمع. محاضرة الألمانية تبدأ في الثانية». قالت ميدوري إنها يجب أن تذهب إلى مكان ما وأخذت القطار إلى يوتسويا.

صباح الأحد، استيقظت في التاسعة، حلقت، أكملت الغسيل، وعلقت ملابسي على الرف. كان يوماً جميلاً. أطلّت أول روائح الخريف في الجو. رفرفت اليعاسيب حول الساحة، يطاردها الأولاد الصغار الذين يؤرجحون الأعشاش. من دون ريح، ترتفع راية الشمس المشرقة متهدلة على ساريتها. ارتديت قميصاً كويته حديثاً ومشيت من المهجع إلى موقف الترام. البيئة الطلابية يوم الأحد صباحاً شبه خاوية، الشوارع ميتة، المحلات أكثرها مغلق. الأصوات القليلة تتردد بوضوح مميز. فتاة تنتعل قبقاباً على ممر الأسفلت، وخلف مظلة الترام أربعة أو خمسة صبيان يرمون الأحجار على صف من العلب الفارغة. كان محل بيع الزهور مفتوحاً، فدخلت واشتريت النرجس البري. النرجس في الخريف: شيء غريب. لكنني كنت دائماً أحب هذه الوردة.

ثلاث عجائز فقط كنّ ركاب الترام صباح ذلك الأحد. نظرن جميعاً إليَّ وإلى الزهور. إحداهن ابتسمت لي. فرددت لها الابتسامة. جلست في المقعد الأخير وراقبت البيوت القديمة تمر قريبة من النافذة. كاد الترام يلامس الأفاريز المعلقة. مغسلة أحد البيوت كان فيها عشر نبتات طماطم مزروعة في جرار، بالقرب منها تتمدد قطة سوداء كبيرة في الشمس. في حديقة بيت آخر، كانت فتاة صغيرة تنفخ فقاعات الصابون. سمعت أغنية «أيومي إيشيدا» قادمة من مكان ما، بل أكاد أشم رائحة طهي طعام بالكاري. سلك الترام طريقه في هذا العالم الخلفي. صعد ركاب آخرون قليلون من مواقف أخرى في الطريق، غير أن العجائز الثلاث واصلن الحديث عمداً عن شيء ما، وهنّ يتكوّمن معاً وجهاً لوجه.

نزلت بالقرب من محطة أوتسوكا وتبعت خارطة ميدوري حتى

الشارع الرئيسي دون أن يكون هناك ما يستحوذ على انتباهي. لا يبدو أن أياً من المحلات المنتشرة على الطريق ينم عن مظهر يدل على البحبوحة، وهي مأهولة كما لو كانت في الأبنية القديمة مع مداخل كئيبة، وكتابات متآكلة على بعض علامات الطريق. إذا حكمنا استناداً إلى عمر المباني وطرازها، فإن هذه المنطقة لا بد أن تكون قد نجت من غارات الحرب الجوية، تاركة قواطع بكاملها بلا مساس. عدد قليل من الأماكن أعيد بناؤها بالكامل، لكن أغلبها تمت توسعته أو إصلاحه، غير أن هذه الإضافات تكاد تطغى عليها الرثاثة أكثر من المباني القديمة نفسها.

يوحي الجو العام للمكان أن أغلب المقيمين هنا في الأصل قد سئموا من السيارات، والهواء الملوث والضجيج والإيجارات الغالية فانتقلوا إلى الضواحي، غير تاركين سوى الشقق الرخيصة والعمارات السكنية العامة والمحلات الخردة وبعض الناس العنيدين الذين تمسكوا بأملاك عوائلهم القديمة. بدا لي كل شيء ضبابياً ومسخماً وكأنه ملفوف بسديم من الأدخنة المحروقة.

عشر دقائق من المشي نقلتني من هذا الشارع إلى زاوية محطة البنزين، حيث استدرت يميناً إلى قاطع صغير من المحلات، عُلّقت في منتصفه لافتة تحمل اسم «مكتبة كوباياشي». حقاً لم يكن محلاً كبيراً، لكنه أيضاً لم يكن بالصغر الذي أوحى إليّ به وصف ميدوري. كانت مكتبة مثل سائر المكتبات المجاورة، من النوع الذي تعودت أن أهرع إليه حين ظهرت المجلات الفكاهية للصبيان. غمرني الحنين وأنا أقف أمام المكان.

كانت واجهة المحل بكاملها يغطيها مصراع معدني كبير يعلوه إعلان عن مجلة: (تباع مجلة بونش الأسبوعية هنا كل أحد). ما زالت 15 دقيقة على الظهر، لكني لم أرد قتل الوقت بالتجول وفي يدي باقة من النرجس، ولذلك نقرت الجرس المجاور لباب المكتبة، وخطوت متراجعاً إلى الخلف لكي أنتظر. مرت خمس عشرة ثانية بدون جواب، وحين كنت

أسأل نفسي هل أضرب الجرس مرة أخرى، سمعت صرير نافذة تنفتح فوق رأسي. تطلعت إلى الأعلى، فرأيت ميدوري واقفة تلوّح لي.

هتفت: «ادخل. ارفع الباب».

ناديت: «هل الأمر على ما يرام؟ أنا مبكر قليلاً».

«لا مشكلة. اصعد إلى الأعلى. أنا مشغولة في المطبخ». وسحبت النافذة لتغلقها.

أحدث الباب صوتاً مدوياً رهيباً وأنا أرفعه ثلاثة أقدام عن الأرض، وانحنيت تحته، وأنزلته ثانية. كان المحل حالك السواد في الداخل. قررت أن أتحسس طريقي إلى السلم المظلم، متجاوزاً أكواماً لا حصر لها من المجلات. ففككت رباط حذائي وصعدت السلم إلى غرفة الجلوس. كان مدخل البيت مظلماً وكئيباً. يفضي السلم إلى غرفة استقبال بسيطة فيها أريكة وكراس بالية. كانت غرفة بسيطة يتخللها ضوء خفيف يأتي من النافذة، فيذكرك بالأفلام البولندية القديمة. كان هناك ما يشبه المخزن على اليسار، وما بدا أنه باب إلى حمام. كان عليّ أن أصعد السلم بحذر لكي أصل إلى الطابق الثاني، لكنني حالما وصلت إلى هناك، فوجئت بأنه أكثر إنارة من الطابق الأول، فشعرت براحة كبيرة.

ارتفع صوت ميدوري: «هنا فوق». إلى اليمين في أعلى السلم ظهر ما يشبه غرفة الطعام، وخلفها مطبخ. كان البيت نفسه قديماً، غير أن المطبخ بدا وكأنه أعيد ترميمه مؤخراً بخزائن جديدة ومغسلة براقة، لامعة وحنفيات. كانت ميدوري تحضر الطعام. ثمة قِدر تبقبق على النار، والهواء مفعم برائحة سمكة مشوية.

ألقت ميدوري نظرة باتجاهي وقالت: «ثمة بيرة في الثلاجة. إجلس قليلاً حتى أنهي هذه». أخرجت علبة وجلست إلى مائدة المطبخ. كانت البيرة باردة جداً حتى كأنها بقيت في الثلاجة سنة كاملة. على المائدة منفضة سجائر بيضاء، وجريدة، وقنينة صلصة الصويا. كانت هناك

قصاصة ورق وقلم، ورقم تلفون وبعض الأرقام على القصاصة يبدو أنها حسابات لها صلة بالتسوق.

قالت: «سأنتهي في غضون عشر دقائق. هل تحتمل الانتظار؟»

قلت: «بالطبع أحتمله».

«إذاً هيئ نفسك بالجوع، فقد أعددت الكثير».

احتسيت بيرتي وركزت على ميدوري وهي تواصل الطبخ، وظهرها لي. كانت تعمل بحركات سريعة، رشيقة، وهي تعالج ما لا يقل عن أربعة إجراءات طبخ مرة واحدة. تذوقتْ صحناً مغلياً، وقطعت الثاني فرماً، ثم أخرجت من الثلاجة شيئاً وكومته في وعاء، وقبل أن أعرف ما هو غسلت القدر وانتهت من استعماله. من الخلف بدت وكأنها عازف هندي يقرع جرساً، وينقر على طبل، ويضرب عظم جاموس مائي، بحركات دقيقة مضبوطة، وباتزان كامل. راقبتها برهبة.

قلت من باب الاحتياط: «أخبريني إذا كان بإمكاني أن أفعل شيئاً».

قالت ميدوري وهي تبتسم متطلعة نحوي: «لا بأس. من عادتي أن أقوم بكل شيء وحدي». كانت ترتدي بنطال جينز ضيقاً، وقميص بحارة. على ظهر القميص شعار تسجيلات التفاحة. لديها وركان ضيقان إلى حد كبير، وكأنها طفرت إلى البلوغ حين كان الوركان يكبران، وهذا ما يضفي عليها مظهراً خنثوياً أكثر بكثير من الفتيات اللواتي يلبسن الجينز الضيق. وقد أضفى الضوء الذي يسقط من نافذة المطبخ شكلاً مبهماً من نوع ما.

قلت: «فعلاً ما كان يجب أن تُعِدّي كل هذا الاحتفال».

أجابت ميدوري دون أن تستدير باتجاهي: «ليس هذا احتفالاً. انشغلت أمس كلياً عن التسوق. ولا أقوم إلا بإخراج أشياء من الثلاجة حقاً، لا تقلق. أضف إلى ذلك أن من تقاليد عائلة كوياباشي أن يعاملوا الضيوف جيداً. نحن نحب إكرام الضيف. بالفطرة، نوع من المرض. لا أعني أننا ننفرد بخصال مميزة، أو أن الناس يحبوننا، أو ما أشبه، ولكن

إذا زارنا أحد فيجب أن نعامله معاملة حسنة مهما كان. نعاني جميعاً من هذا الخلل في الشخصية، سواء أكان ميزة أم خلة. خذ أبي، على سبيل المثال. لا يشرب إلا نادراً، لكن البيت ممتلئ بالكحول. لماذا؟ لخدمة الضيوف! ولهذا لا تبالِ: اشرب ما تريده من بيرة».

قلت: «شكراً».

فجأة توارد على بالي أنني تركت باقة النرجس عند السلم. لقد وضعتها جانباً وأنا أفك رباط حذائي. نزلت إلى السلم ووجدت الأزاهير العشر الوهاجة تتمدد في الظلمة. أخرجت ميدوري كأساً طويلة، نحيفة، من الدولاب ورتبت فيها الزهور.

قالت ميدوري: «أحب النرجس. غنيت مرة «سبع زهور نرجس» في مباراة المواهب المدرسية. هل تعرفها؟»

«بالطبع».

«كنا مجموعة شعبية. أنا أعزف القيثار».

غنّت «سبع زهور نرجس» وهي ترتب الطعام في الأطباق.

كان طبخ ميدوري أفضل بكثير مما توقعت: تشكيلة مذهلة من الصحون المقلية، والمخللة، والمغلية، والمحمصة، مع البيض والسمك البحري، والخضروات الطازجة، والباذنجان، والفطر، والفجل، وبذور السمسم، كلها مطبوخة بأسلوب كيوتو الرهيف.

قلت وفمي ملآن: «هذا عظيم».

قالت ميدوري: «حسناً، قل لي الحقيقة الآن. لم تتوقع أن يكون طبخي بهذه الجودة، استناداً إلى الطريقة التي أبدو فيها؟»

قلت بنزاهة: «في الواقع لا».

«أنت من منطقة كانساي، وتحب هذا النوع من التشكيلات الرقيقة، أليس كذلك؟»

«لا تقولي إنك غيرت أسلوبك خصيصاً من أجلي؟»

«لا تكن سخيفاً! لا أزعج نفسي إلى هذا الحد. لا، نحن دائماً نأكل بهذا الشكل».

«إذاً فأمك - أو أبوك - من كانساي؟»

«كلا. ولد أبي في طوكيو وأمي من فوكوشيما. وليس بين أقاربي شخص واحد من كانساي. نحن جميعاً من طوكيو أو شمال كانتو».

قلت: «لا أفهم. كيف تعدّين هذا الطعام على طراز كانساي الأصيل مائة بالمائة؟ هل علمك أحد؟»

قالت وهي تأكل شريحة من البيض المسلوق: «حسناً، إنها قصة طويلة نوعاً ما. كرهت أمي أعمال المنزل من أي نوع، وتقريباً توقفت عن الطبخ تماماً. وانشغلنا نحن عن التفكير في هذا الأمر، كنا دائماً نقول: نحن اليوم مشغولون تماماً، لنتناول الطعام الجاهز، أو لنشتر لحماً مفروماً من القصاب وهكذا. كرهت ذلك منذ كنت صغيرة، أعني الطبخ في قِدر كاري كبيرة وأكل الشيء نفسه لثلاثة أيام على التوالي. ثم في يوم ما - كنت في السنة المدرسيةالخامسة- قررت أن أطبخ للعائلة وأطبخ على خير وجه. ذهبت إلى مكتبة كينوكونيا في شنجوكو واشتريت أكبر وأفخم دليل طبخ وجدته لديهم، وقرأته من الغلاف إلى الغلاف: كيف تختارين المفرمة، كيف تشحذين السكاكين، كيف تنزعين عظام السمكة، كيف تزيلين الزعانف والقشور، كل شيء. ثم ظهر أن مؤلف الكتاب كان من كانساي. ولهذا طبخي كله على طراز كانساي!».

«تقصدين أنك تعلمت جميع هذه الأشياء من كتاب؟»

«وفّرت نقودي وصرت آكل أكلاً حقيقياً. بهذه الطريقة تعلمت أحسن الطبخات. لدي دائماً حدس جيد. لكنني ميؤوس مني من ناحية التفكير المنطقي».

«شيء مذهل أن تعلّمي نفسك الطبخ بهذه الجودة دون أن يساعدك أحد».

قالت ميدوري بتنهيدة: «لم يكن الأمر بتلك السهولة، أن يكبر المرء في بيت لا يعير أدنى التفاتة للطعام. كنت أقول لهم أريد أن أشتري سكاكين محترمة وقدوراً كافية لكنهم لا يعطونني النقود. كانوا يقولون: ما نملكه الآن جيد بما يكفي، فكنت أقول هذا جنون، لا تستطيعون نزع عظام سمكة بهذا النوع من السكاكين الرديئة التي عندنا في البيت، وكانوا يردّون: لماذا بحق الجحيم تنزعين عظام السمكة؟ كان التفاهم معهم أمراً ميؤوساً منه. وفرت مصروفي واشتريت مجموعة جيدة من السكاكين العملية والقدور والمصافي وسواها. هل تصدق ذلك؟ تخيل فتاة في الخامسة عشرة تسرق مصروفها لشراء المصافي والمبارد والقدور، بينما فتيات المدارس الأخريات يحصلن على مصروفات كبيرة ويشترين الملابس والأحذية الجميلة. ألا تشعر بالأسف من أجلي؟»

هززت رأسي وأنا أمضغ لقمة من الحساء بالخضار.

«حين كنت في الصف السادس، كان يجب أن يكون لدي مقلاة بيض بالإضافة إلى قِدر صغيرة لإعداد بيض مقلي بطريقة داشيماكي الذي نأكله. اشتريتها بنقود كان يفترض أن أشتري بها حمالة صدر جديدة. ولمدة ثلاثة أشهر، كان عليّ أن ألبس حمالة صدر واحدة. هل تصدق ذلك؟ كنت أغسل حمالتي ليلاً، وأحتمل الجنون حتى تجف وألبسها في اليوم الثاني. وإذا لم أحسن تجفيفها، أواجه مأساة في العناية بها. أكثر الأشياء المحزنة في العالم هو أن تلبس فتاة حمالة صدر رطبة. كنت أمشي والدموع تتصبب من عيني. أفكر أنني أعاني كل هذه المعاناة من أجل مقلاة بيض!».

قلت ضاحكاً: «أفهم ما تقصدين».

«أعرف أنني يجب ألا أقول هذا، لكني فعلاً شعرت بنوع من الراحة حين ماتت أمي. صار بمستطاعي إدارة ميزانية العائلة بطريقتي. صار بمستطاعي شراء ما أريده. صار عندي تقريباً مجموعة كاملة من أواني الطبخ. وأبي لا يعرف شيئاً عن الميزانية».

«متى ماتت أمك؟»

«قبل سنتين. ماتت بالسرطان. ورم دماغي. بقيتْ في المستشفى سنة ونصفاً. كان شيئاً فظيعاً. ظلت تعاني من البداية إلى النهاية. وأخيراً فقدت عقلها، صار يجب تخديرها طوال الوقت، لكنها لم تمت، وحين ماتت، فقد كان موتها قتلاً رحيماً من الناحية العملية. أسوأ أنواع الموت أن يعاني المرء العذاب، وتتجرع العائلة الويلات. أخذت منا كل قرش نملكه. أعني أنها كان يجب أن تحظى بالعناية الطبية على مدار الساعة. وقد انشغلت معها جداً، لم أستطع الدراسة، وتأخرت سنة عن الجامعة. وكأن ذلك لم يكن كافياً...».

توقفت في منتصف الجملة، ووضعت أعوادها جانباً وتنهدت: «كيف تحولت هذه المناقشة إلى مناقشة سوداء فجأة؟»

قلت: «بدأتِ بالحديث عن الحمالات».

قالت ميدوري بتعبير رزين: «على أية حال، كلْ بيضك، وفكر فيما قلته لك تواً».

أتخمني أكل حصتي من الطعام، لكن ميدوري أكلت أقل كثيراً. قالت: «الطبخ يدمر شهيتي». نظفت المائدة، ومسحت الفتات، وأخرجت علبة مارلبورو، وضعت واحدة في فمها وأشعلتها بولاعة. تمعنت في براعم النرجس، وهي تحمل الزجاجة للحظة.

قالت: «لا أظن أنني سأضعها في مزهرية. إذا تركتها بهذا الشكل، أحس كأني قطفتها من بركة في مكان ما ورميتها في أول مكان جاء في متناول يدي».

قلت: «قطفتها من بركة في محطة أوتسوكا».

غمغمت: «أنت غريب. تلقي بالنكات بطريقة جادّة تماماً».

دخنت نصف سيجارتها، وذقنها في يدها، ثم أطفأتها في المنفضة. أغمضت عينيها وكأن الدخان خالطها.

«يفترض أن تكون الفتيات أكثر أناقة قليلاً في إطفاء السجائر. أنت تطفئينها كحطاب. ولا تكتفين بإطفائها في المنفضة، بل تمردين حواف الرماد فيها. ثم إن المفروض بالفتيات ألا تنفث الدخان من الأنف. تمتنع أغلب الفتيات عن الحديث عن الكيفية التي لبسن فيها الحمالة نفسها لمدة ثلاثة أشهر وهن يأكلن منفردات بصحبة رجل».

قالت ميدوري وهي تحك ما حول أنفها: «أنا حطاب. لا أستطيع أبداً أن أكون رقيقة. أحاول أحياناً من باب الدعابة، ولا تلبث أن تزول. هل من نقد آخر لي؟»

قلت: «لا تدخن الفتيات مارلبورو».

«وما الفرق؟ تتشابه الأذواق في سوئها». أدارت علبة المارلبورو ظهراً لوجه في يدها. «بدأت التدخين في الشهر الماضي. لم أكن متلهفة للتبغ أو أي شيء. فقط شعرت برغبة فيه».

سألتها: «لم هذا؟»

ضمت يديها معاً على الطاولة وفكرت قليلاً: «ما الفرق؟ أنت لا تدخن؟»

قلت: «أقلعت عنه في يونيو».

«كيف حصل ذلك؟»

«كان أمراً مؤلماً. كرهت أن أركض في الشوارع بحثاً عن الدخان في أنصاف الليالي. لا أحب أن يسيطر عليّ شيء بهذه الطريقة».

قالت: «كل شيء واضح لك بخصوص ما تحب وما لا تحب».

قلت: «ربما. ربما لهذا السبب لا يحبني الناس. ولم يحبوني أبداً».

قالت: «بل لأنك تعلن ذلك. أنت توضح أنك لا تعبأ سواء أحبك الناس أم كرهوك. وهذا يغضب بعض الناس». تكلمت بما يقرب من الغمغمة، وذقنها في يدها. «لكنني أحب الحديث معك. الطريقة التي تتحدث بها غير عادية: (لا أحب أن يسيطر عليّ شيء بهذه الطريقة)».

ساعدتها في غسل الأطباق. وقفت إلى جوارها، أمسح ما تغسله، وأرتبه وأضعه في مكانه.

قلت: «إذاً فعائلتك كلها خارج البيت اليوم؟»

«أمي في قبرها. ماتت قبل سنتين».

«نعم، سمعت ذلك الجزء».

«أختي لديها موعد مع خطيبها. ربما ذهبا في جولة في السيارة. يعمل صديقها في شركة سيارات. يحب السيارات. أنا لا أحب السيارات».

توقفت ميدوري عن الكلام، فصرت أغسل الأطباق. وتوقفت عن الكلام ومسحت الأطباق.

قالت بعد مرور وقت: «ثم هناك أبي».

قلت: «صحيح».

«ذهب إلى أورغواي في يونيو من العام الماضي وما زال هناك حتى الآن».

«أورغواي؟ لماذا أورغواي؟»

«كان يفكر في الاستقرار هناك، صدق أو لا تصدق. لديه زميل قديم في الجيش كان يمتلك مزرعة هناك. فجأة، صار أبي يعلن أنه سيسافر أيضاً، ولا حدود لما يمكن أن يقوم به في أورغواي، استقل الطائرة وهذا كل شيء. حاولنا جاهدين أن نُثْنِيَهُ، قلنا له مثلاً: لماذا تريد الذهاب إلى مكان كهذا؟ لا تعرف اللغة، ولم تترك طوكيو في حياتك يوماً؟. لكنه لم يصغ لنا. كان فقدان أمي صدمة حقيقية له. أعني أنه فقد صوابه قليلاً. فقد كان يحبها كثيراً. حقاً».

لم يكن لدي ما أقوله. حدقت في ميدوري بفم مفتوح.

«ماذا تظن قال لي ولأختي حين ماتت أمنا؟ قال: ليتني فقدت كليكما ولم أفقدها. عصف بي هذا الكلام عصفاً. لم أستطع قول كلمة. هل

تفهم ما أقصده؟ لا تستطيع أن تقول كلاماً كهذا. حسناً، فقد المرأة التي أَحَبَّها، شريكته في الحياة. أفهم الألم، والحزن، والفجيعة. أشفق عليه. لكنك لا تقول للبنات اللواتي أنجبتهن: كان يجب أن تموتا بدلاً عنها. أعني أن هذا شيء فظيع. ألا تتفق معي؟»

«نعم، أفهم ما تقصدين».

قالت وهي تهز رأسها: «هذا جرح لن يندمل أبداً. لكن على أية حال، كل شخص في عائلتنا مختلف قليلاً. لدى كل منا شيء ينطوي على بعض الغرابة».

قلت: «يبدو هذا».

«مع ذلك يظل من العجيب لشخصين أن يحب أحدهما الآخر، ألا تعتقد؟ أعني أن يقول رجل يحب زوجته بهذا المقدار لابنتيه إنهما كان يجب أن تموتا بدلاً عنها. . . !».

«ربما الأمر كذلك، أنت الآن تعبرين عنه بهذه الكيفية».

«ثم تخلص من كلتينا وهرب إلى أورغواي».

مسحت طبقاً آخر دون أن أردّ. في الأخير، أعادت ميدوري كل شيء إلى الدولاب.

سألتها: «وبعدها هل بعث لكما أبوكما برسالة؟»

«بطاقة بريدية واحدة. في مارس. لكن ماذا كتب؟ الدنيا حارة هنا، أو الفاكهة ليست بالجودة التي توقعتها. أشياء على هذه الشاكلة. أعني قف معي قليلاً. صورة بليدة لحمار! لقد فقد أعصابه! لم يقل حتى ما إذا كان قد التقى الرجل صديقه أو لا. في النهاية أضاف ملاحظة سريعة إذا استقر سيبعث لي ولأختي، ولكن لم تصل حتى ولا كلمة منذ ذلك الحين. ولا يجيب على رسائلنا أبداً».

«لكن ماذا تفعلين إذا قال أبوك: تعالوا إلى أورغواي؟»

«أنا سأذهب، على الأقل ألقي نظرة. من باب الدعابة. أما أختي

فتقول إنها سترفض قطعاً. لا تستطيع احتمال الأشياء القذرة والأماكن القذرة».

«هل أورغواي قذرة؟»

«من يعرف؟ هي تعتقد أنها قذرة. الطرق ملأى بروث الحيوانات وتعج بالذباب، والتواليتات لا تعمل، والزواحف والعقارب تدب في كل مكان. ربما رأت فيلماً حول ذلك. وهي لا تستطيع احتمال الذباب أيضاً. كل ما تريد أن تفعله هو التجول في الأماكن الشاعرية وهي تركب السيارات الفارهة».

«لا يمكن».

«أقصد ما العيب في أورغواي؟ سأذهب».

«إذاً من يدير المحل؟»

«أختي، لكنها تكرهه. لدينا عم قريب في المحلة وهو يساعد في القيام بأعباء التسليم والاستلام. وأنا أساعد حين يتسع وقتي. المكتبة ليست بالعمل الشاق تماماً، ولذلك نستطيع تدبرها. وإذا ضاق الأمر، نبيع المكان».

«هل تحبين والدك؟»

هزت ميدوري رأسها: «ليس كما يُفترض».

«إذاً كيف ستتبعينه إلى أورغواي؟»

«أنا أؤمن به».

«تؤمنين به؟»

«نعم، لست مولعة به كثيراً، لكني أؤمن بأبي. كيف لا أؤمن برجل يتخلى عن بيته، وأبنائه، وعمله ويهرب إلى أورغواي مصدوماً من فقدان زوجته؟ هل ترى ما أقصده؟»

تنهدتُ: «نوعاً ما، ولكن ليس تماماً».

ضحكت ميدوري وربتت على ظهري. قالت: «دعك من هذا. الأمر في الحقيقة لا يهم».

تـوالـت الأشـيـاء الـغـريـبـة واحـداً في إثـر الآخـر ظـهـيـرة ذلـك الأحـد. اندلعت نار بالقرب من بيت ميدوري، وحين ذهبنا إلى منصة الغسيل في الطابق الثالث، تبادلنا أنا وميدوري ما يشبه القبل. يبدو من الغباء أن أعبر عنها بهذا الشكل، لكن هذه هي الطريقة التي حصلت فيها الأشياء.

حين كنا نشرب القهوة بعد الأكل ونتحدث عن الجامعة سمعنا الصافرات. بدأ صراخها يتعالى شيئاً فشيئاً، كما لو أنها تزداد عدداً. هرع كثير من الناس من المحلات، وبعضهم يصرخ. ذهبت ميدوري إلى غرفة تواجه الشارع وفتحت النافذة وتطلعت إلى الأسفل. قالت: «انتظر هنا لحظة». واختفت، بعدها سمعت صوت سيارة ترفع سلماً. جلست أشرب القهوة وحدي محاولاً أن أتذكر أين تقع الأورغواي. دعنا نرى، ها هنا البرازيل، وفنزويلا هناك، وكولومبيا في مكان ما هنا، لكني لم أستطع تذكر موقع أورغواي. بعد دقائق جاءت ميدوري واستحثتني أن أستعجل وألحق بها إلى مكان ما. تبعتها إلى نهاية قاعة، وصعدت درجاً ضيقاً منحدراً إلى منصة خشبية. كانت المنصة أعلى من جميع السطوح المجاورة وتسمح بإلقاء نظرة جيدة من فوق على ما حولها. كانت تتعالى غيوم كثيفة من الدخان الأسود من مكان لا يفصلنا عنه سوى ثلاثة أو أربعة بيوت، وحملها النسيم إلى أعلى الشارع فأفعمت الهواء رائحة الاحتراق.

قالت ميدوري وهي تمسك بالدرابزون: «إنه بيت ساكاموتو. معتادون على استخدام سلاسل الباب التقليدية وما أشبه. خرجوا في شغل ما منذ مدة».

أمسكت بالدرابزون معها وأجهدت نفسي لرؤية ما يجري. حجب مبنى من ثلاثة طوابق عنا رؤية الحريق، ولكن يبدو أن هناك ثلاث أو أربع سيارات إطفاء تعمل على إطفاء اللهب. لم تنحشر سوى اثنتين منها في الزقاق الضيق حيث يحترق البيت، بينما وقفت البقية في الشارع الرئيس. وقد ملأ زحام البلهاء الاعتيادي المنطقة.

قلت لميدوري: «ربما يجب أن تجمعي ما لديكم من أشياء ثمينة

وتستعدي لإخلاء المكان. بدأت النار تشب في الاتجاه الآخر الآن، لكن يمكن أن يتغير اتجاهها في أية لحظة، وهناك بالقرب منكم محطة وقود. سأساعدك على حزم الأمتعة».

قالت ميدوري: «أية أشياء ثمينة؟»

«حسناً، لا بد أن لديكم ما تريدون الاحتفاظ به، دفاتر مصرف، وصولات، أوراق قانونية، أشياء من هذا القبيل».

«دعك من ذلك. لن أهرب».

«حتى لو احترق هذا المكان؟»

«سمعتني. لا أبالي بالموت».

نظرت في عينيها وهي تتطلّع مباشرة إليَّ. لم أستطع أن أجزم أهي جادة أم تمزح. بقينا على هذه الحال لفترة، ثم توقفت عن القلق سريعاً.

قلت: «حسناً، أفهم. سأبقى».

سألتني ميدوري بعينين لامعتين: «هل ستموت معي؟»

قلت: «على الإطلاق. سأهرب إذا جد الجد. إذا أردت أن تموتي، فتستطيعين أن تموتي وحدك».

«ابن حرام بارد الشعور!».

«لن أموت معك فقط لأنك قدّمت لي غداءً. وحتى لو كان عشاء....»

«حسناً، على أية حال، دعنا نبقى هنا ونراقب لفترة. نستطيع أن نغني. وإذا حدث ما يسوء، سنفكر فيه حينئذ».

«نغنّي؟»

جلبت ميدوري وسادتين أرضيتين، وأربع علب بيرة وقيثاراً من الأسفل. كنا نشرب ونراقب الدخان الأسود يتصاعد. داعبت الأوتار وغنّت. سألتها هل تعتقد أن هذا يمكن أن يغضب الجيران. فشرب البيرة والغناء وأنت تراقب الحريق في المحلة من على منصة الغسيل لا يبدو السلوك المقبول الذي تظنه.

قالت: «دعك منه. لا تقلق أبداً لما يظنه الجيران».

غنت بعض الأغاني الشعبية التي كانت قد عزفتها مع مجموعتها. من الصعب أن أقول إنها جيدة، لكنها كانت تتمتع بما تؤديه من موسيقى. أدت جميع الألحان القديمة: «شجرة الليمون»، «التنين السحري»، «خمسمائة ميل»، «أين ذهبت جميع الورود؟»، «ميخائيل، جدف القارب على الساحل». في البداية حاولت أن تجعلني أغني لحناً جهيراً، لكني كنت من الرداءة إلى حد دفعها للتخلي عن الفكرة والغناء وحدها للتعبير عن خلجات قلبها. بقيت أشرب البيرة وأستمع لغنائها، وأبقيت عيناً على الحريق. خبا وتوهج عدة مرات. كان الناس يتصايحون ويصدرون الأوامر لبعضهم. حلقت في السماء طائرة هليكوبتر تلتقط الصور الأخبار وابتعدت. خشيت أن نظهر في الصور. هتف شرطي بواسطة مكبر صوت في المتجمهرين أن يتراجعوا. كان طفل صغير يبكي على أمه. تهشمت زجاجة في مكان ما. وقبل مرور وقت طويل بدأت الريح بالتحول على نحو غير متوقع، وتساقطت حولنا رقائق الدخان الأبيض من الهواء، لكن ميدوري واصلت شرب البيرة والغناء. وبعد أن استعرضت أغلب الأغاني التي تعرفها، غنت أغنية غريبة قالت إنها كتبتها بنفسها:

أتمنى أن أطبخ خلطة أكل لك،
لكني لا أملك قدراً.
أتمنى أن أنسج لفاحاً لك،
لكني لا أملك صوفاً.
أتمنى أن أكتب شعراً لك،
لكني لا أملك قلماً.

أعلنت ميدوري: «اسمها: (ليس لدي شيء)». كانت أغنية فظيعة بحق، من حيث الكلمات والموسيقى.

كنت أستمع إلى هذا الخليط الموسيقي وأفكر أن البيت سيعصف به الانفجار عصفاً إذا وصل الحريق إلى محطة الوقود. حين تعبت ميدوري من الغناء، وضعت القيثار جانباً، واسترخت على كتفي كقطة في الشمس.

سألتني: «كيف رأيت أغنيتي؟»

أجبت بحذر: «كانت فريدة وأصيلة ومعبرة تماماً عن شخصيتك».

قالت: «شكراً. موضوعها أنني لا أملك شيئاً».

«نعم، هذا ما فكرت فيه نوعاً ما».

قالت: «أنت تعرف، حين ماتت أمي..».

«نعم؟»

«لم أشعر بذرة من الحزن».

«أوووه».

«ولم أشعر بالحزن حين غادر أبي أيضاً».

«حقاً؟»

«هذا صحيح. ألا تعتقد أنني فظيعة؟ باردة الشعور؟»

«أنا متأكد أن لديك أسبابك».

«أسبابي. هممم. كانت الأمور في غاية التعقيد في هذا البيت. أقصد أنني كنت دائماً أفكر أنهما أبي وأمي، وبالطبع يجب أن أحزن إذا ماتا أو إذا لم أرهما مرة أخرى. لكن الأمور لم تجر على هذا النحو. لم أشعر بأي شيء. لا بالحزن، ولا بالوحدة. بل إنني نادراً ما أفكر فيهما. أحياناً تراودني الأحلام. أحياناً تطل عليَّ أمي من الظلمة وتتهمني بالسعادة لكونها ماتت. لكنني لست سعيدة لأنها ماتت. فقط لست حزينة جداً. والحقيقة أنني لم أسكب دمعة واحدة. ظللت أبكي مدراراً طوال الليل، حين ماتت قطتي، وأنا صغيرة».

تساءلت مع نفسي: لماذا هذا الدخان الكثيف؟ لا أستطيع أن أرى اللهيب، ولا يبدو أن المنطقة المحترقة اتسعت. هناك فقط هذا العمود من

الدخان الذي يتلوى في السماء. ما الذي جعل الحريق يدوم كل هذا الوقت؟

استمرت ميدوري: «لكنني لست الملوم الوحيد. صحيح أن لدي طبعاً بارداً. أعرف ذلك. لكن لو أنهما، أبي وأمي، أحباني أكثر قليلاً، لتمكنت من الشعور بما هو أكثر - من الشعور بالحزن حقيقة عليهما، مثلاً».

«هل تعتقدين أنهما لم يحيطاك بالحب بما يكفي؟»

أمالت رأسها وتطلعت إليَّ. ثم هزت رأسها هزة حادة صغيرة: «في مكان ما بين (لا يكفي) و(ليس على الإطلاق). كنت دائماً جائعة للحب. مرة، أردت أن أعرف ماذا يعني أن أشبع حاجتي منه، أي أن أتغذى بالحب بحيث لا أستطيع أخذ المزيد. مرة واحدة فقط. لكنهما لم يعطيا ذلك لي أبداً. أبداً ولا مرة واحدة. إذا حاولت أن أحتضنهما وأتوسل للحصول على شيء، يدفعانني وينهرانني: (لا، هذا يكلف الكثير!). دائماً كنت أسمع هذا. هكذا قر قراري أن أبحث عن شخص يحبني حباً غير مشروط 365 يوماً في السنة. كنت ما أزال في المدرسة الابتدائية في ذلك الحين، لكن حسمت أمري مرة واحدة وإلى الأبد».

قلت: «يا للويل، هل كنت تبحثين عن الانتقام؟»

قالت ميدوري: «ذلك هو الجزء الصعب». راقبت الدخان المتصاعد لفترة وهي تفكر. «أعتقد أنني انتظرت طويلاً لأنني أبحث عن الكمال. وهذا ما يعقد الأمر».

«انتظار الحب الكامل؟»

«لا، بل إنني أبحث عما هو أفضل. أنا أبحث عن الأنانية. الأنانية الكاملة. مثلاً، أقول لك إنني أريد أن آكل كعكة بالفراولة. وأنت تترك كل ما في يديك وتركض خارجاً لشرائها لي. تعود منقطع الأنفاس تزحف على ركبتيك وأنت تحمل كعكة الفراولة لي. فأقول لم أعد أريدها، وأرمي بها من النافذة. هذا ما أبحث عنه».

قلت بشيء من الذهول: «لست أدري ما علاقة هذا بالحب».

قالت: «له علاقة. أنت فقط لا تعرفها. تمر أوقات في حياة الفتاة تكتسب بها مثل هذه الأشياء أهمية لا تصدق».

«أشياء مثل رمي كعكة الفراولة من النافذة؟»

«بالضبط. وبعد أن أرميها، أريد من الرجل أن يعتذر لي: الآن أفهم، ميدوري، أي أحمق كنت! كان يجب أن أدرك أنك فقدت رغبتك بكعكة الفراولة. أتمتع بذكاء حمار وحساسية بغل. ولكي أصلح ما أفسدته، سأخرج الآن وأشتري لك شيئاً آخر. ماذا تريدين؟ حلوى الشوكولاتة؟ كعكة بالجبن؟»

«ثم ماذا؟»

«ثم أعطيه كل ما يستحق من حب لما قام به».

«يبدو لي جنوناً».

«حسناً، في رأيي هذا هو الحب. ولكن لا أحد يفهمني». هزت ميدوري رأسها هزة خفيفة على كتفي. «لبعض الأشخاص، يبدأ الحب من شيء ضئيل أو سخيف. من شيء كهذا أو لا يبدأ على الإطلاق».

«لم أر أبداً فتاة تفكر مثلك».

قالت وهي تحفر في أطراف أناملها: «هذا ما يقوله لي كثير من الناس. لكن هذه هي الطريقة التي أعرف بها التفكير فيه. جدياً. أنا فقط أخبرك بما أعتقد. لم يخطر ببالي أبداً أن طريقتي في التفكير تختلف عن الآخرين. ولا أحاول أن أظهر بمظهر المختلفة. لكن حين أتحدث بنزاهة، يظن الكثيرون أنني أمزح أو أمثّل. وحين يحدث هذا أشعر أن كل شيء يصبح مبعث ألم».

«وتريدين أن تموتي احتراقاً؟»

«لا، هذا مختلف. هذا مجرد فضول».

«ماذا؟ الموت احتراقاً؟»

قالت ميدوري: «لا، أردت أن أعرف ردّ فعلك فقط. لكني لا أخاف الموت. فعلاً. كما حصل هنا، كان يمكن أن يغمرني الدخان وأفقد وعيي وأموت قبل أن أعرف ردّ فعلك. هذا لا يخيفني على الإطلاق، قياساً بالطريقة التي رأيت فيها أمي وبعض أقاربي يموتون. جميع أقاربي يموتون بعد معاناة مرض فظيع. أظن أنه شيء في الدم. دائماً عملية طويلة، طويلة وفي النهاية لا تستطيع أن تقطع هل أن الشخص حي أم ميت. كل ما يبقى هو الألم والمعاناة».

وضعت ميدوري سيجارة مارلبورو بين شفتيها وأشعلتها.

«هذا هو نوع الموت الذي يخيفني. أن يقترب ظل الموت ببطء، وببطء يلتهم بقية الحياة، وقبل أن تعرف، يظلم كل شيء، فلا ترى، ويعتقد الناس حواليك أنك ميت أكثر منك حياً. أكره هذا. ولا أستطيع احتماله».

بعد نصف ساعة اختفت النيران. من الواضح أنهم تمكنوا من منعها من الانتشار وحالوا دون حدوث إصابات. عادت جميع سيارات الإطفاء إلى قواعدها، باستثناء واحدة، وتفرق الحشد وهم يتناقشون حول ما حصل. بقيت سيارة شرطة واحدة لتوجيه الطريق، وضوؤها الأصفر يدور. استقر غرابان على أعمدة المصابيح المجاورة لملاحظة ما يجري في الأسفل.

بدت ميدوري مفرغة من طاقتها. حدقت في السماء واهنة دون كلمة تقريباً.

سألتها: «متعبة؟»

قالت: «ليس تماماً. فقط سمحت للوهن أن يعتريني والإرهاق. مرة أولى منذ زمن طويل».

تطلعت إلى عيني، وتطلعت إلى عينيها. طوقتها بذراعي وقبلتها. سرت الوخزة الخفيفة إلى كتفيها، فاسترخت وأغمضت عينيها لعدة ثوان.

كانت شمس الخريف المبكرة تلقي ظلال أهدابها على خديها، وكان بمستطاعي أن أراهما يرتعشان.

كانت قبلة ناعمة رقيقة، قبلة لا تفضي إلى شيء بعدها. لعلني لم أقبّل ميدوري ذلك اليوم لو لم نقض الظهيرة على منصة الغسيل في الشمس، ونشرب البيرة ونراقب الحريق، ولا شك أنها شعرت بالشيء نفسه. بعد فترة طويلة من مراقبة السطوح المتألقة والدخان واليعاسيب الحمراء والأشياء الأخرى شعرنا بشيء ما دافئ وحميم، وربما أردنا نحن الاثنين، على نحو نصف شعوري، أن نحافظ على ذلك المزاج بصورة ما. هذا هو نوع القبلة. لكنها، كسائر القبل، لم تكن تخلو من عنصر خطر.

كانت ميدوري أول من قطع الصمت. أمسكت يدي وأخبرتني بشيء من التردد أنها كانت تقابل شخصاً. قلت أقدر ذلك كثيراً.

سألتني: «ألديك فتاة تحبها؟»

قلت: «نعم».

«لكنك دائماً فارغ في الآحاد، صحيح؟»

قلت: «الأمر معقد».

حينئذ أدركت أن سحر ظهيرة الخريف المبكر تلاشى.

في الخامسة قلت لميدوري يجب أن أذهب إلى العمل، واقترحت عليها أن تتمشى معي قليلاً. قالت إن عليها أن تبقى في البيت لاحتمال أن يرن الهاتف. «أكره الانتظار في البيت طوال النهار من أجل مكالمة. حين أقضي النهار وحدي، أشعر أن جسدي يتعفن شيئاً فشيئاً، يتعفن ويذوب حتى لا يبقى منه سوى بركة خضراء سرعان ما تمتصها الأرض. وكل ما يبقى مني هو ملابسي. هذا ما يعنيه عندي الانتظار في البيت طوال النهار».

قلت: «سأظل بصحبتك في المرة القادمة حين تكونين بانتظار مكالمة. ما دام هناك غداء».

قالت: «عظيم. وسأرتب حريقاً آخر كحلويات».

لم تأت ميدوري لمحاضرة تاريخ الدراما في اليوم التالي. ذهبت بعدها إلى الكافتريا وتناولت غداءً بارداً لا طعم له وحيداً. ثم جلست في الشمس وراقبت مشهد المجمع. كان إلى جواري طالبتان استمرتا في مناقشة طويلة، واقفتين طوال الوقت. ضمت إحداهما إلى صدرها مضرب تنس بكل ما لديها من محبة وعناية يمكن أن تهبهما لطفل، بينما حملت الأخرى بعض الكتب وتسجيلات ليونارد بيرنشتاين. من الواضح أنهما معاً تتمتعان بهذه المناقشة. ومن جهة مبنى نادي الطلبة تعالى صوت جهير لتمرين على السلالم الموسيقية. هنا وهناك يقف مجموعة من أربعة أو خمسة طلاب يعبّرون عما يعتمل في داخلهم من آراء وهم يضحكون ويتصايحون على بعضهم. في موقف السيارات مساند وقوف الدراجات. عَبَر أستاذ يحمل في ذراعه حقيبة جلدية موقف السيارات. في الساحة المربعة جثت على الأرض فتاة تلبس خوذة، لترسم على لافتة شخصيات كبيرة تصور بها الإمبريالية الأمريكية في غزوها لآسيا. كان المشهد الجامعي الاعتيادي في منتصف النهار، لكن حين جلست أراقبه بانتباه متجدد، انتبهت إلى شيء. لقد بدا كل من رأيته أمامي سعيداً بطريقته الخاصة. ولا أستطيع أن أجزم ما إذا كان سعيداً حقاً، أم أنه يبدو سعيداً في الظاهر. لكنهم بدوا سعداء في أوائل هذه الظهيرة السارة من أواخر سبتمبر، وبسبب ذلك انتابني نوع من الشعور بالوحدة، وكأنني الشخص الوحيد هنا، الذي لا يشكل جزءاً حقيقياً من المشهد.

فلنفكر في الأمر، أي مشهد كنت جزءاً منه في السنوات الأخيرة؟ آخر مشهد أتذكره كان قاعة مسبح بالقرب من الساحل، سبحنا فيه أنا وكيزوكي بروح صداقة شاملة. مات كيزوكي تلك الليلة، ومنذ ذلك الحين حالت ريح باردة، يابسة بيني وبين العالم. هذا الفتى كيزوكي: ما

الذي كان يعنيه وجوده لي؟ لا أستطيع أن أجد الجواب عن هذا السؤال. كل ما أعرفه -بيقين مطلق- هو أن موت كيزوكي سلب مني إلى الأبد جزءاً من مراهقتي. لكن ما الذي يعنيه هذا، وما الذي يمكن أن ينتج عنه، شيء يتخطى حدود فهمي.

جلست هناك مدة طويلة أراقب المجمع، ومن خلاله العابرين فيه، مؤملاً أيضاً أن أرى ميدوري. لكنها لم تظهر أبداً، وحين اقتربت الظهيرة من نهايتها، ذهبت إلى المكتبة للتهيؤ لمحاضرة الألمانية.

بعد ظهيرة ذلك السبت جاء ناغاساوا إلى غرفتي واقترح أن نخوض إحدى ليالينا في المدينة. قال إنه سيرتب لي إجازة ليلية. قلت نعم سأذهب. كنت أشعر بالتشتت على نحو خاص في الأسبوع الماضي وعلى استعداد للنوم مع أية واحدة، كائنة من تكون.

بعد ذلك في العصر تحممت وحلقت ولبست ملابس جديدة - قميص بولو وسترة قطنية- ثم تناولت العشاء مع ناغاساوا في قاعة الطعام وأخذنا معاً الحافلة إلى شنجوكو. تمشينا في منطقة جميلة لفترة، ثم ذهبنا إلى واحد من باراتنا المعتادة وجلسنا بانتظار فتاتين محتملتين. كانت الفتيات ترغب في المجيء أزواجاً إلى هذا البار، إلا في ذلك المساء. بقينا قرابة ساعتين نحتسي الويسكي والصودا بمقدار أبقانا صاحيين. وأخيراً، اتخذت فتاتان يبدو عليهما لطف المعشر مكانيهما في البار، وطلبتا عصير فواكه. اقترب منهما ناغاساوا فوراً، لكنهما قالتا إنهما تنتظران صديقيهما. مع ذلك، تمتعنا أربعتنا بحديث ممتع حتى حان موعد افتراقهما عنا.

أخذني ناغاساوا إلى بار آخر لتجريب حظنا، وهو مكان صغير في طريق مغلق، كان أكثر زبائنه سكارى صاخبين أصلاً. احتلت مجموعة من ثلاث فتيات طاولة في المؤخرة. انضممنا إليهن وتمتعنا بحوار قصير، وهيمن على الخمسة مزاج لطيف، ولكن حين اقترح ناغاساوا أن نذهب

للشرب في مكان آخر، قالت الفتيات لقد حان وقت الحظر ولا بد أن يعدن إلى مهاجعهن. هكذا كان «حظنا». جربنا مكاناً آخر وحصلنا على النتيجة نفسها. لسبب ما، لم تشأ الفتيات أن تكون في طريقنا.

عند الحادية عشرة والنصف كان ناغاساوا على استعداد للتوقف.

قال: «آسف، لقد جرجرتك دون طائل».

قلت: «لا مشكلة. من الجميل أن أراك في أوقات خيبتك أحياناً، أيضاً».

أقر: «ربما مرة في السنة».

والحقيقة أنني لم أعد راغباً في مزيد من المحاولات. وأنا أتجول في شنجوكو في ليلة سبت صاخبة، وأراقب الطاقة الغامضة التي يخلقها المزيج من الجنس والكحول، بدأت أشعر بأن ما أرغب فيه شيء تافه.

«ما الذي ستفعله الآن، واتانابي؟»

قلت: «ربما أذهب إلى سينما ليلية. لم أر فيلماً منذ عصور».

قال ناغاساوا: «إذاً سأذهب إلى هاتسومي. هل تمانع؟»

قلت: «على الإطلاق. لماذا أمانع؟»

«إذا شئت أستطيع أن أعرفك بفتاة تسمح لك بقضاء الليل».

«لا، مزاجي اليوم يتجه إلى الفيلم».

قال ناغاساوا: «آسف. سأعوضك عنها في وقت ما». واختفى في الزحام.

ذهبت إلى مكان لتناول الوجبات السريعة لأخذ شطيرة جبنة وقهوة أقتل بهما أزيز رأسي، ثم ذهبت لرؤية (الخريج) في إحدى السينمات القديمة. لم أكن أتصور أنه فيلم على مستوى عال، ولكن لم يكن لدي شيء أفضل أفعله، لهذا بقيت وشاهدته مرة أخرى. خرجت من السينما في الرابعة صباحاً، وتجولت في الشوارع الباردة في شنجوكو، وأنا أفكر.

حين تعبت من المشي، ذهبت إلى مقهى ليلي وانتظرت مع كتاب

وقدح قهوة أن تبدأ القطارات الصباحية. قبل أن يمضي وقت طويل، ازدحم المكان بالزبائن الذين كانوا مثلي ينتظرون القطارات الأولى. جاء نادل وسألني بأدب هل أمانع إذا شاركني مائدتي أحد. قلت لا بأس. لم يهمني من يجلس قربي، ما دمت أقرأ كتاباً.

ظهر أن شركائي في الطاولة كانوا فتاتين. لم تكن أي منهما ذات جمال لافت، لكنهما لم تكونا قبيحتين. كلتاهما محافظة في طريقة لبسها ومكياجها، وبالتأكيد لم تكونا من النوع الذي يتجول في شنجوكو في الساعة الخامسة صباحاً. خمنت أن الأمر لا يعدو أن يكون فاتهما القطار الأخير. بدا أنهما ارتاحتا للجلوس معي، فقد كنت حسن الهندام، حلقت في المساء، وفوق ذلك كله، منغمساً في قراءة رواية «الجبل السحري» لتوماس مان.

إحدى الفتاتين كانت ضخمة القوام. ترتدي سترة فرو رمادية وجينزاً أبيض، وتحمل دفتر جيب كبيراً، وتضع أقراطاً على شكل أصداف كبيرة. بينما كانت صديقتها فتاة ذات نظارات. كانت ترتدي سترة قطنية زرقاء فوق قميص مربعات وخاتماً فيروزياً. للصغيرة منهما عادة في نزع نظاراتها والضغط على عينيها بأطراف أصابعها.

طلبت كلتا الفتاتين قهوة بالحليب وكعكة، وهذا ما شغلهما قليلاً عن مواصلة الخوض فيما بدا أنه مناقشة جادة بنبرات هادئة. هزت الفتاة الضخمة رأسها عدة مرات، بينما كانت الصغيرة تهزه دائماً. لم أستطع معرفة ما كانت تقولانه لأن الأستريو كان يعزف مارفن غاي أو بي جيز أو ما أشبه بصوت مرتفع، ولكن يبدو أن الصغيرة كانت غاضبة أو متبرمة والكبيرة تحاول تهدئتها. استبدلت النظر إلى الكتاب بنظرات صوبهما.

ضمت الصغيرة حقيبة كتفها إلى صدرها مثل سيدة كبيرة، وفي لحظة ما تكلمت رفيقتها معي.

«آسفة للإزعاج، لكني أتساءل هل تعرف أي بار هنا ما زال يقدّم المشروبات للزبائن؟»

تخليت عن دفاعاتي وأبعدت الكتاب جانباً وسألتها: «الخامسة صباحاً؟»

«نعم...».

«إذا سألتني، في الخامسة والثلث صباحاً، يذهب أغلب الناس إلى بيوتهم ليصحو وينامو».

قالت بشيء من الارتباك: «نعم، أدرك ذلك. غير أن صديقتي تقول إنها تحتاج لأن تشرب. الأمر مهم نوعاً ما».

«ربما لا يوجد خيار سوى أن تذهبا إلى البيت وتشربا».

«لكن يجب أن ألحق بقطار السابعة والنصف إلى ناغانو».

«إذاً ابحثي عن بائع آلي ومكان جميل تجلسان فيه. هذا كل ما تستطيعينه».

«أعرف أن هذا إلحاح بالأسئلة. ولكن هل بوسعك أن تأتي معنا؟ فتاتان وحدهما لا تستطيعان القيام بشيء كهذا».

لقد مررت بعدد من التجارب غير العادية في شنجوكو، لكن لم يسبق أن دعتني فتاتان غريبتان للشراب في الخامسة والثلث صباحاً. كان الرفض أكثر إشكالاً من القبول، وليس الوقت بمشكلة، ولهذا اشتريت كميّة من الساكي والمزة من ماكنة قريبة، وذهبنا نحن الثلاثة إلى موقف سيارات فارغ عند المدخل الغربي من المحطة لنعقد حفلة شرابنا الارتجالية.

أخبرتني الفتاتان أنهما أصبحتا صديقتين تعملان في وكالة سفر. تخرجت كلتاهما من كلية هذه السنة وبدأتا وظيفتهما الأولى. للصغيرة صديق كانت تراه لمدة سنة لكنها اكتشفت مؤخراً أنه ينام مع فتاة أخرى، ولم تستطع التحمل. أما الضخمة فكان المفترض أن تغادر إلى جبال ناغانو في الليلة الماضية لحضور زفاف أخيها، لكنها قررت أن تقضي الليلة مع صديقتها المحبطة وتأخذ أول قطار سريع صباح الأحد.

قلت للصغيرة: «ما تمرّين به سيئ جداً، ولكن كيف عرفت أن صديقك ينام مع فتاة أخرى؟»

تجرعت الفتاة قليلاً من الساكي وانتزعت بعض الأعشاب من تحت قدميها. قالت: «لم أجتهد لمعرفة الأمر. فتحت الباب ووجدته يفعلها معها».

«متى حصل ذلك؟»

«ليلة أول أمس».

«لا يمكن. تعنين أن الباب لم يكن مقفلاً؟»

«هو ذاك».

«أتساءل لماذا لم يغلقه؟»

«كيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟»

قالت الضخمة التي بدت متعاطفة مع صديقتها: «كيف يفترض بها أن تشعر؟ لا بد أن ذلك أحدث لها صدمة مروعة؟ ألا تعتقد أنه شيء فظيع؟»

أجبت: «في الحقيقة لا أستطيع أن أجزم. كان لا بد أن تتحدثي مطولاً مع صديقك. ثم تأتي فيما بعد مسألة هل تسامحينه أم لا».

هتفت الصغيرة وهي ما تزال تقتلع العشب: «لا أحد يعرف كيف أشعر».

ظهر سرب من الغربان من جهة الغرب وحلق فوق مبنى مخزن كبير. أشرق ضوء النهار الآن. اقترب موعد القطار الذاهب إلى ناغانو، ولهذا أعطينا ما تبقى لدينا من ساكي إلى فتى متشرد أسفل المدخل الغربي، واشترينا تذاكر ودخلنا لنودّع الضخمة وهي تغادر. بعد أن غاب القطار عن أنظارنا، رأينا أنا والفتاة الصغيرة أن نذهب إلى فندق مجاور. لم يكن أي منا متلهفاً للنوم مع الآخر، لكن بدا من الضروري أن نحمل الأشياء إلى نهاية ما.

تعريت أولاً وجلست في الحمام أشرب البيرة بإفراط. لحقت بي

وفعلت الشيء نفسه، فتمددنا نحن الاثنين نكرع البيرة بصمت. ولكن لم يظهر علينا السكر، ولا شعرنا بالنعاس. كان جلدها طرياً وناعماً، ولديها ساقان جميلتان. أطريت على جمال ساقيها، ولم تزد «الشكراً» منها على تمتمة.

ما إن صرنا في السرير، حتى صارت شخصاً آخر. كانت تستجيب لأدنى لمسة من يدي بالتلوي والأنين. وحين ولجت فيها، غرزت أصابعها في ظهري، وحين وصلت إلى ذروة النشوة نادت باسم شخص آخر 16 مرة بالضبط. ركّزت على عدها كطريقة في تأخير وصول النشوة. ثم خر كلانا نائماً.

كانت قد غادرت حين صحوت في الثانية عشرة والنصف. لم أجد أية ملاحظة من أي نوع. شعرت بثقل غريب على جانب رأسي من جراء السكر في ساعة غير معتادة. أخذت حماماً لأصحو، وحلقت، وجلست في الكرسي، عارياً، أشرب العصير من الثلاجة، مراجعاً أحداث الليلة السابقة بالترتيب. بدا كل مشهد منها غير واقعي وبعيداً على نحو غريب، كأنما أعرضها عبر ثلاث طبقات من الزجاج، لكن الأحداث وقعت دون شك. كانت أقداح البيرة ما تزال على المائدة، وفرشاة أسنان مستعملة على المغسلة.

أكلت طعاماً خفيفاً في شنجوكو وذهبت إلى علبة تلفون لمكالمة ميدوري كوباباشي عسى أن تكون قد عادت إلى البيت وحدها بانتظار أن أكلمها اليوم. تركته يرن خمس عشرة رنة ولم يجب أحد. حاولت مرة أخرى بعد عشرين دقيقة، ولم يجب أحد أيضاً. حينئذ أخذت الحافلة عائداً إلى المهجع. وجدت بانتظاري في صندوق الرسائل رسالة خاصة عند المدخل. وكانت من ناوكو.

(5)

كتبت لي ناوكو: «شكراً على رسالتك». قالت إن عائلتها أرسلتها إلى هنا. لكن ذلك لم يزعجها، بل جعلها وصول الرسالة سعيدة جداً، وهي في الحقيقة كانت على وشك أن تكتب لي بنفسها.

بعد أن تمعّنت في قراءة الرسالة، فتحت النافذة، وتناولت سترتي وجلست على السرير. أستطيع أن أسمع نوح الحمام قادماً من وَكْنٍ قريب. حرّك النسيم ستائر النافذة. واستسلمت، وأنا أحمل رسالة ناوكو ذات الصفحات السبع، إلى فيض لا ينتهي من المشاعر. بدا لي وكأن ألوان العالم الواقعي حولي في الخارج قد تلاشت حتى لم يعد منها سوى قراءة بضعة سطور كتبتها. أغمضت عينيّ وقضيت وقتاً طويلاً أحاول تجميع أفكاري. وأخيراً، وبعد نفس واحد عميق، واصلت القراءة.

مضت تقول في رسالتها:

منذ أربعة شهور تقريباً، جئت إلى هنا.

لقد فكرت فيك كثيراً خلال هذه المدة. وكلما فكّرت فيك أكثر، ازداد شعوري بأنني لم أكن عادلة معك. لعلني كان يجب أن أكون أفضل، شخصاً أعدل في معاملتك.

على أن هذه قد لا تكون أفضل الطرق للنظر إلى الأشياء. فالفتيات في مثل عمري لا يستعملن كلمة «عادل». الفتيات العاديات، حين يكنّ في ريعان الشباب مثلي، لا يبالين في

الأساس ما إذا كانت الأشياء عادلة أم لا. المسألة الرئيسة عندهن ليست في كون الأشياء عادلة أو لا، بل في كونها جميلة أو تجعلهن أكثر سعادة. وبالتالي فكلمة «عادل» كلمة يستعملها الرجال، لكنني لا أستطيع الجزم ما إذا كانت الكلمة الصحيحة تماماً في مثل حالتي الآن. ولأن قضايا الجمال والسعادة قد أصبحت في غاية الصعوبة والتعقيد بالنسبة لي الآن، فقد انتابني الشك، وصرت أتعلق بمعايير أخرى بدلاً منها مثل ما إذا كان شيء ما عادلاً أو نزيهاً أو حقيقياً بالمعنى الكلي. على أنني في مثل حالتي، أعتقد أنني لم أكن عادلة معك، وبالنتيجة، فقد تركت الأمواج تتقاذفك، وآلمتك بعمق. وبفعلي ذلك، فقد تركت الأمواج تتقاذفني أنا نفسي، وآلمت نفسي بالعمق ذاته. لا أقول ذلك من باب الاعتذار، أو كوسيلة للتبرير الذاتي، بل لأنه الحقيقة. فإذا كنت قد تركت في داخلك جرحاً ينزف، فتذكر أن هناك جرحاً آخر ينزف في داخلي أيضاً. لذلك أرجو ألا تكرهني. إنني إنسانة متصدعة، متصدعة أكثر مما تتخيل. وهذا بالضبط هو السبب في كوني أريدك ألا تكرهني. لأنك إذا كرهتني فسأتناثر قطعاً بالفعل. لا أستطيع القيام بما تقوم به أنت: لا أستطيع أن أعتكف في صدفتي وأنتظر الأشياء تمرّ. لست متأكدة بالفعل أنك من هذا النوع، لكنك تعطيني أحياناً هذا الانطباع. وغالباً ما أحسدك على هذا، ولعله هو السبب الذي دفعني إلى أن أترك الأمواج تتقاذفك على هذا النحو.

قد تكون هذه طريقة مسرفة في التحليل في كيفية النظر إلى الأشياء. ألا تتفق معي في ذلك؟ وبالتأكيد فإن العلاج النفسي الذي يقدمونه هنا ليس مسرفاً في التحليل، لكن لو بقيت تحت المعالجة عدة شهور كما أنا الآن، فقد تصبح المعالجة تحليليّة قليلاً أو كثيراً. «هذا هو ما سبّب ذلك، وهذا يعني ذاك، إذ

بسببه حصل كذا وكذا». وما أشبه ذلك. لا أستطيع البتّ ما إذا كان هذا النوع من التحليل يبسّط العالم أم يعقّده.

في حالتي، أشعر أنني أقرب إلى الشفاء مما كنت، والناس هنا يقولون لي إن ذلك صحيح. هذه هي المرة الأولى منذ زمن طويل التي أتمكن فيها من الجلوس بهدوء وكتابة رسالة. الرسالة السابقة التي كتبتها لك في يوليو كانت شيئاً اعتصرت نفسي لاستخراجه (وإن كنت في الحقيقة لا أتذكر ما كتبته فيها، هل كان شيئاً فظيعاً؟)، لكن هذه المرة أنا هادئة، هادئة جداً. هواء نقي، عالم هادئ منقطع الصلة بالخارج، جدول يومي للعيش، تمارين منتظمة، ذلك ما كنت أحتاج إليه على ما يبدو. ما أجمل أن تكون قادراً على كتابة رسالة لأحد. إنها فعلاً أعجوبة أن تشعر بقدرتك على نقل أفكارك إلى شخص آخر، أن تجلس إلى الطاولة وتلتقط القلم، أن تضع أفكارك في كلمات مثل هذه. بالطبع حالما أضعها في كلمات، أجد أنني لا أعبر إلا عن جزء قليل مما أريد قوله، ولكن لا بأس. أشعر بالسعادة لتمكني من الشعور بأنني أريد الكتابة إلى أحد. ولهذا أكتب لك. الساعة الآن السابعة والنصف مساءً، وقد تناولت طعامي، وأنهيت حمامي. المكان صامت، والظلمة تحيط بكل شيء في الخارج. لا أستطيع رؤية بقعة ضوء من النافذة. في العادة أتطلع من هنا إلى صفاء النجوم، لكن ليس اليوم، مع وجود الغيوم. الناس هنا جميعاً تعرف الكثير عن النجوم والأبراج، فيقولون لي: «هذا برج العذراء» أو «هذا برج القوس». ربما كانوا يعرفون ما يريدون أو لا يريدون، إذ لا يوجد ما يفعله أحد هنا بمجرد غياب الشمس. وهذا هو السبب أيضاً في كونهم يعرفون الكثير جداً عن الطيور والزهور والحشرات. وحين أتحدث معهم، أدرك كم كنت جاهلة بمثل هذه الأشياء الزاخرة بالجمال.

يعيش هنا قرابة سبعين شخصاً. بالإضافة إلى أن الطاقم الإداري (من دكاترة وممرضات وموظفين. . .الخ) يزيدون عن العشرين. إنه مكان طلق، ليس فيه عدد غفير على الإطلاق. وهو مكان ناءٍ، قد يصح القول إنه يوجد في جانب البرية المفتوحة. مكان واسع، ويضج بالطبيعة، وكل شيء فيه يعيش بسكينة حتى ليخالجك الشعور أحياناً أنه العالم الحقيقي الاعتيادي، ولكنه ليس كذلك بالطبع. بل نشعر به على هذا النحو لأننا نعيش هنا في ظل شروط معينة.

ألعب التنس وكرة السلة. يتكوّن فريقا كرة السلة من كل من الطاقم الإداري و (أكره استعمال هذه الكلمة، ولكن لا بد من استعمالها) المرضى. على أنني حين أنغمر في اللعبة، أنسى من هم فريق المرضى، ومن هم فريق الطاقم الإداري. وهذا شيء غريب. أعرف أنه يبدو غريباً، لكني حين ألقي نظرة على الناس حوالي أثناء اللعب، يبدون لي جميعاً مشوّهين.

قلت هذا ذات يوم للطبيب المسؤول عن حالتي، فأخبرني أن ما أشعر به صحيح بمعنى ما، وأننا موجودون هنا لا لتصحيح التشويه، بل لتعويد أنفسنا عليه. ذلك أن واحدة من مشاكلنا تتمثل في عدم قدرتنا على استكناه تشوهاتنا والقبول بها. وتماماً مثلما أن لكل شخص خصوصيات في المشي، فإن لكل شخص خصوصيات في الطريقة التي يفكرون أو يشعرون أو يرون بها الأشياء. وحتى لو أردتِ تصحيحها، فلن يحدث ذلك بين عشية وضحاها، بل لو حاولت فرض قضية في حالة ما، فقد يسوء شيء آخر في مكان آخر. أعطاني تفسيراً مبسّطاً جداً بالطبع، وهو جزء صغير من المشكلات التي نواجهها هنا، لكني أعتقد أنني أتفهم ما كان يحاول قوله. لعلنا لن نتكيف تماماً أبداً مع تشوهاتنا الخاصة. وبسبب عجزنا عن العثور على مكان في

دخيلتنا تسبب فيه هذه التشوهات ألماً ممضاً وعناءً مبرحاً، فإننا نأتي إلى هنا للخلاص من هذه الأشياء. وما دمنا هنا، فنحن في منجى من إيذاء الآخرين، أو من التعرض لإيذائهم لنا، لأننا نعرف أننا «مشوّهون». وهذا هو ما يميزنا عن العالم الخارجي: أغلب الناس يمضون حياتهم دون أن يعوا تشوهاتهم، بينما في هذا العالم الصغير تصبح معرفة تشوّهاتنا هي الشرط الأولي. وتماماً مثلما يضع الهنود الريش على رؤوسهم ليقولوا إلى أية قبيلة ينتمون، نضع نحن تشوهاتنا ونعلنها على الملأ. ونحن نعيش بسكينة حتى لا يؤذي أحدنا الآخر.

بالإضافة إلى ممارسة الرياضة، نشترك جميعاً في زراعة الخضروات: الطماطم، الباذنجان، الخيار، البطيخ، الفراولة، الأبصال الربيعية، اللهانة، الفجل وغيرها وغيرها. نزرع تقريباً كل شيء. نستخدم البيوت الزجاجية أيضاً. يعرف الناس هنا الكثير عن زراعة الخضروات، وهم يبذلون فيها كثيراً من طاقتهم. يقرأون الكتب في هذا الموضوع، ويدعون الخبراء للتحدث من الصباح حتى المساء عن أي سماد يجب استخدامه، وعن شروط التربة، وأمور كهذه. لقد بدأت أحب زراعة الخضروات. شيء عظيم أن تراقب الفواكه والخضروات المختلفة وهي تنمو وتكبر كل يوم. هل زرعت يوماً بطيخاً؟ ينتفخ البطيخ تماماً مثل نوع من الحيوانات الصغيرة.

نأكل الخضروات والفواكه المقطوفة يومياً. بالطبع يقدمون لنا اللحوم والأسماك، لكنك حين تعيش هنا تتناقص لديك الرغبة في هذه الأشياء باستمرار، لأن الخضروات طازجة جداً، ولذيذة جداً. أحياناً نخرج لجني النباتات البرية والكمأ. لدينا خبراء بهذا النوع من النبات (تخيل، هذا المكان يغص بالخبراء) يخبروننا أي نبات ينبغي أن نلتقط، وأي نبات ينبغي أن نتجنب. ونتيجة

لذلك، فقد ازددت أكثر من ستة كيلوات منذ أن جئت إلى هنا. ووزني الآن يقترب من الكمال، بفضل التمارين والغذاء الجيد الذي نتناوله وفق جدول منتظم.

إذا لم نذهب للعناية بالنباتات، فنحن نقرأ أو نستمع للموسيقى أو نحو ذلك. ليس لدينا تلفزيون أو راديو، لكن عندنا مكتبة لطيفة من الكتب والتسجيلات. تضمّ مجموعات التسجيلات كل شيء من مهلر حتى الخنافس، وأنا دائماً أستعير التسجيلات للاستماع إليها في غرفتي.

المشكلة الحقيقية الوحيدة مع هذا المكان أنك ما إن تكون هنا حتى تودّ ألا تغادره أبداً. أو أنك تخاف من مغادرته. فما دمنا هنا فنحن نشعر بالراحة والسلام. تبدو تشوهاتنا طبيعية. ونعتقد أننا استرددنا عافيتنا. لكننا لن نستطيع أبداً أن نتأكد أن العالم الخارجي سيستقبلنا بالطريقة نفسها.

يقول طبيبي إن الأوان قد حان لبدء اتصالي بـ«الناس الخارجيين». وهو يعني الناس العاديين في العالم العادي. وحين يقول لي ذلك، فإن الوجه الوحيد الذي أراه هو وجهك. وفي الحقيقة أنني لا أريد أن أرى والديّ. فهما قلقان جداً بشأني ورؤيتهما تضعني في مزاج عصيب. أضف إلى ذلك أن هناك أموراً يجب أن أوضحها لك. لست متأكدة أنني أستطيع تفسيرها على أحسن وجه، لكنها أمور مهمة لا أستطيع الاستمرار في تحاشيها مدة أطول.

بقي أنك يجب ألا تشعر بأنني عبء ثقيل عليك. الشيء الذي لا أريده، أن أكون عبئاً ثقيلاً على أحد. أستطيع أن أتفهم المشاعر الطيبة التي تكنّها لي. وهي تجعلني في غاية السعادة. وكل ما أريده في هذه الرسالة هو أن أحاول نقل تلك السعادة لك. ولعلّ مشاعرك الطيبة هي ما أحتاج إليه بالضبط في هذه الفترة من

حياتي. أرجو أن تسامحني إذا كنت قد كتبت ما يسوؤك هنا.
وكما قلت لك، فإنني إنسانة متصدعة أكثر بكثير مما تتخيّل.

أحياناً أتساءل: لو كنا قد تقابلنا أنت وأنا في ظروف عادية على نحو مطلق، ولو أننا أحببنا بعضنا، فماذا كان سيحدث؟ لو أنني كنت اعتيادية وكنت أنت اعتيادياً (وهو بالطبع ما أنت عليه)، ولو لم يكن هناك كيزوكي، فماذا كان سيحصل؟ بالطبع هذه الـ«لو» واسعة جداً. أحاول أن أكون عادلة ونزيهة على الأقل. هذا كل ما أستطيعه في هذا الوقت. وأتمنى نقل جزء صغير من مشاعري نحوك بهذه الطريقة.

خلافاً للمستشفيات العادية، في هذا المكان ساعات زيارة حرة. بمجرد أن تتكلم قبل يوم، تستطيع أن تأتي في أي وقت تشاء. تستطيع حتى أن تأكل معي، وهناك مكان مهيأ لك للبقاء فيه. أرجو أن تأتي وتراني في وقت يناسبك. أتطلع إلى اليوم الذي نلتقي فيه. وأرفق لك خارطة لتدلّك. وآسفة لأن هذه الرسالة بلغت كل هذا الطول.

قرأت رسالة ناوكو طوال الطريق، وبعدئذ قرأتها مرة أخرى. بعد ذلك نزلت إلى الشارع، وجلبت زجاجة كوكا من البائع الآلي، وشربتها وأنا أقرأ الرسالة مرة أخرى. وضعت الرسالة ذات الصفحات السبع في مظروفها وألقيتها على طاولتي. كتب اسمي وعنواني على المظروف الوردي بحروف ناعمة كاملة لا تصعب نسبتها إلى فتاة. عنوان المرسل يقول: Ami Hostel (آمي أوتيل). اسم غريب. فكرت فيه بضع دقائق، وتوصلت إلى أن (آمي) هنا لا بد أن تكون مشتقة من كلمة (صديق) بالفرنسية.

بعد أن وضعت الرسالة في جارور منضدتي، غيرت ملابسي وخرجت. كنت أخشى أنني إذا بقيت قرب الرسالة أن أنتهي إلى قراءتها

للمرة العاشرة أو العشرين، من يعرف عدد المرات التي قرأتها؟ تسكعت في شوارع طوكيو يوم السبت، دون أن تكون في ذهني جهة مقصودة، كما كنت أفعل دائماً مع ناوكو. تجولت من شارع إلى آخر، مستذكراً رسالتها سطراً فسطراً، متملياً كل جملة بقدر ما أستطيع. وحين غابت الشمس عدت إلى المهجع وأجريت مكالمة هاتفية بعيدة مع (آمي أوتيل). ردت عليّ موظفة استقبال وسألتني عن عملي. سألتها ما إذا كان ممكناً أن أزور ناوكو في المساء التالي. تركت عندها اسمي وقالت إنني يجب أن أتصل ثانية بعد نصف ساعة.

أجابت المرأة نفسها حين اتصلت مرّة ثانية بعد العشاء. قالت يمكنني أن أزور ناوكو. شكرتها، وأغلقت السماعة، ووضعت ملابسي وبعض المعاجين في حقيبة ظهري. ثم التقطت رواية «الجبل السحري» ثانية، أقرأ وأرتشف البراندي وأنتظر أن أغط في النوم. لكن النوم تناءى عن عينيّ حتى ما بعد الساعة الواحدة صباحاً.

(6)

ما إن صحوت في الساعة السابعة صباح الأحد، حتى غسلت وجهي، وحلقت ذقني، ومضيت مباشرة إلى غرفة مدير المهجع دون أن أتناول الفطور، لكي أقول له إنني ذاهب في نزهة في التلال لمدة يومين. كان متعوداً على قيامي برحلات قصيرة في أيام فراغي، فلم يبدر منه رد فعل يدل على المفاجأة. أخذت قطاراً مزدحماً إلى محطة طوكيو، واشتريت تذكرة قطار سريع إلى كيوتو، في الحقيقة يمر بطريق هيكاري، ثم يرحل من هناك. تناولت قهوة وفطيرة للفطور، وغلبني النعاس لساعة.

وصلت كيوتو قبل الحادية عشرة بدقائق. أخذت حافلة المدينة، متابعاً تعليمات ناوكو، إلى محطة صغيرة تفضي إلى الضواحي الشمالية. ولن تغادر الحافلة القادمة باتجاه مقصدي حتى 11,35، على ما قيل لي، وقد تستغرق الرحلة أكثر من ساعة بقليل. اشتريت تذكرة وذهبت إلى مكتبة عبر الشارع بحثاً عن خريطة. وحين عدت إلى غرفة الانتظار، درست الخريطة لأرى هل أستطيع أن أعرف أين يقع آمي أوتيل على وجه الدقة. لكن ظهر أنه أوغل في الجبال أكثر مما تخيلت. يجب أن تعبر الحافلة عدة تلال، في طريق شمالي بعربات تجرها الخيول، ثم ينعطف إلى نهاية طريق الوادي، ليعود إلى المدينة. والموقف الذي أنزل فيه قبل نهاية الخط. هناك ممشى قريب من موقف الحافلة، حسب وصف ناوكو،

وإذا تابعته لمدة عشرين دقيقة سأصل إلى آمي أوتيل. لا عجب أن يكون مكاناً بهذا الهدوء، ما دام بهذا العمق في الجبال!.

حملت الحافلة ما يقرب من عشرين راكباً، وتابعت سيرها على نهر كامو عبر النهاية الشمالية لكيوتو. تفسح شوارع المدينة المتجمعة على بعضها الطريق لأحياء متناثرة، ثم لحقول وأرض جرداء. تلقت سطوح القرميد الأسود والبيوت التي تتسلق جدرانها العرائش الخضراء شمس الخريف المبكر وأعادت وهجها. حين دخلت الحافلة الوادي، بدأ السائق يغير اتجاهه إلى هذه الناحية أو تلك ليماشي انحرافات الطريق ومنعطفاته، وبدأت أشعر بالغثيان. ما زال طعم قهوتي في الصباح عالقاً بفمي. ومع الوقت بدأ عدد المنعطفات يتناقص حتى شعرت ببعض الراحة، وغاصت الحافلة في غابة أرز باردة. لا بدَّ أن الأشجار كانت معمرة جداً إلى حد أنها تمتد فوق الطريق، حاجبة الشمس ومغطية كل شيء بظلالها الكئيبة. فجأة تحوّل النسيم الذي يهبّ من نوافذ الحافلة المفتوحة إلى نسيم بارد، تقرص رطوبته الجلد. كان طريق الوادي يحاذي ضفة النهر، مواصلاً سيره عبر الأشجار حتى بدا وكأن العالم كله دُفن إلى الأبد في غابة الأرز، وعند نقطة معينة انتهت الغابة، ووصلنا إلى فضاء مفتوح تحيط به القمم الجبلية. مزارع خضراء شاسعة تنتشر في كل اتجاه، وقد بدا النهر إلى جوار الطريق رائقاً وصافياً. ارتفع خيط من الدخان الأبيض على مسافة. نشرت بعض البيوت غسيلها ليجفّ في الشمس، وكانت بعض الكلاب تنبح. في كل بيت ريفي خشب وقود يتكوم في الخارج على شكل أفاريز، وغالباً ما تستريح قطة في مكان ما فوق الكوم. لفترة ما ظل الطريق يمرّ على مثل هذه البيوت، لكنني لم أر شخصاً واحداً.

تكرر هذا المشهد مراراً على هذه الشاكلة. تدخل الحافلة في غابة أرز، وتخرج إلى قرية، لتعود إلى غابة أخرى. قد تتوقف عند إحدى القرى لينزل الناس، لكن ما من أحد صعد أبداً. بعد أربعين دقيقة من مغادرة المدينة، وصلت الحافلة إلى ممر جبلي يطل على امتداد شاسع.

أوقف السائق الحافلة وأعلن أننا سننتظر خمس أو ست دقائق: وبوسع الركاب أن يحركوا أقدامهم خارج الحافلة إذا شاءوا. ولم يكن قد بقي في الحافلة سوى أربعة أشخاص، بينهم أنا. خرجنا جميعاً وتمددنا أو دخّنا وتطلعنا إلى بانوراما كيوتو هناك في الأسفل البعيد. ذهب السائق إلى أحد الجوانب بعيداً ليبول. رجل لوّحته الشمس في بواكير الخمسين من عمره ركب الحافلة وهو يحمل قطعة كارتون مقوى كبيرة مشدودة سألني ما إذا كنت ذاهباً للتزلج في الجبال. أجبت نعم من باب تبسيط الأمور.

بعد حين جاءت حافلة أخرى تتسلق من الجانب الآخر من الطريق وتوقفت إلى جوار حافلتنا. خرج السائق، وتبادل حديثاً قصيراً مع سائقنا، ثم صعد الاثنان إلى حافلتيهما. عدنا نحن الركاب الأربعة إلى مقاعدنا، ومضت الحافلتان في اتجاهين متعاكسين. لم يتضح لي فوراً لماذا كان يجب على حافلتنا أن تنتظر الحافلة الأخرى، ولكن بعد أن نزلنا في طريق آخر أسفل الجبل صار الطريق يضيق فجأة. ولم يكن أبداً بإمكان حافلتين كبيرتين أن تلتقي إحداهما الأخرى على الطريق، بل إن مرور سيارتين عاديتين كان يتطلب الكثير من المناورة، بحيث تضطر إحدى المركبتين إلى الرجوع حتى تجد لها منعطفاً تنحشر فيه.

صارت القرى على طول الطريق أصغر الآن، والمناطق المنبسطة تحت الأشجار أضيق. صار الجبل شاهقاً بانتصاب، بحيث تضغط جدرانه قريبة من نوافذ الحافلة. وبدا أن لديهم من الكلاب بقدر ما لدى الأماكن الأخرى، وهكذا أطلق وصول الحافلة منافسة بينها في النباح.

في الموقف الذي نزلت فيه، لم يكن هناك شيء، لا بيوت، لا حقول، فقط علامة موقف الحافلة، وجدول صغير، وبداية الممر الميسمي. علقت حقيبتي على كتفي وبدأت بسلوك الطريق. كان الجدول يجري على طول الجانب الأيسر من الممر، أما على اليمين فتنتظم غابة من الأشجار الموسمية. كان عليَّ تسلق منحدر خفيف لما يقرب من 15 دقيقة حين وصلت إلى طريق يفضي إلى الغابة على اليمين، لا يكاد يتسع

لسيارة. هناك كانت لافتة على الطريق تقول: (آمي أوتيل. خاص. لا يسمح بالمرور).

ثمة طريق ترابي ضيق يجري بين الأشجار. بين الحين والآخر يتردد صدى خفق الأجنحة في الغابة. ترامى الصوت إلى مسمعي بوضوح غريب، وكأنه تضخم فوق الأصوات في الغابة. مرة، من مكان بعيد، سمعت صوتاً بدا لي أنه إطلاقة مسدس، لكنه كان صوتاً ضعيفاً ومكتوماً، وكأنه مر بمصافٍ متعددة.

بعد الغابة وصلت إلى سياج حجري أبيض. لم يكن ارتفاعه يزيد على قامتي، وتنقصه بعض الحواجز الإضافية في القمة مما سهل عليَّ قياسه. بدت البوابة الحديدية السوداء عصية بما يكفي، لكنها كانت مفتوحة على جانبيها، ولم يكن عندها من يحرسها. انتصبت لافتة أخرى كالأولى عند البوابة: (آمي أوتيل. خاص. لا يسمح بالمرور).

تُظهر بعض العلامات أن الحرس كانوا هنا قبل لحظات: في المنفضة ثلاثة أعقاب سجائر، ويقف قدح شاي نصف فارغ، وهناك راديو ترانزستر على الرف، والساعة الجدارية تتكتك بالوقت بصوت مبحوح. انتظرت قليلاً حتى يعود أحد ما، ولكن لم تظهر علامة على حدوث هذا، ضغطت عدة مرات على شيء بدا لي أنه جرس. كانت المنطقة في داخل البوابة موقف سيارات. وفيه تقف حافلة صغيرة، وسيارة لاندكروز، وسيارة فولفو زرقاء غامقة. يمكن أن يتسع الموقف لثلاثين سيارة، لكن لم تقف سوى هذه السيارات الثلاث فيه.

انقضت دقيقتان أو ثلاث، بعدها ظهر حارس البوابة في زي أزرق قادماً من طريق الغابة على دراجة صفراء. كان رجلاً طويلاً في بداية الستينات من عمره بشعر ممشّط إلى الخلف. أسند دراجته الصفراء إلى غرفة الحرس وقال: «آسف جداً لجعلك تنتظر»، مع ذلك، لم يظهر عليه الأسف على الإطلاق. كان الرقم 32 مرسوماً بالأبيض على واقية الدراجة. حين أعطيته اسمي، التقط سماعة الهاتف وكرره مرتين على

مسمع شخص ما في النهاية الأخرى وقال: «نعم، هها، أفهم»، قال ذلك للشخص الآخر، ثم أغلق السماعة.

قال لي: «رجاء اذهب إلى المبنى الرئيس، واسأل عن الدكتورة إشيدا، تسلك هذا الطريق عبر الأشجار، إلى طريق ملتوية. ثم تنعطف إلى الطريق الثاني على اليسار، هل فهمت؟ الطريق الثاني على اليسار من الطريق الملتوية. سترى هناك بيتاً قديماً، انعطف يميناً وستجد بعض الأشجار الأخرى ثم مبنى إسمنتياً. ذاك المبنى هو المبنى الرئيس. سهل، فقط انتبه إلى العلامات».

سلكت الطريق الثاني على اليسار من الطريق الملتوية حسب التعليمات، وحين انتهى ذلك الممر وصلت إلى مبنى قديم جميل من الواضح أنه كان بيتاً ريفياً لشخص ما. الحديقة مزينة بصخور ذات شكل جميل وفنار صخري. لا بدَّ أنها كانت ضيعة ريفية. وأنا أستدير يميناً عبر الأشجار، رأيت مبنى إسمنتياً بثلاثة طوابق. كان يقف في منطقة فارغة، لذلك لم يكن يحجب شيء طوابقه الثلاثة. وهو بسيط في تصميمه، يعطي انطباعاً قوياً بالنظافة.

كان المدخل في الطابق الثاني. صعدت السلالم، واجتزت باباً زجاجياً كبيراً لأجد امرأة شابة ترتدي ثوباً أحمر عند طاولة الاستقبال. أعطيتها اسمي وقلت إنهم أخبروني بأن أسأل عن الدكتورة إشيدا. ابتسمت وأومأت نحو أريكة رمادية، واقترحت بصوت خفيض أن أنتظر حتى تأتي الدكتورة، ثم ضربت رقماً. أنزلت حقيبتي من على ظهري، وغطست في بطانة الأريكة العميقة، ومسحت المكان بنظري. كانت قاعة نظيفة، مريحة، تزينها نباتات في سنادين، ورسوم تجريدية تدل على ذوق، وباب صقيل. وحين كنت أنتظر، أبقيت عيني على انعكاس حذائي فوق الأرض.

بعد لحظة أكدت لي موظفة الاستقبال: «ستكون الدكتورة هنا حالاً». هززت رأسي. يا له من مكان هادئ على نحو لا يصدق! لم تكن

هناك أية نأمة من أي نوع. بدا وكأن الجميع يأخذون قيلولة. الناس، الحيوانات، الحشرات، النباتات، لا بد أنها جميعاً تغط في نوم عميق، فكرت مع نفسي، في هذه الأمسية الهادئة.

لم يمر وقت طويل حتى سمعت وقع خطى ناعماً يصدر عن حذاء مطاطي، وظهرت امرأة ناضجة، ذات شعر كث. زحفت عبر قاعة الاستقبال، وجلست إلى جواري، ووضعت ساقاً على ساق، وأخذت يدي. وبدلاً من أن تكتفي بمصافحتها قلبت يدي وهي تتفحص وجهها وقفاها.

«أنت لم تعزف على آلة موسيقية، على الأقل منذ سنوات، صحيح؟» كانت هذه هي الكلمات الأولى التي صدرت من فمها.

«لا» قلت وأنا أتراجع إلى الخلف: «أنت على صواب».

«أستطيع أن أعرف ذلك من يديك» قالت مبتسمة.

كان لدى هذه المرأة شيء غامض تقريباً. في وجهها الكثير من التجاعيد. هذا أول شيء تطالعه عيناك، لكنها لا تجعلها تبدو عجوزاً. بالعكس، هي تؤكد أنها تنطوي في داخلها على مسحة من الشباب تتخطى العمر. كانت التجاعيد تنتمي إلى وجهها، وكأنها كانت جزءاً من وجهها منذ ميلادها. حين تبتسم، تبتسم التجاعيد معها؛ وحين تعبس، تعبس التجاعيد أيضاً. وحين لا تبتسم ولا تعبس، تظل التجاعيد متفرقة في وجهها على نحو ساخر دافئ بطريقة غريبة. ها هي امرأة في أواخر الثلاثينات من عمرها لا يبدو عليها أنها مجرد شخص لطيف، بل إن لطفها يجذبك إليها. أحببتها منذ اللحظة التي رأيتها فيها.

مهروساً بوحشية، كان شعرها المجعّد، تتهدل حواشيه فوق جبهتها، لكن الأسلوب مناسب تماماً لها. كانت تلبس قميص عمل أزرق فوق تي شيرت أبيض، وبنطالاً قطنياً بلون القشطة، وحذاء تنس. طويلة ونحيفة، وتقريباً بلا صدر. تتحرك شفتاها باستمرار إلى جانب واحد بنوع من اللفة

الساخرة، وتتحرك التجاعيد على زوايا عينيها بارتعاشة خفيفة. بدت وكأنها نجارة، لطيفة، ماهرة، لكنها تحمل قلق العالم.

بذقن منكمش وشفتين مزمومتين، أخذت بعض الوقت في التطلع إليَّ من الرأس إلى القدمين. تخيلت أنها في أية لحظة ستقوم بتناول أداة قياسها ثم تقيسني في كل مكان.

سألتْ: «ألا تستطيع العزف على أية آلة؟»

قلت: «آسف، لا».

قالت: «شيء سيئ. كنا إذاً سنستمتع».

قلت: «أفترض ذلك». لماذا كل هذه الأسئلة عن الآلات الموسيقية؟

أخرجتْ علبة سجائر «النجوم السبع» من جيب صدرها، ووضعت سيجارة بين شفتيها، وأشعلتها بولاعة وبدأت تنفث الدخان بتلذذ ظاهر.

«خطر في بالي أنني يجب أن أعطيك فكرة عن هذا المكان، سيد واتانابي، أليس هذا اسمك؟، قبل أن ترى ناوكو. لذلك خططت أن يكون لنا هذا اللقاء القصير. آمي أوتيل مكان غير اعتيادي، وقد تتصوره مربكاً قليلاً إذا لم تكن لديك معرفة به. ألست على صواب حين افترضت أنك لا تعرف شيئاً عن هذا المكان؟»

«لا شيء تقريباً».

«حسناً، إذاً، في البداية» بدأت، ثم طقطقت أصابعها «تعال نفكر بهذا، هل تناولت غداءك؟ أراهن أنك جائع».

«أنتِ على صواب، أنا جائع».

«تعال معي، إذاً. نستطيع أن نتحدث ونحن نتناول الطعام في قاعة الأكل. انتهى وقت الغداء، لكن إذا ذهبنا الآن فقد يحضرون لنا شيئاً».

سارت أمامي وقطعت الممر بسرعة، وطارت فوق السلالم طيراناً إلى قاعة الطعام في الطابق الأول. كانت غرفة كبيرة تتسع لما يزيد على مئتي شخص، لكن لم يستعمل منها سوى نصفها، إذ كان النصف الآخر

مفصولاً بحاجز، وكأنه فندق أو ملاذ للحالات الطارئة. أُدرج في قائمة الطعام ذلك اليوم شرائح البطاطا والمعكرونة والسلطة وعصير البرتقال والخبز. وقد ظهر أن الخضروات لذيذة كما كتبت ناوكو في رسالتها، وقد أكلت كل ما قُدِّم لي في طبقي.

«من الواضح أنك تتمتع بطعامك» قالت رفيقتي.

قلت: « طعام رائع. أنا تقريباً لم أتناول شيئاً طوال النهار».

«مرحباً بك لتناول طعامي أيضاً. إذا شئت. إنني متخمة».

«سأتناوله إذا كنتِ حقاً لا تريدينه».

«لدي معدة صغيرة. لا تستوعب الكثير. وأعوّض عما أفقده بالسجائر». وأشعلت سيجارة من نوع «النجوم السبع».

«آه، بالمناسبة. تستطيع أن تسميني رايكو. هكذا يدعونني هنا».

بدت رايكو تستمد متعة كبيرة من مراقبتي وأنا أتناول شرائح البطاطا، التي لم تمسسها تقريباً، وأطحنها مع خبزها.

سألتها: «هل أنت دكتورة ناوكو؟»

«أنا؟ دكتورة ناوكو؟» أمالت وجهها: «ما الذي يجعلك تظن أنني دكتورة؟»

«قالوا لي اسأل عن الدكتورة إشيدا».

«ها، أفهم، لا، لا، لا، أنا أدرِّس الموسيقى هنا. إنها نوع من العلاج لبعض المرضى هنا، ومن باب الدعابة يسمونني «دكتورة الموسيقى» وأحياناً «الدكتورة إشيدا». لكنني في الحقيقة مجرد مريضة أخرى. أنا هنا منذ سبع سنين. أعمل كمدرسة موسيقى، وأساعد في الأعمال المكتبية، لذلك يصعب القول هل أنا مريضة أم أحد أفراد الطاقم. ألم تحدثك ناوكو عني؟»

هززتُ رأسي نفياً.

قالت رايكو: «هذا غريب. أنا شريكتها في الغرفة. وأحب العيش معها. تحدثنا عن كل شيء تقريباً. بما فيها أنت».

«ماذا؟ عني؟»

«حسناً، في البداية يجب أن أطلعك على هذا المكان»، قالت رايكو متجاهلة سؤالي. «وأول شيء يجب أن تعرفه أن هذا المكان ليس «بمستشفى» اعتيادي. ولعله ليس بمصح للمعالجة والشفاء. بالطبع لدينا بعض الأطباء، وهم يعقدون جلسات تمتد لساعات، لكنهم فقط يتأكدون من أوضاع الناس، يأخذون درجات الحرارة وأشياء من هذا القبيل، ولا توجد معالجات بإعطاء الأدوية كما في المستشفيات الاعتيادية. لا توجد عوارض على الشبابيك هنا، والبوابة مفتوحة دائماً على مصراعيها. يأتي الناس ويغادرون بمحض إرادتهم. ويجب أن تتلاءم مع هذا النوع من المعالجة حتى تُقبل هنا في المحل الأول. في بعض الحالات، ينتهي الناس الذين يحتاجون إلى علاج تخصصي بالذهاب إلى مستشفى متخصص. حتى الآن مفهوم؟»

قلت: «أظن ذلك. لكن ما الذي يتضمنه هذا العلاج؟ هل يمكن أن تعطيني مثالاً ملموساً؟»

نفثت رايكو غيمة من الدخان وشربت ما تبقى أمامها من عصير برتقال. قالت: «مجرد العيش هنا هو العلاج. الروتين المنتظم، التمارين، العزلة عن العالم الخارجي، الهواء النقي، الهدوء. تبيح لنا مزرعتنا أن نتمتع بالاكتفاء الذاتي من الناحية العملية، لا تلفزيون، لا راديو. نحن نعيش على طراز أماكن الجمعيات المنعزلة التي تسمع عنها. بالطبع هناك ما يميزنا عن الجماعات المنعزلة، إذ يكلف العيش هنا رزمة من النقود».

«رزمة؟»

«حسناً، ليس بالمكلف إلى حد سخيف، لكنه ليس برخيص. انظر إلى هذه التسهيلات فقط. لدينا مساحة واسعة من الأرض هنا، وقلة من

المرضى، وكادر كبير، ومن ناحيتي جئت إلى هنا منذ زمن طويل. صحيح أنني أنا نفسي من الطاقم تقريباً ولذلك أحصل على بعض الامتيازات، لكن ما زال. . . . والآن ما رأيك بكوب من القهوة؟»

قلت أريد تناولها. أطفأت سيجارتها وذهبت إلى الكاونتر، حيث صبت كوبَي قهوة من قِدر دافئة وجلبتهما إلى حيث كنا نجلس. تناولت السكر ووضعته في كوبها، وذوبته، وتذوقتها.

قالت: «أنت تعرف أن هذا المصح ليس بمؤسسة ربحية، لذلك يمكن أن يستمر دون دفع أجور مكلفة. الأرض منحة. وكان المكان بأكمله يستعمل كبيت صيفي لصاحبه قبل أن يتبرع به منذ عشرين سنة. أنا واثقة أنك رأيت البيت القديم؟»

قلت إنني رأيته.

«لقد كان هذا البيت المبنى الوحيد في العقار كله. وهناك قرروا أن يقام العلاج الجماعي. هكذا بدأ كل شيء. كان لدى ابن المتبرع ميل نحو الأمراض العقلية وقد أوصاه أحد المتخصصين بالعلاج الجماعي. كان لدى الطبيب نظرية في أنك إذا تجمع لديك عدد من المرضى يعيشون معاً في الريف، يساعدون بعضهم ويمارسون الرياضة البدنية ولديهم طبيب يقدم لهم النصيحة ويجري الفحوص اللازمة، وهكذا تستطيع معالجة بعض أنواع الأمراض. جَرَّبوا هذه الطريقة، وتوسّعت العملية، فوضعوا مزيداً من الأراضي تحت التصرف، وبنوا المبنى الرئيس منذ خمس سنوات».

«تقصدين أن العلاج أفاد؟»

«حسناً، ليس في جميع الأحوال. هناك كثير من الناس لا تتحسن حالتهم. ولكن هناك أيضاً كثير من الناس لا تتحسن حالتهم في أي مكان ولا يستردون صحتهم إلا هنا. أفضل ما في هذا المكان هو الكيفية التي يساعد بها الناس بعضهم بعضاً. يعرف الناس جميعاً هنا أنهم مصابون بعاهة بطريقة ما، ولذلك فهم يحاولون مساعدة بعضهم. أماكن أخرى لا

تعمل بهذه الطريقة، لسوء الحظ. الأطباء أطباء، والمرضى مرضى؛ يسعى المريض للحصول على مساعدة الطبيب، ويقدم الطبيب مساعدته للمريض. لكننا هنا يساعد بعضنا بعضاً. نحن جميعاً مرايا لبعضنا. والأطباء جزء لا يتجزأ منا. يراقبوننا عن بعد، ويهرعون لمساعدتنا إذا رأوا أننا بحاجة إلى مساعدة، ولكن يحدث أحياناً أننا لا نساعدهم. وأحياناً نكون أفضل منهم في بعض الأشياء. على سبيل المثال، أنا أدرّس أحد الأطباء كيف يعزف على البيانو، ومريض آخر يدرس ممرضة اللغة الفرنسية. أشياء من هذا القبيل. المرضى الذين يعانون مشكلات مثلنا غالباً ما يكونون موهوبين بمزايا خاصة. لذلك فالجميع متساوون هنا، المرضى والطاقم وأنت، أنت واحد منا ما دمت هنا، لذلك أساعدك وتساعدني». ابتسمت رايكو، وثنت بنعومة جميع التجاعيد على وجهها. «أنت تساعد ناوكو، وناوكو تساعدك».

«ماذا يجب أن أفعل إذاً؟ أعطيني مثالاً».

«أولاً يجب أن تقرر أنك تريد مساعدة الآخرين، وأنك تحتاج إلى أن يساعدك الآخرون. إذاً فأنت نزيه تماماً. لن تكذب، لن تموه على شيء، لن تغطي على شيء يمكن أن يسبب لك إرباكاً. هذا كل ما في الأمر».

قلت: «سأحاول. ولكن أخبريني، رايكو، لماذا جئت إلى هنا منذ سبع سنين؟ أنا حين أتحدث معك هكذا، لا أصدق أنك تعانين من شيء ما».

قالت بنظرة كئيبة: «ليس والشمس ساطعة. بل حين يحل الليل، أبدأ بالهذيان والتدحرج على الأرض».

«حقاً؟»

«لا تكن سخيفاً. أنا أمزح» قالت وهي تهز رأسها مع نظرة امتعاض: «أنا بخير تماماً، على الأقل في الوقت الحاضر. وإذا كنت قد بقيت في هذا المكان، فذلك لكي أتمتع بمساعدة الآخرين على التحسن، وتعليم الموسيقى، وزراعة الخضار. أحب هذا المكان. نحن جميعاً أصدقاء

على نحو ما، قياساً بما في العالم الخارجي، ما الذي حصلت عليه؟ عمري ثمان وثلاثون سنة وسأصير في الأربعين. لست مثل ناوكو. ما من أحد ينتظرني في الخارج، لا عائلة تنتظرني لأعود إليها. ليس لدي عمل لأتحدث عنه. وتقريباً لا أصدقاء. وبعد سبع سنين، لم أعد أعرف ما الذي يجري في الخارج. نعم، أقرأ الجرائد في المكتبة بين الحين والآخر، لكنني لم أخط خطوة واحدة خارج هذا المكان طوال هذه السنين. ولا أعرف ما سأفعله إذا غادرته».

قلت: «لكن ربما انفتح لك عالم جديد، ألا تظنين أنه شيء يستحق المحاولة؟»

قالت وهي تدير بين يديها ولاعة سجائرها من وجه لوجه: «حسناً، ربما تكون على صواب. لكنني حصلت على نصيبي من المشاكل. وسأحدثك عنها ذات مرة إذا شئت».

هززت رأسي. قلت: «وناوكو، هل تتحسن حالتها؟»

«همم، نعتقد ذلك. في البداية كانت مرتبكة تماماً وقد ساورتنا الشكوك بخصوصها لفترة، لكنها هدأت الآن وتحسنت إلى حد أنها صارت قادرة على التعبير عن نفسها لفظياً. وبالتأكيد هي تسير في الاتجاه الصحيح. لكن كان يجب أن تحصل على كثير من العلاج قبل ذلك. من الواضح أن أعراضها كانت ظاهرة تقريباً منذ أن قتل صديقها، كيزوكي، نفسه. كان يجب أن تلاحظ عائلتها ذلك. وكان يجب أن تدرك هي نفسها وجود الخطأ. بالطبع، حتى في البيت لم تكن الأمور جيدة أيضاً».

«لم تكن أمورهم جيدة؟»

«ألم تعرف؟» بدت رايكو أكثر تعجباً مني.

هززت رأسي.

«من الأفضل أن أترك ناوكو تخبرك بنفسها. وهي مستعدة للخوض في حديث نزيه معك». تذوقت رايكو قهوتها مرة أخرى. قالت: «هناك

شيء آخر يجب أن تعرفه. حسب القواعد المتبعة هنا، لا يسمح لك وناوكو أن تكونا منفردين. لا يمكن للزوار أن ينفردوا بالمرضى. ولا بد من وجود مراقب دائماً، في هذه الحالة، المراقب يعني أنا. أنا آسفة، لكن يجب أن تصطبر عليَّ. حسناً؟»

«حسناً»، قلت بابتسامة.

قالت: «بقي أنه يمكنكما الحديث في أي موضوع تريدان. انس وجودي معكما. أنا أعرف كل ما يمكن معرفته عنك وعن ناوكو».

«كل شيء؟»

«كثيرٌ جداً. أنت تعرف أننا نعقد جلسات جماعية. لذلك نحن نعرف الكثير عن بعضنا. أضف إلى ذلك أننا أنا وناوكو نتحدث عن كل شيء. ليس لدينا أسرار نخفيها هنا».

تطلعت إلى رايكو وأنا أحتسي القهوة. قلت: «دعيني أقول الحقيقة، أنا مرتبك. ما زلت لا أعرف هل كان الشيء الذي فعلته لناوكو في طوكيو شيئاً صحيحاً أم لا. لقد قضيت كل هذا الوقت أفكر فيه، لكنني ما زلت لا أعرف».

قالت رايكو: «ولا أنا أعرف. ولا حتى ناوكو. هذا شيء تقرّرانه أنتما الاثنين مع نفسيكما. هل تفهم ما أعنيه؟ مهما حدث بينكما، فإن كليكما تستطيعان تدويره في الاتجاه الصحيح، إذا كان بإمكانكما التوصل إلى نوع من الفهم المتبادل. ربما، ما دمت قد أوليت هذا الأمر هذه العناية، فلعلك تعود وتفكر إذا كان ما حدث شيئاً صحيحاً أم لا. ماذا تقول؟»

هززت رأسي.

«أظن أننا نحن الثلاثة سنساعد بعضنا، أنا وأنت وناوكو، إذا شئنا ذلك حقاً، وإذا أردنا أن نكون نزيهين فعلاً. وإنه لذو تأثير لا يصدق أن يتعاون ثلاثة على عمل بهذه الطريقة. كم تستطيع أن تبقى هنا؟»

«حسناً، أرجو أن أعود إلى طوكيو مساء بعد غد. يجب أن أعمل، ولدي امتحان لغة ألمانية يوم الخميس».

قالت: «جيد. يمكن إذاً أن تبقى معنا. بهذه الطريقة لا يكلفك هذا شيئاً، ويمكن الحديث دون أن تقلق بخصوص الوقت».

سألتها: «معنا؟»

قالت رايكو: «أنا وناوكو بالطبع. لدينا غرفة نوم منفصلة، وهناك أريكة وسرير في غرفة الجلوس، لذلك ستتمكن من النوم مطمئناً. لا تقلق».

سألتها: «هل يسمحون بذلك؟ هل يستطيع زائر ذكر أن يقيم في غرفة مع امرأة؟»

«لا أظن أنك ستقتحم عزلتنا وتغتصبنا في منتصف الليل؟»

«لا تكوني سخيفة».

«إذاً لا توجد مشكلة. أقم معنا وسنخوض في أحاديث مطولة، جميلة. هذا أفضل شيء. وبهذه الطريقة يمكن أن نفهم بعضنا فعلاً. وأستطيع أن أعزف على قيثاري لك. أنا ممتازة في العزف، تعرف».

«هل أنت متأكدة أنني لا أتطفل عليكما؟»

وضعت رايكو سيجارة من علبة «النجوم السبع» بين شفتيها وأشعلتها بعد أن وضعتها في زاوية فمها.

«لقد تناقشنا أنا وناوكو بخصوص هذا. ونحن كلانا نوجه لك دعوة شخصية للإقامة معنا. ألا تعتقد أن عليك قبولها تأدباً؟»

«بالطبع، سأكون مسروراً بقبولها».

عمقت رايكو التجاعيد عند زاوتي عينيها وتطلعت إليَّ لفترة. قالت: «لديك طريقتك المرحة في الحديث. لا تقل لي إنك تحاول تقليد ذلك الصبي في رواية «حارس في حقل الشوفان»؟»

«على الإطلاق!» قلت بابتسامة.

ابتسمت رايكو أيضاً، وسيجارتها في فمها. «مع ذلك، أنت شخص طيب. أستطيع معرفة ذلك من النظر إليك. أستطيع معرفة هذه الأشياء بعد سبع سنين من مراقبة الناس يروحون ويجيئون إلى هنا. هناك أناس تفتح قلوبها، وأناس لا تفتحها. وأنت من النوع الذي يفتح قلبه. أو بعبارة أدق، تستطيع أن تفتح قلبك، إذا أردت».

«ما الذي يحدث حين تفتح الناس قلوبها؟»

ربتت رايكو على الطاولة بيديها، والسيجارة تتدلى من شفتيها. كانت تتمتع بهذا. قالت: «تتحسن صحتهم». تساقط رماد سيجارتها على الطاولة، لكن يبدو أنها لم تلاحظه.

* * *

غادرنا أنا ورايكو المبنى الرئيس، عبرنا تلاً، ومررنا بمسبح، وملعب تنس، وملعب كرة سلة. كان في ملعب التنس رجلان، أحدهما نحيف وفي منتصف العمر، والثاني شاب وسمين. كان كلاهما يحسن استعمال المضرب، لكن اللعبة التي يلعبانها لم تكن التنس كما اعتقد. بدا لي وكأن الاثنين مهتمان اهتماماً خاصاً بتبادل دفع كرات التنس وهما يجريان في هذا الحقل. كانا يركلان الكرة رواحاً ومجيئاً بنوع غريب من التركيز. كلاهما غارق في العرق. الشاب، في طرف الملعب القريب منا، لاحظ رايكو فتوقف. تبادلا بضع كلمات مبتسمين. وقرب الملعب، كان رجل لا تعبير على وجهه، يستخدم حزازة كبيرة لقصّ العشب.

ونحن نمشي، وصلنا إلى بقعة تظللها الأشجار يوجد فيها ما بين خمسة عشر إلى عشرين كوخاً صغيراً على مسافة نسبية من بعضها. كانت هناك دراجة صفراء من النوع نفسه الذي رأيت حارس البوابة يركبها تقف عند مدخل كل بيت تقريباً. قالت رايكو: «يعيش أفراد الطاقم وعوائلهم هنا».

. «لدينا كل ما نحتاج إليه هنا دون حاجة للذهاب إلى المدينة» قالت ونحن نمشي: «وفيما يتعلق بالطعام، كما قلت لك سابقاً، فنحن عملياً

مكتفون ذاتياً. نحصل على البيض من الدواجن التي نربّيها. لدينا كتب وتسجيلات ومحلات للتمارين ومقرات للراحة، وكل أسبوع يأتي الحلاقون والمزينون. لدينا حتى أفلام في نهاية كل أسبوع. وكل ما نحتاج إليه يمكن أن نسأل عنه أحد أفراد الطاقم لشرائه لنا من المدينة. أما الملابس فنطلبها حسب الدليل. العيش هنا بلا مشاكل أبداً».

«لكنكم لا تستطيعون النزول إلى المدينة؟»

«لا، لا نستطيع ذلك. بالطبع إلا إذا كان هناك شيء خاص، كأن يحتاج أحد إلى طبيب أسنان أو ما أشبه، فهذه قضية أخرى، ولكن كقاعدة عامة لا نستطيع النزول إلى المدينة. لكل شخص الحرية الكاملة في أن يترك هذا المكان، ولكن بمجرد أن تغادر لا يحق لك العودة. تُحْرَق بعدك كل الجسور. لا تستطيع أن تقضي بضعة أيام في المدينة وتتوقع أن تعود. هذا بديهي».

بعد الأشجار وصلنا إلى منحدر خفيف على فواصل منتظمة فيه صف من البيوت الخشبية ذات طابقين تبدو غريبة. من الصعب القطع ما الذي يجعل منها غريبة، لكنه أول شيء أحسست به حينما رأيتها. فكان رد فعلي مشابهاً لما نشعر به حين نرى ما يتجاوز الواقع مرسوماً بطريقة ممتعة. ولقد تراءى لي أن هذا هو ما يراودك لو أن والت ديزني قدّمت نسخة حية من رسم لمونك. للبيوت جميعاً الشكل واللون نفساهما تماماً، تقريباً مربعة، في تناظر تام من اليسار إلى اليمين، بأبواب أمامية كبيرة وكثير من النوافذ وقد شُقّ الطريق بينها ملتوياً مثل تمرين عملي مصطنع في مدرسة لتعليم قيادة السيارات. وأمام كل بيت جنينة مزدهرة رائعة التشذيب. كان المكان مهجوراً، والستائر مرخاة على جميع النوافذ.

«يدعى هذا المكان المنطقة (ج). تعيش النساء هنا. نحن!، عشرة بيوت، في كل بيت أربع وحدات، امرأتان في كل وحدة. أي أن المجموع ثمانون امرأة بالإجمال، ولكن الآن هناك اثنتان وثلاثون امرأة منا فقط».

«لكنه هادئ تماماً؟»

قالت رايكو: «حسناً، لا يوجد أحد هنا الآن. وقد حصلت على إذن خاص للتحرك بحرية على هذا النحو، لكن الآخرين يجب أن يتابعوا الجداول الفردية الخاصة بهم. بعضهن يمارسن التمارين، بعضهن يمارسن البستنة، أخريات في العلاج الجماعي، بعضهن يجمعن النباتات البرية. كل واحدة تمارس عملها حسب الجدول. دعنا نرى، ما الذي تفعله ناوكو الآن؟ أعتقد أنها تعمل على رسم جديد وملصقات حيطان. نسيت. هناك بعض الوظائف القليلة كهذه لا تنتهي حتى الخامسة».

مشت رايكو إلى المبنى المرقم (ج-7)، تسلقت السلالم في النهاية القصوى من القاعة، وفتحت الباب، الذي لم يكن مقفلاً، على اليمين. عرضت عليَّ الشقة، وهي شقّة مريحة ذات أربع غرف: غرفة معيشة، وغرفة نوم، ومطبخ، وحمام. لم يكن فيها أثاث زائد أو زينة غير ضرورية، لكنها لم تكن مكاناً متجهماً. لم يكن فيها ما يميزها، غير أن الوجود هناك كان أشبه بالوجود مع رايكو: تستطيع أن تسترخي وتدَع التوتر يغادر جسدك. في غرفة المعيشة توجد أريكة، وطاولة، وكرسي هزاز. وهناك طاولة أخرى في المطبخ. وعلى كلتا الطاولتين منفضة سجائر كبيرة. في غرفة النوم سريران، ومنضدتان، وخزانة. وهناك طاولة ليلية صغيرة ينتصب في أعلاها مصباح قراءة بين السريرين وعليها كتاب مقلوب على ظهره. في المطبخ طباخ كهربائي صغير تقابله ثلاجة مزودة بطعام بسيط.

«لا يوجد حمام، مجرد دوش، لكنه لطيف جداً، ألا تعتقد؟ الحمام وخدمات الغسيل جماعية».

«لطيف جداً. في غرفتي في المهجع سقف ونافذة فقط».

«ها، لكنك لم تر الشتاء هنا» قالت رايكو وهي تلامس ظهري لتقودني إلى الأريكة وتجلس إلى جواري. «الشتاء هنا طويل وفظ. لا شيء سوى الثلج والثلج، حيثما يممت وجهك ترى الثلج. تخترقك القشعريرة حتى

العظام. نقضي الشتاء نجرف الثلج. في الغالب تبقى في الداخل حيث يوجد دفء تصغي إلى الموسيقى أو تتحدث أو تحوك. إذا لم يكن لديك مثل هذا المتسع، فقد تحتنق. سترى إذا جئت هنا في الشتاء».

تنهدت رايكو تنهيدة عميقة وكأنها تتمثل الشتاء، ثم طوت يديها حول ركبتيها.

«ستكون هذه الأريكة سريرك» قالت وهي تربت على الأريكة. «ونحن سننام في غرفة النوم، وتنام أنت هنا، ستكون على ما يرام، أليس كذلك؟»

«أنا واثق أنني سأكون بخير».

قالت رايكو: «إذاً كلّ شيء على ما يرام. سنعود حوالي الخامسة. لديَّ ولدى ناوكو معاً ما نقوم به حتى حينئذ. هل تمانع إذا بقيت هنا وحدك؟»

«على الإطلاق. سأحضّر لامتحان الألمانية».

حين غادرت رايكو، تمددت على الأريكة، وأغمضت عيني. أضطجع هناك محاطاً بالصمت خارج اللامكان حيث فكرت في الزمن الذي خرجنا فيه أنا وكيزوكي في جولة على دراجته النارية. أدركت أن ذلك الوقت كان خريفاً أيضاً. خريف منذ كم سنة؟ نعم، أربع. تذكرت رائحة سترة كيزوكي الجلدية. ذهبنا إلى بقعة بعيدة قرب الساحل وعدنا في المساء نفسه، مرهقين. لم يحدث شيء خاص في الطريق، لكنني أتذكره جيداً. أعولت ريح الخريف اللاذعة في أذني، وأنا أتطلع إلى السماء، ويداي تمسكان بسترة كيزوكي، فشعرت كما لو أنني زحفت إلى الفضاء الخارجي.

اضطجعت هناك فترة طويلة، تاركاً عقلي يتنقل من ذكرى إلى أخرى. لسبب غريب، بدا وكأن الاضطجاع في تلك الغرفة قد جاء ليعيدني إلى تلك الذكريات التي نادراً ما تذكرتها من قبل. بعضها كان ساراً، وبعضها الآخر حمل لمسة حزن.

كم استمر ذلك؟ كنت منغمساً في سيل الذكريات (ولقد كان سيلاً حقاً، مثل نبع يتفجر من الصخر) إلى حد أنني لم أنتبه إلى ناوكو وهي تفتح الباب وتدخل بهدوء. فتحت عيني، فكانت هناك. رفعت رأسي وتطلعت إلى عينيها لفترة. كانت تجلس على ذراع الأريكة، وهي تتطلع إليَّ. في البداية فكرت أنها قد تكون صورة تطل على الوجود من ذكرياتي. لكنها كانت ناوكو الحقيقية.

همستْ: «نائم؟»

قلت: «لا، أفكر فقط». نهضت وسألتها: «كيف أنت؟»

«أنا بخير» قالت بابتسامة صغيرة مثل مشهد شاحب، قَصِيّ.

«ليس لدي وقت كثير. يجب ألا أكون هنا. فقط خرجت لدقائق. ويجب أن أعود. هل تكره شعري؟»

قلت: «لا، على الإطلاق. إنه جذاب». كان شعرها مصففاً على طراز فتيات المدارس البسيط، وقد ربط بمشبك على أحد الجانبين، بالطريقة التي كانت متعودة عليها في الأيام الخوالي. وقد رتبته بطريقة رائعة، وكأنها كانت ترتبه دائماً بهذا الشكل. بدت وكأنها فتاة صغيرة جميلة من الفتيات اللواتي تراهنّ في اللوحات الزيتية من العصور الوسطى.

«مؤلم. قصته لي رايكو. هل فعلاً تعتقد أنه جذاب؟»

«فعلاً».

«أمي تكرهه». فتحت المشبك، وتركت شعرها يتدلى، وقد مسحت عليه بأناملها، وأغلقت المشبك ثانية. فظهرت وكأنها فراشة.

«أردتُ أن أراكَ وحدنا هنا قبل أن نلتقي نحن الثلاثة. ليس لأن لدي شيئاً خاصاً أقوله. بل أردت فقط أن أرى وجهك وأتعود على وجودك هنا. وإلا، قد أعاني بعض الصعوبة في معرفتك مرة أخرى. أنا سيئة جداً مع الناس».

سألتها: «حسناً، وهل هذا ينفع؟»

«قليلاً»، قالت وهي تلمس مشبكها مرة أخرى. «لكن الوقت يجري. يجب أن أذهب».

هززت رأسي.

بدأت: «تورو، أردت فعلاً أن أشكرك لمجيئك لرؤيتي هنا. هذا يجعلني سعيدة جداً. لكن إذا كان وجودك هنا يشكل عبئاً عليك من أي نوع، فلا يجب أن تتردد في إخباري. هذا مكان خاص، وله نظامه الخاص، وبعض الناس لا يتوافق مزاجهم معه. لذلك إذا كنت تشعر بهذا أرجو أن تصارحني به. لا أريد أن أندفع. نحن هنا صرحاء مع بعضنا. نخبر بعضنا بكل ما لدينا من أمور بمنتهى النزاهة».

قلت: «سأخبرك، سأكون نزيهاً معك».

جلست ناوكو واسترخت أمامي على الأريكة. حين وضعت ذراعي حولها، أراحت رأسها على كتفي وضغطت بوجهها على عنقي. بقيت على هذه الحال فترة، وكأنها كانت تستمد حرارتي. وأنا أحملها، أحسست بالدفء في صدرها. بعد فترة من الوقت، نهضت دون أن تقول كلمة وخرجت من الباب بالهدوء نفسه الذي دخلت به.

حين خرجت ناوكو، عدت لنومي على الأريكة. لم يكن قصدي أن أنام، لكنني غططت في نوع من النوم العميق الذي لم أذقه منذ زمن طويل، وقد ملأني الإحساس بحضور ناوكو. في المطبخ كانت الصحون التي استعملتها ناوكو، في الحمام فرشاة الأسنان التي استعملتها ناوكو، وفي غرفة النوم السرير الذي تنام فيه ناوكو. بذلك النوم العميق في شقتها، نفضت الإرهاق من خلايا جسدي قطرة قطرة. حلمت بفراشة ترقص في نصف ضوء.

حين استيقظت ثانية، كانت عقارب ساعتي تشير إلى 4,35. تغير الضوء، وماتت الريح، واختلفت أشكال الغيوم. تعرقت في نومي، لذلك جففت وجهي بمنشفة أخرجتها من حقيبتي، وارتديت ثياباً جديدة. ذهبت

إلى المطبخ، وشربت بعض الماء وتطلعت من النافذة فوق المغسلة. كنت أواجه نافذة في المبنى المقابل، وقد عُلِّقت في داخله قطع ورقية متعددة، طائر، غيمة، بقرة، قطة، كلها برسوم ظلية ماهرة، مجموعة معاً. وكالسابق، لا علامة على وجود أحد، ولا نأمة من أي نوع. شعرت كأنني أعيش وحيداً في طلل يحظى بعناية بالغة.

* * *

بدأ الناس بالعودة إلى المنطقة (ج) بعد الخامسة بقليل. وأنا أتطلع من نافذة المطبخ، رأيت ثلاث نساء يمررن في الأسفل. جميعهن كن يرتدين قبعات منعتني من تقدير أعمارهن، ولكن احتكاماً إلى أصواتهن، لم يكنَّ في ريعان الشباب. وبعد أن اختفين قرب الزاوية، ظهرت نساء أربع أخريات في الاتجاه نفسه، ومثل المجموعة الأولى، اختفين عند الزاوية أيضاً. هيمن مزاج مسائي على كل شيء. من نافذة غرفة المعيشة، كنت أستطيع رؤية الأشجار وخط التلال. وفوق الحافة تحوم حدود أشعة الشمس الشاحبة.

عادت ناوكو ورايكو معاً عند الخامسة والنصف. وقد تبادلنا أنا وناوكو التحيات المناسبة وكأننا نلتقي للمرة الأولى. وقد بدت مرتبكة بحق. لاحظت رايكو الكتاب الذي كنت أقرأه وسألت ما هو. أخبرتها أنه رواية «الجبل السحري» لتوماس مان.

«كيف حملت كتاباً كهذا لمكان كهذا؟» تساءلت. وكانت على حق بالطبع. أعدَّت رايكو بعدئذ القهوة لنا نحن الثلاثة. أخبرت ناوكو عن اختفاء جندي العاصفة المفاجئ وعن آخر يوم رأيته فيه، حين أعطاني اليراعة. قالت: «آسفة جداً لذهابه. كنت أريد سماع المزيد من القصص عنه».

سألت رايكو من يكون جندي العاصفة، فرويت لها غرائبه لأتلقى منها ضحكة مدوية. يعم العالم السلام ويمتلئ بالضحك ما دامت تروى قصص جندي العاصفة.

في السادسة ذهبنا إلى غرفة الطعام في المبنى الرئيس لتناول العشاء. تناولنا أنا وناوكو السمك المقلي مع سلطة خضراء، وخضروات مسلوقة، والرز وحساء الميزو. واقتصرت رايكو على سلطة المعكرونة والقهوة. وأتبعتهما بسيجارة أخرى.

قالت لي بطريقة تفسيرية: «لا تحتاج إلى أكل الكثير حتى تكبر».

كان هناك قرابة عشرين شخصاً في قاعة الطعام. وصل داخلون جدد ونحن نأكل، بينما خرج آخرون. وبصرف النظر عن الاختلاف في أعمار الناس، فقد بدا المشهد مماثلاً لما يحدث في غرفة الطعام في المهجع الذي أعيش فيه. يكمن الاختلاف في درجة التماثل التي يتحدث بها الناس. لم تصدر عن أحد أصوات عالية، أو همسات، ما من ضحكات مدوية، أو صياح صادم، ما من أحد يصرخ بأصوات صاعقة، لا شيء سوى الأحاديث الهادئة، التي يؤديها الجميع بمستوى واحد. كانوا يأكلون جماعات من ثلاثة إلى خمسة، في كل جماعة يتكلم شخص واحد، يصغي له الآخرون وهم يهزون رؤوسهم، ويصدرون إشارات الاهتمام، وحين ينتهي ذلك الشخص من كلامه، يتصدى الآخر للحديث. لا أستطيع أن أجزم بما كانوا يتحدثون به، لكن الطريقة التي يتبادلون بها الحديث ذكّرتني بلعبة تنس غريبة رأيتها ذات ظهيرة. تساءلت مع نفسي هل كانت ناوكو تتحدث بهذه الطريقة، وهي معهم، ومن الغريب أنني شعرت بوخزة وحدة تخالطها غيرة.

على الطاولة خلفي، كان رجل أصلع يرتدي البياض يدل مظهره على سيماء طبيب يتحدث بنظرة تشوبها العصبية إلى فتى شاب يرتدي نظارة وامرأة لها وجه سنجاب في منتصف العمر عن آثار نقص الوزن على إفراز عصارة المعدة. كان الاثنان يصغيان وهما يقولان بين الحين والآخر: «رباه» أو «حقاً؟»، لكنني كلما أصغيت لأسلوب حديث الرجل الأصلع، صرت أقل تأكداً من أنه طبيب حقاً، برغم معطفه الأبيض.

لم يعرني أحد في غرفة الطعام انتباهاً خاصاً. لم يحدق بي أحد، بل

لا يبدو أن أحداً لاحظ حتى وجودي هناك. لا بد أن حضوري كان حدثاً طبيعياً مألوفاً تماماً.

مرة واحدة فقط، التفت الرجل بالبياض بسرعة وسألني: «كم ستبقى؟»

قلت: «ليلتين. سأغادر الأربعاء».

«أليس هذا الوقت من السنة لطيفاً؟ تعال مرة أخرى في الشتاء. جميل فعلاً حين يكتسي كل شيء بالبياض».

قالت رايكو للرجل: «لعل ناوكو ستخرج من هنا حين تهطل الثلوج».

«صحيح، مع ذلك فالشتاء لطيف حقاً» أعاد بتعبير كئيب. فشعرت أن شكوكي تتضاعف حول كونه طبيباً أو لا.

«عمَّ تتحدثون هنا؟» سألتُ رايكو، التي بدا أنها لا تتابعني.

«عمَّ نتحدث؟ أشياء اعتيادية فقط. ما حدث بالأمس، أو كتب قرأناها، أو الجو غداً، تعرف، أشياء من هذا القبيل. لا تقل إنك تتخيل أن يقفز الناس على أرجلهم ويصيحوا بالطاقم: «ستمطر غداً إذا أكل الدب القطبي النجوم الليلة»!».

قلت: «لا، لا، بالطبع لا. كنت أتساءل فقط عمّا تدور هذه الأحاديث الهادئة».

قالت ناوكو: «إنه مكان هادئ، ولذلك يتحدث الناس بهدوء». جمعتْ عظام الأسماك على حافة صحنها، ومسحت على فمها بمنديل. «لا تحتاج أن ترفع صوتك هنا. لا تحتاج أن تقنع أحداً بأي شيء، ولا تحتاج إلى اجتذاب اهتمام أحد».

«لا أظن» قلت، ولكن حين كنت أتناول طعامي في تلك الأماكن الهادئة، كنت أندهش إذ أجد نفسي أفتقد همهمة الناس. كنت أريد أن أسمع ضحك الناس وصراخهم بلا سبب وتقاذفهم بالكلمات النابية. ذلك

هو نوع الضجيج الذي أقلق بشأنه في الشهور الأخيرة، أما الجلوس هنا وأنا آكل السمك في هذه الغرفة الهادئة بشكل غير معقول، فشيء لم أرتح له. كان يطغى على غرفة الطعام جو معرض متخصص بتجارة ماكينات القطع. يلتقي أناس لهم اهتمام قوي بحقل تخصصي معين في مكان معين ويتبادلون المعلومات التي لا يفهمها أحد سواهم.

* * *

حين عدنا إلى الغرفة بعد العشاء، أعلنت ناوكو ورايكو أنهما تريدان الذهاب إلى الحمام الجماعي لمنطقة (ج)، وإذا كنت لا أمانع من أخذ دوش فقط، فأستطيع استعمال حمام غرفتهما. قلت لا أمانع، وبعد أن ذهبتا نزعت ملابسي، واستحممت، وغسلت شعري. وجدت ألبوم «بل إيفانز» في خزانة الكتب، واستمعت له. حين كنت أجفف شعري، تبينت أنه الشريط الذي شغلته في غرفة ناوكو ليلة عيد ميلادها، تلك الليلة التي بكت فيها فأخذتها بين ذراعيَّ. لم تمر على ذلك سوى ستة شهور، لكنني شعرت بأنه حدثٌ ينتمي إلى ماض أبعد بكثير. ربما تراءى لي ذلك لأنني فكرت فيه كثيراً، كثيراً جداً، إلى حد أنه شوه إحساسي بالزمن.

كان القمر ساطعاً جداً، فأطفأت الإضاءة وتمددت على الأريكة لأصغي إلى بيانو «بل إيفانز». ألقت أشعة القمر، وهي تتموج من خلال النافذة، ظلالاً طويلة وصبغت الجدران بلمسة من حبر هندي فياض. أخرجت من حقيبتي قارورة معدنية، وتركت فمي يمتلئ بالبراندي الذي تحتويه، وسمحت للدفء أن ينتقل ببطء من حنجرتي حتى معدتي، ومن هنا أحسست به ينتشر في خبايا جسدي. وبعد جرعة أخيرة، أغلقت القارورة وأعدتها إلى حقيبتي. والآن بدا وكأن أشعة القمر تتأرجح مع الموسيقى.

بعد عشرين دقيقة، عادت ناوكو ورايكو من الحمام.

«آه، كانت الظلمة شديدة هنا، ظننا أنك حزمت أمتعتك وعدت إلى طوكيو!» قالت رايكو بتساؤل.

قلت: «على الإطلاق. لم أر مثل هذا القمر الساطع منذ سنوات. أردت أن أتطلع إليه والأضواء مطفأة».

«مع ذلك فهي جميلة» قالت ناوكو: «رايكو، أما زلت تحتفظين بتلك الشموع من ليلة انقطاع الكهرباء؟»

«ربما في جارور المطبخ».

جلبت ناوكو شمعة بيضاء، كبيرة من المطبخ. أشعلتها وأنزلت قليلاً من الشمع الذائب في صحن، وثبتتها. استعملت رايكو اللهب لإشعال سيجارة. ونحن نجلس قبالة هذه الشمعة، بين تلك الأشياء الكامدة، بدا وكأننا متروكون وحدنا عند حافة العالم. التقى ما تبقى من ظلال أشعة القمر وظلال ضوء الشمعة المتمايلة واختلطا على الجدران البيضاء في الشقة. جلسنا، ناوكو وأنا، إلى جوار بعضنا على الأريكة، واستقرت رايكو على الكرسي الهزاز قبالتنا.

سألتني: «ما رأيك ببعض الخمرة؟»

سألتُ ببعض الدهشة: «هل الشرب مسموح لكم؟»

«حسناً، ليس تماماً» قالت رايكو وهي تحك صدغها بشيء من الارتباك: «ولكنهم يغضون الطرف عن ذلك. إذا تعلق الأمر بقدح من الخمرة أو البيرة ولم تشرب كثيراً. لدي صديق من الطاقم يشتري لي القليل بين الحين والآخر».

قالت ناوكو بطلعة عابثة: «لدينا حفلات شربنا. نحن الاثنتين فقط».

قلت: «هذا جميل».

أخرجت رايكو قنينة خمرة بيضاء من الثلاجة، وفتحتها بالفتاحة، وجلبت ثلاثة أقداح. كانت للخمرة نكهة واضحة، لذيذة، دلت على أنها مصنوعة منزلياً. وحين انتهى شريط التسجيل، أخرجت رايكو قيثاراً من تحت سريرها، وبعد أن ضبطته بنظرة ولع بالآلة، بدأت بعزف معزوفة بطيئة لباخ. كانت تضل عزف أصابعها بين الحين والآخر، لكنه كان عزفاً

حقيقياً لباخ، بشعور حقيقي، دافئ، حميم، ومفعم بمتعة الأداء.

قالت رايكو: «بدأت بعزف القيثار هنا. لا وجود للبيانوات في الغرف بالطبع. وأنا عصامية، ليست لدي يدان مناسبتان للقيثار، لذلك لم أكن جيدة جداً أبداً، لكنني فعلاً أحب هذه الآلة. فهي صغيرة وبسيطة وسهلة، كأنها غرفة دافئة صغيرة».

عزفت قطعة أخرى لباخ، قطعة ربما مقتطعة من لحن أطول. حين كانت عيناي مركّزتين على لهب الشمعة، وأنا أحتسي الخمرة، وأصغي لباخ الذي تؤديه رايكو، شعرت بأن التوتر في داخلي أخذ ينزاح. وحين فرغت رايكو من عزف باخ، طلبت منها ناوكو أن تعزف أغنية خنافس.

قالت رايكو وهي تغمز لي: «تتطلب وقتاً. إنها تجعلني أعزف الخنافس كل يوم، كأنها تستعبدني موسيقياً».

برغم احتجاجها، عزفت رايكو قطعة «ميتشيل» جميلة.

قالت: «هذه جيدة. فعلاً أحب هذه الأغنية» أخذت جرعة من خمرتها ونفثت سيجارتها: «تجعلني أشعر وكأنني أعيش في مرج فسيح تحت مطر ناعم».

ثم عزفت «إنسان اللامكان» و«جوليا». وبين الحين والآخر، تغمض عينيها، وهي تعزف، وتهز رأسها. وبعد أن تنتهي ترجع إلى كأسها وسيجارتها.

قالت ناوكو: «اعزفي «الغابة النروجية»».

جلبت رايكو قطة من الخزف الصيني من المطبخ. كانت حصالة، رمت ناوكو في فتحتها قطعة بمائة ين من محفظتها.

سألتُ: «ما هذا؟»

قالت ناوكو: «هذه قاعدة. حين أطلب «الغابة النروجية»، يجب أن أضع مائة ين في الحصالة. وهي مفضلة لدي، فلا أبالي بالدفع من أجلها. وأطلبها حين أريد سماعها فعلاً».

قالت رايكو: «وبهذه الطريقة أحصل على نقود سجائري».

حركت رايكو أصابعها ثم عزفت «الغابة النروجية». مرة أخرى، عزفتها بشعور حقيقي، لكنها لم تسمح له أبداً بأن يتحول إلى انفعال عاطفي. أخرجتُ قطعة بمائة ين من جيبي ورميتها في الحصالة.

قالت رايكو بابتسامة عذبة: «شكراً جزيلاً».

قالت ناوكو: «هذه الأغنية تجعلني أشعر بحزن جارف. لا أعرف، يتراءى لي أنني أتجول في غابة عميقة. وأنا وحدي في ظلمة باردة، لا أحد يأتي لإنقاذي. لهذا لا تعزفها رايكو أبداً ما لم أطلبها منها».

قالت رايكو ضاحكة: «تشبه «الدار البيضاء»!».

أتبعت «الغابة النروجية» ببعض قطع الجاز بينما أبقيت عيني على ناوكو. كما قالت في رسالتها، صارت تبدو أكثر صحة من ذي قبل، وقد سفعتها الشمس، وشدت التمارين والعمل الخارجي جسدها. كانت عيناها خزانين عميقين واضحين كما هما دائماً، وما زالت شفتاها الصغيرتان ترتجفان حياء، غير أن جمالها ككل بدأ يتغير إلى جمال امرأة ناضجة. وتكاد تختفي عنها تلك الحافة الحادة -الحدة الباردة لنصل قاطع- التي كانت تلتمع في ظلال جمالها، وحلت محلها سكينة هادئة، ترفرف بلطافة فريدة. هزني جمالها الغض الجديد، وذهلت حين فكرت أن المرأة يمكن أن تتغير إلى هذا الحد في غضون نصف سنة. شعرت بالانجذاب إليها، ربما أكثر من ذي قبل، لكن التفكير في ما فقدته في الوقت نفسه أعطاني أيضاً سبباً للأسف. لن يعود لها أبداً جمالها المتركز حول الذات الذي يبدو أنه يميزها عن سواها من الفتيات المراهقات.

قالت ناوكو إنها تريدني أن أحدثها عن الكيفية التي كنت أقضي بها أيامي. فحدثتها عن إضراب الطلبة وناغاساوا. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها عنه أمامها. وجدت أن من غير اللازم أن أعطيها نبذة دقيقة عن إنسانيته الغريبة، وفلسفته الفريدة، وأخلاقيته الرعناء، ولكن

بدا لي أخيراً أن ناغاساوا يحوز كل ما أحاول إخبارها به. أخفيت عنها حقيقة أنني اصطحبته لاصطياد الفتيات، فلم أكشف إلا عن كون ذلك الشخص في المهجع والذي قضيت معه وقتاً فعلياً هو ذلك الفتى الشاذ. وطوال الوقت، بقيت رايكو تعزف معزوفة أخرى لباخ كانت قد عزفتها من قبل متوقفة بين الحين والآخر لاحتساء خمرتها والتقاط سجائرها.

قالت ناوكو: «يبدو أنه شخص غريب».

قلت: «إنه غريب فعلاً».

«لكنك تحبه؟»

قلت: «لست متأكداً. أظن أنني لا أستطيع القول إنني أحبه. ناغاساوا فوق الحب والكراهية. فهو لا يريد أن يكون محبوباً. وبهذا المعنى فهو فتى نزيه جداً، بل رواقي. لا يحاول استغلال أحد».

«رواقي ينام مع جميع الفتيات؟ هذا غريب!» قالت ناوكو ضاحكة: «كم فتاة نام معها؟»

قلت: «ربما يصل عددهن إلى ثمانين. ولكن في حالته، كلما زاد العدد، نقص معنى الفعل الفردي. وأظن أن هذا هو ما يحاول تحقيقه».

«وتسمي هذا رواقياً؟»

«عنده هو رواقي».

فكرت ناوكو بكلماتي قليلاً. قالت: «أعتقد أنه مريض في رأسه أكثر مني».

قلت: «هذا ما أعتقده أيضاً. لكنه يستطيع أن يضع خصاله المنحرفة في نسق منطقي. إنه متألق. لو جئت به إلى هنا، لما بقي يومين. سيقول: «آه، بالتأكيد، أعرف هذا كله. أتفهم كل ما تقومون به هنا». إنه من هذا النوع من الفتيان. النوع الذي يحترمه الناس».

قالت ناوكو: «أظن أنني النقيض للمتألق. ولا أفهم أي شيء يفعلونه هنا، أفضل مما أفهم نفسي».

قلت: «ليس لأنك ينقصك الذكاء. أنت اعتيادية. لدي أطنان من الأشياء التي لا أفهمها عن نفسي. ونحن كلانا اعتيادي: سوي».

رفعت ناوكو قدميها على حافة الأريكة وأراحت ذقنها على ركبتيها. قالت: «أريد أن أعرف المزيد عنك».

«أنا مجرد فتى اعتيادي - عائلة اعتيادية، تعليم اعتيادي، وجه اعتيادي، نتائج امتحانات اعتيادية، أفكار اعتيادية في رأسي».

«أنت معجب كثيراً بسكوت فتزجيرالد... أليس هو من قال إنك لا يجب أن تثق بأحد يسمي نفسه إنساناً اعتيادياً؟ أنت أعرتني ذلك الكتاب!» قالت ناوكو بابتسامة عابثة.

قلت: «صحيح. غير أن ذلك يخلو من النزوع العاطفي. أنا فعلاً أؤمن إيماناً عميقاً بأنني شخص اعتيادي. هل تستطيعين العثور على شيء غير اعتيادي لدي؟»

قالت ناوكو بشيء من نفاد الصبر: «بالطبع أستطيع! ألا تفهم الأمر؟ لماذا تظن أنني نمت معك؟ لأنني كنت سكرانة جداً وقد أكون نمت مع أي شخص؟»

قلت: «لا، بالطبع لا أفكر في هذا».

بقيت ناوكو صامتة لفترة طويلة، تحدق في قدميها. وعند غياب الكلمات، أخذت جرعة أخرى من الخمر.

«كم فتاة نمت معها، تورو؟» سألتني ناوكو بصوت خفيض وكأن الفكرة مرّت في بالها تواً.

أجبت مخلصاً: «ثمان أو تسع».

رمت رايكو القيثار في حضنها: «لم يصل عمرك العشرين بعد. أي نوع من الحياة تتجه إليها؟»

بقيت ناوكو صامتة وهي تراقبني بعينيها الصافيتين. أخبرت رايكو عن الفتاة الأولى التي نمت معها وكيف افترقنا. وشرحت لها أنني وجدت من

المستحيل أن أحبها. ومضيت أخبرها عن نومي مع فتاة بعد أخرى بتأثير ناغاساوا.

قلت لناوكو: «لا أحاول أن أقدم أعذاراً، لكنني كنت أتألم. هكذا كنت، أراك كل أسبوع تقريباً، وأتحدث معك، وأعرف أن الشخص الوحيد في قلبك كان كيزوكي. الأمر مؤلم. مؤلم حقاً. وأعتقد أن هذا هو السبب في أنني نمت مع فتيات لا أعرفهن».

هزت ناوكو رأسها للحظات، ثم رفعت وجهها لتتطلع إلي:

«لقد سألتني تلك المرة لماذا لم أنم مع كيزوكي، أليس كذلك؟ أما زلت تريد أن تعرف السبب؟»

قلت: «أعتقد أن هذا شيء يجب أن أعرفه حقاً».

قالت ناوكو: «أعتقد ذلك أيضاً. الميت سيبقى ميتاً إلى الأبد. لكننا يجب أن نواصل الحياة».

هززت رأسي. وعزفت رايكو القطعة الصعبة نفسها مراراً، محاولة تأديتها بلا أخطاء.

قالت ناوكو وهي تحل مشبكها وتدع شعرها ينتثر. عبثت بشكل الفراشة بين يديها: «كنت على استعداد للنوم معه. وهو بالطبع أراد أن ينام معي. ولذلك حاولنا. حاولنا مراراً. لكن لم نفلح أبداً. لم نستطع فعلها. لم أعرف السبب حينئذ، وما زلت أجهل السبب حتى الآن. أحببته فعلاً، ولم أقلق بشأن فقدان عذريتي. كنت أسر لفعل أي شيء يريده. لكن لم نفلح أبداً».

رفعت ناوكو شعرها الذي أرخته وشدته بمقبض.

قالت بصوت خفيض: «بقيت جافة تماماً. عسيرة على الانفتاح عليه. ولذلك كان الأمر مؤلماً دائماً. كنت جافة تماماً، فكان مؤلماً للغاية. جربنا كل ما فكرنا بأن من شأنه تسهيل الأمر؛ المراهم وغيرها، ولكن بقي الأمر مؤلماً لي. لهذا السبب استعملت أصابعي أو شفتيّ.

كنت دائماً أصل به إلى الذروة بهذه الطريقة. تعرف ما أقصد».

هززت رأسي بصمت.

ألقت ناوكو نظرة عبر النافذة على القمر، الذي بدا الآن أكبر وأسطع من ذي قبل. قالت: «لم أرد أبداً أن أتحدث عن هذه الأشياء. أردت أن أبقيها موصودة في قلبي. وأتمنى لو استطعت. ولكن يجب أن أتحدث عنها. لا أعرف الجواب. أعني أنني كنت في غاية الرطوبة حين نمت معك، أليس كذلك؟»

قلت: «نعم».

قالت: «كنت مبللة منذ اللحظة التي خطوت فيها إلى شقتي تلك الليلة في عيد ميلادي العشرين. أردتك أن تعانقني. أردتك أن تنزع عني ملابسي، أن تتلمس جسدي كله، وتلج في داخلي. لم أشعر بشيء كهذا من قبل. لماذا حصل ذلك؟ لماذا تحدث الأشياء على هذا النحو؟ أعني أنني أحببته حقاً».

قلت: «لا، أنا أردت أن تعرفي لماذا شعرت بهذه الكيفية نحوي، برغم أنك لم تحبيني؟»

قالت ناوكو: «أنا آسفة. لم أقصد أن أجرحك، لكن هذا ما يجب أن تفهمه جيداً: لقد ربطت بيننا أنا وكيزوكي علاقة مميزة بحق. كنا معاً منذ أن كنا في الثالثة. ولقد كبرنا معاً دائماً، نتحدث مع بعضنا دائماً، ونفهم بعضنا على أحسن وجه. والمرة الأولى التي تبادلنا فيها القبل كانت في السنة الابتدائية الأولى، وكانت رائعة. وحين داهمتني أول دورة في حياتي، هرعت إليه وبكيت كطفلة. كنا على هذه الدرجة من القرب. لذلك حين مات، لم أعرف كيف سأرتبط بالآخرين. لم أعرف ماذا كان يعني أن تحب شخصاً آخر».

مدت يدها إلي كأسها على الطاولة أمامها، لكنها لم تستطع سوى تحريكها في مكانها، وإسالة خمرتها على البساط. انحنيت إلى الأسفل، وأعدت الزجاجة، ووضعتها على الطاولة. تساءلت هل أرادت أن تشرب

المزيد. بقيت ناوكو صامتة لفترة، ثم فجأة انهمرت دموعها، وهي ترتعش بكاملها. وحين تهاوت تماماً، دفنت وجهها بين يديها وأخذت بالنشيج العنيف المخنوق نفسه الذي سيطر عليها تلك الليلة معي. وضعت رايكو قيثارها جانباً وجلست إلى جوار ناوكو، تربت على ظهرها. وحين وضعت ذراعها على كتف ناوكو، دفنت ناوكو وجهها في صدر رايكو كالطفل.

قالت رايكو: «تعرف، ربما يستحسن أن تقوم بجولة في الخارج قليلاً. ربما لثلث ساعة. آسفة، ولكن ذلك قد ينفع».

هززت رأسي موافقاً وقمت، وسحبت بلوزتي فوق قميصي. قلت لرايكو: «شكراً للدعوة».

قالت بغمزة: «العفو، لا داعي للشكر. ليس هذا خطأك. لا تقلق، حين تعود، ستكون على ما يرام».

أخذتني خطاي إلى أسفل الطريق، الذي كان يضيؤه نور القمر الغريب غير الواقعي، وإلى الغابة. تحت ضوء القمر، حملت جميع الأصوات تموجاً غريباً. بدا أن صوت خطاي الأجوف يأتي من اتجاه آخر، كأنني أسمع صوت شخص يمشي في قعر البحر. وورائي، أسمع بين الحين والآخر، تهشماً أو صفيراً. كلكل على الغابة طيلسان ثقيل، كأن حيوانات الليل كانت تحبس أنفاسها بانتظار أن أمر.

وخلف الأشجار حيث ينحدر الطريق إلى الأعلى، جلست وتطلعت إلى المبنى الذي كانت تعيش فيه ناوكو. من السهل التعرف على غرفتها. كل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أعثر على النافذة التي يرتعش نورها الخافت. ركزت على نقطة النور تلك طويلاً، طويلاً جداً. وقد جعلتني أفكر في النبض الأخير لجذوات نفس تحتضر. أردت أن أنفض يدي مما تركته وأبقيه حياً. ومضيت أراقبه بالطريقة التي كان جاي غاتسبي يراقب بها النور الضئيل على الساحل المقابل ليلة بعد أخرى.

حين عدت ماشياً إلى المدخل الأمامي للمبنى بعد نصف ساعة، كان بمستطاعي سماع رايكو وهي تعزف على القيثار. اجتزت السلالم بهدوء، ونقرت على باب الشقة. في الداخل، لا علامة تدل على وجود ناوكو. كانت رايكو وحدها تجلس على البساط، وهي تعزف قيثارها. أشارت باتجاه باب غرفة النوم لتخبرني أن ناوكو هناك. ثم وضعت القيثار على الأرض، واتخذت مقعداً على الأريكة، ودعتني إلى الجلوس بجوارها، وقسمت الخمرة المتبقية بين كأسينا.

قالت وهي تلمس ركبتي: «ناوكو بخير. لا تقلق، كل ما تحتاج إليه هو أن ترتاح قليلاً. ستهدأ بسرعة. لقد أجهدت نفسها قليلاً. ما رأيك بأن تتمشى معي لفترة؟»

قلت: «فكرة جيدة».

تمشينا أنا ورايكو نازلين في الطريق الذي تضيؤه مصابيح الشارع. وحين وصلنا إلى المنطقة المحاذية لملعب التنس وكرة السلة، جلسنا على أحد المقاعد. التقطت كرة سلة من تحت المقعد وبدأت تدورها بيديها. ثم سألتني عما إذا كنت ألعب التنس. قلت أعرف كيف ألعب، لكني سيئ في اللعب.

«وماذا عن كرة السلة؟»

قلت: «ليست رياضتي المفضلة».

سألتني رايكو، وهي تلوي زوايا عينيها بابتسامة: «ما هي رياضتك المفضلة؟ عدا النوم مع الفتيات».

قلت متلكئاً بالكلمات: «لست جيداً جداً في هذا أيضاً».

قالت: «أنا أمزح. لا تغضب. ولكن حقاً، ما الشيء الذي تحسنه؟»

«لا شيء خاص. عندي بعض الأشياء التي أحب القيام بها».

«على سبيل المثال؟»

«التزلج. السباحة. القراءة».

«إذاً أنت تحب القيام بالأشياء وحيداً».

«أظن ذلك. لا تستثيرني أبداً الألعاب التي يؤديها الناس مع الآخرين. لا أستطيع فهمها. أفقد اهتمامي بها».

«إذاً يجب أن تأتي إلى هنا في الشتاء. نقوم بالتزلج في الأراضي الوعرة. أنا واثقة أنك ستحب ذلك، التجوال على الجليد طوال النهار، حتى تغرق في العرق». تحت مصباح الشارع، حدقت رايكو في يدها اليمنى وكأنها تتفحص أداة موسيقية قديمة.

سألتها: «هل تنتاب هذه الحالات ناوكو؟»

«بين الحين والآخر»، قالت رايكو وهي تنظر الآن في يدها اليسرى. «مرة كل فترة تستثار وتبكي على هذا النحو. ولكن لا بأس في ذلك. إنها تفرغ مشاعرها. ليس في هذا ما يخيف. الشيء المخيف هو أن تتجمع مشاعرك وتتصلب وتموت في داخلك، وحينئذ تكون في مشكلة عصيبة».

«هل قلت شيئاً ما كان ينبغي أن أقوله؟»

«لا، لا تقلق. فقط تحدث بما في بالك بنزاهة. هذا أفضل شيء. قد يؤلم قليلاً أحياناً، وقد ينزعج المرء مما فعلته ناوكو، لكن على المدى الطويل، الأمر يجري إلى الأحسن. هذا ما يجب أن تقوم به إذا كنت ترغب جدياً في أن تتحسن صحة ناوكو وتتعافى. وكما أخبرتك في البداية، يجب ألا ترغب في مساعدتها أكثر مما ترغب في أن تتعافى أنت نفسك عن طريق مساعدتها على التعافي. هذه هي الطريقة المتبعة هنا. لذلك يجب أن تكون نزيهاً وتقول كل ما يخطر على بالك، على الأقل ما دمت هنا. ولا أحد يقوم بهذا في العالم الخارجي، تمام؟»

قلت: «لا أظن ذلك».

قالت: «رأيت أناساً من جميع الأنواع تأتي هنا وتروح. ربما أناساً كثيرين جداً. وأستطيع في العادة أن أقطع من خلال النظر إلى الشخص ما إذا كان سيتحسن أم لا، تقريباً بالغريزة. أما في حالة ناوكو، فلست متأكدة. ليست لديَّ فكرة على الإطلاق عما يحدث لها. كل ما أعرفه أنها

لن تتعافى مائة بالمائة في الشهر المقبل، أو أنها قد تستمر على هذه الحالة سنيناً. ولهذا فعلاً لا أستطيع أن أقول لك ما تفعله سوى النصيحة البالغة التعميم: أن تكون نزيهاً وتساعدا بعضكما».

«ما الذي يجعل حالة ناوكو بهذه الدرجة من الصعوبة عليك؟»

«ربما لأنني أحبها كثيراً. أظن أن عواطفي تعترض عليَّ الطريق، فلا أراها بوضوح. أعني أنني أحبها حقاً. ولكن بصرف النظر عن هذا، لديها حزمة من المشاكل المختلفة التي تتداخل ببعضها حتى ليصعب تمييز واحدة منها. وقد يستغرق حلها جميعاً وقتاً طويلاً جداً، أو قد يطلقها شيء ما لتنحل كلّها دفعة واحدة. شيء من هذا القبيل. وهذا هو السبب في كوني غير واثقة بصددها».

التقطتْ كرة السلة مرة أخرى، ودوّرتها بيديها ودحرجتها على الأرض.

قالت رايكو: «أهم شيء هو أن لا تدع نفسك تفقد الصبر. هذه نصيحة أخرى أقدمها لك: لا تفقد صبرك. حتى لو اختلطت الأشياء، ولم تعد تستطيع فعل شيء، فلا تيأس وتحرق الفتيل ثم تبدأ بسحب خيط معين قبل أن يتهيأ لأن ينحل. يجب أن تضع نصب عينيك أن العملية طويلة، وأنك يجب أن تنكب على الأشياء بصبر، مرة كل مدة. هل تعتقد أنك تستطيع ذلك؟»

قلت: «يمكنني المحاولة».

«تعرف أن الأمر قد يستغرق وقتاً طويلاً جداً، وحتى حينئذ ربما لا تتعافى تماماً. هل فكرت في ذلك؟»

هززت رأسي موافقاً.

قالت وهي تدحرج الكرة: «الانتظار صعب. وخاصة لشخص بعمرك. تجلس وتنتظرها حتى تتحسن حالتها. دون مواعيد نهائية أو ضمانات. هل تعتقد أنك تستطيع القيام بذلك؟ هل تحب ناوكو إلى هذا الحد؟»

قلت بنزاهة: «لست متأكداً. أنا مثل ناوكو، لست متأكداً فعلاً ماذا يعني حب شخص آخر. مع أنها كانت تعني شيئاً مختلفاً قليلاً. مع ذلك أريد أن أبذل قصارى جهدي. يجب أو بالأحرى لا أريد أن أعرف أين أمضي. وكما قلتِ سابقاً، علينا أنا وناوكو أن ننقذ بعضنا. هذه هي الطريقة الوحيدة المتاحة لينقذ كل منا الآخر».

«وهل ستستمر في النوم مع الفتيات اللواتي تلتقطهن من الشارع؟»

قلت: «لا أعرف ما سأفعله بهذا الخصوص أيضاً. ماذا تظنين؟ هل يجب أن أنتظر وأستمني؟ لست في موقع يسمح لي بالسيطرة الكاملة أيضاً».

أفلتت رايكو الكرة على الأرض وربتت على ركبتي. قالت: «انظر، لا أقول لك أن تتوقف عن النوم مع الفتيات. إذا كنت لا تجد ضيراً في الأمر، فالأمر على ما يرام. وهي حياتك في النهاية، شيء أنت من يقرره. كل ما أقوله هو أن لا تستنزف نفسك بصورة غير طبيعية. هل تفهم ما أعنيه؟ ربما تكون خسارة ومضيعة للوقت. مرحلة العشرين من العمر مرحلة حاسمة في إنضاج الشخصية، وإذا سمحت لنفسك بالانحراف في هذا العمر، سيسبب لك ذلك الألم حين تكبر. هذا صحيح. لذلك فكر فيه ملياً. إذا كنت تريد العناية بناوكو، فيجب أن تعتني بنفسك أيضاً».

قلت إنني سأفكر في ذلك.

«أنا نفسي كان عمري عشرين. مرة فيما مضى. ألا تصدق ذلك؟»

«أصدقه. بالطبع».

«من أعماقك؟»

قلت بابتسامة: «من أعماقي».

«وكنت جذابة أيضاً. لم أكن بجاذبية ناوكو، ولكن جذابة جداً. لم يكن لدي كل هذه التجاعيد».

قلت إنني أحب تجاعيدها كثيراً. فشكرتني.

وأضافت: «لكن لا تخبر امرأة أخرى أنك تجد تجاعيدها جذابة. أحب أن أسمع هذا، لكني حالة استثنائية».

قلت: «سأكون حذراً».

أخرجت محفظة من جيب بنطالها وسلمتني صورة من بين البطاقات. كانت صورة ملونة لفتاة جذابة عمرها زهاء العشر سنوات تلبس الزلاجات، وبدلة تزلج زاهية الألوان، وهي تقف على الثلج مبتسمة ابتسامة حلوة للكاميرا.

قالت رايكو: «أليست جميلة؟ ابنتي. أرسلت لي هذه في يناير. إنها... ماذا؟ عمرها تسع سنوات الآن».

قلت وأنا أعيد لها الصورة: «لديها ابتسامتك». أودعت رايكو الصورة في المحفظة، وبمشقّة، وضعت سيجارتها بين شفتيها وأشعلتها.

قالت: «كنت سأصير عازفة بيانو ممتازة. كانت لدي موهبة، وقد ميزها الناس، وكانوا يحيطونني بكثير من الإطراء وأنا أكبر. فزت بمسابقات عديدة، وحصلت على أعلى الدرجات في معهد الموسيقى، وكان من المقرر إرسالي للدراسة في ألمانيا بعد التخرج. لم تشب الأفق غيمة واحدة. جرى كل شيء على أحسن وجه. وفي ذات يوم حصل شيء فتداعى كل ذلك. كنت في السنة الأخيرة في معهد الموسيقى، وكانت تجري مسابقة بالغة الأهمية. تمرنت من أجلها طويلاً، وفجأة توقف إصبع يدي اليسرى عن الحركة. لا أعرف السبب، لكنه توقف عن الحركة. حاولت تدليكه، وغمره بالماء الحار، أخذت إجازة لعدة أيام من التمرين: لم ينفع شيء. انتابتني المخاوف، فذهبت إلى الطبيب. جربوا جميع أنواع الفحوص، لكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة. قال الأطباء ليس في إصبعي نفسه أي شيء، والأعصاب على خير ما يرام؛ ولا يوجد أي سبب لإيقافه عن الحركة. ولا بد أن المشكلة نفسية. هكذا ذهبت إلى معالج نفسي، لكنه في الحقيقة لم يعرف سبب ما حصل أيضاً. قال لعل

السبب يكمن في الجهد الذي بذلته قبل المسابقة، ونصحني بأن أبتعد عن البيانو مدة من الزمن».

تنفست رايكو بعمق ونفثت الدخان. ثم أمالت عنقها إلى الجانب عدة مرات.

«هكذا ذهبت إلى بيت جدتي على الساحل في إيزو لأسترد صحتي. فكرت أن أنسى كل ما يتعلق بتلك المسابقة وأرتاح فعلاً، وأقضي عدة أسابيع بعيدة عن البيانو أفعل كل ما أريده. ولكن عبثاً. كان البيانو هو كل ما أفكر فيه. ربما لن يتحرك إصبعي مرة أخرى. كيف سأعيش إذا حصل ذلك؟ بقيت الخواطر نفسها تتردد في عقلي. ولا عجب، فقد كان البيانو حياتي برمتها حتى ذلك الحين. بدأت بالعزف وأنا ابنة الرابعة وكبرت أفكر في البيانو ولا شيء سواه. لم أكن أقوم بالأعمال المنزلية حتى لا أجرح أصابعي. وكان الناس يطرونني لهذا السبب وحده: موهبتي في البيانو. ما الذي يبقى لفتاة نشأت على حب البيانو بهذا الشكل إذا أخذته منها؟ اختلطت عليَّ الأشياء. فصرت أخوض في ظلمة مطبقة».

رمت سيجارتها على الأرض ومسحتها بقدمها، ثم أمالت عنقها مراراً.

«كانت تلك نهاية حلمي في أن أصير عازفة بيانو. قضيت شهرين في المستشفى. بدأ إصبعي يتحرك بعد وصولي بقليل، وهكذا تمكنت من العودة إلى معهد الموسيقى والتخرج، لكن شيئاً ما في داخلي تلاشى. اختفت -أو تبخرت- الجوهرة الباعثة على الطاقة أو شيء ما داخل جسدي. قال الطبيب إنني فقدت القوة العقلية الدافعة لأن أصير عازفة بيانو محترفة ونصحني بالتخلي عن الفكرة. لذلك صرت بعد التخرج أدرّس الطلاب في البيت. غير أن الألم الذي شعرت به كان ممضاً. كأن حياتي بأسرها انطفأت. ها أنا في مطلع العشرينات وقد انتهى أفضل جزء في حياتي. هل تدرك كم كان ذلك رهيباً؟ لقد كان يراودني ذلك الحلم، وفي يوم ما صحوت لأجده يتلاشى. لم يعد هناك تصفيق، لم يعد أحد

يحيطني بالإطراء، لم يعد يخبرني أحد كم كنت رائعة. قضيت يوماً بعد يوم في تعليم أولاد الجيران. كنت أشعر بالشقاء، وأبكي طوال الوقت. أفكر ما الذي فقدته! أسمع أحياناً أن بعض الناس الذين كانوا أقل مني موهبة يفوزون بالمرتبة الثانية في المسابقة، أو يلقون كلمة في القاعة الفلانية، فتنهمر الدموع مني مدراراً».

«كان والداي يمشيان بالقرب مني على أطراف أصابعهما خشية إيلامي. لكنني كنت أعرف مقدار خيبتهما. فجأة تحولت ابنتهما التي كانا يفخران بها إلى مريضة عقلياً. لم يستطيعا حتى تزويجي. حين تعيش مع الناس، تشعر بما يحسون به، وقد كرهت ذلك. كنت أخاف من الخروج، أخاف أن يتحدث الجيران عني. هكذا اختلطت عليَّ الأشياء مرة أخرى، واستولت عليّ الظلمة. حصل ذلك حين كان عمري أربعة وعشرين عاماً، وفي هذه المرة قضيت سبعة شهور في المصح. ليس في هذا المكان، بل في ملجأ عقلي عادي ذي أسوار عالية وبوابات مغلقة. مكان قميء بلا بيانوات. لم أكن أعرف ما أفعله بنفسي. كل ما عرفته هو أنني أردت الخروج من هناك بأسرع ما يمكن، لذلك كافحت بيأس لكي تتحسن حالتي. سبعة شهور: سبعة شهور طويلة. ومنذ ذلك الحين بدأت تظهر التجاعيد على وجهي». ابتسمت رايكو، وشفتاها تتمددان من جانب إلى جانب.

«لم يمض وقت طويل على خروجي من المستشفى حين التقيت رجلاً وتزوجته. كان يكبرني بسنة، مهندساً يعمل في شركة لتصنيع الطيارات، وأحد طلابي. رجل لطيف. لم يكن يتكلم كثيراً، لكنه دافئ وصادق. بقي يتلقى مني الدروس لمدة ستة شهور، ثم فجأة فاتحني بالزواج به. حدث كل شيء ببساطة - في أحد الأيام حين كنا نتناول الشاي بعد الدرس. هل تصدق؟ لم نتواعد أبداً ولم نلتق. فاتحني على حين غرة وبلا مقدمات. أخبرته أنني لا أستطيع الزواج. قلت له إنني أحبه وأعتقد أنه شخص لطيف المعشر، ولكني لا أستطيع الزواج به لأسباب

خاصة. أراد أن يعرف ما هي تلك الأسباب. ولذلك أوضحت له كل شيء بنزاهة كاملة، قلت له إنني دخلت المستشفى مرتين لاختلالات عقلية. أخبرته بكل شيء، السبب الذي كان وراء دخولي المستشفى، وضعيتي، احتمال تكرار ذلك. قال إنه يحتاج إلى وقت ليفكر، فشجعته على أن يأخذ الوقت الذي يحتاج إليه. لكنه حين جاء في الأسبوع التالي للدرس، قال إنه ما زال يريد الزواج بي. طلبت منه أن ينتظر ثلاثة شهور. قلت إننا يجب أن نرى بعضنا لثلاثة شهور، وإذا بقي يريد الزواج بي حتى ذلك الحين، فيمكننا أن نتحدث بالموضوع مرة أخرى.

«كنا نتواعد مرة كل أسبوع لمدة ثلاثة أشهر. ذهبنا إلى كل مكان، وتحدثنا عن كل شيء، وبدأت أحبه كثيراً. حين أكون معه، كنت أشعر أن حياتي عادت لي أخيراً. ينهمر عليَّ إحساس عجيب بالراحة حين ننفرد معاً: حتى كدت أنسى كل ما حصل من أمور رهيبة. ماذا يعني ألا أتمكن من أن أكون عازفة بيانو؟ ماذا يعني إذا قضيت الوقت في المستشفيات العقلية؟ حياتي لم تنته. الحياة ما زالت مفعمة بالأشياء الرائعة التي لم أجربها. كنت أشعر بامتنان كبير له، لمجرد أنه جعلني أشعر هذا الشعور. بعد أن انقضت الشهور الثلاثة، طلب مني مرة أخرى أن أتزوجه. وهذا ما قلته له بالحرف: «إذا كنت تريد أن تنام معي، فلا أمانع. لم يسبق لي أن نمت مع أحد، وأنا معجبة بك جداً، لذلك إذا كنت تريد ممارسة الحب معي، فلا أمانع إطلاقاً. أما الزواج فشيء مختلف تماماً. الزواج يعني أن تتحمل كل ما لدي من مشاكل، ومشاكلي أسوأ بكثير مما تتخيل».

«قال إنه لا يهتم، ولا يريد أن ينام معي، بل أراد الزواج بي، أن يشاركني جميع شؤوني الداخلية. ولقد كان يعني ما يقول. كان شخصاً من النوع الذي لا يقول إلا ما يعنيه حقاً، ولا يفعل إلا ما يقول. وهكذا وافقت على الزواج به. لم يكن لدي خيار. أظن أننا تزوجنا بعد أربعة أشهر. تنازع مع والديه بشأني، فتبرآ منه. كان ينتمي إلى عائلة عريقة تعيش في الجزء الريفي من شيكوكو. وقد بحثا في خلفيتي ووجدا أنني

دخلت المستشفى مرتين. فلا عجب إذا عارضا زواجنا. على أية حال، لم نعمل احتفالية زفاف. ذهبنا فقط إلى مكتب التسجيل وسجلنا زواجنا وقضينا ليلتين في هاكوني. كان هذا يعني الكثير، فقد كنا في ذروة السعادة. وفي النهاية، بقيت عذراء حتى اليوم الذي تزوجت فيه. كان عمري خمساً وعشرين سنة. هل تصدق؟»

تنهدت رايكو والتقطت كرة السلة مرة أخرى.

واستأنفت حديثها: «فكرت أنني سأكون على ما يرام، ما دمت معه. ما دمت معه، فستبقى مشاكلي بعيدة. أهم شيء بالنسبة إلى مرضى بمرضنا، هو الإحساس بالاطمئنان. إذا وضعت نفسي بين يدي هذا الشخص، سأكون بخير. إذا بدأ وضعي يسوء، ولو قليلاً، إذا تراخى برغي واحد، سيلاحظ ذلك فوراً، ويعيد تثبيته، ويعيد الخيوط المختلطة إلى مكانها. إذا خالطنا هذا الإحساس بالاطمئنان، بقي المرض بعيداً. ما من مزيد من النوبات! كنت في منتهى السعادة! كانت الحياة رائعة! شعرت وكأن شخصاً سحبني من بحر بارد متلاطم وغطاني بدثار ووضعني في سرير دافئ. وقد أنجبت بعد سنتين من زواجنا، وانشغلت تماماً! بل نسيت كل ما يتعلق بمرضي. كنت أنهض في الصباح، وأقوم بواجباتي المنزلية، وأهتم بوليدتي، وأطعم زوجي حين يعود إلى البيت من العمل. الشيء نفسه يتكرر يوماً بعد يوم، لكنني كنت سعيدة. ربما كانت أسعد أيام حياتي. أتساءل كم سنة استمرت الحال على هذا المنوال؟ على الأقل حتى صار عمري إحدى وثلاثين. وفجأة، انتابتني النوبة. حصلت مرة أخرى. فتداعيت».

أشعلت رايكو سيجارتها. هدأت الريح. فارتفع الدخان صاعداً حتى تلاشى في ظلمة الليل. حينئذ فقط تبينت أن السماء كانت ملأى بالنجوم.

سألتها: «هل حدث شيء ما؟»

قالت: «نعم، شيء غريب جداً، وكأن فخاً نُصب لي. حتى الآن تعتريني القشعريرة لمجرد التفكير فيه». حكت رايكو صدغها بيدها

الفارغة: «آسفة، لجعلك تصغي لكل هذا الحديث عني. لقد جئت إلى هنا لترى ناوكو، لا لتسمع قصتي».

قلت: «مع ذلك، أحب أن أسمعها فعلاً. إذا لم تمانعي، فأريد سماع البقية».

بدأت رايكو: «حسناً، حين دخلت ابنتنا الحضانة، بدأت بالعزف مرة أخرى، شيئاً فشيئاً. لا لأحد سواي، بل لنفسي. بدأت بقطع قصيرة لباخ وموزارت وسكارلاتي. بالطبع بعد فترة طويلة من الانقطاع لم يواتني إحساسي بالموسيقى فوراً. لم تتحرك أصابعي بالطريقة التي كانت تتحرك بها سابقاً. كنت أدرك، حين أضع يدي على المفاتيح، كم أحببت الموسيقى، وكم عانيت من أجلها. شيء رائع أن تتمكن من تأدية الموسيقى لنفسك».

«كما قلت سابقاً، كنت أعزف الموسيقى منذ أن كان عمري أربع سنوات، لكن لم يحدث أن عزفت لنفسي مرة واحدة. كنت دائماً أعزف لأجتاز امتحاناً، أو لنيل إعجاب أحد. وبالطبع هذه أهم الأشياء إذا أردت السيطرة على آلة موسيقية. لكن بعد عمر معين يجب أن تبدأ التأدية لنفسك. هذه هي الموسيقى. كان عليَّ أن أتخلى عن سياق النخبة وأن أمرَّ بعيد ميلادي الحادي والثلاثين قبل أن أتمكن من معرفة ذلك. ما إن كنت أرسل ابنتي إلى الحضانة، حتى أهرع إلى واجباتي المنزلية لأقضي بعد ذلك ساعة أو ساعتين في عزف الموسيقى التي أحببتها. وحتى الآن كل شيء على خير ما يرام، أليس كذلك؟»

هززت رأسي.

«في أحد الأيام زارتني إحدى السيدات من الجيران، وهي امرأة لم تكن معرفتي بها تزيد على قول كلمة مرحباً إذا رأيتها في الشارع، وطلبت مني أن أعطي ابنتها دروساً في الموسيقى. لم أكن أعرف ابنتها -وإن كنا نعيش متجاورين في بيوت متباعدة نوعاً ما- ولكن حسب ما قالته المرأة، فقد تعودت ابنتها أن تمر ببيتي وكانت تحب سماع ما أعزفه من موسيقى.

يبدو أنها رأتني في مكان ما أيضاً، وصارت تلح على أمها بأن أعلمها الموسيقى. كانت في السنة الرابعة من دراستها وقد أخذت بعض الدروس على يد بعض الأساتذة، ولكن يبدو أن الأمور لم تجر كما يجب ولسبب أو آخر لم يعد لديها معلم».

«رفضت طلبها. فقد انقطعت عدة سنوات، وبينما يبدو من المعقول لي أن أبدأ من جديد مع مبتدئة تماماً، فقد يكون من المستحيل أن أستأنف مع شخص سبق أن درس لعدة سنين. بالإضافة إلى ذلك، كنت مشغولة بالعناية بابنتي، وبالرغم من أنني لم أقل هذا للمرأة، فما من أحد يستطيع الاهتمام بطفلة من هذا النوع تغير أساتذتها باستمرار. وهكذا طلبت مني المرأة على الأقل أن أسدي لابنتها معروفاً بمقابلتها مرة واحدة. كانت امرأة ملحاحة، من الواضح أنها لا يمكن أن تجعلني أفلت من سنارتها بتلك السهولة، ولهذا وافقت أن أرى الفتاة - وأن أقابلها فقط. بعد ثلاثة أيام جاءت الفتاة وحدها إلى البيت. كانت ملاكاً بالمطلق، ذات جمال خالص، عذب، شفاف. لم يسبق لي أبداً، أبداً، أن رأيت فتاة صغيرة بذلك الجمال. لديها شعر طويل براق، ناصع السواد كالحبر الهندي، وذراعان وساقان نحيفتان منعمتان، وعينان وهاجتان، وفم ناعم صغير كأن الخالق انتهى منه تواً. لم أستطع أن أتكلم حين رأيتها للمرة الأولى، كانت جميلة جداً. حين جلست على أريكتي، حوّلت غرفة الجلوس في بيتي إلى ردهة مترفة رائعة. التطلع إليها مباشرة أمر مؤلم، لذلك بقيت مشدوهة أختلس النظر. على أية حال، كان هذا مظهرها. وما زلت حتى الآن أستطيع رسمها بوضوح».

ضيقت رايكو عينيها وكأنها ترسم صورة الفتاة فعلاً.

«فوق القهوة تحدثنا ساعة كاملة - تحدثنا عن جميع أنواع الأشياء: الموسيقى، مدرستها، كل شيء. وكان بوسعي فوراً أن أعرف أنها فتاة ذكية. كانت تعرف كيف تدير الحوار: كان لديها أفكار واضحة. داهية، وعندها موهبة طبيعية في جذب الشخص الآخر. كانت مخيفة تقريباً. لم

أعرف في ذلك الوقت ما الشيء المخيف فيها تماماً. ولكن صدمني ما تتمتع به من ذكاء مخيف. غير أني فقدت في حضورها كل ما كنت أمتلكه من قدرة اعتيادية على الحكم. كانت من الشباب والجمال بحيث إنني شعرت أنني غُلِب عليَّ إلى حد أنني رأيت نفسي مجرد شخص وضيع، أو عذر أخرق لإنسان اعترته أفكار سلبية عنها بسبب عقلي الزائغ الزري».

هزت رايكو رأسها عدة مرات.

«لو كنت بجمالها وذكائها، لما كنت إنسانة اعتيادية أبداً. ما الذي تطمح إليه أكثر من أن تكون بذلك الجمال والذكاء؟ إذا كان الجميع يحبونك بهذا القدر فلماذا تعذب وتطأ على أتباعك الضعفاء؟ أي سبب يمكن أن يكون مبرراً لهذا النوع من التصرف؟»

«هل فعلتْ ما أزعجك؟»

«حسناً، دعني أقول إن الفتاة كانت كذابة على نحو مرضي. كانت مريضة وخالصة وبسيطة. لفقت كل شيء. وحين تلفق قصصها، كانت تصدقها. وبعدئذ تقوم بتغيير الأشياء لتتوافق مع القصة التي اختلقتها. كانت تتمتع بعقل سريع، بحيث تبقي دائماً خطوة أمامك لتهتم بالأمور التي تصدمك بغرابتها في العادة بحيث لا يخطر ببالك أنها تكذب. أولاً لا يشك أحد في أن مثل تلك الفتاة الصغيرة الجميلة يمكن أن تكذب في أكثر الأشياء اعتيادية. أنا بالتأكيد لم أشكَّ. روت لي أطناناً من الأكاذيب قبل أن ألمح شيئاً فشيئاً أن كل شيء كان مغلوطاً خلال ستة شهور. كذبت في كل شيء ولم يراودني الشك أبداً. أعرف أن هذا يبدو جنوناً».

«كذبت حول ماذا؟»

«حين أقول كل شيء، فأنا أعني كل شيء (أطلقت رايكو ضحكة ساخرة.) حين يروي الناس كذبة عن شيء ما، فعليهم أن يختلقوا أكواماً من الأكاذيب الأخرى التي تتماشى مع الأولى. يسمى هذا علمياً «النزوع إلى تلفيق الأساطير» (ميثومونيا). وحين يروي أحد النازعين إلى تلفيق الأساطير كذبة، فهي في العادة من النوع البريء، وأكثر الناس يلاحظه.

لكن ليس مع تلك الفتاة. لحماية نفسها كانت تروي أكاذيب كريهة، دون أن يطرف لها جفن. تستخدم كل ما تقع يداها عليه. وهي توغل في الكذب قليلاً أو كثيراً حسب الشخص الذي تتحدث معه. لم تكن تكذب على أمها أو أصدقائها المقربين الذين يمكن أن يعرفوا فوراً، أو إذا أرادت أن تكذب، فيجب حقاً أن تروي الأكاذيب بحذر حقيقي حتى لا تنكشف. وإذا انكشفت، فإنها ستجد عذراً أو تطلب السماح بصوت يخالطه النشيج والدموع تتصبب من عينيها الجميلتين. وحينئذ لا يستطيع أحد أن يبقى على جنونه منها».

«ما زلت لا أعرف لماذا اختارتني. هل كنت ضحية أخرى لها، أم مصدر خلاص؟ لا أعرف. بالطبع لم يعد الأمر يهم الآن. الآن وقد انتهى كل شيء. الآن وأنا أحب هذا المكان».

تبع ذلك صمت قصير.

«أعادت عليَّ ما قالته أمها، من أنها كانت تمر بالبيت وسمعتني أعزف. وكانت أيضاً قد رأتني في الشارع عدداً من المرات، وصارت تعبدني. في الحقيقة استخدمت هذه الكلمة: «أعبدك». وهذا ما جعلني أحمرّ خجلاً. أعني أن «تعبدني» فتاة صغيرة بمثل هذا الجمال. مع ذلك، لا أعتقد أنها كذبة مطلقة. بالطبع كنت في الثلاثينات من العمر أصلاً، ولم أكن أبداً بمثل جمالها وتألقها، وليست لدي أية موهبة مميزة، ولكن لا بد أنني كنت أنطوي على شيء ما جذبها إليَّ، وأفترض أنه شيء تفتقر إليه. لا بد أن هذا هو ما دعاها للاهتمام بي. هذا شيء أعتقده الآن، حين أعيد النظر في الماضي. ولست أتبجح».

«لا، أعتقد أنني أعرف ما تقصدين».

«جلبت معها بعض الموسيقى وسألت ما إذا كان بإمكانها أن تعزف. وسمحت لها. كانت معزوفة لباخ. وكان عزفها... مثيراً. أو هل يجب أن أقول غريباً؟ فقط لم تكن اعتيادية. بالطبع لم يكن عزفاً صقيلاً. فهي لم تذهب إلى مدرسة محترفين. والدروس التي تلقتها متقطعة. وهي

عصامية في تثقيفها إلى حد كبير. ولم يكن صوتها مدرباً. كانت سترفض فوراً عند الاستماع لها في مدرسة موسيقية. لكنها أفلحت. برغم أن تسعين بالمائة من عزفها كان مزعجاً، وعشرة بالمائة ذو تأثير: وقد غنت وكان أداء موسيقياً. كانت معزوفة لباخ.! هكذا صرت أهتم بها. كنت أريد أن أعرف ما الذي تريد أن تصل إليه».

«لست بحاجة إلى القول إن العالم يعج بمن يستطيعون عزف باخ أفضل منها. أفضل عشرين مرة. غير أن تأديتهم لا علاقة لها بهم. بل ستكون جوفاء، فارغة. وهذه الفتاة تقنيّتها رديئة، لكنها تنطوي على شيء ما يجذب الناس، أو في الأقل يجذبني أنا، إلى أدائها. هكذا قررت أنه قد يكون من الأجدى تدريسها. بالطبع العودة إلى تمرينها حتى تكون محترفة أمر خارج الموضوع. لكني شعرت أن بالإمكان جعلها عازفة بيانو من النوع القنوع مثلما كنت - وما زلت - تتمتع بما تؤديه من موسيقى لنفسها. مع ذلك، تبين أن هذا أمل أجوف. إذ لم تكن من النوع الذي يؤدي الأشياء لنفسه بهدوء. كانت طفلة تحسب الحسابات التفصيلية لاستغلال كل وسيلة متاحة لصالحها أو للتأثير على الآخرين. كانت على معرفة دقيقة بما ينبغي أن تفعله لجعل الناس يعجبون بها أو يطرونها. وكانت على معرفة دقيقة بنوع الأداء الذي يجب أن تؤديه لجذب اهتمامي بها. وأنا واثقة أنها حسبت كل شيء ووضعت موضع التنفيذ جميع القطع المهمة مراراً لتحقيق هذه الغاية. وأستطيع أن أراها وهي تفعل ذلك».

«مع ذلك، وبرغم أن كل شيء اتضح لي، فما زلت أعتقد أنه كان أداء مذهلاً ولعلي سأشعر بالاهتزاز في قرارتي لو سمعتها مرة أخرى. برغم معرفة كل ما أعرفه الآن عن اختلالاتها ومكرها وأكاذيبها، فما زلت أشعر به. أقول إن هذه الأشياء تحدث في هذا العالم».

أزاحت رايكو عن حنجرتها تهدج صوتها الجاف.

سألتها: «إذاً فقد قبلتها كتلميذة؟»

«نعم، درس واحد في الأسبوع. مساء كل سبت. فالسبت يوم عطلة في مدرستها. ولم تتغيب عن درس، لم تتأخر، بل كانت تلميذة مثالية. كانت دائماً تتمرن على دروسها. وبعد كل درس، نجلس لأكل الكعك وتبادل الحديث».

عند هذه النقطة، نظرت رايكو إلى ساعتها وكأنها تذكرت شيئاً ما فجأة.

«ألا تعتقد أن علينا أن نعود إلى الغرفة؟ أنا قلقة قليلاً بشأن ناوكو. وعلى ثقة بأنك لم تنسها، أليس كذلك؟»

ضحكتُ: «بالطبع لا. فقط استهوتني قصتك».

«إذا كنت تحب سماع البقية، فسأرويها لك غداً. فهي قصة طويلة جداً، أطول من أن تروى في جلسة».

«أنت شهرزاد حسب الأصول».

«أعرف». قالت وهي تصل ضحكتها بضحكتي: «لن تعود إلى طوكيو أبداً».

عاودنا خطانا من خلال الممر في الغابة وعدنا إلى الشقة. كانت الشموع مطفأة وأضواء غرفة المعيشة مغلقة. كان باب غرفة النوم مفتوحاً، والمصباح على الطاولة الليلية مشتعلاً، وقد تبدد ضوؤه الشاحب في غرفة المعيشة. كانت ناوكو تجلس وحدها على الأريكة في الظلمة. غيرت ملابسها، وقد انسحبت ياقتها مشدودة إلى رقبتها، وساقاها مطويتان تحتها على الأريكة. اقتربت منها رايكو وأراحت يدها على قمتها.

«هل أنت على ما يرام الآن؟»

«أنا بخير. آسفة» أجابت ناوكو بصوت ضعيف. ثم التفتت نحوي وكررت اعتذارها: «لا بد أنني أخفتك».

قلت بابتسامة: «قليلاً».

قالت: «تعال هنا». حين جلست إلى جوارها، استندت إليَّ ناوكو

وساقاها ما زالتا مطويتين حتى صار وجهها يلامس أذني تقريباً، وكأنها كانت تريد أن تسرب لي سراً. ثم طبعت قبلة ناعمة على أذني.

قالت مرة أخرى: «آسفة» هذه المرة مباشرة في أذني، وقد وهن صوتها. ثم ابتعدت عني.

قالت: «أحياناً، أرتبك تماماً، فلا أعرف ما يجري».

قلت: «يحدث هذا معي دائماً».

ابتسمت ناوكو وتطلعت إليَّ.

قلت: «إذا لم تمانعي، فأريد أن أعرف المزيد عنك. عن حياتك هنا. ما تفعلينه كل يوم. الناس الذين تقابلينهم».

تحدثت ناوكو عن وتيرة حياتها اليومية في هذا المكان، وتكلمت بعبارات قصيرة ولكنها بلورية ناصعة. النهوض في السادسة صباحاً. الفطور في الشقة. تنظيف قفص الطيور. ثم عمل المزرعة الاعتيادي. كانت تعتني بالخضروات. وقبل الغداء أو بعده، تكون لها جلسة لمدة ساعة مع طبيبها أو مناقشة جماعية. وفي العصر تختار من بين الدروس التي تهمها، خارج العمل، أو الرياضة. وقد اختارت عدة دروس: الفرنسية، الحياكة، البيانو، التاريخ القديم.

قالت: «رايكو تعلمني البيانو. كما تعلمني القيثار. ونحن هنا نتبادل الأدوار جميعاً كمدرسين وتلاميذ. شخص يتقن الفرنسية يعلِّمها لغيره، وشخص لديه اطلاع على التاريخ يدرّس التاريخ، أخرى تجيد الحياكة تعلم الحياكة، مدرسة تفاعلية على أحسن ما يكون. لسوء الحظ، لا أعرف شيئاً أعلّمه لأحد».

قلت: «ولا أنا».

«أبذل كثيراً من الجهد في دراساتي هنا أكثر مما كنت في الجامعة، أعمل ما بوسعي وأتمتع به - كثيراً».

«ماذا تفعلين بعد العشاء؟»

«أتحدث مع رايكو، أقرأ، أصغي إلى التسجيلات، أذهب إلى سَكَن الآخرين، ألعب ألعاباً، أشياء من هذا القبيل».

قالت رايكو: «أنا أتدرب على القيثار وأكتب سيرتي الذاتية».

«سيرة ذاتية؟»

ضحكت رايكو: «أمزح فقط. ننام حوالي العاشرة. لعلك تقول إنه طراز حياة صحي جداً؟ ننام كالصغار».

نظرت إلى ساعتي. ما زالت قبل التاسعة بدقائق: «أظن أنكم سيغلبكم النعاس عما قليل».

قالت ناوكو: «OK. يمكننا أن نتأخر اليوم. لم أرك منذ فترة طويلة، وأريد أن أتحدث أكثر. لهذا تحدث».

قلت: «حين كنت وحدي قبل قليل، بدأت أفكر فجأة في الأيام الخوالي. هل تتذكرين حين جئنا أنا وكيزوكي لزيارتك في المستشفى؟ ذلك المستشفى على الساحل. أظن أنها كانت السنة الأولى من الصف السادس».

قالت ناوكو بابتسامة: «حين أجريت عملية في الصدر. بالتأكيد أتذكر. جئتما أنت وكيزوكي على دراجة نارية. جلبتما علبة شكولاتة وكانت مخلوطة. كان من الصعب أكلها. لا أعرف، يبدو وكأن وقتاً طويلاً مر».

«نعم، حقاً. أعتقد أنك كنت تكتبين قصيدة حينئذ، طويلة جداً».

تمتمت ناوكو: «جميع الفتيات يكتبن القصائد في ذلك العمر. ما الذي ذكّرك بهذا فجأة؟»

«مجرد تساؤل. ربما رائحة ريح البحر، الدفلى: قبل أن أعرفها، خطرت في بالي. هل كان كيزوكي يأتي إليك كثيراً في ذلك المستشفى؟»

«على الإطلاق. وقد تشاجرنا حول ذلك بعدئذ. جاء مرة، ثم جاء معك وانتهى الأمر بالنسبة له. كان منزعجاً. في تلك المرة الأولى لم

يستطع الجلوس، بل بقي تقريباً عشر دقائق ثم غادر. جلب لي بعض البرتقال، ومضغ بعضه، ثم قشر لي برتقالة ومضغ أخرى وخرج. قال إنه لا يحب المستشفيات».

ضحكت ناوكو: «كان دائماً طفلاً بخصوص أشياء من هذا القبيل. أعني لا أحد يحب المستشفيات، أليس كذلك؟ لهذا يتزاور الناس في المستشفيات، ليدعموا بعضهم نفسياً، ويرفعوا من معنوياتهم وما أشبه. لكن كيزوكي لم يفهم ذلك».

«لكنه لم يكن بتلك الرداءة حين جئنا نحن الاثنين لزيارتك. كان فقط كما تعوّد أن يكون».

قالت ناوكو: «لأنك كنت معه. كان دائماً على هذا النحو حين تكون موجوداً. كان يكافح ليخفي ضعفه. وأنا واثقة أنه كان مفتوناً بك. ولهذا حرص أن لا يُظهر سوى الجانب الإيجابي منه. لكنه لم يكن كذلك معي. كان منكشفاً بلا دفاعات. يخضع فعلاً لمزاجه. في دقيقة يهذي طرباً، وفي التالية يكتئب. ذلك ما يحدث طوال الوقت. ولقد كان على هذا النحو منذ نعومة أظفاره. مع ذلك، بقي يحاول تغيير نفسه وتطويرها».

ثنت ناوكو رجليها على الأريكة.

«بذل وسعه، لكنه لم يتغير، وهذا ما كان يجعله غاضباً وحزيناً حقاً. كان ينطوي على أشياء كثيرة جميلة، لكنه لم يجد أبداً الثقة التي يحتاج إليها. كان دائماً يفكر: «يجب أن أفعل هذا، ويجب أن أغير ذاك»، حتى النهاية. مسكين كيزوكي!».

قلت: «مع هذا إذا صح أنه كان يكافح ليريني الجانب الإيجابي منه، فقد نجح. فلا أستطيع أن أرى سوى هذا الجانب الإيجابي».

ابتسمت ناوكو: «كان سيهتز طرباً لو سمعك تقول هذا. كنت صديقه الوحيد».

قلت: «وكان كيزوكي صديقي الوحيد أيضاً. ولم أعرف شخصاً يمكنني أن أسميه صديقاً حقاً قبله أو بعده».

«لهذا السبب كنت أحب أن أكون معكما أنتما الاثنين. لأن كان يقتصر على الجانب الإيجابي فيه هو ما كنت أراه حينئذ أيضاً. كنت أرتاح وأكف عن القلق حين نجتمع نحن الثلاثة. كانت تلك أفضل أيام حياتي. لا أعرف كيف تشعر بها».

قلت وأنا أهز رأسي: «تعودت أن أهتم بما تفكرين فيه».

قالت ناوكو: «المشكلة أن شيئاً من هذا النوع ما كان يمكن أن يستمر إلى الأبد. من المستحيل أن تبقى الحلقة المكتملة الصغيرة. كان كيزوكي يعرف ذلك، وكنت أعرفه أنا، وكنت تعرفه أنت، أليس كذلك؟»

هززت رأسي.

استمرت ناوكو: «ولكي أقول الحقيقة، فقد أحببت هذا الجانب الضعيف فيه أيضاً. أحببته كما أحببت الجانب الإيجابي. لم يكن فيه شيء وضيع أو ماكر على الإطلاق. كان مجرد ضعف وحسب. حاولت أن أخبره بذلك، لكنه لم يصدقني. كان دائماً يقول لي إنه وُجِدَ لأننا معاً منذ أن كنا في الثالثة. وقد فهمت ما كان يريد أن يقوله على خير وجه: لا أستطيع الجزم بالفرق بين نقاط قوته ونقاط ضعفه، فقد كانا عندي سواء. مع ذلك، هذا لم يغير فكرتي عنه. فبقيت أحبه كالسابق، ولم أهتم بأحد سواه».

تطلعت إليَّ ناوكو بابتسامة حزينة.

«كانت علاقتنا الجنسية غير عادية حقاً، أيضاً. كانت كما لو أننا مرتبطان جسدياً في مكان ما. إذا حصل أن انفصلنا، فإن قوة جذب خاصة تجمعنا مرة أخرى. كان من أكثر الأشياء طبيعية في العالم أن نصير صديقاً وصديقة. لم يكن هذا أمراً نفكر فيه أو نختاره. بدأنا نتبادل القبل في الثانية عشرة من العمر، والملاطفة في الثالثة عشرة. أذهب إلى غرفته أو يأتي إلى غرفتي وأصل به إلى الذروة بيدي. لم يخطر ببالي أبداً أننا

مبكران في نضجنا. بدا كل شيء وكأن الأمر يجري تلقائياً. إذا أراد أن يلعب بصدري أو مؤخرتي، فلا أمانع على الإطلاق، أو إذا أراد التخلص مما يحتقن في داخله، فلا أتردد في مساعدته في هذا أيضاً. وأنا واثقة أننا كنا سنصاب بصدمة إذا اتهمنا أحد بالقيام بشيء مغلوط. لأننا لم نكن نتصور ذلك غلطاً. كنا نقوم بما يفترض أن نقوم به. لقد كشف كل منا للآخر كل جزء من جسده، وكأننا نمتلك جسدين مشتركين. مع ذلك قررنا ذات مرة على الأقل أن نتأكد من عدم المضي إلى أبعد من هذا. كنا نخشى من الحمل وما كنا نعرف كيف نحول دونه في ذلك الحين. . . . على أية حال، تلك هي الطريقة التي نشأنا بها أنا وكيزوكي يداً بيد، اثنين لا ينفصلان. لم نكن نعاني من كبت أو عذاب ينشأ مع تضخم الذات المفاجئ مما يجربه الصبيان الاعتياديون حين يصلون سن البلوغ. كنا دائماً منفتحين بخصوص الجنس، وما تعنى به ذواتنا، هو الطريقة التي نتشارك بها، فلم يكن لدينا بها وعي قوي. هل تفهم ما أقصده؟»

قلت: «أظن ذلك».

«لم نكن نحتمل أن نفترق. لذلك لو بقي كيزوكي حياً، فأنا واثقة أننا ما كان بإمكاننا أن نلتقي ونحب بعضنا، ونكبر حتى هذا الشقاء بالتدريج».

«شقاء؟ لم هذا؟»

مررت ناوكو بأصابعها على شعرها عدة مرات. كانت قد نزعت مشبكها فتساقط شعرها على وجهها حين أراحت رأسها.

قالت وهي ترفع عينيها باتجاه عيني: «لأن علينا أن نسدد للعالم ما أخذناه منه. ألم الكبر. لم ندفع الثمن الذي كان يجب أن ندفعه، وقد حان وقت السداد الآن. لهذا السبب فعل كيزوكي ما فعله، ولهذا السبب أنا هنا. كنا أشبه بصبيان يكبرون عراة في جزيرة قفراء. إذا جعنا أكلنا موزة، وإذا شعرنا بالوحدة نمنا متلاصقين على أيدي بعضنا. غير أن هذا لا يبقى إلى الأبد. كبرنا بسرعة وكان يجب أن ندخل المجتمع. ولهذا السبب كنتَ مهماً بهذه الدرجة لنا. كنت أنت الرابطة التي تربطنا بالعالم

الخارجي. كنا نكافح من خلالك للتلاؤم مع العالم الخارجي بأحسن ما نستطيع. وفي النهاية لم يفلح هذا بالطبع».

هززت رأسي.

«مع ذلك أرجو ألا تتصور أننا كنا نستخدمك. لقد أحبك كيزوكي حباً جماً. ولقد صادف أن ارتباطنا بك كان أول ارتباط لنا بشخص آخر. وما زال كذلك. ومنذ أن مات كيزوكي، صرت أنت الرابطة الوحيدة لي بالعالم الخارجي. وتماماً مثلما أحبك كيزوكي، أحبُّك أنا. لم نقصد أبداً إيلامك، ولكن لعلنا آلمناك، وربما انتهينا إلى إصابتك بجرح دام في قلبك. ولم يخطر في بالنا أن شيئاً من هذا سيحدث ذات يوم».

أنزلت ناوكو رأسها مرة أخرى، وصمتت.

قطعت رايكو صمتها قائلة: «ما رأيكم بكوب من الكاكاو؟»

قالت ناوكو: «جيد. فعلاً أريده».

قلت: «إذا لم تمانعي فسأتناول قليلاً من البراندي الذي جلبته معي».

قالت رايكو: «قطعاً لا. هل أستطيع أن أتناول جرعة منه؟»

قلت ضاحكاً: «بالتأكيد».

جلبت رايكو كأسين وشربنا نخب بعضنا. ثم ذهبت إلى المطبخ لإعداد الكاكاو.

سألت ناوكو: «ألا نستطيع أن نتحدث عن شيء أكثر مرحاً قليلاً؟»

لم يكن لدي شيء مرح لأتحدث عنه. وددت لو كان جندي العاصفة ما زال موجوداً. ذلك الفتى يوحي بسلسلة من القصص. بعض قصصه تضفي الراحة على الجميع. أقصى ما أستطيعه هو أن أتحدث باستفاضة عن عادات الفتيان الزرية في المهجع. كنت أشعر بالملل من شيء رخيص كهذا، غير أن ناوكو ورايكو تهاوتا من الضحك، فقد كان أمراً جديداً عليهما. ثم أخذت رايكو تقلد بعض المرضى العقليين. وكان تقليدها ينطوي على كثير من الدعابة أيضاً. بعد الحادية عشرة بدأت ناوكو تبدو

وقد غلبها النعاس، ولذلك أعادت رايكو الأريكة إلى الخلف وناولتني وسادة وشراشف وبطانيات.

قالت: «إذا رغبت في اغتصاب إحدانا في منتصف الليل، فلا تذهب في الاتجاه الخطأ. الجسد الخالي من التجاعيد في السرير على جهة اليسار هو لناوكو».

قالت ناوكو: «إنها تكذب! سريري هو على جهة اليمين».

أضافت رايكو: «بالمناسبة، لقد خططت حتى نغير جدول ما بعد الظهر - لماذا لا نذهب في نزهة صغيرة؟ أعرف مكاناً لطيفاً حقاً قريباً من هنا».

قلت: «فكرة طيبة».

تناوبت المرأتان على تنظيف أسنانهما بالفرشاة والانسحاب إلى غرفة النوم. صببت لنفسي بعض البراندي وتمددت على الأريكة، مستعرضاً أحداث اليوم من الصباح حتى الليل. شعرت بأنه يوم طويل أليل. استمرت الغرفة تتوهج بيضاء في ضوء القمر. وباستثناء صرير السرير الذي لا يكاد يسمع، لم أسمع أي صوت من غرفة النوم حيث تضطجع ناوكو ورايكو نائمتين. تمثلت لي أشكال تخطيطية ضئيلة تطوف في الظلمة، حين أغمضت عيني، والتقطت أذناي انتظام تموج ڤيثار رايكو، لكن أياً منهما لم يلبث طويلاً. غلبني النوم وجرفني إلى كتلة من الوحل المتقد. حلمت بأشجار الصفصاف. طريق جبلي ينتظم الصفصاف على جانبيه. عدد لا يصدق من أشجار الصفصاف. كان نسيم دبق يهب، غير أن أغصان الصفصاف لم تتمايل. تساءلت: لماذا لا تتمايل؟ ثم رأيت أن هناك طيوراً معلقة على كل غصن في كل شجرة صفصاف. وزنها هو الذي يحول دون أن تتمايل الأغصان. انتزعت عصا وضربت بها غصناً قريباً، مؤملاً أن أطرد الطيور لتتمايل الأغصان. لكنها لم تغادر مكانها. وبدلاً من أن تحلق، انقلبت إلى قطع معدنية لها أشكال طيور تهاوت على الأرض.

حين فتحت عيني، شعرت وكأنني أرى استمرار حلمي. ملأ ضوء القمر الغرفة بالوهج الأبيض الناعم نفسه. وكأنما تلقائياً، جلست في السرير وبدأت أبحث عن الطيور المعدنية، التي لم تكن موجودة بالطبع. ما وجدته بدلاً من ذلك هو ناوكو عند حافة السرير، جالسة بسكون ووحيدة، محدقة من خلال النافذة. كانت قد طوت ركبتيها وأراحت ذقنها عليهما، تتطلع مثل يتيم جائع. بحثت عن الساعة التي وضعتها تحت وسادتي، لكنها لم تكن في المكان الذي أعرف أنها يجب أن تكون فيه. خمنت من زاوية القمر أن الوقت يتراوح بين الساعة الثانية والثالثة صباحاً. شعرت بعطش عنيف، لكنني قررت أن أبقى ساكناً وأستمر في مراقبة ناوكو. كانت ترتدي الثوب الليلي الأزرق نفسه الذي رأيتها فيه سابقاً، وقد ثبتت على جانب شعرها مشبك الفراشة الذي يزيد جمال وجهها بهاءً في ضوء القمر. فكرت أنه أمر غريب، فقد نزعت المشبك قبل أن تذهب إلى النوم.

بقيت ناوكو متجمدة في مكانها، مثل حيوان ليلي صغير أغواه ضوء القمر. بالغ اتجاه الوهج بإبراز ظلال شفتيها. هشاً وحساساً بعمق، كان الظل ينبض على نحو لا يكاد يحس مع نبضات قلبها أو حركات قلبها في الداخل، وكأنها تهمس للظلمة بكلمات لا أصوات لها.

بلعت ريقي مؤملاً أن أخفف من عطشي، غير أن الصوت الذي أطلقته في سكون الليل كان مدوياً. كأن هذا كان علامة لناوكو، فنهضت على قدميها واقتربت من رأس السرير، وثوبها يهفهف قليلاً. جثت على الأرض قرب وسادتي، وعيناها مثبتتان عليّ. تطلعت إليها غير أن عينيها لم تخبراني بشيء. بدت عيناها شفافتين على نحو غريب، كأنهما نافذتان على عالم مفتوح، لكني مهما أمعنت النظر في أعماقهما، لم أر شيئاً. لم يكن يفصل بين وجهينا أكثر من شبر، لكنها بعيدة عني عدة سنين ضوئية.

اقتربت منها محاولاً أن ألمسها، لكن ناوكو تراجعت، وشفتاها ترتجفان قليلاً. بعد لحظة نقلت يديها لتبدأ ببطء بفتح أزرار ثوبها. كان

عددها سبعة أزرار. شعرت وكأن من لوازم استمرار حلمي أن أراقب أصابعها الجميلة، النحيفة، وهي تفتح الأزرار واحداً واحداً من الأعلى إلى الأسفل. سبعة أزرار صغيرة، بيضاء: حين حلتها جميعاً، أزاحت ناوكو الثوب عن كتفيها ورمت به تماماً مثل حشرة تتخلى عن جلدها. لم تكن ترتدي شيئاً تحت الثوب. الشيء الوحيد الذي كانت تلبسه هو مشبك الفراشة. تطلعت إليّ الآن، عارية تماماً وهي تجثو قرب السرير. كان جسد ناوكو، وهي تغتسل في ضوء القمر الناعم، يختزن شبقاً موجعاً لوليد جديد. وحين تحركت - وقد تحركت على نحو لا يحس به - تحول عزف الضوء وظل جسدها برقة. تكور نهديها، حلمتاها الصغيرتان، جورة سرتها، أوراكها، شعرها، كل شيء فيها يلقي ظلالاً حنطية، بقيت أشكالها تتغير مثل تموجات تنتشر فوق بحيرة هادئة.

يا له من جسد مكتمل! فكرت. متى صار لناوكو مثل هذا الجسد المكتمل؟ ما الذي حصل لذلك الجسد الذي احتضنته بين ذراعي تلك الليلة من الربيع الماضي؟

أعطاني جسد ناوكو تلك الليلة وأنا أعريها بغضارة بينما كانت تبكي الإحساس بعدم الاكتمال. بدا نهداها صلبين، وحلمتاها ناتئتين بشكل غريب، ووركاها متصلبين. كانت فتاة جميلة بالطبع، جسدها مذهل ومغو. شدتني تلك الليلة وغمرتني بقوة هائلة. ولكن وأنا ألاطفها وأقبّل لحمها العاري، شعرت بإدراك غريب وقوي باختلال الجسد الإنساني وقبحه. وأنا أمسك ناوكو بين ذراعي، أردت أن أوضح لها: «إنني أمارس معك الآن. أنا في داخلك. لكن هذا لا شيء في الحقيقة. أمر غير مهم. ليس سوى اشتراك جسدينا. كل ما نفعله هو أن نقول لبعضنا الأشياء الأخرى التي لا يمكن أن تقولها كتلتا لحم ناقصتان لبعضهما إلا اختلاساً. وبفعلنا هذا، نشترك في نقصنا». لكني بالطبع لم أستطع قول شيء من هذا أبداً وأنا أرجو أن يفهم. بقيت ممسكاً بها بقوة. وحين أمسكتها، تمكنت من أشعر أن في داخل جسدها نوعاً من المادة الحجرية المنسية، شيئاً ما

زائداً لم أستطع أبداً القرب منه. وقد ملأ هذا الإحساس قلبي بناوكو وجعلني أتوتّر توتراً مخيفاً.

مع ذلك لم يكن الجسد الذي كشفت عنه ناوكو أمامي الآن يشبه الجسد الذي احتضنته تلك الليلة. لقد مر هذا الجسد بعدة تغيرات ليولد من جديد في اكتمال مطلق تحت ضوء القمر. كل علامات الامتلاء التي تخصّ البنات أزيلت بعد موت كيزوكي ليحل محلها جسد امرأة ريان. كان جمال جسد ناوكو من الكمال الآن بحيث إنه لم يبعث فيَّ أي شيء جنسي. لم يكن بوسعي إلا أن أتملى، مذهولاً، الانحناء الرائع من الخصر إلى الوركين، وثراء النهدين المكورين، والحركة الناعمة مع كل نفس للبطن المهزول وظل عانتها الناعم، الأسود تحته.

ظلَّتْ تكشف أمامي عريها بهذه الطريقة ربما لخمس دقائق، حتى غطت نفسها في النهاية بثوبها مرة أخرى وزررته من الأعلى إلى الأسفل. وحالما انتهت من تزرير الزر الأخير، خفت نحو غرفة النوم، فتحت الباب بصمت، واختفت.

بقيت مشدوداً في البقعة نفسها وقتاً طويلاً جداً حتى حدث لي أن غادرت الفراش. استرجعت ساعتي من حيث سقطت على الأرض وقربتها من ضوء القمر. كانت الرابعة إلا ثلثاً. ذهبت إلى المطبخ وشربت عدة زجاجات من الماء قبل أن أتمدد في السرير ثانية، لكن النوم جفا عينيَّ حتى زحف ضوء الشمس في الصباح إلى كل زاوية في الغرفة، مبدداً جميع آثار وهج القمر الشاحب.

كنت في مكان ما على حافة النوم حين جاءت رايكو وربتت على خدي قائلة: «إنه الصباح! إنه الصباح!».

بينما أعادت رايكو تنظيم سرير أريكتي، ذهبت ناوكو إلى المطبخ وبدأت تحضر الفطور. ابتسمت بوجهي وقالت: «صباح الخير».

أجبتها: «صباح الخير». نهضت وراقبتها وهي تضع الماء لتغليه، وتقطع الخبز، وتزدرد قسماً منه، لكني لم أشعر أبداً بأي شيء في سلوكها

يوحي أنها كشفت لي عن مفاتن جسدها في الليلة السابقة.

قالت لي وهي تصب القهوة: «عيناك حمراوان. هل أنت على ما يرام؟»

«استيقظت في منتصف الليل ولم أستطع العودة إلى النوم».

قالت رايكو: «أراهن أنك كنت تغط في النوم».

قلت: «على الإطلاق».

قالت ناوكو: «هذا جيد».

قالت رايكو وهي تتثاءب: «إنه يحاول أن يكون مهذباً في التعبير».

في البداية تصورت أن ناوكو كانت مرتبكة أو تتصرف ببراءة أمام رايكو، غير أن سلوكها بقي بلا تغيير حين غادرت رايكو الغرفة مؤقتاً، واحتفظت عيناها بنظرتهما الشفافة العادية.

سألتُ ناوكو: «كيف كان نومك؟»

«مثل كلب» أجابت بتلقائية. وكانت تضع دبوس شعر بسيط دون زينة.

لم أستطع استيعاب الأمر، وبقيت أشعر بهذه الطريقة طوال الفطور. ظللت وأنا أطلي خبزتي بالزبدة، أو أقشر بيضتي، أحدق باتجاه المائدة نحو ناوكو، باحثاً عن علامة.

سألتني بابتسامة: «لماذا تنظر إليَّ بهذه الطريقة؟»

قالت رايكو: «أعتقد أنه واقع في حب شخص ما».

سألتني ناوكو: «هل تحب شخصاً ما؟»

قلت وأنا أرد لها الابتسامة: «ممكن». وحين شرعت المرأتان بتبادل النكت على حسابي، توقفت عن محاولة التفكير في ما حصل في الليل وركزت على خبزتي وقهوتي.

بعد الفطور قالت رايكو وناوكو إنهما يجب أن تذهبا لإطعام الطيور في القفص. تطوعت أن أذهب معهما. غيرتا ملابسهن إلى بنطلونات جينز

وقمصان عمل وأحذية مطاطية بيضاء. يقع قفص الطيور في حديقة صغيرة وراء ملعب التنس، وكان يضم جميع أنواع الطيور من الدجاج إلى الحمام والطواويس والببغاوات، وكان محاطاً بالسنادين والأزاهير والشجيرات والمقاعد. رجلان في الأربعينات، الظاهر أنهما من مرضى المصح، كانا يسويان الأوراق المتساقطة في الممرات. هرعت المرأتان لتقولا لهما صباح الخير، وجعلتهما رايكو يضحكان بنكتة أخرى من نكاتها. كان عالماً مزداناً بالأزاهير، والشجيرات حسنة التشذيب على خير وجه. بدأت الطيور بالزقزقة، حين رأت ناوكو، والرفرفة داخل القفص.

دخلت المرأتان المأوى المجاور للقفص وخرجتا بحقيبة وخرطوم حديقة. شدت ناوكو الخرطوم إلى حنفية وفتحت الماء. وبحرص على أن لا تسمحا لأي من الطيور بالخروج من القفص، انزلقت المرأتان إلى داخله، ناوكو لترش الأوساخ ورايكو لتجلو أرضية القفص بفرشاة الغسل. التمع الرشاش في وهج شمس الصباح. رفرف الطاووس بجناحيه، داخل القفص ليتجنب البلل. رفع ديك رومي رأسه وحملق بي وكأنه رجل عجوز شاذ، بينما صار الببغاء على مجثم يطلق صرخات تذمره ويخفق بجناحيه. ماءت رايكو للببغاء، الذي قفز نحو الزاوية القصوى، وسرعان ما صار يهتف: «شكراً» «مجنون» «خراء».

قالت ناوكو بتنهيدة: «أتساءل مَنْ علّمه هذا الطراز من اللغة؟»

قالت رايكو: «لست أنا. لن أفعل أبداً شيئاً كهذا». وبدأت تموء مرة أخرى، والببغاء صامت.

أوضحت رايكو ضاحكة: «هذا الفتى تشاجر مع قطة ذات مرة. والآن يخاف حتى الموت من القطط».

حين انتهتا من التنظيف، وضعتا أدواتهما وشرعتا بملء جميع أوعية التغذية من الحقيبة. انقض الديك الرومي، وهو يطير الرشاش من البرك الصغيرة على الأرض، على صندوق طعامه وغمر رأسه فيه، مهووساً بالأكل منشغلاً عن تمسيدة ناوكو على ذيله.

سألتُ ناوكو: «هل تقومون بهذا كل صباح؟»

قالت: «كل صباح!. في العادة يعطون هذه المهمة للجديدات. فهي بسيطة جداً. هل تحب أن ترى الأرانب؟»

قلت: «بالتأكيد». كان كوخ الأرانب خلف قفص الطيور. يضطجع في داخله ما يقرب من عشرة أرانب، نائمين على القش. مسحت ناوكو روثها، ووضعت الطعام في الوعاء، والتقطت واحداً من الأرانب الصغار، صارت تحكه بخدها.

واستأنفت: «أليس متألقاً؟». تركتني أحمله. انكمشت كرة الفراء الصغيرة بين يدي وأنفها يرتعش.

قالت للأرنب: «لا تخف، لن يؤذيك» وهي تربت على رأسه بإصبعها وتبتسم لي. كانت ابتسامة مشرقة، لا أثر فيها لظل، حتى أنني لم أقو على ردها بالابتسام. ولكن ماذا بشأن ناوكو في الليلة الفائتة؟ تساءلت مع نفسي. أنا على يقين تماماً أنها كانت ناوكو الحقيقية وليست حلماً: وبالتأكيد طرحت عنها ملابسها وعرضت جسدها العاري أمامي.

صفرت رايكو بلحن «ماري الفخورة» اللطيف وهي تملأ حقيبة بلاستيكية بالحطام الذي جمعتاه وشدت فتحتها. ساعدتهما في حمل الأدوات وحقيبة الطعم إلى المأوى.

قالت ناوكو: «الصباح هو أفضل أوقات النهار عندي. كأنما كل شيء يبدأ نابضاً من جديد. ويبدأ الحزن يعتريني مع الظهيرة، وحين تنزل الشمس أكرهها. أعيش بالمشاعر نفسها يوماً بعد يوم».

قالت رايكو بابتسامة: «بينما تعيشين بالمشاعر نفسها، فأنت تكبرين مثلي تماماً. تفكرين كيف يحل الصباح الآن أو المساء، والشيء الآخر الذي تعرفينه هو أنك كبرت».

قالت ناوكو: «لكنك تحبين الكبر».

قالت رايكو: «ليس تماماً. لكن بالتأكيد لا أتمنى أن أعود شابة».

سألتها: «لم لا؟»

قالت: «لأنه وجع في الرأس وألم في العنق!». ثم قذفت مكنستها وأغلقت باب المأوى، وهي تصفر بلحن «ماري الفخورة».

حين عدنا إلى الشقة، غيرت المرأتان أحذيتهما بأحذية تنس وقالتا إنهما ذاهبتان إلى المزرعة. اقترحت رايكو أن أبقى في الشقة مع كتاب أو ما أشبه، فالعمل ليس بالتسلية التي يمكن مراقبتها وهما تؤديانه جزءاً من فريق. ثم أضافت: «وما دمت تنتظر هنا فتستطيع أن تغسل أكوام الملابس القذرة التي تركناها على المغسلة».

قلت وأنا أتراجع: «لا شك أنك تمزحين».

ضحكت: «بالطبع أمزح. يا لك من شخص لطيف، أليس كذلك ناوكو؟»

قالت ناوكو وهي تضحك معها: «بالطبع هو لطيف».

قلت بتنهيدة: «سأستعد لامتحان الألمانية».

قالت رايكو: «نعم، قم بواجبك البيتي كتلميذ جيد. وسنعود قبل الغداء».

خرجت الاثنتان بضحكة مكتومة. سمعت خطى عدد من الناس وأصواتهم يمشون في الأسفل.

ذهبتُ إلى الحمام وغسلت وجهي مرة أخرى، ثم استعرت مقصّ أظافر قلمت أظافري. كانت المحتويات في الحمام، بالنسبة لحمام تشترك فيه امرأتان، بسيطة على نحو لا يصدق. باستثناء قناني ومساحيق التنظيف المرتبة ومرطبات الشفاه، ومراهم الشمس، يكاد لا يوجد شيء اسمه مستحضر تجميل. حين انتهيت من تقليم أظافري، أعددت لنفسي بعض القهوة وشربتها على مائدة المطبخ، وكتاب الألمانية مفتوح أمامي. تخففت إلا من تي شيرت في المطبخ الذي تملأه الشمس، وطفقت

أستذكر جميع الصيغ القواعدية في الألمانية، حينئذ داهمني شعور غريب. بدا لي أن ثمة مسافة شاسعة لا يمكن تخيلها تفصل صيغ الأفعال الألمانية عن مائدة هذا المطبخ.

عادت المرأتان من المزرعة في الحادية عشرة والنصف، وتناوبتا على دوش الحمام، وغيرتا ملابسهما بملابس جديدة. ذهبنا نحن الثلاثة إلى قاعة الطعام لتناول الغداء، ثم تمشينا نحو البوابة الرئيسية. هذه المرة كانت الحراسة من نوبة رجل. كان يجلس على طاولته، متمتعاً بالغداء الذي لا بد أنه جلب له من قاعة الطعام. كان راديو الترانزستر على الرف يعزف لحناً عاطفياً شعبياً قديماً. لوّح لنا بـ«مرحباً» مجاملة ونحن نقترب، ورددنا عليه التحية.

أوضحت له رايكو أننا خارجون في نزهة وسنعود بعد ثلاث ساعات. قال: «عظيم. أنتم محظوظون بالجو. فقط ابتعدوا عن طريق الوادي. فقد غسله المطر الثقيل أمس. وعداه لا توجد مشكلة».

دونت رايكو اسمها واسم ناوكو في سجل مع التاريخ والوقت.

قال الحارس: «متعوا أنفسكم. وحاذروا».

قلت: «شخص لطيف».

قالت رايكو وهي تشير إلى رأسها: «شخص لديه بعض الغرابة هنا قليلاً». مع ذلك كان على صواب بخصوص الجو. كانت السماء تزهو بالأزرق الفضفاض، ولا يتخللها سوى أثر ضئيل من الغيوم البيضاء المعلقة في قبة السماء مثل شريط نحيل من صبغ تجريبي. مشينا بمحاذاة السور الحجري الواطئ لآمي أوتيل لفترة، ثم توجهنا لتسلق ممر ضيق، شاهق في طابور. رايكو تقود الطريق، وناوكو في الوسط، وأنا في المؤخرة. كانت رايكو تتسلق الصخور بخطى واثقة ثقة من يعرف كل شبر في أي من جبال المنطقة. وكنا نركز على نقل خطانا، دون أن نتبادل بيننا كلمة. ترتدي ناوكو جينزاً أزرق وبلوزة بيضاء وتحمل سترتها في إحدى يديها. راقبت شعرها المسترسل الطويل وهو يتمايل يميناً ويساراً حين

ينهمر على كتفيها. تلتفت لي بين الحين والآخر وتلقي نظرة، وتبتسم إذا التقت أعيننا. بقي الممر يرتفع شاهقاً حتى صار يبعث على الدوار، لكن خطى رايكو لم تتوان. حثت ناوكو خطاها لتماشيها، وهي تمسح العرق عن وجهها. وإذ لم أخض غمار نشاط من هذا النوع منذ زمن، فقد وجدت نفسي أهرع منقطع الأنفاس.

سألتُ ناوكو: «هل تفعلون هذا كثيراً؟»

أجابت: «ربما مرة كل أسبوع. هل ضقت ذرعاً؟»

قلت: «نوعاً ما».

قالت رايكو: «نحن الآن في ثلثي الطريق تقريباً. هيا ما زلت شاباً، أليس كذلك؟»

«نعم، ولكنني مستنزف».

تمتمت ناوكو : «هذه نتيجة العبث مع الفتيات طوال الوقت».

أردت أن أجيبها، لكن انقطاع أنفاسي منعني من الكلام. بين الحين والآخر ترفرف طيور حمراء ذات أعراف فوق الممر متألقة على خلفية السماء الزرقاء. كانت الحقول حولنا ملأى بالزهور البيضاء والزرقاء والصفراء، والنحل يطن في كل مكان. لم أكن أفكر، وأنا أنقل خطاي، إلا في المشهد الذي يمر أمام عيني.

بعد عشر دقائق توقف المنحدر، ووصلنا إلى أرض مستوية. ارتحنا هناك، ونحن نمسح العرق عن وجوهنا، ونلتقط أنفاسنا، ونشرب قليلاً من الماء الذي حملناه في القناني. وجدت رايكو ورقة واستعملتها كصفارة.

دخل الممر في منحدر نازل خفيف بين أجمة عالية، متموجة من العشب الكثيف. مشينا لمدة ربع ساعة قبل أن نجد أنفسنا بمواجهة قرية. لا توجد علامة هنا على وجود إنسان. والبيوت العشرة أو أكثر التي رأيناها كانت تتفاوت في اضمحلالها. يرتفع العشب بين البيوت بطول

ذراع، وقد تجمعت بقع بيضاء من فضلات الحمام معلقة في فتحات الحيطان. لم يبق من أحد البيوت سوى الأعمدة، بينما بدت بيوت أخرى جاهزة للسكنى حالما تفتح مصاريعها. كانت هذه البيوت الميتة، الصامتة تضغط على جانبي الطريق ونحن نجتازها.

أخبرتني ناوكو: «بقي الناس يعيشون في هذه القرية حتى سبع سنوات أو ثمان خلت. كانوا في هذه المزرعة المجاورة هنا. لكنهم جميعاً رحلوا. إذ كانت الحياة صعبة للغاية. كان الجليد يحبسهم في بيوتهم حين يتجمع في الشتاء. والأرض ليست خصبة كفاية. لذلك فضلوا أن يعيشوا في المدينة».

قلت: «يا للخسارة. تبدو بعض البيوت صالحة للسكنى تماماً».

«حاول بعض الهيبيين أن يعيش هنا مرة، لكنهم تخلوا عن الفكرة. لم يحتملوا الشتاء».

خلف القرية بقليل وصلنا إلى منطقة واسعة مسورة بدت لي كمرعى. بعيداً في الجانب الآخر، لمحت بضعة خيول تسرح. تابعنا خط السور، وهرع كلب كبير نحونا راكضاً، وهو يهز ذنبه. توقف مستنداً إلى رايكو، يتشمم وجهها، ثم قفز بخفة إلى ناوكو. صفرت، فاقترب مني وهو يلحس يدي بلسانه الطويل.

ربتت ناوكو على رأس الكلب وأوضحت أنه حيوان المرعى. قالت: «أراهن أن عمره يقرب من عشرين سنة. أسنانه رديئة جداً، ولا يستطيع مضغ شيء صلب. ينام في واجهة المحل طوال النهار، ويهرع راكضاً حين يسمع وقع خطى».

أخرجت رايكو قطعة جبنة من حقيبتها. تشمم الكلب رائحتها وانشدّ منكباً عليها.

قالت رايكو وهي تمسح على رأس الكلب: «بعد فترة لن يكون بوسعنا رؤية هذا الصديق. في منتصف أكتوبر، سيجمعون الخيول

والأبقار في شاحنات ويأخذونها إلى الحظيرة. الوقت الذي يسمحون لها بالرعي هنا هو فصل الصيف، حين يفتحون كافتريا صغيرة أو شيئاً من هذا القبيل للسواح. «السواح!». ربما عشرون رجلاً في اليوم. ما رأيكم بشيء نشربه؟»

قلت: «فكرة جيدة».

انساب الكلب في طريق الكافتريا، وهي بيت صغير، أبيض ذو طلعة أمامية تبرز فيه لافتة ذاوية على شكل كوب قهوة من الأفريز. قادنا إلى أعتابها وتمدد على أرض الطلعة، مضيقاً عينيه. حين اتخذنا أماكننا في الطلعة حول إحدى الطاولات، جاءت فتاة شعرها على شكل ذيل حصان، ترتدي مريلة وجينزاً أبيض وحيّت رايكو وناوكو كأصدقاء قدامى.

قالت رايكو وهي تقدمني: «هذا صديق لناوكو».

قالت: «مرحباً».

أجبت: «مرحباً»

حين كانت النسوة الثلاث يتبادلن حديثاً قصيراً، مسدت رقبة الكلب تحت الطاولة. له رقبة صلبة، مفتولة العضلات ككلب مسن. حين حككت المواضع الكثيفة، أغمض الكلب عينيه وتنهد بلذة.

سألتُ الفتاة: «ما اسمه؟»

قالت: «بيبيه».

قلت للكلب: «أهلاً بيبيه»، لكنه لم يتزحزح.

قالت الفتاة: «سمعه ثقيل. يجب أن تحدثه بصوت مرتفع، وإلا لن يسمع».

صرخت: «بيبيه». فتح الكلب عينيه وانتبه فجأة بنبحة.

قالت الفتاة: «لا عليك. نم هانئاً وعش طويلاً».

ارتمى بيبيه مرة أخرى عند قدمي.

طلبت رايكو وناوكو زجاجتين باردتين من الحليب وطلبت أنا بيرة.

قالت رايكو: «فلنسمع الراديو». شغلت مكبر صوت وأدارته على موجة الأف أم. فانهمرت الدماء والعرق والدموع مع «دولاب الغزل».

بدت رايكو مسرورة: «هذا ما جئنا من أجله. ليس لدينا راديوات في غرفنا، وإذا لم نأت إلى هنا كل فترة، فلن تكون لدي فكرة عما يعزفونه في الخارج».

سألتُ الفتاة: «هل تنامين في هذا المكان؟»

ضحكت: «على الإطلاق. سأموت من الوحدة لو قضيت الليل هنا. شباب المرعى يأخذونني إلى المدينة، وأجيء مرة أخرى في الصباح». أشارت إلى شاحنة تقف أمام مكتب المرعى المجاور.

سألتها رايكو: «أليست لديكم عطلة قريباً؟»

قالت الفتاة: «نعم، سنغلق هذا المكان قريباً». قدمت لها رايكو سيجارة، فدخنتا معاً.

قالت رايكو: «سأشتاق إليك».

قالت الفتاة ضاحكة: «لكني سأعود في مايو».

انسابت العذوبة من الراديو مع أغنية «الغرفة البيضاء». وبعد إعلان تجاري، جاءت أغنية «معرض سكاربورو».

قالت رايكو حين انتهت: «أحب هذه الأغنية».

قلت: «رأيت الفيلم».

«من كان فيه؟»

«داستن هوفمان».

«لا أعرفه» قالت بهزة خفيفة من رأسها. «يتغير العالم كالمجنون، وأنا لا أعرف ما يحدث».

طلبت من الفتاة قيثاراً. فقالت الفتاة: «بالتأكيد»، وهي تطفئ الراديو وتجلب قيثاراً قديماً، رفع الكلب رأسه وتشمم الآلة.

قالت رايكو بدعابة متجهمة: «لا تستطيع أن تأكل هذا أيضاً». فاح

نسيم مضمخ برائحة العشب على الطلعة. تنتشر الجبال أمامنا، حداً فاصلاً دون السماء.

قلت لرايكو وهي تضبط الأوتار: «كأنما مشهد «صوت الموسيقى»!».

سألت: «وما ذاك؟»

داعبت القيثار بحثاً عن نغمة تفتتح بها «معرض سكاربورو». ومن الواضح أن هذه أول محاولة لها مع الأغنية، لكن بعد عدة بدايات زائفة تمكنت من عزفها دون تردد. وكان بوسعها تأديتها ثلاث مرات، بل هي بدأت تضيف إليها بعض التزويقات. قالت لي بغمزة: «أذن رائعة. في العادة أستطيع عزف أي شيء، إذا استمعت إليه ثلاث مرات». همهمت باللحن بعذوبة، وأدته أداءً كاملاً. صفقنا نحن الثلاثة، واستجابت رايكو بانحناءة محتشمة من رأسها.

قالت: «كنت أتلقى تصفيقاً أكثر حين أعزف لحناً لموزارت».

قالت الفتاة إنها تنتزع الإعجاب إذا عزفت أغنية الخنافس «ها إن الشمس تأتي». رفعت رايكو إبهامها موافقة، واندمجت في الأغنية. لم يكن صوتها كاملاً، فقد أضفت عليه كثرة التدخين لمسة خشونة، لكنه كان جميلاً، ذا حضور حقيقي. كدت أشعر فعلاً أن الشمس آتية مرة أخرى وأنا أجلس هناك أستمع وأشرب البيرة وأتطلع إلى الجبال. كان شعوراً ناعماً، دافئاً.

أعادت رايكو القيثار وطلبت الاستماع إلى الراديو ثانية. ثم اقترحت أن نأخذ أنا وناوكو ساعة ونتمشى في المنطقة.

«أريد أن أستمع إلى الراديو أكثر وأبقى معها. إذا عدتما في الثالثة فهذا جيد».

«هل من الجائز لنا أن نفترق كل هذا الوقت؟»

«حسناً، في الحقيقة هذا مخالف للقوانين، ولكن إلى الجحيم. وأنا

لست وصيفة للمراقبة. يمكنني أخذ إجازة. وقد قطعت كل هذا الطريق من طوكيو حتى هنا، وأنا واثقة أن لديك أطناناً من الأشياء التي تريد أن تتحدث عنها».

أشعلت رايكو سيجارة أخرى وهي تتكلم.

قالت ناوكو وهي تنهض: «فلنذهب».

بدأتُ بعدها. استيقظ الكلب وتبعنا لفترة، لكنه سرعان ما فقد اهتمامه وعاد أدراجه إلى الشرفة. تمشينا أسفل الشارع المستوي الذي يلي سور المرعى. كانت ناوكو تأخذ يدي بين الحين والآخر أو تدس ذراعها تحت ذراعي.

قالت: «ألا يشبه هذا الأيام الماضية؟»

ضحكت: «لم تكن تلك أياماً ماضية، كانت في ربيع هذه السنة! إذا كانت تلك أياماً ماضية، فيجب أن تكون ما قبل عشر سنوات تاريخاً قديماً».

قالت ناوكو: «أشعر وكأنها تاريخ قديم. ولكن على أية حال، آسفة لليلة الماضية. لا أعرف، كنت حزمة أعصاب. فعلاً كان يجب ألا أفعل ذلك بعد أن قطعت كل هذا الطريق من طوكيو إلى هنا».

قلت: «لا عليك. لدى كلينا كثير من المشاعر ونحتاج إلى إخراجها إلى الهواء الطلق. لذلك إذا أردت إخراج هذه المشاعر لتثقلي بها على أحد، فأثقليني بها. ثم بعدها نستطيع أن نتفاهم أفضل».

«وماذا بعد أن تفهمني أفضل؟»

قلت: «لعلك لم تفهميني. لا تتعلق المسألة بـ«ماذا بعد؟». يتوله بعض الناس بقراءة جداول القطارات وهذا ما يفعلونه طوال الوقت. بعض الناس يصنع نماذج قوارب من أعواد الثقاب. فما الخطأ إذا كان هناك شاب واحد في العالم يجد متعته الكبرى في محاولة فهمك؟»

قالت مذهولة: «أهي نوع من الهواية؟»

«نعم، أعتقد أنك تستطيعين تسميتها هواية. أغلب الناس الأسوياء يسمونها صداقة أو حباً أو ما أشبه، لكن إذا أردت تسميتها هواية، فلا ضير في هذا أيضاً».

قالت ناوكو: «أخبرني. هل أحببت كيزوكي أيضاً؟»

قلت: «بالطبع».

«وماذا عن رايكو؟»

قلت: «أكنّ لها الكثير من الودّ. فهي لطيفة فعلاً».

«كيف لا ترتبط دائماً إلا بأناس من هذا النوع، أعني أناس مثلنا؟ نحن جميعاً مشوهون ومنحرفون - أنا وكيزوكي ورايكو. لماذا لا تحب أناساً أكثر سوية؟»

قلت بعد شيء من التفكير: «لأنني لا أتصور الأمر على هذا النحو. لا أتصورك أو كيزوكي أو رايكو «منحرفين» على الإطلاق. بل المنحرفون في رأيي من يتسكعون في الشوارع».

قالت ناوكو: «لكننا منحرفون. هذا ما أراه جيداً».

مشينا بصمت. ترك الطريق السور ووصل إلى حقل دائري معشب تنتظم الأشجار حوله كالبركة.

قالت ناوكو وهي تضغط على ذراعي: «أحياناً أصحو في منتصف الليل مرعوبة بشدة. أخشى أن لا أتحسن مرة أخرى. سأبقى دائماً منحرفة كما أنا وأكبر ويضيع عمري هنا. تعتريني القشعريرة كأنني متجمدة من الداخل. شيء مرعب.... لاذع البرد...».

طوقتها بذراعي وقربتها مني.

«أشعر وكأن كيزوكي يطل عليَّ من الظلمة، يناديني: «هيا، ناوكو، لا نستطيع أن نبقى بعيدين». حين أسمعه يقول ذلك، لا أعرف ماذا أفعل».

«ماذا تفعلين؟»

«حسناً، لا تسئ فهم هذا الآن».

«OK، لن أفعل».

«أطلب من رايكو أن تحتضنني. أوقظها وأندس في فراشها وأجعلها تحتضنني بقوة. وأبكي. تمسدني حتى يذوب الجليد ويعاودني الدفء. هل تعتقد أن هذا مرض؟»

قلت: «لا، وأتمنى أن أكون الشحص الذي يحضنك».

«إذاً احتضني الآن. هنا».

وقفنا في عشب المرج الجاف وطوقنا بعضنا بأذرعنا. كان العشب الطويل يحيط بنا من كل ناحية، ولم نكن نرى شيئاً سوى السماء والغيوم في الأعالي. بلطف ضجعت ناوكو أرضاً وأخذتها بين ذراعي. كانت ناعمة ودافئة حين وصلت يداها لي. تبادلنا القبل بمشاعر حقيقية.

تمتمت ناوكو في أذني: «أخبرني، تورو».

سألتها: «ماذا؟»

«هل تريد أن تنام معي؟»

قلت: «بالطبع أريد».

«هل تستطيع أن تنتظر؟»

«بالطبع أستطيع».

«قبل أن نفعلها ثانية، أريد أن أتحسن قليلاً. أريد أن أجعل من نفسي شخصاً أكثر جدارة بهوايتك. هل ستنتظرني؟»

«بالطبع سأنتظرك».

«هل أنت متصلب الآن؟»

«تقصدين أخمص قدمي؟»

تمتمت ناوكو: «سخيف».

«إذا كنت تقصدين الانتصاب، بالطبع أنا منتصب».

«هل تسدي لي جميلاً وتتوقف عن قول (بالطبع) هذه؟»

«حسناً، سأتوقف».

«أهو صعب؟»

«ماذا؟»

«أن تتصلب على هذا النحو».

«صعب؟»

«أعني هل تعاني منه؟»

«يعتمد الأمر على الطريقة التي تنظرين بها إليه».

«هل تريدني أن أخلصك منه؟»

«بيديك؟»

قالت ناوكو: «آه. إذا شئت الحق، ما زال يخزني منذ أن نمنا معاً. إنه يؤلم».

باعدت وركي: «أفضل؟»

«شكراً».

قلت: «هل تعرفين؟»

«ماذا؟»

«أتمنى أن تفعليها».

قالت بابتسامة لطيفة: «حسناً». ثم فكت سحابة بنطالي وأخذت قضيبي المنتصب بيدها.

قالت: «إنه دافئ».

بدأت تحرك يدها، لكني أوقفتها وفككت أزرار بلوزتها، وحللت شريط حمالة صدرها. قبلت حلمتيها الناعمتين، الأقحوانيتين. أغمضت عينيها وبدأت بتحريك أصابعها ببطء.

قلت: «هيا، أنت رائعة جداً في هذا».

قالت ناوكو: «كن فتى طيباً واسكت».

بعد أن وصلتُ إلى الذروة ضممتها بين ذراعي وقبّلتها مرة أخرى.

شدت ناوكو حمالة صدرها وزررت بلوزتها، وسحبت أنا سحابة بنطالي.

سألت: «هل سيسهل هذا عليك المشي؟»

«أنا مدين لك بكل هذا».

«حسناً سيدي، إذا أرضاك هذا، فهلا مشينا أبعد قليلاً؟»

«بكل تأكيد».

اجتزنا مرجاً، عبر شريط من الأشجار، وعبرنا مرجاً آخر. تحدثت ناوكو عن أختها الميتة، وشرحت أنها لم تقل أي شيء عنها لأحد، شعرت أنها يجب أن تخبرني.

«كانت تكبرني بست سنوات، وكانت شخصيتانا مختلفتين تماماً، لكننا بقينا قريبتين من بعضنا جداً. لم نتخاصم ولا حتى مرة واحدة. هذا صحيح. بالطبع مع الاختلاف الكبير في عمرينا، ما كان يوجد ما يستحق أن نتخاصم من أجله».

كانت أختها من الفتيات المتفوقات في كل شيء - طالبة مثالية، ورياضية مثالية، وشعبية، وقائدة، وعطوفة، ومتطلعة، وقد أحبها الأولاد، وأحبها المعلمون، وكانت حيطان غرفتها تزدان بشهادات التفوق. ونادراً ما يوجد مثلها في المدارس. «لا أقول هذا لأنها أختي، بل لأنها ما كانت تدع أي شيء يفسدها أو ينتقص منها أو يحبطها. مهما أعطيتها، فستؤديه بطبيعتها أفضل من أي شخص آخر».

«لذلك حينما كنت صغيرة، قررت أن أكون تلك الفتاة الحلوة».

برمت ناوكو ورقة من العشب الكثيف وهي تتكلم: «أقصد، أنت تعرف، أنني كبرت وأنا أسمع الجميع يتحدث كم هي ذكية، وكم هي جيدة في الألعاب، وكم هي شعبية. بالطبع افترضت أن منافستها لم تعد أمراً خارجاً عن إمكاني. على الأقل كان وجهي أجمل قليلاً من وجهها، وأظن أن والديّ قررا أن يجعلا مني جذابة. صحيح أنهما منذ البداية أودعاني في ذلك النوع من المدرسة. ألبساني الملابس المخملية، والبلوزات الفاخرة،

والأحذية الجلدية الأنيقة، وأعطياني دروساً في البيانو ودروساً في الباليه. وهذا ما جعل أختي تغتاظ مني - تعرف: كنت الأخت الصغرى الجذابة. كانت تقدم لي هدايا صغيرة جميلة، وتأخذني معها إلى أي مكان وتساعدني في واجباتي. بل كانت تأخذني حتى في المواعيد. كانت أفضل أخت كبرى يتمناها أحد».

«لا أحد يعرف لماذا قتلت نفسها. تماماً مثل كيزوكي. صورة بحذافيرها. كان عمرها سبعة عشر عاماً، ولم تلمّح ولو أدنى تلميح إلى أنها ستُقدِم على الانتحار. لم تترك ما يشير للسبب أيضاً. فعلاً كانت مثل كيزوكي تماماً، ألا تعتقد ذلك؟»

«تبدو كذلك».

«كان الجميع يقولون إنها مفرطة الذكاء أو قرأت كتباً كثيرة جداً. وهي فعلاً قرأت كثيراً. كان لديها أطنان من الكتب. قرأت رزمة منها بعد وفاتها، وكان أمراً محزناً. تحمل تعليقاتها على الهوامش وزهوراً ذاوية مضغوطة بين الصفحات ورسائل من أصدقائها، كنت أبكي كلما قابلت شيئاً من هذا القبيل. بكيت كثيراً».

صمتت ناوكو لبضع دقائق، وهي تلف ورقة عشب مرة أخرى.

«كانت من النوع الذي يهتم وحده بالأشياء. لم تطلب النصيحة أو المساعدة من أحد أبداً. وأتصور أن هذا ليس مدعاة للفخر. كانت تفعل ما بدا لها طبيعياً. اعتاد والداي على هذا واعتقدا أنها ستكون على ما يرام إذا تركاها وحدها. كنت أذهب إلى أختي طلباً للنصيحة، وكانت دائماً مستعدة لتقديمها، لكنها لم تذهب إلى غيرها أبداً. كانت تقوم بما يجب في تصورها أن تقوم به. لم تغضب أو يتعكر مزاجها يوماً. هذا كله صحيح، وأنا أعنيه، ولا أبالغ. أغلب الفتيات حين تداهمهن الدورة أو ما شابه، يتشكين وينقلبن الأمر إلى غيرهن، لكنها لم تفعل حتى ذلك. بدلاً من أن يتعكر مزاجها، يروق تماماً. ربما يحدث هذا لها كل شهرين أو ثلاثة مرة: تغلق باب غرفتها عليها، وتبقى في السرير، وتتجنب

المدرسة، وتعاف الأكل، وتطفئ الأضواء، وتسترخي. مع ذلك لا يتعكر مزاجها. حين أعود إلى البيت من المدرسة، تدعوني إلى غرفتها وتجلسني إلى جوارها وتسألني كيف قضيت النهار. وكنت أخبرها بالأشياء الصغيرة جميعاً، مثل أنواع الألعاب التي لعبتها مع أصدقائي أو ما قاله المعلم أو نتائج امتحاناتي، أشياء من هذا القبيل. كانت تهتم بكل التفاصيل، تبدي تعليقاتها أو اقتراحاتها، ولكن حالما أغادرها للعب مثلاً أو للذهاب لدرس البيانو، كانت تعود إلى الاسترخاء مرة أخرى. بعد يومين، تُغيِّر موقفها بسهولة، وتذهب إلى المدرسة. استمر هذا الحال، لا أعرف، ربما أربع سنوات. كان والداي يقلقان في البداية وأعتقد أنهما ذهبا لاستشارة طبيب، لكن، تعرف، كانت تصير ممتازة وعلى خير وجه بعد يومين، لذلك اعتقدا أنها تستطيع تدبر أمرها إذا تركاها وحدها، فقد كانت فتاة متألقة، مثابرة».

«لكن بعد موتها، سمعت والديّ يتحدثان عن أخ أصغر لأبي مات منذ مدة طويلة. كان متألقاً، أيضاً، لكنه اعتزل في البيت أربع سنوات، منذ أن كان عمره سبعة عشر عاماً حتى صار عمره إحدى وعشرين سنة. وفجأة ترك البيت يوماً وقفز أمام أحد القطارات. قال أبي: «ربما يكون شيء ما في الدم، من جانبي»».

بينما كانت ناوكو تتكلم، مزقت أصابعها لاشعورياً شرابة العشب، وبددت أليافها في الريح. وحين بقي العود عارياً، طوته حول أصابعها. استأنفت: «كنتُ أنا من عثر على أختي ميتة. في الخريف حين كنت في السنة الأولى. في يوم مظلم، ممطر. كانت أختي في الصف السادس حينئذ. عدت إلى البيت من درس البيانو في السادسة والنصف وكانت أمي تُعِدُّ العشاء. طلبت مني أن أخبر أختي أن العشاء جاهز. صعدت إلى الأعلى وطرقت على الباب، وصحت: «العشاء جاهز»، لكن ما من جواب. كانت غرفتها في صمت مطبق. فكرت بأن هذا غريب، وطرقت ثانية، وفتحت الباب، واندسست في الداخل. فكرت ربما تكون نائمة.

لكنها لم تكن في سريرها. كانت تقف إلى جوار النافذة، تتطلع إلى الخارج، ورقبتها مائلة قليلاً بزاوية معينة، كأنها تفكر. الغرفة مظلمة، والأضواء مطفأة، فكان من الصعب أن أرى شيئاً. قلت لها: «ماذا تفعلين؟ العشاء جاهز». حينئذ لاحظت أنها تبدو أطول من المعتاد. ما الذي يجري؟ تساءلت مع نفسي: يا له من أمر غريب! هل تلبس كعباً عالياً في غرفتها؟ هل تقف على شيء ما؟ اقتربت منها وكنت على وشك أن أقول لها شيئاً حين تبينت الأمر: كان هناك حبل فوق رأسها. ينزل مستقيماً من المصباح في السقف، أعني أنه كان مستقيماً على نحو مذهل، وكأن أحداً رسم خطاً في الفضاء بمسطرة. كانت أختي ترتدي بلوزة بيضاء، نعم بلوزة بيضاء بسيطة كهذه، وتنورة رمادية، وكانت قدماها تشيران إلى الأسفل مثل راقصة باليه، باستثناء أن هناك فاصلاً بين أطراف أصابعها والأرض بحدود سبع بوصات أو ثمان. فطنت إلى جميع التفاصيل. وجهها أيضاً. نظرت إلى وجهها. لم أقو. فكرت بأن أنزل مباشرة وأخبر أمي. يجب أن أصرخ. لكن جسدي تجاهلني. كان يتحرك كما يشاء بمعزل عن عقلي الواعي. كان يحاول إنزالها من الحبل، بينما كان عقلي يخبرني بأن أهرع إلى الأسفل. بالطبع لا تقوى فتاة صغيرة على القيام بشيء كهذا على الإطلاق، لذلك بقيت واقفة هناك، فاهية، ربما لخمس أو ست دقائق، في فراغ مطلق، وكأن شيئاً ما في داخلي قد مات. بقيت هكذا مع أختي في ذلك المكان المظلم، البارد، حتى جاءت أمي لترى ما يجري».

هزت ناوكو رأسها.

«بعدها لم أستطع الكلام لمدة ثلاثة أيام. أنام في السرير كالميت، وعيناي مفتوحتان أحدق في الفضاء. لم أعرف ماذا يجري». ضغطت ناوكو على ذراعي. «ألم أكتب لك في رسالتي؟ إنني أكثر تصدعاً مما تتصور. مرضي أسوأ بكثير مما تعتقد: جذوره عميقة متأصلة. ولهذا السبب أريدك أن تمضي في طريقك إذا استطعت. لا تنتظرني. نم مع

فتيات أخريات إذا شئت. لا تجعل الأفكار حولي تعوقك. فقط افعل ما تريد أن تفعل. وإلا سأنتهي بأن آخذك معي، وهذا شيء لا أريد أن أقوم به. لا أريد أن أتدخل في حياتك. لا أريد أن أتدخل في حياة أحد. ومثلما قلت من قبل، أريدك أن تأتي لزيارتي مرة كل فترة، وتذكرني دائماً. هذا كل ما أريده».

قلت: «لكن هذا ليس كل ما أريده».

«أنت تضيع حياتك بالتورط معي».

«أنا لا أضيع أي شيء».

«لكني قد لا أتعافى أبداً. هل ستنتظرني إلى الأبد؟ هل يمكن أن تنتظر عشر سنين، عشرين سنة؟»

قلت: «أنت تسمحين لأشياء كثيرة بأن تملأك بالأحزان. الأحلام السوداء، السيئة، سلطة الأموات، يجب أن تنسيهم. وأنا واثق أنك ستتحسنين إذا نسيتهم».

قالت ناوكو وهي تهز رأسها: «إذا استطعت».

سألتها: «إذا خرجت من هذا المكان، هل ستعيشين معي؟ حينئذ أستطيع أن أحميك من الظلمة ومن الأحلام السيئة. سأحتضنك أنا بدلاً من رايكو حين تستعسر الأشياء».

ازداد تشبث ناوكو بي ثباتاً.

قالت: «سيكون هذا رائعاً».

عدنا إلى الكافتريا قبل الثالثة بقليل. كانت رايكو تقرأ في كتاب وتصغي لمعزوفة بيانو برام الثانية في الراديو. كان هناك شيء رائع مع عزف برام على حافة مرج معشب حيث لا علامة على وجود بشر على مرمى البصر. كانت رايكو تصفر مع قطعة التشيلو التي تبدأ مع الحركة الثالثة.

قالت: «باخوس وبوم. أبليت هذا الشريط مرة منذ مدة طويلة. حقيقة. أبليته بالإصغاء لكل نوطة. رضعت منه الموسيقى».

طلبنا أنا وناوكو قهوة.

سألت رايكو: «هل تحدثتما طويلاً؟»

قالت ناوكو: «أطناناً».

«خبريني عنه، تعرفين، فيما بعد».

قالت ناوكو محمرة الخدين: «لم نفعل شيئاً من هذا القبيل».

سألتني رايكو: «حقاً؟ لا شيء؟»

قلت: «لا شيء».

قالت بنظرة ملل في وجهها: «موووو-مييل».

قلت وأنا أحتسي القهوة: «حقاً».

كان المشهد في قاعة الطعام نفسه كما في اليوم السابق: المزاج، الأصوات، الوجوه. لم يتغير سوى قائمة الطعام. الرجل الأصلع الذي يرتدي البياض، الذي كان يتحدث أمس عن إفراز العصارات المعدية في ظروف انعدام الوزن، انضم إلينا نحن الثلاثة وتحدث طويلاً عن التلازم بين حجم الدماغ والذكاء. وحين كنا نتناول شطائرنا بفول الصويا استمعنا إلى مجلد من المعلومات عن دماغ بسمارك ودماغ نابليون. أزاح طبقه جانباً، وتناول قلماً جافاً وورقة وصار يرسم مخططات للأدمغة. حين يشرع بالرسم، يقول: «لا، ليس هذا مطابقاً تماماً» ثم يبدأ بآخر جديد. تكرر هذا عدة مرات. وحين انتهى، أَبْعَدَ ما تبقى من الأوراق في جيب سترته البيضاء ودس القلم في جيب صدره، يحتفظ فيه بثلاثة أقلام، بالإضافة إلى أقلام الرصاص ومسطرة. وبعد أن أنهى وجبته، أعاد عليَّ ما قاله في اليوم السابق: «الشتاء هنا جميل حقاً. تأكد من المجيء حين يحل الشتاء»، ثم غادر قاعة الطعام.

سألت رايكو: «أهو طبيب أم مريض؟»

«ماذا تظن؟»

«لا أستطيع أن أجزم فعلاً. على أية حال، لا يبدو سوياً».

قالت ناوكو: «إنه طبيب. الدكتور مياتا».

قالت رايكو: «نعم، ولكن أراهن أنه أكثر الموجودين هنا جنوناً».

أجابت ناوكو: «السيد أمورا، البواب، مجنون بما يكفي أيضاً».

قالت رايكو وهي تأكل القرنبيط: «صحيح. إنه يقوم بأفعاله الجمبازية كل صباح، وهو يصرخ بالهراء من أعماق رئتيه. وقبل أن تجيئي، ناوكو، كانت هناك فتاة في مكتب الأشغال، الآنسة كينوشيتا، حاولت أن تقتل نفسها. وفي السنة الماضية حاصروا ممرضاً، توكوشيما، كان يعاني من مشكلة شرب مرعبة».

قلت: «يبدو وكأن الطاقم يتبادل المواقع مع المرضى».

«هذا صحيح» قالت رايكو وهي تلوح بشوكتها في الهواء: «أخيراً بدأت ترى كيف تجري الأمور هنا».

«أفترض ذلك».

قالت رايكو: «ما يجعل منا أسوياء هو أن نعرف أننا لسنا بأسوياء».

حين عدنا إلى الغرفة، لعبنا أنا وناوكو بالورق، بينما عزفت رايكو باخ بقيثارها.

سألتني رايكو، وهي تستريح وتشعل سيجارة: «متى ستغادر غداً؟»

قلت: «بعد الفطور مباشرة. تأتي الحافلة في التاسعة. وبهذه الطريقة أصل مع بداية العمل الليلي غداً».

«سيئ جداً. كنت أتمنى أن تبقى وقتاً أطول».

قلت ضاحكاً: «إذا بقيت هنا أطول، فقد أنتهي بالعيش هنا».

قالت رايكو: «يجوز». ثم قالت لناوكو: «نعم، كان يجب أن أذهب إلى أوكا لجلب بعض العنب، لقد نسيت تماماً».

سألتها ناوكو: «هل تريدينني أن أذهب معك؟»

«ما رأيك بأن تسمحي لي باستعارة السيد واتانابي؟»

قالت ناوكو: «لا بأس».

«جيد. فلنذهب نحن الاثنين فقط في جولة ليلية أخرى» قالت رايكو وهي تأخذ يدي. «تقريباً قضينا الليل هناك أمس. فلنعد الكرة في الطريق نفسه الليلة».

قالت ناوكو بضحكة مكتومة: «جميل. افعلي ما طاب لك».

كان الهواء في الليل بارداً. ورايكو تلبس سترة صوفية زرقاء فوق قميصها، وتمشي ويداها مدسوستان في جيبي بنطالها الجينز. تطلعت إلى السماء، وتشممت النسيم كالكلب. قالت: «تقول الرائحة إنها ستمطر». حاولت أن أتشمم مثلها، لكني لم أشم شيئاً. حقاً، ففي كبد السماء غيوم كثيرة تغطي على وجه القمر. قالت رايكو: «إذا مكثت هنا مدة طويلة بما يكفي، فستتمكن من معرفة حالة الجو من مجرد تشمم الهواء».

دخلنا المنطقة المشجرة حيث تقف بيوت الطاقم. طلبت مني رايكو أن أنتظر لحظة، ومشت إلى أحد الأبواب الأمامية لأحد البيوت وضربت الجرس. خرجت امرأة -لا شك أنها سيدة البيت- ووقفت تتبادل الحديث والقوقأة مع رايكو. ثم توارت في الداخل وعادت ومعها كيس بلاستيكي كبير. شكرتها رايكو وتمنت لها ليلة طيبة قبل أن تعود إلى المكان الذي كنت أنتظر فيه.

قالت: «انظر»، وهي تفتح الكيس.

كان يضم عنقوداً كبيراً من العنب.

«هل تحب العنب؟»

«أحبه جداً».

ناولتني الخصلة العليا منه: «يمكن أن تأكلها فهي مغسولة».

مشينا نأكل العنب ونبصق العيدان والبذور على الأرض. كانت طازجة ولذيذة.

«أعطي ابنهما دروساً في البيانو مرة كل فترة، ويقدمان لي مختلف الأشياء. الخمرة التي شربناها كانت منهما. أحياناً أطلب منهما أن يتسوقا لي من المدينة».

قلت: «أود أن أسمع بقية القصة التي رويتها لي أمس».

قالت رايكو: «جميل. لكننا إذا بقينا سنتأخر عن البيت، فقد يبدأ الشك يساور ناوكو».

«أريد أن أخاطر بذلك».

«حسناً، إذاً. أريد سقفاً. فالليلة باردة قليلاً».

استدارت يساراً حين اقتربنا من ملعب التنس. وصلنا إلى درج ضيق وخرجنا إلى حيث تقف عدة مخازن وكأنها قاطع من البيوت. فتحت رايكو باب أقربها، وخطت بضع خطوات لتشعل الأضواء. قالت: «ادخل. لا يوجد كثير يستحق أن تراه».

كان المخزن يضم صفوفاً من زلاجات الأراضي الوعرة، والجزم والسواري، وعلى الأرض تتكوم معدات إزالة الثلوج، وأكياس ملح صخري.

«تعودت أن أجيء هنا دائماً للتمرن على القيثار حين أريد أن أكون وحدي. لطيف وحميم، أليس كذلك؟»

جلست رايكو على أكياس الملح الصخري، ودعتني إلى أن أجلس بجوارها. ففعلت ما طلبت.

«لا توجد تهوية جيدة هنا، فهل تمانع إذا دخنت؟»

قلت: «لا أمانع أبداً».

قالت بعبوس: «هذه إحدى العادات التي يبدو أنني لن أتخلى عنها»،

لكنها أشعلت سيجارتها بتلذذ واضح. لا يتمتع الكثيرون بالتدخين كما تتمتع به رايكو. أكلتُ العنب، وأنا أمضغ بعناية حبة بين الحين والآخر، قاذفاً بالقشور والبذور إلى صفيحة صارت تؤدي دور سلة قمامة.

سألتُ رايكو: «والآن دعنا نرى أين وصلنا ليلة أمس؟»

«كانت ليلة ظلماء وعاصفة، وكنت تتسلقين المنحدر لتصلي إلى عش الطيور».

قالت رايكو: «أنت مذهل، تستطيع أن تروي النكات بمثل هذه الوجه الجاد. دعنا نرى، أعتقد أنني وصلت إلى النقطة التي كنت أعطي فيها الفتاة دروساً عن البيانو صباح كل سبت».

«هو ذاك».

قالت رايكو: «إذا افترضنا أنك تستطيع تقسيم الناس في العالم إلى قسمين: من يجيدون تعليم الناس، ومن لا يجيدونه، فأنا أنتمي إلى القسم الأول. لم أفكر في هذا حين كنت شابة، وأفترض أنني لم أرد أن أفكر على هذه الشاكلة، وما إن وصلت إلى عمر معين وصار لدي شيء من المعرفة الذاتية، حتى أدركت أنني على صواب: أنا جيدة في تعليم الأشياء للناس، جيدة فعلاً».

«أراهن أنك كذلك».

«لدي قدرة على الصبر على الآخرين أكثر من الصبر على نفسي، وأحسن استخراج الأفضل لدى الآخرين من الأفضل لديَّ أنا نفسي. هكذا أنا. أنا الجانب المخربش من علبة الثقاب. لكن هذا جيد بالنسبة لي. ولا أمانع على الإطلاق. أن تكون علبة ثقاب من الدرجة الأولى أفضل من أن تكون عود ثقاب من الدرجة الثانية. أستطيع القول إنني تبينت هذا في نفسي بوضوح بعد أن بدأت بتعليم هذه الفتاة. لقد درّست قبلها عدداً من الناس حين كنت شابة لكنني لم أتبين هذا في نفسي. فقط بعد أن بدأت بتعليمها، شرعت أفكر بنفسي على هذا النحو. وهكذا عرفت أنني جيدة في تدريس الناس. وبالتالي استمرت الدروس على خير وجه».

«كما قلت أمس، لم يكن لدى الفتاة أي شيء مميز من حيث الناحية الفنية. وأستطيع أن أجزم بأنها لن تصير موسيقية محترفة. أضف إلى ذلك أنها كانت فتاة من نوع فتيات المدارس اللواتي يذهبن إلى الجامعات تلقائياً بدرجات نصف مقبولة، وكان هذا يعني أنها ما كان عليها أن تقتل نفسها في الدراسة، وقد تهاونت أمها في مسألة تعليمها أيضاً. لذلك لم أدفعها لفعل أي شيء. كنت أعرف منذ أن التقيتها أول مرة أنها فتاة من النوع الذي لا يمكن دفعه لفعل أي شيء، وأنها صبية من النوع الذي يظهر كل ما لديه من حلاوة فتقول: «نعم، نعم»، لكنها ترفض رفضاً مطلقاً القيام بأي شيء لا تريد القيام به. لذلك كان أول ما فعلته هو أنني تركتها تعزف قطعة موسيقية بالطريقة التي أرادتها، أي بطريقتها الخاصة مائة بالمائة. ثم أعزف بعدها القطعة نفسها بعدة طرق، لنناقش معاً أفضل ما في الطرق. بعدها أطلب منها أن تعزف القطعة مرة أخرى، فيتحسن أداؤها عن المرة الأولى عشرات الأضعاف. فكانت تفطن إلى ما هو أفضل وتنقل هذه السمات إلى عزفها».

توقفتْ رايكو للحظة، وهي تراقب الجانب المتوهج من سيجارتها. وواصلتُ أكل العنب دون أن أنبس بكلمة.

«أعرف أن لدي حساً عالياً بالموسيقى، لكنها كانت أفضل مني. صرت أفكر بأن الأمر مضيعة للوقت! لو أنها بدأت مع معلم جيد، وتلقت التمرين المناسب، لكانت أفضل حالاً بكثير. لكني كنت مخطئة. فلم تكن صبية تصطبر على التمرين المناسب. وقد يحدث أن يوجد مثل هذا النوع من الناس. أناس موهوبون بموهبة عجيبة، لكنهم لا يبذلون جهداً لتنظيمها. ينتهون إلى تشتيتها وتضييعها. رأيت نصيبي من هؤلاء الناس. في البداية تظن أنهم مذهلون. يستطيعون قراءة نوتة قطعة بالغة الصعوبة ثم يقومون بعزفها على خير وجه. تراهم يقومون بذلك فتغمرك الهيبة. تفكر: «سحقاً، لن أستطيع ذلك بملايين السنين». لكن هذا أقصى ما يصل إليه الأمر. ولا يستطيعون المضي إلى أبعد من ذلك. لماذا لا؟

لأنهم لا يريدون بذل جهد. لم يخطر الانضباط والتعلم ببالهم. لقد أفسدوا هذه الموهبة لديهم فيكتفون بعزف الأشياء دون بذل جهد. وهناك من يقول لهم كم هم عظماء منذ وقت مبكر، لذلك يبدو بذل الجهد معهم أمراً سخيفاً. تعطيهم القطعة التي يجتهد فيها صبي آخر ثلاثة أسابيع، فيؤدونها بنصف المدة، فيتصور المعلم أنهم بذلوا فيها ما يستطيعون من جهد ويسمح لهم أن يمروا إلى القطعة التالية. ويؤدون تلك بنصف المدة أيضاً وينتقلون إلى ما بعدها. لا يعرفون ماذا يعني أن يشق عليهم المعلم: يخفقون في معرفة العنصر الحاسم الذي يتطلبه بناء الشخصية. إنها مأساة. وقد كان لدي أنا نفسي ميول من هذا النوع. لكن لحسن الحظ كان لدي معلم شديد، لذلك تلاشت هذه الميول».

«على أية حال، كان من الممتع لي أن أدرِّسها. مثل السياقة في خط سريع بسيارة رياضية ذات إمكانيات عالية تستجيب بأدنى لمسة، كانت تستجيب بسرعة بالغة. الحيلة في تدريس الأطفال كهذه الفتاة تكمن في أن تمتدحهم كثيراً. فهم متعودون على تلقّي المديح بحيث لم يعد يعني لهم شيئاً. ويجب أن تمنحه لهم بتقتير وحكمة. ولا تستطيع إكراههم على شيء. بل يجب أن تدعهم يختارون الأشياء بأنفسهم. ويجب ألا تسمح لهم بالمضي مباشرة من موضوع إلى آخر: بل تجعلهم يقفون ويفكرون. إذا قمت بهذه الأشياء، ستحصل على نتائج جيدة».

رمت رايكو عقب سيجارتها على الأرض ومسحته بحذائها. ثم التقطت نفساً عميقاً كأنما لتهدئة نفسها.

«حين ينتهي درسها، كنا نجلس لتناول الشاي والحديث. أعرض عليها بعض تسجيلات الجاز -هذا بد باول، وهذا تيلونيوس مونك. لكنها كانت تتحدث أغلب الوقت. وأية متحدثة كانت! تستطيع أن تستدر انتباهك رأساً. كما قلت أمس، أعتقد أن أكثر ما تقوله ملفق، لكنه مثير للاهتمام. كانت مستمعة ذكية، ذات لغة دقيقة، لبقة ومرحة. تستطيع أن تحرض انفعالاتك. نعم، كانت تحسن استدرار انفعالات الناس. وكانت

تعرف أن لديها هذه القدرة. ولهذا حاولت استخدامها بأذكى ما تستطيع وبأحسن ما تستطيع. تستطيع أن تجعلك تشعر بما تريده هي: الحزن أو التعاطف أو الخيبة أو السعادة. كانت تتلاعب بعواطف الناس لا لسبب إلا لكي تمتحن قدراتها. بالطبع لم أدرك هذا إلا فيما بعد. في ذلك الوقت لم تكن لدي فكرة عما كانت تفعله بي».

هزتْ رايكو رأسها وأكلتْ بعض حبات العنب.

قالت: «إنه المرض. كانت الفتاة مريضة. كانت كالتفاحة العفنة التي تفسد بقية التفاح كله. ولم يتهيأ لأحد أن يعالجها. وسيظل يلازمها هذا المرض حتى اليوم الذي تموت فيه. وبهذا المعنى، كانت مخلوقاً صغيراً حزيناً. كنت سأرثي لحالها، لو لم أكن واحدة من ضحاياها. وأتمنى لو أني رأيتها كضحية».

أكلت رايكو مزيداً من حبات العنب. كان يبدو أنها تفكر في أفضل طريقة تواصل فيها رواية قصتها.

«حسناً، على أية حال، تمتعت بتعليمها لمدة ستة أشهر. أحياناً أجد شيئاً تقوله مذهلاً قليلاً أو غريباً. أو تتحدث فيعتريني الهلع حين أدرك شدة الكراهية غير المعقولة التي تضمرها لشخص ما، أو يحدث لي أن أتصور أنها مفرطة في الذكاء، فأتساءل ما الذي تفكر فيه حقاً. لكن في النهاية لكل شخص أخطاؤه. أليس كذلك؟ ولكن ما علاقتي أنا بالتساؤل عن شخصيتها وخصالها؟ لم أكن سوى معلمة بيانو لها. كل ما كان يهمني هو أن تتمرن جيداً. وحقيقة الأمر أنني أحببتها، أحببتها كثيراً».

«مع ذلك حرصت ألا أخبرها بأي شيء شخصي عن نفسي. كانت لديَّ هذه الحاسة السادسة في أن لا أتحدث عن مثل هذه الأمور. طرحتْ عليَّ مئات الأسئلة - كانت تموت لمعرفة المزيد عني- لكني لم أخبرها إلا بأقل الأشياء ضرراً - أشياء مثل طفولتي أو أين كنت أذهب للمدرسة، أمور كهذه. قالت إنها تريد معرفة المزيد عني، لكنني أخبرتها بأني لا أملك ما أقوله: أعيش حياة مملة، لدي زوج اعتيادي، وطفلة اعتيادية،

وتلال من الأعمال المنزلية. كانت تقول: «لكني أحبك كثيراً» وتتطلع في عيني بطريقة آسرة. بثت الرعشة في جسدي حين فعلت ذلك، رعشة لذيذة. لكني لم أخبرها بأكثر مما يجب».

«وفي أحد الأيام، يوم في مايو على ما أظن، في منتصف درسها، قالت إنها تحس بالمرض. لاحظت أنها شاحبة وتتعرق فسألتها هل تريد الذهاب إلى البيت، لكنها قالت إن من الأفضل لها أن تتمدد هنا، إذا أمكن، لفترة. لذلك أخذتها، تقريباً حملتها حملاً، إلى غرفة النوم. كانت لدينا أريكة صغيرة، بالكاد يتسع فراشها لكي تتمدد عليه. اعتذرت لما سببته لي من إزعاج، لكني أكدت لها أنه ليس بالأمر المزعج وسألتها إن كانت تريد ما تشربه. قالت: لا، لا أريد سوى أن تظلي بالقرب مني، فقلت لها يسرني أن أظل بالقرب منك».

«بعد قليل طلبت مني أن أحك لها ظهرها. بدت وكأنها تعاني فعلاً، كانت متعرقة بجنون، ولذلك طفقت أمسدها تمسيداً جيداً. ثم اعتذرت وسألتني هل أمانع في أن أنزع عنها حمالة صدرها، وكأنها تضيّق عليها. وهكذا، لا أعرف كيف، نزعتها عنها. كانت ترتدي بلوزة سميكة الجلد، فكان عليَّ أن أفك أزرارها لأصل من وراء ذلك إلى حلّ تعليقة الحمالة. عندها نهدان كبيران لا تحملهما فتاة في الثالثة عشرة. أكبر مرتين من نهديّ. كانت حمالتها من النوع البناتي، لكنها غالية الثمن. بالطبع لم أكن أولي هذه الأشياء كل هذا الاهتمام حينئذ، وبحماقة خرقاء مضيت أمسد لها ظهرها. بقيت تعتذر بصوت واهن، كأنها تتأسف بالفعل، وبقيت أردد على مسمعيها: لا بأس.. لا بأس».

نفضت رايكو رماد سيجارتها على الأرض. حينئذ توقفتُ عن أكل العنب، وصرت أولي انتباهي كله لقصتها.

«بعد لحظة بدأت تنشج. سألتها: ما الأمر؟ قالت: «لا شيء» قلت: «لا، واضح أن هناك شيئاً». قالت: «أخبريني بالحقيقة. ما الذي يزعجك؟ أحياناً تعتريني هذه الحالة. لا أعرف ما أفعله. أنا وحيدة

وحزينة. ولا أستطيع الحديث مع أحد، ولا أحد يهتم بي. والوحدة مؤلمة، مؤلمة كثيراً. هذا ما يعتريني. لا أستطيع النوم ليلاً، ولا رغبة لدي في الأكل، والشيء الوحيد الذي أتطلع إليه هو المجيء هنا لأخذ الدروس منك». قلت: «تستطيعين الحديث معي. قولي لي لماذا يحدث لك هذا». قالت إن الأمور في بيتهم ليست على ما يرام. لا تستطيع أن تحب أبويها، وهما لا يحبانها. يبحث أبوها عن امرأة أخرى، وهذا ما يسبب لأمها الجنون، ثم تفرغ جنونها في ابنتها. تضربها كل يوم تقريباً وهي تكره الذهاب إلى البيت. كانت الفتاة تتألم حقاً، عيناها الجميلتان مغرورقتان في الدموع. المشهد وحده يبعث على البكاء. لذلك قلت لها إذا كان الذهاب إلى بيتهم يسبب لها كل هذا الرعب، فتستطيع أن تأتي إلى بيتي أي وقت تشاء. حين سمعت الفتاة ذلك، طوقتني بذراعيها وهي تقول: «آه، أنا آسفة، ولكن لو لم تكوني معي، لما عرفت كيف أتصرف. رجاء لا تديري ظهرك لي. إذا غيرت رأيك، فلا مكان عندي أذهب إليه».

«هكذا، لا أعرف كيف، كنت أسند رأسها إلى كتفي، وأنا أمسدها وأقول لها: اهدأي، اهدأي، وطوقتني هي بذراعيها، وبدأت تداعب ظهري. سرعان ما خالجني شعور غريب، بدأت تتقد الحرارة في جسدي كله. أعني هذه الفتاة الرائعة الجمال في أحضاني وأنا معها على السرير، متعانقتان، ويداها تداعبان ظهري بطريقة مثيرة على نحو لا يصدق حتى زوجي لم يقم بها، شعرت بارتخاء جميع البراغي في جسدي حيثما لامستني، وقبل أن أفطن، نزعت عني بلوزتي وحمالة صدري وبدأت بمداعبة نهدي. حينئذ أدركت أنها سحاقية حتى النخاع. وقد حدث لي هذا من قبل ذات مرة، مع فتاة في الصف السادس. وهكذا طلبت منها أن تتوقف».

«قالت: «آه رجاءً، لم يبق إلا القليل. أنا وحيدة جداً، وحيدة للغاية، رجاء صدقيني، أنت كل ما عندي، رجاء، لا تديري ظهرك لي».

وصارت تأخذ يدي وتضعها على صدرها -صدرها البض المكور، وأنا بالتأكيد امرأة، لكن صعقة كهربائية صارت تسري في أوصالي من هذا التماس. لم تكن لدي فكرة ماذا أفعل. بقيت فقط أردد: لا، لا، لا، كالمجنونة. لا أستطيع الحراك، كأنما أنا مشلولة. كنت قد قررت أن أدفع الفتاة بعيداً أثناء الدرس، لكني لم أعد الآن قادرة على فعل شيء. لم يعد جسدي يطيع الأوامر. كانت ترفع يدي اليمنى بيدها اليسرى وتقبل وتلحس حلمتي، ويدها اليمنى تداعب ظهري، وجانبي وأسفلي. هكذا وجدت نفسي في غرفة النوم، والستائر مرخاة، وقد عرتني فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، جردتني من ملابسي بطريقة ما، وهي تداعبني طولاً وعرضاً، وأنا أتلوى بالمتعة. حين أنظر الآن لما حدث، أجده شيئاً لا يصدق. أعني أنه جنون، ألا تعتقد ذلك؟ لكنه في ذلك الوقت كان كما لو أنها ألقت عليَّ رقية سحرية».

توقفت رايكو لتنفث سيجارتها.

قالت وهي تنظر إلي: «تعرف، هذه أول مرة أروي فيها ما حدث لرجل. وأنا أرويها لك لأنني أعتقد أنني يجب أن أرويها، لكنني في الحقيقة أجدها شيئاً مربكاً ومحيراً».

قلت: «آسف» لأنني لم أجد ما أقوله عداها.

«استمر ذلك بعض الوقت، ثم بدأت يدها اليمنى تنزل هابطة، ثم أمسكت بي من وراء الكلسون. في تلك اللحظة كنت ناقعة بالبلل على نحو مطلق. أشعر بالخجل لقول ذلك، لكني لم أتبلل مثل ذلك البلل قبله أو بعده. كنت دائماً أعتقد أنني من النوع الذي لا يبالي بالجنس، لذلك صعقت حين رأيت نفسي أتفاعل معها. هكذا دست أصابعها النحيفة، الناعمة في داخل كلسوني، و. . .تعرف، لا أستطيع أن أجد التعبير المناسب. أقصد، كانت مختلفة اختلافاً مطلقاً عن أصابع الرجل الخرقاء الغليظة. كانت تجربة مذهلة. حقاً. كالريش أو كالزغب. فكرت بأن جميع صمامات الأمان في رأسي انفجرت. ولكن في مكان ما من رأسي

المضبب، انقدحت فكرة أن عليّ إيقاف ما يجري. إذا تركتها تحدث مرة، فلن أستطيع إيقافها. وإذا اضطررت إلى اختزان سر كهذا في داخلي، فإن رأسي ستعصف به الفوضى مرة أخرى. فكرت في ابنتي، أيضاً. ماذا لو رأتني بهذه الكيفية؟ كان من المفروض أن تبقى في بيت أبوي حتى الثالثة أيام السبت، ولكن ماذا لو حدث شيء فجأة وعادت إلى البيت؟ ساعدني هذا على استجماع قوتي وإنهاض نفسي من السرير. صرخت بها: «توقفي الآن، رجاء توقفي!».

«لكنها لم تتوقف. بدلاً من التوقف، نزعت عني كلسوني وبدأت باستعمال لسانها. لا أتذكر أنني سمحت لزوجي بأن يفعل هذا، وقد وجدته شيئاً مربكاً، فتاة في الثالثة عشرة تلحسني في كل مكان. نهضت من مكاني. وأطلقت صيحة هي كل ما استجمعت قوتي لفعله. وكان ذلك فردوساً مطلقاً».

«هتفت ثانية «توقفي!» وصفعتها على جانب وجهها بكل ما لدي من قوة. توقفت أخيراً، نهضت، وتطلعت في عيني. كنا كلتانا عاريتين تماماً، على ركبتينا، في السرير، نحدق في بعضنا. كان عمرها 13 سنة، وعمري 31 سنة، لكن، لا أعرف، وأنا أنظر إلى جسدها شعرت بالقهر تماماً. ما زالت الصورة مفعمة بالعنفوان في ذهني. لا أكاد أصدق أنني كنت أنظر إلى جسد فتاة في الثالثة عشرة، وما زلت حتى الآن لا أصدق. صدقني، إذا قارنت بين جسدها وجسدي فستبكي».

لم يكن لدي ما أقوله، فلم أقل شيئاً.

«قالت لي: «ما الخطأ؟، أنت تحبين هذا، ألا تحبينه؟ كنت أعرف هذا من أول مرة رأيتك فيها. أعرف أنك تحبينه. وهو أفضل من الممارسة مع رجل، أليس كذلك؟ انظري كم أنت مبللة. أستطيع أن أمنحك مزيداً من اللذة، إذا تركتني. هذا صحيح. أستطيع أن أجعلك تشعرين بذوبان جسدك. ألا تريدينني أن أفعل ذلك؟» وكانت محقة. كانت أفضل بكثير من زوجي. بل إنني رغبت فيها أكثر!. لكني لم أستطع

السماح بذلك. قالت: «فلنفعل هذا مرة في الأسبوع. فقط مرة في الأسبوع. ولن يعرف به أحد. سيكون سرنا الصغير».

«لكني نهضت من السرير ولبست ثوبي وطلبت منها أن تغادر ولا تعود ثانية. تطلعت إليّ بعينيها. كانت عيناها مسطحتين تماماً. لم أرهما أبداً على تلك الشاكلة من قبل. كأنهما مرسومتان على ورقة مقوى. لم يكن فيهما عمق. بعد أن حدقت بي قليلاً، جمعت ملابسها دون كلمة، وصارت تلبسها بأبطأ ما تستطيع، وكأنها تقوم باستعراض، كل مرة تلبس قطعة منها. ثم عادت إلى غرفة البيانو وأخرجت فرشاة من حقيبتها. مشطت شعرها، ومسحت أحمر الشفاه عن شفتيها بمنديل، ولبست حذاءها، وغادرت. قالت وهي تخرج: «أنت سحاقية، أنت تعرفين. هذا صحيح: ربما تحاولين إخفاءه، لكنك ستبقين سحاقية حتى اليوم الذي تموتين فيه».

سألتها: «أهذا صحيح؟»

زمّت رايكو شفتيها وفكرت قليلاً: «حسناً، صحيح، وغير صحيح. بالتأكيد شعرت بالراحة معها أكثر من زوجي. هذه حقيقة لا أنكرها. ولقد قضيت وقتاً في التفكير في ذلك السؤال. ربما كنت فعلاً سحاقية لكني لم ألاحظ ذلك حتى حينئذ. أما الآن فلم أعد أعتقد ذلك. هذا لا يعني أنني ليست لدي ميول. إذ ربما تكون لدي ميول من هذا النوع. لكني لست سحاقية بالمعنى الدقيق للكلمة. لا أشعر بالرغبة أبداً حين أنظر إلى امرأة. هل تفهم ما أقصد؟»

هززت رأسي.

«مع ذلك، تستجيب لي بعض أنواع الفتيات، وأستطيع أن أحس بهذا حين يحدث. تلك هي المرات الوحيدة التي يحدث لي هذا. أستطيع أن أحمل ناوكو في أحضاني، لكني لا أشعر بأي شيء خاص. ونحن عملياً نتجول في الشقة عرايا حين يكون الجو حاراً، ونستحم معاً، وأحياناً ننام في الفراش نفسه، لكن لا يحدث شيء. لا أحس بشيء. نعم

أرى أن لديها جسداً جميلاً، ولكن هذا كل شيء. في الحقيقة، لعبنا ناوكو وأنا لعبة ذات مرة. مثلنا على أنفسنا دور سحاقيتين. هل تريد أن تسمع ذلك؟»

«بالتأكيد، أخبريني».

«حين رويت لها القصة التي رويتها لك تواً، أنت تعرف أننا لا نكتم عن بعضنا أي شيء، أرادت ناوكو أن نقوم بتجربة. تعرينا كلتانا وحاولت أن تداعبني، لكن التجربة أخفقت إخفاقاً مطلقاً. كانت مجرد دغدغة. واعتقدت أنني سأموت عندها من الضحك. مجرد التفكير في ذلك يجعلني أهرش. يا لها من خرقاء! أراهن أنك مرتاح لسماع ذلك».

«إذا أردت الحقيقة، نعم».

قالت رايكو وهي تحك بمحاذاة جفنها بطرف إصبعها الصغير: «حسناً، على أية حال، ذلك ما حدث. بعد أن تركت الفتاة بيتي، وجدت كرسياً وجلست لالتقاط أنفاسي قليلاً، وأنا أفكر في ما ينبغي فعله. كنت أستطيع سماع نبض قلبي البليد آتياً من أعماق جسدي. بدت لي ذراعاي وساقاي يزنان طناً، وشعرت بالجفاف يستبد بفمي كأنما أكلت عثة. لكني جرجرت نفسي إلى الحمام، لعلمي أن ابنتي ستعود قريباً. أردت أن أنظف تلك الأماكن التي لامستها الفتاة وهي تلحسني. فركت نفسي بالصابون، مراراً، لكني لم أستطع التخلص من الشعور بما تركته وراءها. كنت أعرف أنني ربما أتخيل ذلك، لكن هذا لم ينفع. في تلك الليلة، طلبت من زوجي أن يمارس الحب معي، تقريباً كطريقة للخلاص من التشوه. بالطبع لم أخبره بشيء، لم أستطع. كل ما قلته له إنني أريده أن يبطئ، أن يظل وقتاً أطول من المعتاد. وقد فعل. ركز على كل التفاصيل الصغيرة، واستغرق وقتاً طويلاً، طويلاً حقاً، والحقيقة أن الطريقة التي وصلت فيها للذروة تلك الليلة كانت شيئاً لم أجربه من قبل، ولا حتى مرة واحدة في حياتي الزوجية. لماذا تتصور حصل ذلك؟ لأن لمسة الفتاة كانت ما زالت لم تفارق جسدي. هذا ما كان».

«انظر، يا رجل، هذا مربك! انظر، أنا أتعرق! لا أصدق، أقول هذه الأشياء، مارس معي الحب، ووصلت!». ابتسمت رايكو، وشفتاها مطويتان. «لكن حتى هذا لم ينفع. انقضى يومان، ثلاثة، لكن لمستها لم تفارقني. وما زال صدى كلماتها الأخيرة يتردد مراراً وتكراراً في رأسي».

«لم تأت إلى بيتي يوم السبت التالي. ظل قلبي يخفق طوال النهار وأنا أنتظر، ما عساني أفعل إذا أتت. لم أستطع التركيز على شيء. لكنها لم تأت أبداً. بالطبع كانت مخلوقاً صغيراً زاهياً بنفسه، لكنها أخفقت معي في النهاية. لم تأت أيضاً في الأسبوع التالي، ولا الذي بعده، وسرعان ما مرَّ شهر بأكمله. حسمت أمري على أن أنسى ما حدث بعد مرور وقت، لكنني لم أستطع نسيانه. حين أبقى وحيدة في البيت، أشعر بحضورها وتتهيج أعصابي. لم أستطع العزف على البيانو، لم أستطع التفكير، لم أستطع فعل أي شيء خلال ذلك الشهر الأول. وفي أحد الأيام عرفت أن هناك خطأ يجري حين خرجت من البيت. كان الجيران ينظرون إليَّ بطريقة مريبة. في عيونهم مسافة جديدة. كانوا مهذبين معي في تحيتهم كالسابق، لكن في نبرات أصواتهم وسلوكهم معي شيئاً مختلفاً. جارتي الأقرب، التي تعودت أن تزورني بين الحين والآخر سابقاً، صارت تتحاشاني. مع ذلك حاولت ألا أسمح لهذه الأشياء أن تنغص عليَّ. بمجرد ملاحظة أمور كهذه، ستجد أن لديك أولى علامات المرض».

«في أحد الأيام زارتني امرأة أخرى كانت تربطني بها علاقة خاصة طيبة. كنا بالعمر نفسه، وأمها كانت صديقة لأمي، وابنتها تداوم في الروضة التي تداوم فيها ابنتي، لذلك كانت علاقتنا حميمة نوعاً ما. جاءتني وسألتني هل أعرف بالشائعة الرهيبة التي تدور حولي. سألتها: «أية شائعة؟» قالت: «شائعة شنيعة لا يقوى لساني على ذكرها». حسناً، ما دمت قد وصلت إلى هذا الحد، فيجب أن تخبريني بالبقية».

«مع ذلك أصرت على أن لا تبوح لي بشيء، لكنني في النهاية انتزعتها منها. أعني أن الغرض من مجيئها لرؤيتي كان أن تخبرني بما

سمعت، لذلك كان لا بد أن تفضي به بالنتيجة. وحسب ما ذكرت، فقد كان الناس يتهامسون بأني سحاقية محترفة، أدمنت دخول المستشفيات والخروج منها لهذا الغرض. تقوَّلوا عليَّ بأنني نزعت ملابس إحدى تلميذاتي وحاولت مراودتها، وحين تمنعت عليَّ صفعتها بقوة على وجهها بحيث تورم خدها. بالطبع، قلبوا الحكاية رأساً على عقب. وكان في هذا ما يكفي من السوء. غير أن الذي صدمني فعلاً هو أن يعرف الناس أنني دخلت المستشفى».

«قالت صديقتي إنها كانت تجادلهم بأنها تعرفني دائماً وأنني ذات أخلاق قويمة، لكن والديّ الفتاة صدقا رواية ابنتهما وكانا ينشرانها بين الجيران. بالإضافة إلى ذلك، صارا يبحثان في خلفيتي الماضية، واكتشفا أن لدي تاريخاً من المشكلات العقلية».

«الكيفية التي سمعتها صديقتي أن الفتاة عادت إلى البيت ذات يوم - وهو ذلك اليوم نفسه بالطبع- وقد تورم وجهها، وتهدلت شفتاها، ودميتا، وضاعت أزرار بلوزتها، بل تمزق حتى كلسونها. هل تصدق؟ لقد اختلقت كل هذه الأكاذيب لتعزز قصتها بالطبع، ولا بد أن أمها زادت فيها. أستطيع أن أتخيلها تقوم بذلك؛ تضع أحمر الشفاه على بلوزتها، تمزق أزرارها، تقتلع حلقات حمالة صدرها، تتباكى حتى تحمر عيناها، وتنفش شعرها، وتروي لأمها كوماً من الأكاذيب».

«لا ألوم الناس على تصديقها. لو كنت مكانهم، لصدقتها أيضاً؛ هذه الدمية الجميلة بلسان شيطان. تأتي إلى البيت باكية، ترفض الحديث لأنه مربك جداً، ثم تنفث أحقادها. بالطبع سيصدقها الناس. ومما يزيد الأمور سوءاً أن لدي فعلاً سجلاً من الاستشفاء بسبب المشكلات العقلية، ولا شك أنني صفعتها على وجهها بأقوى ما أستطيع. ولكن من سيصدقني؟ ربما زوجي وحده».

«مضت بضعة أيام وأنا أتصارع مع نفسي هل أروي له ما حدث أو لا، وحين أخبرته صدقني. أخبرته بكل ما حصل ذلك اليوم؛ الأشياء

السحاقية التي مارستها معي، الطريقة التي صفعتها بها على وجهها. بالطبع لم أخبره بما شعرت به. ما كان ينبغي أن أخبره. على أية حال، غضب كثيراً وأصر على أن يذهب فوراً إلى عائلة الفتاة. قال: «أنت امرأة متزوجة، متزوجة مني. أنت أم، ولا يمكن على الإطلاق أن تكوني سحاقية. أية نكتة هذه!».

«لكني لم أسمح له بالذهاب. كان سيجعل الأمور تسوء أكثر. كنت أعرف. أعرف أنها مريضة. لقد رأيت مئات المرضى، ولذلك أعرفهم. الفتاة متعفنة من الداخل. أزح طبقة الجلد الجميل، ولن تجد سوى العفن في الداخل. أعرف أن قول هذا أمر رهيب، لكنه صحيح. وأعرف أن الناس العاديين لن يستطيعوا معرفة حقيقتها، ولهذا لا مجال لنا لكسب القضية على الإطلاق. كانت خبيرة بالتلاعب بعواطف المراهقين حولها، ولا تتوفر لدينا الأدلة لإثبات قضيتنا. أولاً؛ من يصدق أن فتاة في الثالثة عشرة تستطيع نصب فخ شذوذ جنسي لامرأة في الثلاثينات؟ مهما قلنا، فلن يصدق الناس إلا ما يريدون تصديقه. وكلما ازددنا مكافحة، ازداد وضعنا حرجاً».

«قلت له: أمامنا حل واحد نستطيع القيام به، وهو أن ننتقل. إذا بقينا في هذا الوسط، سيعتريني التوتر؛ تتفاقم حالتي النفسية مرة أخرى. والحقيقة أنها كانت تتفاقم أصلاً. كان علينا أن نغادر المكان، ونذهب إلى مكان بعيد لا يعرفني فيه أحد. لكن زوجي لم يكن مستعداً للذهاب. لم يكن يعرف كم كانت حالتي حرجة. وكان الوقت غير مناسب؛ فقد أحب عمله، وأفلح في النهاية في جعلنا نستقر في بيتنا (كنا نعيش في مبنى مرمم)، وكانت ابنتنا مرتاحة في روضتها. قال: «انتظري لحظة. لا يمكننا أن نحزم أمتعتنا ونمضي. لا أستطيع أن أجد عملاً بهذه السهولة. يجب أن نبيع البيت، ويجب أن نجد روضة أخرى. في الأقل هذا يحتاج إلى شهرين».

«أخبرته: «إنني لا أستطيع الانتظار شهرين. في هذه الحالة سأنتهي

مرة واحدة وإلى الأبد. لا أمزح. صدقني، أنا أعرف ما أقوله». وقد بدأت الأعراض تظهر عليَّ أصلاً. كانت أذناي تطنان، وكنت أسمع أموراً، ولم أعد أقوى على النوم. لذلك اقترح أن أغادر أنا أولاً، أذهب وحدي إلى مكان ما، وسيتبعني بعد الفراغ مما يجب القيام به. قلت: «لا، لا أريد أن أذهب وحدي. سأتداعى إذا لم تكن معي. أنا أحتاج إليك. رجاءً لا تتركني وحدي». احتضنني والتمس مني أن نبقى مدة أطول قليلاً. قال: شهر واحد لا غير. سيهتم بكل شيء، يترك وظيفته، ويبيع البيت، ويرتب شأن الروضة، ويجد وظيفة جديدة. قال إنه يستطيع أن يحصل على عمل في أستراليا. أرادني أن أنتظر شهراً واحداً فقط، وسيكون كل شيء على ما يرام. ماذا كان بوسعي أن أقول؟ إذا اعترضت، فلن أحصل إلا على مزيد من العزلة».

تنهدت رايكو ونظرت إلى مصباح السقف.

«لكني لم أستطع الصبر شهراً. ذات يوم اعتراني التوتر مرة أخرى. وكان في هذه المرة سيئاً فعلاً. أخذت حبوباً منومة وفتحت أنبوبة الغاز. استيقظت على سرير المستشفى، وانتهى كل شيء. وقد استغرق الحال شهوراً حتى هدأت وبدأت أفكر، ثم طلبت الطلاق من زوجي. قلت له هذا أفضل حل لنا ولابنتنا. قال ليست لديه نية في تطليقي. قال: «نستطيع أن نبدأ من جديد. نستطيع أن نذهب إلى مكان جديد، نحن الثلاثة، ونبدأ حياتنا من جديد». قلت له: «فات الأوان. لقد انتهى كل شيء حين طلبت مني أن أنتظر شهراً. لو أردت حقاً أن تبدأ بداية جديدة، لما قلت لي ذلك. والآن، حيثما ذهبنا، وحيثما انتقلنا، سيتكرر حصول الشيء نفسه. سأطلب منك الشيء نفسه، وأجعلك تعاني. ولا أريد أن أجعلك تعاني أكثر».

«وهكذا تطلقنا. أو ربما جاز لي القول هكذا طلقته. لكنه تزوج امرأة أخرى بعد ذلك بسنتين. وما زلت مسرورة لأنني جعلته يتركني. حقاً. كنت أعرف أنني سأظل على هذه الحال بقية حياتي، ولم أرد أن أقيد معي

أحداً. لم أرد أن أُكره أحداً على العيش في خوف دائم من أن أفقد عقلي في أية لحظة».

«كان مذهلاً معي. زوجاً مثالياً، مخلصاً، قوياً، صبوراً، شخصاً يمكنني أن أضع فيه ثقتي الكاملة. قام بكل ما يستطيع لإشفائي، وقمت بكل ما أستطيع لأشفى من أجله ومن أجل ابنتنا أيضاً. ولقد تزوجنا. وقد وضعني بنسبة تسعة وتسعين بالمائة على طريق الشفاء، لكن الواحد بالمائة استمر في طريق الجنون. تداعى كل ما بنيناه هباء منثوراً. في ثانية واحدة انهار كل شيء. وتلك الفتاة هي من فعل ذلك».

جمعت رايكو أعقاب السجائر التي معستها بحذائها ودستها في صفيحة الزبالة.

«قصة رهيبة: لقد بذلنا قصارى جهدنا لنبني عالمنا حجراً حجراً، وحين تداعى انهار بتلك البساطة. انهار كل شيء قبل أن تفطن له».

نهضت على قدميها ودست يديها في جيبيها: «دعنا نذهب. تأخر الوقت».

كانت السماء مدلهمة، وغطاء الغيوم أسمك من السابق والقمر أكثر اضمحلالاً. أدركت أنني، مثل رايكو، أستطيع أن أتشمم المطر. تختلط معه رائحة العنب في الكيس الذي أحمله.

قالت: «لهذا السبب لا أستطيع مغادرة هذا المكان. إنني أخاف أن أتورط في العالم الخارجي. أخاف أن ألتقي بأناس جدد، وأشعر بمشاعر جديدة».

قلت: «أفهم. لكنني أعتقد أنك تستطيعين. تستطيعين الذهاب إلى الخارج وخوض التجربة».

ابتسمت رايكو لكنها لم تقل شيئاً.

كانت ناوكو على الأريكة مع كتاب. كانت ساقاها متقاطعتين، وقد

وضعت يديها على صدرها لكي تقرأ. بدا وكأن أصابعها تمس وتتفحص كل كلمة تدخل رأسها. بدأت قطرات متناثرة من المطر تنقر على السطح. غلفها ضوء المصباح، وهو يرفرف حولها كغبار جميل. بعد حديثي الطويل مع رايكو، شدني تألق ناوكو بطريقة جديدة.

قالت رايكو: «نأسف لتأخرنا».

رفعت ناوكو رأسها وسألت: «هل تمتعتما؟»

قالت رايكو: «بالطبع».

سألتني ناوكو: «ماذا فعلتما؟ أنتما الاثنين فقط؟»

أجبتها: «ليست لي حرية القول، أيتها الآنسة».

ضحكت ناوكو ضحكة خافتة وأزاحت كتابها. ثم أكلنا نحن الثلاثة العنب على صوت المطر.

قالت ناوكو: «حين تمطر بهذا الشكل، يشعر المرء كما لو أننا وحدنا في هذا العالم. أود أن تظلّ تمطر حتى نبقى نحن الثلاثة معاً».

قالت رايكو: «آه، بالتأكيد، وحين تنفردان ببعضكما أنتما الاثنين، يفترض أن أسليكما أو أعزف لكما الخلفية الموسيقية على قيثاري مثل لعبة الغايشا الخرساء؟ لا، شكرا!».

قالت ناوكو ضاحكة: «سأسمح به لك مرة كل فترة».

قالت رايكو: «OK. إذاً أنضم إليكما. تعال وتساقط أيها المطر».

* * *

تساقط المطر وظلّ يتساقط. وظل الرعد يهز المكان بين الحين والآخر. وحين فرغنا من العنب، عادت رايكو إلى سجائرها وسحبت القيثار من تحت السرير وبدأت بالعزف. أولاً «دي سافيندو» ثم «الفتاة من إبنيما» ثم بضع أغان للينيون ومكارتيني. احتسينا أنا ورايكو الخمر مرة أخرى، وحين نفدت اشتركنا في البراندي في قارورتي. وقد ساد مزاج

دافئ، حميم، حين قضينا الليل نحن الثلاثة نتحدث، وبدأت بالإعلان عن رغبتي مع ناوكو بأن يظل المطر يتساقط.

سألتني وهي تتطلع إليَّ: «هل ستأتي لزيارتي مرة أخرى؟»

قلت: «بالطبع سآتي».

«وهل ستكتب لي؟»

«كل أسبوع».

سألت رايكو: «وهل ستضيف بضعة سطور عني؟»

قلت: «هذا ما سأفعله. وبكلّ السرور».

في الساعة الحادية عشرة، بسطت رايكو الأريكة وأعدت السرير لي كالليلة السابقة. تمنينا ليلة طيبة لبعضنا وأطفأنا الأضواء. وحين عجزت عن النوم، أخرجت «الجبل السحري» ومصباحاً من حقيبتي وظللت أقرأ لبعض الوقت. قبل منتصف الليل بقليل، انفرج باب غرفة النوم وجاءت ناوكو لتندس إلى جواري. خلافاً لليلة السابقة، كانت ناوكو ناوكو الاعتيادية. كانت عيناها وهاجتين، وحركاتها رشيقة. همست وهي تنقل فمها بالقرب من أذني: «لا أدري، لا أستطيع النوم».

قلت: «أنا أيضاً لا أستطيع». طويت الكتاب جانباً وأطفأت المصباح، وأخذتها بين ذراعي وقبلتها. غلفتنا الظلمة وأصوات المطر المتساقط.

«ماذا عن رايكو؟»

«لا تقلق، إنها تغط في النوم، وحين تنام، تنام بعمق». ثم سألتني ناوكو: «هل فعلاً ستأتي لزيارتي مرة أخرى؟»

«بالطبع سآتي».

«حتى لو لم أستطع فعل شيء لك؟»

هززت رأسي في الظلمة. كنت أتحسس شكل نهديها إلى جانبي. مسحت أنحاء جسدها من وراء ثوبها براحة يدي. من الكتف إلى الظهر

إلى الوركين، مررت يدي عليها مراراً، مختزناً في بالي خطوط جسدها ونعومته. وبعد أن استغرقنا في هذا العناق الدافئ لفترة، لامست ناوكو بشفتيها على جبهتي وانزلقت خارج السرير. كان بمستطاعي رؤية ثوبها الأزرق الشاحب يلتمع كالسمكة في الظلمة.

«وداعاً» هتفت بصوت خفيض.

وأنا أصغي إلى المطر، انجررت إلى نوم هادئ.

كانت ما زالت تمطر في الصباح التالي، مطراً خريفياً خفيفاً تقريباً، وادعاً، على النقيض من صبيب الليلة السابقة. أنتم تعرفون أنها لم تكن تمطر إلا لرقرقة البرك وأصوات تساقط الأفاريز. نهضت لرؤية الضباب الحليبي الأبيض يطبق على النافذة، ولكن حين ارتفعت الشمس حمل النسيم الضباب بعيداً، وبدأت تظهر الغابة المجاورة والتلال.

ومثلما فعلنا في اليوم السابق، تناولنا فطورنا نحن الثلاثة وذهبنا معاً لقفص الطيور. ارتدت ناوكو ورايكو بدلتين مطريتين مع قلنسوة. ووضعت بلوزتي على رأسي لتقيني. في الخارج كان الهواء كئيباً وبارداً. كانت الطيور، أيضاً، تتحاشى المطر، وهي تربض معاً في مؤخرة القفص.

قلت لرايكو: «ألا تبرد هنا حين تمطر؟»

قالت: «كلما أمطرت ازداد البردِ قليلاً قليلاً حتى يتحوّل إلى ثلج. تقذف غيوم بحر اليابان أطناناً من الثلوج حين تمر من هنا».

«ماذا تفعلون للطيور في الشتاء؟»

«نجمعها في الداخل بالطبع. ما الذي يفترض بنا أن نفعله – نطمرهن في نبع متجمد من الثلج؟ نزيل عنهن الصقيع ونعيدهن للحياة والصياح!».

وخزت شبكة الأسلاك فخفقت الببغاء بأجنحتها وهي تصيح: «خراء»، «شكراً»، «مجنون». !

قالت ناوكو بنظرة سوداوية: «هذا ما أتمنى أن يتجمد. فعلاً أكاد أجن وأنا أسمع هذا كل صباح».

بعد تنظيف قفص الطيور، عدنا إلى الشقة. وحين كنت أحزم أمتعتي، ارتدت المرأتان ثيابهما للعمل في المزرعة. تركنا المبنى معاً وافترقنا وراء ملعب التنس مباشرة. استدرن إلى اليمين، ومضيت إلى الأمام. ودعنا بعضنا ووعدت بأن أزورهما مرة أخرى. أبدت ناوكو ابتسامة صغيرة واختفت قرب الزاوية. في طريقي إلى البوابة مررت بأناس كثيرين يلبسون جميعاً الملابس المطرية الصفراء نفسها التي كانت تلبسها ناوكو ورايكو، وجميعهم بالقلانس. كانت الألوان ساطعة بوضوح استثنائي في المطر: الأرض ترتدي حلة سوداء غامقة، وأغصان الصنوبر ساطعة الخضرة، والناس يتدثرون باللون الأصفر، فيظهرون وكأنهم أزواج من عالم آخر ليس من المسموح لها بأن تتجول على الأرض في الصباحات الممطرة. يطفون فوق سطح الأرض بصمت، وهم يحملون أدواتهم الزراعية والسلال والأكياس.

تذكّر ناظر البوابة اسمي وأشّر عليه في قائمة الزوار حين غادرت. قال الصديق القديم: «أرى أنك هنا من طوكيو. لقد ذهبت إلى هناك ذات مرة. مرة واحدة فقط. خدمات المطاعم هناك جيدة جداً».

«حقاً؟» لم أعرف كيف أجيبه.

«لم يعجبني كثيراً ما أكلته في طوكيو، لكن اللحم كان لذيذاً. أتوقع أن لديهم طريقة خاصة في طبخه».

قلت لا أعرف، وأنا أسمع هذا للمرة الأولى. «بالمناسبة متى حصل هذا، متى ذهبت إلى طوكيو؟»

قال وهو يحك رأسه: «دعنا نرى، هل كان حين تزوج صاحب السمو ولي العهد؟ كان ابني في طوكيو وقلت يجب أن أذهب لرؤية المكان مرة على الأقل. ولا بد أن ذلك حصل عام 1959».

قلت: «آه، ذلك الوقت بالتأكيد، لا بد أن المطاعم كانت مميزة في طوكيو حينئذ».

سأل: «وماذا عن هذه الأيام؟»

قلت لست متأكداً لكني لم أسمع بشيء مميز فيها. وقد بدا أن هذا خيب ظنه. أبدى إشارة للاستمرار في المناقشة، لكني أخبرته أن عليَّ أن ألحق بالحافلة وبدأت بالمشي في اتجاه الطريق. كانت بقع الضباب ما زالت تطفو فوق الممر حيث تلتف على الجدول، لكن النسيم حملها إلى سفح الجبل المجاور. كنت وأنا أمشي أتوقف بين الحين والآخر، وألتفت، وأطلق تنهيدة عميقة من دون سبب معين. شعرت وكأنني وصلت إلى كوكب تختلف فيه الجاذبية قليلاً. نعم بالطبع، قلت لنفسي، شاعراً بالحزن: لقد وصلت الآن إلى العالم الخارجي.

عدت إلى المهجع في الرابعة والنصف، وغيرت ملابسي، وغادرت نحو محل التسجيلات في شنجوكو لأداء ساعات عملي. بقيت أتولى المحل من الساعة السادسة حتى العاشرة والنصف، وبعت بعض التسجيلات، لكني في الجزء الأكبر من الوقت بقيت جالساً في دوار أتطلع إلى صنوف الناس التي لا تصدق وهي تتدفق في الخارج. كانت هناك عوائل وأزواج وسكارى ونصابون وفتيات جميلات المظهر يرتدين تنورات قصيرة وهيبيون ملتحون ونوادل بارات وأنماط من الصعب تحديدها. كلما شغلت شريطاً صارخاً، تجمع الهيبيون والصغار في الخارج ليرقصوا ويتشمموا الأصباغ والأصماغ أو يجلسون على الأرض فقط دون أن يفعلوا شيئاً على وجه التحديد، وحين أشغل توني بانيت كانوا ينفضون.

في المحل المجاور كان رجل في منتصف العمر، ذو عينين ناعستين، يبيع «ألعاب البالغين». لم أستطع أن أتخيل لماذا يريد أحد هذا النوع من الممتلكات الجنسية التي يحوزها، ولكنه يبدو أنه صاحب تجارة رائجة. في الممشى الجانبي المحاذي لمحل التسجيلات رأيت طالباً

سكران يتقيأ. وفي مبنى الألعاب المقابل عند زاوية أخرى، كان أحد الطباخين في مطعم محلي يقتل الوقت بقضاء فترة استراحته في لعبة بنغو للمراهنة على النقود. وتحت أسلاك محل مغلق هذه الليلة، جثم شاب أسمر متشرد، بلا حراك. جاءت فتاة ذات شفتين ورديتين شاحبتين لا يبدو أنها تزيد على الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وطلبت مني أن أشغل أغنية رولنغ. وحين وجدت الشريط وشغلته لها، أخذت تحرك أصابعها على الإيقاع وتهز أوراكها وهي ترقص في المحل. طلبت مني سيجارة. أعطيتها واحدة من سجائر المدير، فدخنتها بامتنان، وحين انتهى الشريط غادرت المحل دون أن تنبس حتى بكلمة «شكراً». كل ربع ساعة أو ما يقاربها، أسمع صفير سيارة إسعاف أو شرطة. اقترب ثلاثة من الإداريين سكارى، يضحكون بأعلى أصواتهم وهم يتصايحون: «طيز جميلة!» وراء فتاة جميلة، ذات شعر طويل في علبة التلفون.

كلما زادت مراقبتي، ازددت ارتباكاً. ما الذي يجري بحق الجحيم؟ تساءلت. ماذا يمكن أن يعني هذا كله؟

عاد المدير من العشاء وقال لي: «هل تعرف، واتانابي؟ في الليلة قبل الفائتة فعلتها مع فتاة البوتيك». كان قد أبقى عينيه معلقتين على فتاة تعمل في بوتيك مجاور، وبين الحين والآخر يأخذ لها شريطاً من المحل كهدية.

قلت له: «مناسبة لك» حين أخبرني بآخر التفاصيل عن غزوته. بدأ القول في غاية الرضا عن نفسه: «إذا أردت فعلاً الحصول على فتاة فتستطيع أن تجدها هنا. في البداية، تعطيها بعض الهدايا. ثم تجعلها تسكر. أعني تسكر فعلاً. ثم تفعلها معها. الأمر سهل. هل ترى ما أقصد؟»

صعدت إلى القطار الانتقالي ورأسي مختلط أكثر من السابق. عدت إلى المهجع. أرخيت الستائر، وأطفأت الأضواء، وتمددت على السرير، فشعرت كما لو أن ناوكو ستأتي وتتمدد إلى جواري في أية لحظة. وبعينين مغمضتين، كنت أشعر بتكور نهديها الناعمين يضغطان على صدري،

وأسمعها تهمس لي، وأحس بدفء جسدها بين يدي. في الظلمة عدت إلى عالمها الصغير. تشممت رائحة عشب المروج، وسمعت المطر يتساقط في الليل. تخيلتها عارية كما رأيتها في ضوء القمر، وتصورتها تنظف قفص الطيور، وتتجه نحو الخضروات بجسدها الطري الجميل المدثر بالثوب المطري الأصفر. قبضت على انتصابي، حتى وصلت إلى الذروة، وأنا أفكر في ناوكو. وقد بدا أن ذلك يصفي دماغي قليلاً، لكنه لم يساعدني على النوم. شعرت بأنني مرهق، لا طاقة لي على النوم، وترفض عيناي الإطباق.

نهضت من السرير ووقفت عند النافذة، وعيناي الهائمتان تتجولان في الخارج باتجاه سارية الراية. كانت السارية من دون الراية الوطنية المعلقة عليها تبدو مثل عظم أبيض عملاق مغروز في ظلمة الليل. ما الذي تفعله ناوكو الآن؟ تساءلت مع نفسي. بالطبع لا بد أنها تنام، تنام بعمق، متدثرة في ظلمة عالمها العجيب الصغير. وقد وجدت نفسي أتمنى لها أن تظل بمنأى عن الأحلام القاتلة.

(7)

في درس الصباح التالي، الخميس، ظللت أسبح عدة مرات في مسبح مساحته خمسون متراً. صفى التمرين النشيط رأسي وفتح شهيتي. وبعد أن تناولت غداءً مُعتبراً في مطعم طلبة معروف بتقديمه الأكل بمقادير جيدة، كنت في طريقي إلى مكتبة قسم الأدب لإكمال بحث، حين التقيت ميدوري كوباياشي. كانت معها فتاة صغيرة ذات نظارات، لكنها حين لمحتني، اقتربت مني وحدها.

سألتني: «إلى أين أنت ذاهب؟»

قلت: «إلى مكتبة الأدب».

«لماذا لا تتركها وتأتي للغداء معي؟»

«لقد تناولت غدائي تواً».

«وماذا؟ كُلْ مرّة ثانية».

قررنا أن نذهب إلى كافتريا قريبة حيث طَلَبَتْ صحناً بالكاري وشربتُ كوباً من القهوة. كانت ترتدي قميصاً أبيض طويل الأردان تحت صديرية صوفية صفراء حيكت عليها سمكة كتصميم، وقلادة ذهبية رفيعة، وساعة ديزني. يبدو أنها تمتعت بأكلة الكاري وشربت معه ثلاث زجاجات من الماء.

سألتْ ميدوري: «أين كنت؟ لا أعرف كم مرة كلمتك».

«هل كان لديك شيء تريدين الحديث عنه؟»

«لا شيء خاص. فقط كلمتك».

«أفهم».

«تفهم ماذا؟»

قلت: «لا شيء فقط أفهم. هل من نيران جديدة؟»

«كانت نكتة، أليس كذلك؟ لم تلحق ضرراً كبيراً، لكن الدخان الكثيف جعل منها ناراً حقيقية. شيئاً عظيماً». تجرعت ميدوري زجاجة ماء أخرى، وأخذت نفساً، وصارت تتفرس في وجهي لفترة. سألتني: «ما بك؟ لديك هذا الوجه المشتت. عيناك لا تركزان».

قلت: «أنا بخير. فقط عدت تواً من رحلة وأنا متعب».

«يبدو كما لو أنك رأيت شبحاً».

«أفهم».

«هل لديك محاضرات هذه الظهيرة؟»

«لغة ألمانية وأدب».

«هل يمكن أن تزحلقها؟»

«ليس الألمانية. عندي بها امتحان اليوم».

«متى تنتهي؟»

«الساعة الثانية».

«حسناً، ما رأيك باصطحابي إلى المدينة بعدها لتناول بعض المشروبات؟»

«في الثانية بعد الظهر؟»

«من باب التغيير. لم لا؟ تبدو مشتتاً. هيا، تعال معي تشرب وتتمتع بالحياة. هذا ما أريد فعله -أشرب معك وأمتع نفسي، ماذا تقول؟»

قلت بتنهيدة: «حسناً، فلنذهب. سأبحث عنك في قاعة الأدب في الساعة الثانية».

بعد الألمانية أخذنا حافلة إلى شنجوكو وذهبنا إلى بار تحت الأرض اسمه «دوغ» وراء مكتبة كينوكونيا. بدأنا نحن الاثنين بزجاجتي فودكا ومياه منشطة.

قالت: «أجيء إلى هنا مرة كل فترة. لا يجعلونك تشعر بالارتباك للشرب في الظهيرة».

«هل تشربين في الظهيرة كثيراً؟»

قالت وهي تخشخش الثلج في زجاجتها: «أحياناً. أحياناً حين يستعصي العالم على أن يعاش فيه، أجيء إلى هنا من أجل الفودكا والمياه المنشطة».

«وهل يستعصي العالم على العيش فيه؟»

قالت ميدوري: «أحياناً، يكون لدي مشكلاتي الصغيرة الخاصة».

«مثل ماذا؟»

«مثل العائلة، الأصدقاء، الدورات غير المنتظمة، أشياء من هذا القبيل».

«إذاً خذي شراباً آخر».

«سآخذ».

أشرت إلى النادل وطلبت مزيداً من الفودكا.

سألت ميدوري: «هل تتذكر كيف قبّلتني، حين جئت ذلك الأحد؟ بقيت أفكر في ذلك. كان شيئاً جميلاً. جميلاً حقاً».

«هذا جميل».

رددت بعدي: «هذا جميل. الطريقة التي تتحدث بها غريبة!».

«حقاً؟»

«على أية حال، كنت أفكر في ذلك الوقت. كنت أفكر ما كان أعظمها لو أن شاباً قبّلني للمرة الأولى في حياتي. لو كان لي الخيار في إعادة ترتيب حياتي، لكنت جعلتها قبلتي الأولى، مطلقاً. ولكنت

عشتُ بقية حياتي أفكر في أشياء مثل: أتساءل ماذا حصل لهذا الشاب المدعو واتانابي فقد أعطيته القبلة الأولى على منضدة الغسيل، ولا بد أنه الآن في الثامنة والخمسين؟ أليس هذا عظيماً؟»

قلت وأنا أمضغ حبة فستق: «نعم، فعلاً».

«والآن ماذا عنك؟ لماذا تبدو مشتتاً؟ لم تجب على سؤالي بعد».

قلت بعد قليل من التفكير: «ربما لم أتكيف مع العالم حتى الآن. لا أعرف، أشعر وكأن هذا العالم ليس بالعالم الحقيقي. الناس، المشهد: لا يبدون لي حقيقيين».

أراحت ميدوري مرفقها على البار ونظرت إليَّ: «هناك شيء من هذا النوع في أغنية جم موريسن، أنا واثقة تماماً».

«يكون الناس غرباء حين تكونين غريبة».

قالت ميدوري: «راحة البال».

قلت: «راحة البال».

قالت ميدوري وهي ما زالت مستندة إلى البار: «عليك فعلاً أن تذهب معي إلى أورغواي. الصديقة، العائلة، الجامعة، دعك من كل ذلك».

قلت ضاحكاً: «ليست بالفكرة الرديئة».

«ألا تعتقد أنه أمر رائع أن تتخلى عن كل شيء وكل شخص وتمضي إلى مكان لا تعرف فيه أحداً؟ أحياناً أشعر أني أقوم بذلك. فعلاً، فعلاً أريد القيام بذلك أحياناً. افترض مثلاً أنك طرت بي إلى مكان بعيد، بعيد، وأنجبت لك كثيراً من الأطفال الأقوياء كالعجول. ويعيش كلانا بسعادة إلى الأبد، نتدحرج على الأرض».

ضحكت وشربت قدحي الثالث من الفودكا.

قالت ميدوري: «أخمن أنك لا تريد حقاً كثيراً من الأطفال الأقوياء كالعجول».

قلت: «هذه مكيدة. أريد أن أعرف ماذا يشبهون».

قالت ميدوري وهي تأكل فستقة: «حسناً، أنت لا تريدهم. أنا هنا، آكل في الظهيرة، وأقول كل ما يخطر برأسي: «أريد أن أركل كل شيء وأجري إلى مكان ما». ماذا في الذهاب إلى أورغواي؟ ما الذي يحصلون عليه سوى الجحوش الخرائية؟»

«قد تكونين محقة».

«الجحوش الخرائية في كل مكان. هنا خراء وهناك خراء، ليس العالم سوى جحش خرائي. انظر، لا أستطيع فتح هذه، خذها أنت». ناولتني ميدوري حبة فستق. تعاركت معها حتى كسرتها وفتحتها. «لكن أية راحة غمرتنا ذلك الأحد؟ الذهاب إلى منضدة الغسيل معك، مراقبة النار، شرب البيرة، أداء الأغاني. لا أعرف كم انقضى من الوقت منذ أن غمرني هذا الإحساس الكلي بالراحة. يحاول الناس دائماً أن يفرضوا الأشياء عليّ. في اللحظة التي يرونني فيها يبدأون بإخباري بما يجب أن أفعله. على الأقل أنت لا تملي أوامرك عليّ».

«لا أعرفكِ بما يكفي لأفرض عليكِ الأوامر».

«هل تعني أنكَ لو كنت تعرفني جيداً، لفرضت عليّ الأوامر مثل كل شخص آخر؟»

قلت: «ممكن. هذه هي الطريقة التي يعيش بها الناس في العالم الواقعي. يفرضون الأوامر على بعضهم».

«لكنك لن تفرض شيئاً. أكاد أجزم. أنا خبيرة بمن يفرض ومن يُفرَضُ عليه. لستَ من هذا النوع. أستطيع أن أرتاح معك. هل لديك فكرة عن عدد الناس في العالم الذين يحبون أن يفرضوا الأشياء على الناس أو تُفرض عليهم الأشياء؟ أطنان!. ثم يحدثون الصخب: «لقد أجبرته»... «أنت أجبرتني». هذا ما يحبونه. لكنني لا أحبه. لا أقوم به إلا إذا كان ضرورياً».

«أي نوع من الأشياء تفرضينها على الناس، أو يفرضونها عليك؟»

وضعت ميدوري مكعب ثلج في فمها ومصّته لفترة.

سألت: «هل تريد أن تكون معرفة بي؟»

«نعم، نوعاً ما».

«انظر، لقد سألتك سؤالاً محدداً: «هل تريد أن تكون معرفة بي؟» أي نوع من الإجابة هذا؟»

قلت: «نعم، ميدوري، أريد أن أكون معرفة بك».

«حقاً؟»

«نعم، حقاً».

«حتى لو اضطررت إلى إدارة عينيك بعيداً عما رأيت؟»

«هل أنت بهذا السوء؟»

قالت ميدوري بتجهم: «حسناً، بطريقة ما. أريد شراباً آخر».

ناديت النادل وطلبت شراباً رابعاً. وحتى جاءوا، ظلَّت ميدوري تقبض على ذقنها بيدها ومرفقها على البار. بقيت هادئاً أصغي إلى ثيلونيوس مونك يؤدي «زهرة الرحيق». كان في المكان خمسة أو ستة زبائن آخرين، لكننا كنا الوحيدين اللذين يشربان الكحول. أضفتْ رائحة القهوة النفاذة على الداخل الكئيب جواً حميماً.

سألت ميدوري: «هل أنت حرٌّ هذا الأحد؟»

«أعتقد أنني أخبرتك من قبل، أنا حرٌّ أيام الأحد. حتى أذهب إلى العمل في السادسة».

«حسناً، إذاً، هذا الأحد، هل تتسكع معي؟»

قلت: «بالتأكيد».

«سآخذك من مهجعك صباح الأحد. لا أعرف أي وقت على وجه التحديد. هل هذا مناسب؟»

قلت: «OK. لا مشكلة».

«والآن دعني أسألك: هل لديك فكرة عما سأفعله الآن؟»

«لا أستطيع أن أتخيل».

«حسناً، أول شيء أريد أن أتمدد على سرير كبير، واسع، ناعم كالزغب. أريد أن أصل إلى ذروة الراحة والسكر، وأن لا أرى جحشاً خرائياً بالقرب مني، وأريدك أن تتمدد إلى جواري. ثم شيئاً فشيئاً، تجردني من ملابسي. بمنتهى الرقة. مثلما تعري أم طفلها الصغير. بمنتهى النعومة».

«همممم»....

«وحين أتشتت وأذوق لذة ذلك فعلاً، أدرك فجأة ما يجري فأهتف بك: توقف واتانابي!. ثم أقول: أنا فعلاً أحبك واتانابي، لكني ألتقي شخصاً آخر. لا أستطيع أن أفعل هذا. وأنا ملتزمة جداً بهذه الأشياء، صدق أو لا تصدق، لذلك رجاءً توقف. لكنك لا تتوقف».

قلت: «لكني يجب أن أتوقف».

قالت ميدوري: «أعرف هذا. لا عليك، هذه أوهامي. ثم تريني إياه. شيئك. منتصباً تماماً. بالطبع أغطي عيني فوراً، لكني لا أقوى على رؤيته ثانية واحدة. وأقول: توقف! لا تفعل ذلك! لا أريد شيئاً قوياً وصلباً إلى هذا الحد!».

«ليس كبيراً جداً. إنه عادي تماماً».

«لا عليك، هذه أخيلتي. وهكذا تلبس هذا الوجه الحزين حقاً، فأشعر بالأسف من أجلك وأحاول أن أريحك. تعال أيها الشيء البائس».

«هل تخبرينني بما تريدين فعله الآن؟»

«هو ذاك».

«يا للفتى!».

تركنا البار بعد خمس جولات من الفودكا. وحين حاولت أن أدفع، ضربت ميدوري يدي ودفعت ورقة بقيمة 10,000 أخرجتها من محفظتها.

قالت: «لا بأس. تعودت أن أدفع، وأنا التي دعوتك. بالطبع ما لم تكن فاشياً محترفاً وترفض أن تدفع عنك امرأة شرابك...».

«لا، لا، لست هكذا».

«وأنا لن أسمح لك بهذا أيضاً».

قلت: «لأنه كبير جداً وصلب».

قالت ميدوري: «صحيح، لأنه كبير جداً وصلب».

ترنحت ميدوري سكرانة قليلاً، وكدنا نسقط على وجوهنا أسفل السلالم. تبددت طبقة الغيم التي أطبقت السماء، وصبت شمس آخر الظهيرة ضوءها الناعم على شوارع المدينة. ظللنا نتجول أنا وميدوري لفترة. قالت إنها تريد أن تتسلق شجرة، لكن لسوء الحظ لم تكن في شنجوكو أشجار قابلة للتسلق، وحدائق شنجوكو الإمبراطورية مغلقة.

قالت ميدوري: «سيئ جداً. أحب تسلق الأشجار».

واصلنا المشي واستعراض واجهات المحلات، وسرعان ما بدا لي مشهد الشوارع أكثر واقعية مما كان سابقاً.

قلت: «أنا سعيد لكوني جئت معك. أعتقد أنني بدأت أصير أكثر تكيفاً قليلاً مع العالم الآن».

توقفت ميدوري ونظرت إليّ ملياً. قالت: «هذا صحيح. عيناك الآن أكثر تركيزاً من ذي قبل. أترى؟ التسكع معي يجعلك جيداً».

قلت: «لا شك في ذلك».

عند الخامسة والنصف قالت ميدوري إنها يجب أن تذهب إلى البيت وتعد العشاء. قلت إنني أريد أخذ الحافلة لأعود إلى المهجع، ولكني سأرافقها حتى المحطة.

قالت ميدوري وهي تغادر: «أتعرف ما أريد أن أفعله الآن؟»

قلت: «على الإطلاق ليست لدي فكرة عما يمكن أن تفكري فيه».

«أريد أن يقبض القراصنة عليَّ وعليك. ثم يجردوننا من ثيابنا، يوقفوننا وجهاً لوجه عراة تماماً ويلفون الحبال حولنا».

«لماذا يقومون بشيء كهذا؟»

قالت: «قراصنة منحرفون».

قلت: «أنت المنحرفة».

«ثم يضعوننا في السجن ويقولون: بعد ساعة واحدة سنرميكم في البحر، ولذلك تمتعوا بوقتكم حتى ذلك الحين...».

«ثم...؟».

«ثم نمتع أنفسنا تلك الساعة، نتدحرج على المكان، وأجسادنا تتلوى».

«وهذا ما تريدين فعله الآن؟»

«هو ذاك».

«يا للفتى!»، قلت وأنا أهز رأسي.

جاءتني ميدوري في الساعة التاسعة والنصف صباح الأحد. كنت قد استيقظت تواً ولم أغسل وجهي بعد. طرق أحدهم على بابي وهتف: «انهض واتانابي، هناك امرأة!». نزلت إلى قاعة الاستقبال لأجد ميدوري جالسة وساقاها متقاطعتان وهي تلبس تنورة قطنية قصيرة بشكل لا يصدق، وكانت تتثاءب. كان كل طالب يمر في طريقه إلى الفطور يبطئ الخطى ليحدق في ساقيها الطويلتين، الناحلتين. كان لديها فعلاً ساقان جميلتان.

سألتُ: «هل بكرت بالمجيء؟ أراهن أنك نهضت الآن».

«هل تعطينني ربع ساعة؟ أغسل وجهي وأحلق».

«لا أمانع من الانتظار، لكن جميع هؤلاء الفتيان يحدقون في ساقي».

«ماذا تتوقعين، تدخلين مهجع رجال بتنورة قصيرة كهذه؟ بالطبع سيحدقون».

«حسناً، إنها على ما يرام. أنا أرتدي اليوم كلسوناً جذاباً فعلاً، أحمر ومزغباً ومخرماً».

قلت بتنهيدة: «هذا يجعل الأمور أسوأ». عدت إلى غرفتي وغسلت وحلقت بأسرع ما أستطيع، ولبست قميصاً أزرق ومعطفاً رياضياً رمادياً، ونزلت لأختطف ميدوري من بوابة المهجع. انتابني تعرق بارد.

قالت ميدوري وهي تتطلع إلى مباني المهجع: «أخبرني واتانابي، هل كل هؤلاء الفتيان يمارسون الخضخضة في الداخل؟»

قلت: «ربما».

«هل يفكر الفتيان في الفتيات أثناء ذلك؟»

«أفترض ذلك. وأشك في أن أحداً يفكر في معدلات الأسواق أو تصريفات الأفعال أو قناة السويس حين يخضخض. أنا واثق أن أي فتى يفكر في فتاة».

«قناة السويس؟»

«على سبيل المثال».

«إذاً أفترض أنك تفكر في فتيات محددات، أليس كذلك؟»

قلت: «ألا يجب أن تسألي صديقك عن هذا؟ لماذا يجب أن أشرح لك شيئاً من هذا القبيل في صباح الأحد؟»

قالت: «أنا فضولية. بالإضافة إلى ذلك فهو يغضب إذا سألته سؤالاً من هذا القبيل. يقول إن البنات يفترض أن لا يسألن هذه الأسئلة».

«هذه وجهة نظر سوية تماماً».

«لكني أريد أن أعرف. المسألة فضول خالص. هل يفكر الفتيان في فتيات معينات حين يخضخضون؟»

توقفت عن محاولة تحاشي السؤال: «حسناً، أنا في الأقل أفكر. ولا أعرف فيما يخص الآخرين».

«هل سبق لك أن فكرت فيَّ وأنت تفعل هذا؟ قل لي الحقيقة. ولن أغضب».

أجبت بنزاهة: «لا، لم يسبق لي. إذا شئت الحقيقة».

«لم لا؟ ألست جذابة بما يكفي؟»

«لا، أنت جذابة تماماً. جميلة، والملابس المغرية تبدو رائعة عليك».

«إذاً لماذا لا تفكر فيَّ؟»

«حسناً، أولاً، أفكر فيك كصديقة، ولذلك لا أريد أن أشركك في أخيلتي الجنسية، وثانياً. . .».

«لديك واحدة أخرى يفترض أن تفكر فيها».

قلت: «هذا واقع الحال».

قالت ميدوري: «لديك عادات مهذبة حتى بهذا الخصوص. وهذا ما أحبه فيك. مع ذلك ألا تستطيع أن تسمح لي بمجرد ظهور سريع؟ أريد أن أكون في إحدى أخيلتك أو أحلام يقظتك الجنسية أو ما شئت أن تسميها. أنا أطلب منك هذا، لأننا أصدقاء. من سواك أستطيع أن أطلب منه شيئاً كهذا؟ لا أستطيع أن أتسكع وأطلب من شخص أقابله في الشارع: حين تخضخض الليلة، هل لك رجاء أن تفكر فيَّ لثانية؟ ولأنني أفكر فيك كصديق فأنا أطلب منك هذا. وأريد أن تقول لي فيما بعد كيف جرى الأمر معك. أنت تعرف، ما فعلت وأشياء من هذا القبيل».

أطلقت تنهيدة.

«لكن لا تستطيع تجاهل هذا. فنحن أصدقاء، صحيح؟ وما دمت لا تتجاهله، فتستطيع أن تفعل ما تشاء، وتفكر في كل ما تشاء».

قلت: «لا أعرف. لم أفعلها مع كل هذه التقييدات من قبل».

«هل ستفكر فيَّ؟»

«حسناً، سأفكر فيك».

«أنت تعرف، واتانابي، لا أريدك أن تكوّن عني انطباعاً مغلوطاً - بأنني مغتلمة أو محبطة أو متضايقة أو ما أشبه. أنا فقط مهتمة بهذا الشيء. وأريد أن أعرف عنه. لقد نشأت في بيئة لا يحيط بها سوى الفتيات في مدرسة فتيات، أنت تعرف هذا. أريد أن أستكشف كيف يفكر الفتيان وكيف تتلاقى أجسادهم. ليس على الطائر كما في المجلات النسوية، بل في دراسة ميدانية فعلية».

غمغمت: «دراسة ميدانية؟»

«لكن صديقي لا يحبذ لي أن أريد معرفة الأشياء أو أحاول أن أجربها. يغضب، ويسميني مغتلمة أو مجنونة. بل لا يريد مني حتى أن أقوم بالمص. والحال فإن هذا شيء أموت في دراسته».

«أوهوه».

«هل تكره أن يقوم أحد بمصمصتك؟»

«لا، في الواقع، لا أكره ذلك».

«هل تود القول إنك تحبها؟»

«نعم، بوسعي. لكن هل يمكن تأجيل الكلام عن هذا إلى المرة القادمة؟ نحن اليوم في صباح أحد لطيف حقاً، ولا أريد أن أدمره بالحديث عن الخضخضة والمصمصة. فلنتحدث عن شيء آخر. هل صديقك معنا في جامعتنا؟»

«لا، يذهب إلى جامعة أخرى بالطبع. التقينا في المدرسة في أثناء فعالية أحد النوادي. كنت في مدرسة الفتيات، وكان في مدرسة الأولاد، وأنت تعرف كيف يقومون بهذه الأشياء معزوفات مشتركة وما أشبه. لكننا أخذنا الأمر جدياً بعد امتحاناتنا. هيا واتانابي».

«ماذا؟»

«يجب أن تقوم به مرة واحدة. فقط فكر فيَّ، OK؟»

«OK، سأحاول، في المرة القادمة» قلت وأنا أبصق في المنشفة.

أخذنا القطار الانتقالي إلى أوتشانوميزو. وحين وصلنا إلى شنجوكو اشتريت فطيرة صغيرة من أحد المواقف في المحطة للتعويض عن الفطور الذي لم أتناوله. وقد بدا لي طعم القهوة التي شربتها معها كأنما حبر رسام حقيقي. كانت قطارات صباح الأحد تضج بأزواج وعوائل خارجين للنزهة. كانت مجموعة من الأولاد تحمل مضارب بيسبول وترتدي ملابس رياضية موحدة تتقافز في داخل القاطرة. ترتدي فتيات كثيرات على القطار تنانير قصيرة، لكن أياً منهن لم تكن بقصر تنورة ميدوري. ومنذ أن صعدنا، وميدوري محط أنظار الركاب. صار أحد الرجال يحدق في فخذيها، مما أشعرني بعدم الراحة. ولكن لم يظهر عليها أنها تمانع.

همست ونحن في القطار: «هل تعرف ما أريد أن أفعله الآن؟»

قلت: «لا فكرة عندي. لكن رجاء لا تتحدثي عن تلك الأمور هنا. سيسمعك أحدهم».

«سيئ جداً. هذا نوع من التوحش» قالت ميدوري بخيبة واضحة.

«على أية حال، لماذا نحن ذاهبان إلى أوتشانوميزو؟»

«فقط تعال، وسترى».

مع حشود المدارس الغفيرة حول محطة أوتشانوميزو، كانت المنطقة في الأحد ملأى بصبيان المدارس في طريقهم إلى محاضراتهم أو امتحاناتهم. مخرت ميدوري عباب الزحام وهي تمسك بشريط حقيبتها الكتافية بيد وبي باليد الأخرى.

ودون سابقة، سألتني: «هيا، واتانابي، هل تستطيع أن تفسر لي الفرق بين الصيغة الشرطية في المضارع والصيغة الشرطية في الماضي في اللغة الإنجليزية؟»

قلت: «أظنني أستطيع».

«دعني أسألك إذاً ما الفائدة الممكنة من شيء كهذا في الحياة اليومية؟»

قلت: «لا فائدة على الإطلاق. ربما لا تخدم أي غرض ملموس، لكنها تقدم بالتأكيد نوعاً من التمرين في المساعدة على تصنيف الأشياء بشكل أكثر نسقية عموماً».

فكرت ميدوري جدياً في ما قلته للحظة. قالت: «أنت مذهل. لم يخطر على بالي هذا من قبل أبداً. كنت دائماً أفكر في أشياء مثل الصيغة الشرطية والحساب التفاضلي والرموز الكيمياوية باعتبارها عديمة الجدوى تماماً. مجرد وجع راس. ولهذا كنت دائماً أتجاهلها. والآن عليّ أن أتساءل ما إذا كانت حياتي كلها خطأً».

«تجاهلتها؟»

«نعم، بالنسبة إليّ كأنها لم توجد. ليست لدي أدنى فكرة ماذا تعني كلمة (جيب الزاوية sine) أو (جيب التمام cosine)».

«شيء لا يصدق.! كيف نجحت في امتحاناتك إذاً؟ كيف وصلت إلى الجامعة؟»

قالت ميدوري: «لا تكن سخيفاً. لست بحاجة إلى معرفة كل شيء للنجاح في امتحانات الدخول إلى الجامعة! كل ما تحتاج إليه هو قليل من الحدس، ولدي حدس كبير. «اختر الإجابة المناسبة من الأجوبة الثلاث التالية». مباشرة أعرف ما هي الإجابة الصحيحة».

«حدسي ليس جيداً كحدسك، لذلك يجب أن أكون نسقياً إلى حد ما. كالعقعق الذي يجمع كسر الزجاج في شجرة جوفاء».

«هل يخدم ذلك غرضاً معيناً؟»

«أتساءل. ربما كان يجعل من بعض الأشياء أيسر».

«أي نوع من الأشياء؟ أعطني مثالاً».

«مثل التفكير الميتافيزيقي. التمكن من عدة لغات».

«أي نفع يؤديه هذا؟»

«يعتمد ذلك على الشخص الذي يقوم به. فهو يخدم غرضاً لدى بعضهم، ولا يخدم عند آخرين. لكنه يظل في الأساس تمريناً. أما قضية كونه يخدم غرضاً معيناً أو لا فهي مسألة أخرى. كما قلت».

قالت ميدوري: «هممم» وكأنها متأثرة. قادتني من يدي إلى أسفل التل. «تعرف، واتانابي، أنت فعلاً رائع في إيضاح الأشياء للآخرين».

قلت: «حقاً؟»

«هذا صحيح. لقد سألت مئات الأشخاص عن فائدة الصيغة الشرطية في اللغة الإنجليزية، ولم يعطني أحد جواباً واضحاً معقولاً مثل جوابك. حتى ولا مدرسو اللغة الإنجليزية. إما أن يرتبكوا أو يغضبوا أو يستخفوا بالسؤال. لم يعطني أحد جواباً محترماً. لو أن شخصاً مثلك كان قريباً مني حين سألت هذا السؤال، وأعطاني تفسيراً مناسباً، ربما لكنت قد اهتممت بالصيغة الشرطية. اللعنة!».

قلت: «هكذا».

«هل سبق لك أن قرأت كتاب (رأس المال)؟»

«نعم، ليس كله بالطبع، بل أجزاء منه، كأكثر الناس».

«وهل فهمته؟»

«فهمت فقرات منه، ولم أفهم فقرات أخرى. يجب أن تكتسبي الجهاز الفكري اللازم لقراءة كتاب مثل (رأس المال). لكني أفهم الفكرة العامة للماركسية، على ما أعتقد».

«هل تعتقد أن طالباً في السنة الأولى لم يقرأ كتباً من هذا النوع من قبل يمكنه فهم (رأس المال) بمجرد قراءته؟»

«أظن أن هذا شبه مستحيل».

«أنت تعرف، حين التحقت بالجامعة، أردت الانضمام إلى نادي

موسيقى قومية. أردت أن أغني الأغاني. لكن أعضاء النادي كانوا حفنة من المحتالين. تصيبني البثور بمجرد التفكير فيهم. أول شيء يقولونه لك حين تدخل النادي هو أن عليك أن تقرأ ماركس. «اقرأ من الصفحة الفلانية إلى الصفحة العلانية في المرة القادمة». يلقي أحدهم محاضرة عن الكيفية التي تلتزم فيها الأغاني القومية بعمق بالمجتمع والحركة الثورية. هكذا عدت، بحق الجحيم، إلى البيت وحاولت بذل وسعي في قراءته، لكني لم أفهم شيئاً. كان أسوأ من الصيغة الشرطية. توقفت بعد ثلاث صفحات. ثم ذهبت إلى لقاء الأسبوع التالي، مثل عضو صغير طيب في الكشافة، وقلت لقد قرأته، لكني لم أستطع فهمه. ومنذ ذلك الحين فصاعداً صاروا يعاملونني كبلهاء. قالوا ليس لدي وعي نقدي بالصراع الطبقي، فأنا كسيحة اجتماعياً. أعني أن هذا كان جدياً. كل هذا لأنني قلت إنني لا أفهم قطعة من كتاب. ألا تعتقد أنهم كانوا فظيعين؟»

قلت: «لا شك».

«وكانت ما تسمى مناقشاتهم فظيعة أيضاً. يستطيع كل شخص أن يستعمل الكلمات الكبيرة ويزعم أنه يفهم ما يجري حوله. لكني كنت أطرح الأسئلة حين لا أفهم شيئاً. «ما هو معنى الاستغلال الإمبريالي الذي تتحدث عنه؟» «هل يرتبط نوعاً ما بشركة الهند الشرقية؟» «هل يعني سحق المركب التربوي - الصناعي أننا يجب ألا نعمل في شركة بعد التخرج؟» وأشياء من هذا القبيل. لكن لم يرد أحد أن يشرح لي أي شيء. بل بالعكس صاروا يغضبون فعلاً. هل تصدق ذلك؟»

قلت: «نعم، أصدق».

«أحدهم صرخ بي: «أنت أيتها القحبة البلهاء، كيف تعيشين هكذا فارغة الدماغ؟». هكذا انتهى الأمر. لم أعد أقوى على التحمل. لا بأس، لست ذكية إلى هذا الحد. أنا من الطبقة العاملة. لكن الطبقة العاملة هي التي تبقي العالم يجري، والطبقة العاملة هي التي يقع عليها الاستغلال. أية ثورة هي التي ترمي بالكلمات الكبيرة عن أن أناس الطبقة العاملة لا

يحسنون الفهم؟ أية ثورة اجتماعية قميئة تلك؟ أعني أنا أيضاً أود أن أجعل العالم مكاناً أفضل. وإذا تعرض أحد للاستغلال حقاً، فيجب أن نعمل على إيقاف هذا الاستغلال. هذا ما أعتقده ولهذا أسأل الأسئلة. فهل أنا محقة، أم ماذا؟»

«أنت محقة».

«هذا ما آذاني. هؤلاء الفتيان مزيفون. كل ما يدور في أذهانهم هو إثارة إعجاب الفتيات الجديدات بالكلمات الكبيرة التي يتباهون بها، وهم يدسون أيديهم في تنانيرهن. وحين يتخرجون، يسلكون أقصر الطرق للعمل في شركات مثل متسوبيشي أو آي بي أم أو بنك فوجي. يتزوجون زوجات جميلات لم يقرأن ماركس أبداً، وينجبون صغاراً يعطونهم أسماء جديدة خيالية تدفعك للتقيؤ. سحق أي مركب تربوي - صناعي؟ لا تثر ضحكي!. ولا يقل الأعضاء الجدد عنهم سوءاً. هم أيضاً لا يفهمون شيئاً، لكنهم يتظاهرون بالفهم ويضحكون مني. بعد الاجتماع قالوا لي: «لا تكوني سخيفة، ماذا إذا لم تفهمي؟ فقط وافقي على كل ما يقولون». والحقيقة أنني لقيت، واتانابي، ما أثار جنوني أكثر من هذا؟ هل تريد أن تسمعه؟»

«بالتأكيد، لم لا؟»

«حسناً، في إحدى المرات دعوا إلى اجتماع سياسي في أواخر المساء، وطلبوا من كل فتاة أن تعد عشرين كرة رز للوجبة الليلية. أعني الحديث عن التمييز الجنسي! قررت أن أبقى هادئة من باب التغيير، وتظاهرت بأنني فتاة طيبة فأعددت عشرين كرة رز، كاملة بالأمبوشي في الداخل، والنوري في الخارج. فماذا تتصور حصلت بعد هذا الجهد؟ بعدها تشكى هؤلاء أن كرات الرز التي جلبتها لم تحتو على غير الأمبوشي في الداخل، ولم أضع معها أي شيء آخر. بقية الفتيات حشونه بالسمك والسلمون، وضمنوها شرائح سميكة من البيض المقلي. استبد بي الغضب ولم أتحدث. من يتصور بحق الجحيم أن تجّار «الثورة» هؤلاء

سيثيرون كل هذه الجلبة من أجل كرات الرز؟ يجب أن يمتنوا للأمبوشي والنوري. فكروا في الأطفال الذين يتضورون جوعاً في الهند!».

ضحكت: «وماذا حصل لك مع النادي؟»

قالت ميدوري: «تركته في يونيو، لأنني كنت غاضبة جداً. أغلب هؤلاء الطلبة محتالون. وهم يخافون حتى الموت أن يكتشف أحد أنهم لا يعرفون شيئاً. هم جميعاً يقرأون الكتب نفسها، ويحبون الاستماع إلى جون كولترن ورؤية أفلام بازوليني. هل تسمي هذه «ثورة»؟»

«لا تسأليني، في الحقيقة لم أر ثورة أبداً».

«حسناً، لو كانت هذه ثورة، فتستطيع تحمّلها. ربما فكروا في إعدامي لأنني وضعت الأمبوشي في كرات الرز. وربما يعدمونك أيضاً، لأنك تفهم الصيغة الشرطية».

«يمكن».

«صدقني، أنا أعرف ما أتحدث عنه. أنا من الطبقة العاملة. بثورة أو بدونها، ستبقى الطبقة العاملة تكدح شظف العيش في الوحل القديم نفسه. وما هي الثورة؟ بالتأكيد ليست أن تغير اسم قاعة المدينة. لكن هؤلاء الفتيان لا يعرفون هذا - الفتيان ذوو الكلمات الكبيرة. أخبرني، واتانابي، هل سبق لك أن رأيت محصل الضرائب؟»

«أبداً».

«أنا رأيته. عدة مرات. يأتون يساومون ويمثلون كثيراً: «ماذا في هذا الدفتر؟» «مدوناتك متسخة جداً» «هل تسمي هذا تكاليف عمل؟» «أريد أن أرى جميع الإيصالات الآن». بينما ننحشر نحن في الزاوية، وحين يحل الغداء يجب أن نقدم لهم أرقى صنوف السوشي المعد منزلياً. مع ذلك، دعني أخبرك بشيء، لم يغش أبي أبداً مرة واحدة في ضرائبه. هكذا كان، رجلاً من الطراز القديم مستقيماً استقامة السهم. لكن تعال أقنع محصل الضرائب بهذا. كل ما يفعله هو أن يحفر ويحفر ويحفر ويحفر. «ألا

تعتقد أن الدخل منخفض هنا قليلاً؟» حسناً، بالطبع ينخفض الدخل حين لا تتمكن من جمع المال! أردت أن أصرخ به: «اذهب قم بهذا مع من جمعوا الأموال!». هل تعتقد أن موقف محصل الضرائب سيتغير لو كانت هناك ثورة؟»

«أمر مشكوك فيه إلى حد بعيد، مشكوك فيه جداً».

«إذاً لا جدوى. لن أؤمن بأية ثورة لعينة. لن أؤمن بغير الحب».

قلت: «راحة البال».

قالت ميدوري: «راحة البال».

سألتها: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

قالت: «إلى المستشفى. أبي هناك. وهذا دوري للبقاء معه طوال النهار».

«أبوك؟ تصورت أنه في أورغواي!».

قالت ميدوري بنبرة واقعية: «كانت تلك كذبة. ظل يتصايح بأنه سيسافر إلى أورغواي دائماً، لكنه لم يتمكن من ذلك أبداً. بالكاد يستطيع الخروج من طوكيو».

سألتها: «هل وضعه حرج؟»

قالت: «ليست سوى مسألة وقت».

تمشينا في صمت.

«أعرف ما أتحدث عنه. انتابه ما انتاب أمي. ورم في الدماغ. هل تصدق؟ لم تكد تنقضي سنتان على موت أمي بورم في الدماغ، حتى أصابه».

كانت أروقة المستشفى الجامعي صاخبة ومزدحمة تغص بزوار نهاية الأسبوع والمرضى ذوي الأعراض الأقل خطراً، وفي كل مكان تضوع رائحة المستشفى الخاصة التي هي مزيج من مطهرات المستشفى وروائح

الزائرين، والأبوال والأفرشة، بينما تهرع الممرضات جيئة وذهاباً بكعوب تقعقع قعقعة جافة.

كان والد ميدوري في غرفة شبه خاصة على السرير الأقرب إلى الباب. بدا، وهو ممدد على السرير، كمخلوق صغير ألمَّ به جرح مميت. يضطجع على جانبه ذاوياً، وقد انغرزت في ذراعه اليسرى التي تقطر إبرة وريدية. كان رجلاً ضئيل الجسم نحيفاً، يعطي الانطباع بأنه يزداد باستمرار ضآلة ونحافة. لُفَّ على رأسه رباط أبيض، وقد تبقعت ذراعاه البيضاوان الشاحبتان بالثقوب التي أحدثها حقن الإبر الوريدية. كانت عيناه نصف المفتوحتين تحدقان في نقطة ثابتة في الفضاء، كرتين محتقنتين انتفضتا في اتجاهنا حين دخلنا الغرفة. لثانيتين بقيتا مركزتين علينا، ثم ارتدّتا إلى تلك النقطة الثابتة في الفضاء.

حين ترى تلكما العينين تعلم أن صاحبهما سيموت سريعاً. لا علامة على الحياة في جسده، سوى أثر خابٍ لما كان ذات مرة حياة. كان جسده أشبه ببيت قديم متداعٍ أزيلت دعائمه ومسانده، ولا ينتظر سوى انهياره نهائياً. حول شفتيه الجافتين نبتت شعيرات متناثرة كالأعشاب. مما جعلني أفكر بأن لحية الإنسان تظل تنمو حتى بعد أن يفقد قوته على الحياة.

سلمت ميدوري على رجل سمين يتمدد على السرير المجاور للنافذة. هز رأسه وابتسم، ومن الواضح أنه غير قادر على الكلام. سعل عدة مرات، وبعد أن ارتشف بعض الماء من زجاجة إلى جوار وسادته، استدار على جانبه، لينصرف بنظره خارج النافذة. ووراء النافذة لا يوجد ما يُرى سوى سارية وبعض أعمدة الكهرباء، لا غير، حتى ولا غيمة في السماء.

«كيف تشعر يا أبي؟» قالت ميدوري وهي تتحدث في أذن أبيها وكأنها تفحص مكبر صوت. «كيف حالك اليوم؟»

حرك أبوها شفتيه. «لست بخير» قال، دون أن يقوى على إطلاق

الكلمات، كأنما يشكلها من الهواء المجفف في مؤخرة حنجرته. قال: «رأسي».

سألته ميدوري: «هل لديك صداع؟»

«نعم» قال، وواضح أنه لا يقوى على نطق أكثر من مقطع أو مقطعين في كل مرة.

قالت: «لا عجب، لقد فتحوا رأسك. بالطبع يؤلم. أمر سيئ، ولكن تشجع. هذا صديقي واتانابي».

قلت: «تسرني مقابلتك». فتح والد ميدوري شفتيه إلى النصف، ثم أغلقهما ثانية.

أشارت ميدوري إلى مقعد بلاستيكي قرب حافة السرير واقترحت أن أجلس عليه. فعلتُ ما طلبتْ مني. أعطت ميدوري أباها شربة ماء وسألته إذا كان يرغب في شيء من الفاكهة أو العصير. قال: «لا»، وحين أصرت ميدوري على أن يتناول شيئاً، قال: «أكلت».

تنتصب قنينة ماء وقدح وطبق وساعة صغيرة على الطاولة بالقرب من رأس السرير. أخرجت ميدوري، من كيس ورقي كبير تحت الطاولة، بيجامة جديدة ولباساً وأشياء أخرى، سوتهم ووضعتهم في اللوكر إلى جوار الباب. كان هناك أكل للمريض في قعر الكيس؛ عنقودا عنب، وعصير فاكهة، وثلاث خيارات.

تساءلت ميدوري: «خيار؟ من جلب هذه الأشياء؟ لا أستطيع أن أتخيل كيف تفكر أختي. قلت لها بالتلفون ما أريد منها أن تشتريه بالضبط، وأنا متأكدة أنني لم أذكر الخيار! كان يجب أن تجلب الكيوي».

قلت: «لعلها أساءت فهمك».

«نعم، ربما. لكنها لو فكرت لأدركت أن الخيار ليس بذي نفع. أعني ما الذي يجب أن يفعله المريض؟ يجلس في السرير ليقضم الخيار الطازج؟ ما تقول أبي؟ هل تريد خيارة؟»

قال أبو ميدوري: «لا».

جلست ميدوري إلى رأس السرير، وشرعت تروي لأبيها نتفاً من أنباء البيت. تغبشت صورة التلفزيون فكلمت المصلح، عمتهم في تاكايدو ستزورهم خلال بضعة أيام، الصيدلي، السيد مياواكي، سقط عن دراجته، وأشياء من هذا القبيل. أجاب أبوها بغمغمات.

«هل أنت متأكد أنك لا تريد شيئاً؟»

أجاب أبوها: «لا».

«وماذا عنك، واتانابي، هل تريد عنباً؟»

أجبت: «لا».

بعد دقائق، أخذتني ميدوري إلى غرفة التلفزيون ودخنت سيجارة على الأريكة. ثلاثة من المرضى يلبسون البيجامات كانوا يدخنون أيضاً ويراقبون برنامجاً عن مناقشة سياسية من نوع ما.

همست ميدوري بحركة من عينيها: «ذلك الرجل المسن ذو العكاز يتطلع إلى ساقي منذ أن دخلنا. من يلبس نظارات وبيجامة صفراء».

«ماذا تتوقعين، حين تلبسين تنورة كهذه؟»

«مع ذلك فهي جميلة. أراهن أنهم جميعاً مستفزون. ربما تساعدهم على التحسن. ربما تفيدهم الاستثارة بتعجيل تحسنهم».

«بقدر ما لا يكون لها تأثير مضاد».

حدقت ميدوري بالدخان الذي يتصاعد من سيجارتها.

قالت: «أنت تعرف، أبي لم يكن رجلاً بذلك السوء. قد أغضب أحياناً لأنه يقول بعض الأشياء الفظيعة، لكنه في داخله نزيه، وقد أحبَّ أمي حباً جماً. وبطريقته الخاصة، عاش حياته بكل ما يستطيعه من جموح. ربما كان ضعيفاً قليلاً، وبالتأكيد يفتقر إلى العقل العملي الناجح كلياً، ولا يحبه الناس كثيراً، لكنه أفضل بكثير من المحتالين والكذابين الذين يزينون الأشياء لأنهم خبثاء. وأنا لا أقل عنه سوءاً في عدم التراجع

عما قلته مرة، ولذلك نتعارك كثيراً، لكنه بالفعل ليس بإنسان سيئ».

أخذت ميدوري يدي وكأنها تلتقط شيئاً رماه أحد المارة في الشارع، ووضعتها في حجرها. يتمدد نصف يدي على التنورة، والباقي يلامس فخذها. تطلعت في عيني بعض الوقت.

قالت: «آسفة لجلبك لمكان كهذا، لكن هل تمانع في البقاء معي مدة أطول؟»

قلت: «سأبقى معك طوال النهار إذا شئت. حتى الخامسة. أحب قضاء الوقت معك، وليس لدي شيء أفعله».

«كيف تقضي يوم الأحد في العادة؟»

قلت: «أقوم بغسل ملابسي وكيّها».

«لا أفترض أنك تريد أن تخبرني الكثير عنها... صديقتك؟»

«لا، لا أظن. القصة معقدة، وأعتقد أني لن أستطيع تفسيرها جيداً».

قالت ميدوري: «لا بأس. لست بحاجة إلى تفسير شيء. لكن هل تمانع إذا أخبرتك بما أتخيله يجري؟»

«لا، هاتي. أشك في أن ما تتخيلينه سيكون مثيراً».

«أظن أنها امرأة متزوجة».

«هكذا تظنين؟»

«نعم، هي في الثانية والثلاثين، غنية وجميلة وترتدي معاطف فراء وأحذية تشارلز جوردان وملابس داخلية حريرية، وهي جائعة للجنس وتقوم بأشياء مقززة فعلاً. تلتقيان كلاكما كل يوم بعد الظهر ويلتهم كل منكما جسد الآخر. لكن زوجها يمكث في البيت أيام الأحد، ولذلك لا تستطيع أن تقابلك. هل أنا على صواب؟»

«مثير جداً، جداً».

«تجعلك توثقها وتعصبها ثم تلحس كل شبر في جسدها. ثم تجعلك

تضع في داخلها تلك الأشياء العجيبة وتتخذ هي بعض الوضعيات التي لا تصدق كالبهلوان، وأنت تلتقط لها الصور بكاميرا فاخرة».

«كأنها مزحة».

«تتلهف طوال الوقت لفعلها، ولذلك تقوم بكل ما تفكر فيه. وهي تفكر كل يوم. لا شغل لديها سوى التفرغ للتفكير، ولذلك تخطط دائماً: همممم، حين يأتي واتانابي في المرة القادمة سنقوم بهذا، أو نفعل ذاك. أنت تنام، وهي تجن، تجرب جميع الوضعيات وتصل إلى الذروة ثلاث مرات. وتقول لك: أليس لدي جسد مغر؟ لن ترضيك الفتيات الشابات بعد الآن. فالفتيات الشابات لا يفعلن هذا لك، أو ذاك، تمام؟ هل أنت مرتاح؟ لكن لا تصل حتى الآن!»

قلت بضحكة: «لقد شاهدت الكثير من الأفلام الإباحية».

«هل تظن ذلك؟ كنت قلقة بشأنها. لكني أحب الأفلام الإباحية. خذني إلى أحدها في المرة القادمة، OK؟»

قلت: «موافق. حين يكون عندك وقت في المرة القادمة».

«حقاً؟ لا أستطيع الانتظار. فلنذهب إلى فيلم داعر عن حق، فيه سياط وما أشبه، يجعلون الفتاة تتبول على مرأى الجميع. هذا فيلمي المفضل».

«سنذهب».

«هل تعرف ما هو أكثر شيء أحبه في الأفلام الإباحية؟»

«لا، لا أعرف».

قالت ميدوري: «حين يبدأ مشهد جنسي معين، تستطيع سماع «التمطقات»! كأنما يبتلع الجميع ريقهم في وقت واحد. أحب هذه «التمطقات»، فهي حلوة».

رجعنا إلى غرفة المستشفى، وصبت ميدوري نهراً من الأحاديث على

مسمع أبيها مرة أخرى، وكان إما يغمغم استجابة لها أو لا يقول شيئاً.
وحوالي الحادية عشرة جاءت امرأة الرجل على السرير الآخر لتغير بيجامة زوجها وتعطيه الفاكهة وما أشبه. لديها وجه مدور وقد بدت شخصاً جميلاً، واشتركت هي وميدوري في حديث قصير. دخلت ممرضة تحمل أمصالاً وريدية وتحدثت قليلاً مع ميدوري والزوجة قبل أن تترك الغرفة. تجولت ببصري حول الغرفة وخارج النافذة حتى خطوط الكهرباء. تبرز العصافير بين الحين والآخر وتحط عليها. تحدثت ميدوري مع أبيها ومسحت العرق عن جبينه وساعدته على بصق البلغم في ورقة صحية وتبادلت الكلام مع زوجة المريض المجاور والممرضة وألقت بملاحظة ظرفية من ناحيتي وتفحصت قياس الدم.

انتهى الطبيب من جولاته في الساعة الحادية عشرة والنصف، ولذلك خرجنا أنا وميدوري للانتظار في الممر. وحين خرج سألته ميدوري عن صحة أبيها.

قال الطبيب: «حسناً، لقد خرج من غرفة الجراحة تواً، وهو ما زال تحت تأثير المهدئات، ومستنزف تماماً. أحتاج إلى يومين أو ثلاثة أيام لتقييم نتائج العملية. إذا نجحت، سيكون على ما يرام، وإذا لم تنجح، فعلينا اتخاذ بعض القرارات في ذلك الحين».

«هل ستفتح دماغه مرة أخرى؟»

قال الطبيب: «لا أستطيع أن أجزم حتى يحين الوقت... يا للهول، أية تنورة قصيرة تلبسين؟»

«أليست جميلة؟»

سألها الطبيب: «كيف تتصرفين على السلالم؟»

قالت ميدوري: «لا شيء خاص. أدعها جميعاً تُعرَضْ للخارج».
كتمت الممرضة وراء الطبيب ضحكتها.

«شيء لا يصدق. يجب أن تأتي لنا وتسمحي بفتح رأسك في يوم قريب لنرى ما يجري فيه. اعملي معي معروفاً واستعملي المصاعد وأنت

في المستشفى. لا أستطيع قبول المزيد من المرضى. لقد اختنقت، ولكل شيء حد».

حان وقت الغداء بعد جولة الطبيب بقليل. جاءت ممرضة تدور من غرفة إلى غرفة وهي تدفع عربة محملة بالوجبات. قدمت لوالد ميدوري حساء وفواكه وسمكة بلا عظام وخضروات مدعوكة بحيث أوشكت أن تتحول إلى هلام. أدارت ميدوري ظهره ورفعته باستخدام المقبض على حافة السرير. أطعمته الحساء بملعقة. وبعد خمس أو ست جرعات، أدار وجهه وقال: «كفى».

قالت ميدوري: «يجب أن تأكل على الأقل بقدر هذه الوجبة».

قال: «فيما بعد».

قالت: «لا رجاء منك، إن لم تأكل بقدر مناسب، فلن تسترد قوتك. ألا تريد أن تتبول؟»

قال: «لا».

«هيا، واتانابي، فلنذهب إلى الكافتريا».

وافقت على الذهاب، لكني في الحقيقة لم أشعر برغبة كبيرة في الأكل. كانت الكافتريا مزدحمة بالدكاترة والممرضات والزوار. ملأت صفوف الكراسي والموائد المغارة الأرضية المتسعة الخالية من النوافذ، حيث بدا كل فم مشغولاً بالأكل أو الحديث، عن المرض دون شك، ويظل صدى الأصوات يتردد ويتردد كما لو في نفق. وبين الحين والآخر يقطع مكبر الصوت الترددات بالمناداة على طبيب أو ممرضة. بينما جلست إلى الطاولة غير راغب في الأكل، جلبت ميدوري وجبتين على طبق من الألمنيوم. لحم مفروم وصلصة الكريمة وسلطة بطاطا بالخضروات والرز وحساء الميزو: كانت مرتبة في الطبق في الصحون البلاستيكية البيضاء المتشابهة التي يستخدمونها للمرضى. أكلت نصف وجبتي وتركت الباقي. يبدو أن ميدوري كانت تستطيب وجبتها حتى آخر لقمة.

سألتني وهي تحتسي الشاي: «ألست جائعاً؟»

قلت: «ليس كثيراً».

قالت وعينها تتجول في الكافتريا: «إنه المستشفى. يحدث هذا دائماً حين لا يكون الناس معتادين على المكان. الروائح، الأصوات، الهواء المتعفن، وجوه المرضى، التوتر، التهيج، الخيبة، الألم، الإرهاق، كل هذا يسببه. يمسكك من معدتك ويقتل شهيتك. لكن ما إن تعتاد عليه، حتى لا تعود هناك مشكلة على الإطلاق. زد على ذلك أنك لا تستطيع فعلاً العناية بمريض ما لم تأكل جيداً. هذا صحيح. أعرف ما أتحدث عنه لأنني قمت به مع جدي وجدتي وأمي والآن أبي . لن تعرف متى تفوتك وجبتك القادمة، لذلك من المهم أن تأكل حين تستطيع الأكل».

قلت: «أفهم ما تقصدين».

«يأتي الأقارب للزيارة ويأكلون معي هنا، ودائماً يتركون نصف أكلهم، كما فعلت تماماً. وهم دائماً يقولون: «أووه، ميدوري، رائع أن لديك مثل هذه الشهية الصحية المفتوحة. أما أنا فلا رغبة لي في الأكل».
لكن إذا جد الجد، أنا هنا من يعتني بصحة المريض فعلاً! وهم يعربون عن تعاطفهم ثم ينسحبون فقط. أنا من يشطف الخراء والبلغم ومن يمسح الجبين. لو كان التعاطف وحده يكفي لشطف الخراء، لكنت أبديت من التعاطف أكثر خمسين ضعفاً من أي شخص آخر. بدلاً من ذلك يرونني آكل طعامي كله فيلقون عليّ تلك النظرة ويقولون: «أووه، ميدوري، لديك شهية صحية مفتوحة». ماذا تظنونني، حماراً يجر عربة؟ هم كبار في السن بما يكفي ليعرفوا كيف يعمل العالم حقاً، فلماذا هم بلداء إلى هذا الحد؟ من السهل أن تتحدث بالكلمات الكبيرة، غير أن المهم هو أن ترى هل تشطف الخراء أم لا. أنا يمكن أن أُجرح، أنت تعرف. يمكن أن أستنفد مثل كل شخص آخر. أشعر بسوء كثير وأريد أن أبكي أيضاً. أعني أنك تحاول مراقبة عصابة من الأطباء تجتمع وتفتح رأس شخص ما حين لا يتوفر أمل في شفائه، ثم يأخذون باستفزازك، ويكررونه مراراً، وفي كل مرة تسوء صحة المريض أكثر ويزداد جنونه، وتعال تحمل!. وفوق

كل هذا، ترى مدخراتك تتلاشى. لا أعرف هل سأستمر في الجامعة ثلاث سنوات أخرى ونصفاً. ولعل أختي لن تستطيع إقامة حفلة زفاف».

سألتها: «كم يوماً في الأسبوع تأتين إلى هنا؟»

قالت ميدوري: «في العادة أربعة. يزعم هذا المكان أنه يقدم عناية تمريض كاملة، والممرضات عظيمات، ولكن أعباءهن كثيرة. ولا بد أن يبادر أحد أفراد العائلة لإيقاف هذا الإهمال. أختي تهتم بالدكان، وأنا لدي دراستي. مع ذلك، قررتْ أن تأتي هنا ثلاثة أيام في الأسبوع. وأنا أربعة. أحياناً نتسلل إلى هنا بين الحين والآخر. صدقني، جدول مكتمل».

«كيف تقضين وقتاً معي إذا كنت مشغولة إلى هذا الحد؟»

قالت ميدوري وهي تعبث بقدح بلاستيكي: «أحب قضاء الوقت معك».

قلت: «اخرجي من هنا لبضع ساعات، واذهبي للراحة، وسأعتني خلالها بأبيك».

«لماذا؟»

«أنت تحتاجين إلى الابتعاد عن المستشفى والاسترخاء مع نفسك، لا أن تتحدثي مع أي أحد، فقط أريحي ذهنك».

فكرت ميدوري للحظة وهزت رأسها: «ها، ربما تكون على حق. لكن هل تعرف القيام بذلك؟ كيف تعتني به؟»

«لقد كنت أراقبك. وأظنني عرفت تماماً. تتأكدين من هذا الشيء في الوريد، تعطينه الماء، تمسحين العرق، وتساعدينه على بصق البلغم. والنونية تحت السرير، وإذا جاع أطعمه بقية أكله. وما لا أستطيع القيام به أطلبه من الممرضة».

قالت ميدوري بابتسامة: «أعتقد أن هذا معقول. لكن هناك شيئاً واحداً فقط. العلة المضحكة قليلاً في رأسه، لذلك قد ينطق ببعض

الأشياء مرة كل فترة، أشياء لا يستطيع أحد فهمها. لا تزعج نفسك بها إذا فعل».

قلت: «سأكون على ما يرام».

حين عدنا إلى الغرفة، أخبرت ميدوري أباها بأن لديها بعض الأعمال وأنني سأتولى العناية به في غيابها. لم يبد عليه أن لديه ما يقوله حول هذا. ولعله لم يعن له شيئاً. ظل ممدداً على ظهره، يحدق في السقف. لو لم تطرف عيناه بين الحين والآخر لظننته من الموتى. كانت عيناه محتقنتين، كأنه سكران، وفي كل مرة يأخذ نفساً عميقاً، تتسع مناخره قليلاً. فضلاً عن ذلك، لم يحرك عضلة واحدة، ولم يقم بأي جهد للرد على ميدوري. لم أتمكن من معرفة ما يفكر أو يشعر به في أعماق مشاعره الدفينة.

بعد أن غادرت ميدوري، فكرت بأنني قد أحاول التكلم مع أبيها، ولكن لم تكن لدي فكرة عما أقوله أو كيف أقوله، لذلك بقيت هادئاً. وقبل أن ينقضي وقت طويل، أغمض عينيه وغط في النوم. جلست على المقعد عند طرف السرير ودرست حركات أنفه الآنية، وأنا أرجو ألا يموت الآن. فكرت في الغرابة أن يلفظ هذا الرجل أنفاسه الأخيرة وأنا إلى جواره. فأنا لم أقابله، إلا قبل هنيهة للمرة الأولى في حياتي، والشيء الوحيد الذي يربط بيننا هو ميدوري، وهي فتاة حصل أن تعرفت عليها في مادة تاريخ الدراما.

لكنه لم يكن يحتضر، بل يرقد بسلام. حين أقرب أذني من وجهه، أستطيع سماع أنفاسه الواهنة. تراخيت، وتبادلت بضع كلمات مع زوجة الرجل في السرير المجاور. لم تتحدث سوى عن ميدوري، مفترضة أنني صديقها.

قالت: «إنها حقاً فتاة رائعة. تعتني بأبيها عناية بالغة، وهي عطوفة ورقيقة وحساسة وصلبة، وفوق هذا كله، جميلة. الأفضل أن تعاملها معاملة حسنة. لا تدعها تذهب من يديك. لن تجد مثلها أبداً».

قلت دون استفاضة: «سأعاملها معاملة حسنة».

«لدي ابن وابنة في البيت. عمره سبعة عشر، وعمرها إحدى وعشرون. لكن أياً منهما لم يفكر في المجيء إلى المستشفى. في اللحظة التي تنتهي فيها المدرسة، يذهبون للسباحة أو المواعيد أو ما أشبه. إنهما فظيعان. يرهقانني للحصول على كل ما في محفظتي من نقود ثم يختفون».

في الواحدة والنصف تركتِ المستشفى بغرض التسوق. كان كلا الرجلين يغط في نوم عميق. غمرت أشعة شمس الظهيرة الرقيقة الغرفة، فشعرت بأنني سأنزلق في أية لحظة في علياء مقعدي. أقحوان أصفر وأبيض في مزهرية على الطاولة بجوار النافذة لتذكير الناس بأنه الخريف. تضوعت في الهواء رائحة سمكة مقلية شهية تركت من الغداء. استمرت الممرضات في اجتياز القاعة جيئة وذهاباً، وهن يتحدثن إلى بعضهن بأصوات واضحة، نفاذة. يظهرن في الغرفة بين الحين والآخر ويشرقن بابتسامة حين يرين أن كلا المريضين نائم. وددت لو كان معي ما أقرأه، لكن لا وجود للكتب أو المجلات في الغرفة، بل مجرد تقويم على الحائط.

فكرت في ناوكو. فكرت فيها عارية لا تلبس إلا مشبكها. فكرت في انعطافة خصرها والظل الأسود لشعر عانتها. لماذا استعرضت نفسها عليّ بتلك الطريقة؟ أتعاني من المشي أثناء النوم؟ أم أن ما حصل مجرد خيال من أخيلتي؟ مع مرور الزمن، وانكماش ذلك العالم الصغير في المسافة، صرت أزداد شكاً هل حدثت فعلاً أحداث تلك الليلة. إذا قلت لنفسي إنها أحداث حقيقية، سأؤمن بأنها حقيقية، وإذا قلت لنفسي إنها مجرد أخيلة، فستبدو كالأخيلة. كانت أحداثاً أكثر في وضوحها وتفاصيلها من أن تكون خيالاً، وأكثر في شموليتها وجمالها من أن تكون حقيقية: جسد ناوكو وضوء القمر.

فجأة استيقظ والد ميدوري وبدأ يسعل، مما وضع حداً لحلم

يقظتي. ساعدته على بصق البلغم في ورقة صحية، ومسحت العرق عن جبينه بمنشفة. سألته: «هل تريد بعض الماء؟» فهز رأسه بحركة عرضها أربعة ملمترات. أمسكت بقدح الماء الصغير لكي يتجرع كل مرة جرعة صغيرة، فارتعشت شفتاه الجافتان، وانتفضت حنجرته. شرب كل ما في الكأس من ماء فاتر.

سألته: «هل تريد المزيد؟». بدا أنه يحاول أن يتكلم، ولذلك قربت أذني منه.

«هذا يكفي»، قال بصوت جاف، واهن، صوت أوهن وأكثر جفافاً من السابق.

«لم لا تأكل شيئاً؟ لا بد أنك جائع». أجاب بهزة صغيرة. كما فعلت ميدوري، رفعت سريره عالياً وبدأت أطعمه على التناوب ملعقة من عصير الفاكهة وملعقة من السمك المقلي. استغرق وقتاً طويلاً على نحو لا يصدق لكي يصل إلى نصف طعامه، وعند نقطة معينة هز رأسه قليلاً للإشارة بأنه اكتفى. كانت حركة تكاد تكون غير ملحوظة، ومن الواضح أنه يتألم عند إصدار أية إشارة.

سألته: «ماذا عن الفاكهة؟»

قال: «لا». مسحت زاويتي فمه بمنشفة وسويت الفراش ثانية قبل أن أخرج أطباقه إلى الممر.

سألته: «هل كان هذا جيداً؟»

أجاب: «شنيع»

قلت بابتسامة: «نعم، يبدو أنه رديء فعلاً». لا يبدو أن والد ميدوري قد قرر ما إذا كان سيفتح عينيه أكثر أو يغمضهما وهو يتمدد هناك بصمت، محدقاً بي. تساءلت مع نفسي هل عرف من أكون. وقد بدا أكثر استرخاءً بانفراده معي عما كانه حين كانت ميدوري موجودة. ربما يكون قد ظنني شخصاً آخر. أو على الأقل هذا ما أفضل أن أفكر فيه. قلت وأنا

أجلس على المقعد مقاطعاً ساقي: «إنه يوم جميل هناك. فهو الخريف، الأحد، جو عظيم، والزحام حيثما ذهبت. الاسترخاء في الداخل بهذا الشكل هو خير ما تفعله في يوم لطيف. يستنزف المرء الزحام. والهواء سيئ. في الأكثر أقوم بالغسيل أيام الأحد، أغسل ملابسي في الصباح، وأنشرها على سطح مهجعي، وأعود بها قبل أن تغيب الشمس، ثم أقوم بكيّها. لا أمانع في كيّها على الإطلاق. ينتابني رضا خاص من تنعيم الأشياء المجعدة وصقلها. في الحقيقة أنا جيد في هذا جداً. بالطبع في البداية كنت فظيعاً فيها. أترك الغضون والتجاعيد في كل مكان. بعد شهر من الممارسة، عرفت ما يجب أن أفعله. وهكذا فالأحد عندي يوم الغسيل والكي. بالطبع لم أستطع القيام بهذا اليوم. شيء سيئ: فقد ضيعت يوم غسيل مثالي».

«مع ذلك، لا بأس. سأصحو غداً مبكراً، وأهتم بالغسيل. لا تقلق. ليس لدي شيء عداه أفعله يوم الأحد».

«بعد أن أغسل الغسيل صباحاً وأنشره حتى يجف، سأذهب لمحاضرة الساعة العاشرة. وهي المادة التي أشترك بها مع ميدوري: تاريخ الدراما. إنني أعمل على يوربيدس. هل لديك فكرة عن يوربيدس؟ إنه يوناني قديم، أحد «الكبار الثلاثة» في المأساة اليونانية، بالإضافة إلى أسخيلوس وسوفوكلس. يدعى أنه مات بعضة كلب في مقدونيا، لكن هذه الدعوى لا تحظى بتصديق الجميع. على أية حال، هذا هو يوربيدس. أحب سوفوكلس أكثر، لكنني أعتقد أن الحب مسألة ذوق. والحقيقة لا أستطيع القطع أيهما أفضل».

«ما يميز مسرحياته هي الطريقة التي تختلط بها الأشياء حتى تنغلق الطرق أمام الشخصيات. هل تفهم ما أقصده؟ يظهر كثير من الناس المختلفين، ولهم جميعاً مواقفهم وأسبابهم وأعذارهم، يطارد كل واحد منهم فكرته الخاصة عن العدالة أو السعادة. وبالنتيجة، لا يستطيع أحد فعل شيء. واضح. أعني أنه في الأساس من المستحيل أن تنتصر العدالة

عند الجميع، أو تسود السعادة عند الجميع، وهكذا تحل الفوضى. ثم ماذا تتصور سيحدث؟ بسيطة، يظهر إله في النهاية ويبدأ بتوجيه الإرشادات. «اذهب أنت هناك، وتعال أنت هنا، واجتمع أنت بتلك، وابق أنت هادئاً لفترة». على هذه الشاكلة. إنه يتدخل لتقديم الحلول، وفي النهاية يجري كل شيء على ما يرام تماماً. يسمون هذا: «إنزال الإله بآلة». دائماً يحضر «إنزال الإله بآلة» في أعمال يوربيدس، ولهذا تنقسم آراء النقاد حولها».

«لكن فكر في الأمر، ماذا لو حدث «إنزال الإله بآلة» في الحياة الواقعية؟ سيكون كل شيء بمنتهى السهولة! إذا شعرت أنك في مأزق أو فخ، سيهبط الإله من عليائه ويحل جميع مشاكلك. هل يمكن أن يوجد أسهل من ذلك؟ على أية حال، هذا هو تاريخ الدراما. وإجمالاً هذه هي المادة التي ندرسها في الجامعة».

لم يقل أبو ميدوري شيئاً، أبقى عينيه الفارغتين معلقتين بي طوال الوقت الذي كنت أتحدث فيه. بالطبع لا أستطيع أن أقطع من تلكما العينين هل فهم شيئاً مما قلته.

قلت: «راحة البال».

بعد كل ذلك الحديث، شعرت بالجوع. لم أتناول شيئاً منذ الفطور، وقد أكلت نصف وجبتي. بدأت أشعر بالأسف لأني لم أتناول المزيد من الأكل عند الغداء، لكن الشعور بالأسف لا ينفع بشيء. بحثت في الدولاب عن شيء آكله، لكني لم أجد سوى علبة نوري، وقطرات سعال من نوع «فكس» وصلصة فول الصويا. ما زال الكيس الورقي يحتوي على الخيار والعنب.

قلت لوالد ميدوري: «سآكل قليلاً من الخيار إن لم تمانع». لم يجب. غسلت ثلاث خيارات في المغسلة وسكبت قليلاً من صلصة الصويا في الصحن. ثم غمست خيارة في النوري، وغمرتها في صلصة الصويا وازدردتها.

قلت لوالد ميدوري: «همممم. . . عظيمة! جيدة، بسيطة، رائحتها كالحياة. فعلاً خيار جيد. طعام لذيذ حقاً أكثر بكثير من فاكهة الكيوي».

مسحت خيارة وهجمت على الأخرى. فرددت غرفة المرضى صدى صوتي وأنا أجتر الخيار. لم أكن على استعداد للتوقف إلا بعد أن أنهيت الخيارة الثانية برمتها. غليت بعض الماء على مضرم الغاز في القاعة وأعددت شاياً.

سألت والد ميدوري: «هل تريد أن تشرب شيئاً؟ ماء؟ عصيراً؟»

قال: «خيارة».

قلت بابتسامة: «عظيم، مع النوري؟»

هز الرجل رأسه هزة خفيفة. رفعت السرير مرة أخرى. ثم قطعت قطعة خيار بمقدار عضة، غمرتها في النوري، غرزت عوداً فيها، وغطستها في صلصة الصويا، ودفعتها إلى فم المريض المتربص. وتقريباً دون تغيير في التعبير، مضغ والد ميدوري القطعة مراراً حتى ابتلعها أخيراً.

«كيف كان طعمها؟ رائعاً، أليس كذلك؟»

قال: «جيدة».

قلت: «جيد أن تتذوق الطعام جيداً. إنه نوع من البرهان على أنك ما زلت حياً».

انتهى بأكل الخيارة بكاملها. وحين أنهاها، أراد ماءً، فأعطيته شراباً من القنينة. بعد بضع دقائق، قال إنه يريد أن يتبول، أخذت جرة التبول من تحت السرير ووضعتها عند طرف ذكره. بعدئذ أفرغت الجرة في التواليت وغسلتها. ثم عدت إلى غرفة المرضى وأنهيت شايي.

سألته: «كيف تشعر الآن؟»

قال: «رأسي. . .».

«يؤلمك؟»

قال بشيء من التجهم: «قليلاً».

«لا عجب. لقد أُجريت لك عملية تواً. بالطبع لم أجرِ عملية من قبل، لذلك لا أعرف ما هي».

قال: «تذكرة».

«تذكرة؟ أية تذكرة؟»

قال: «ميدوري. تذكرة».

لم تكن لدي فكرة عما يقوله، لذلك بقيت هادئاً. وبقي هو صامتاً لفترة أيضاً. ثم بدا أنه يقول «رجاء». فتح عينيه على سعتهما ونظر إليَّ بإمعان. خمنت أنه يحاول أن يخبرني بشيء، لكنني لم أقدر على تخيل ما هو.

قال: «يونو. ميدوري».

«محطة يونو؟»

أبدى هزة صغيرة من رأسه.

حاولت إيجاز ما يريد قوله: «تذكرة، ميدوري، رجاء، محطة يونو»، ولكن لم تتكون لدي فكرة عما قصده. افترضت أن ذهنه ملخبط، لكن قياساً بالسابق في عينيه الآن وضوح فظيع. رفع الذراع الخالية من أشرطة الوريد ومدها باتجاهي. لا بد أنه بذل أقصى ما يستطيع من جهد حين ارتعشت يده في الهواء. نهضت وأمسكت يده المجعدة الواهنة. فرد على إمساكتي بقليل من القوة هي أقصى ما استطاع لملمته وقال مرة أخرى: «رجاء».

قلت: «لا تقلق. سأهتم بالتذكرة وميدوري أيضاً». ترك يده تسقط على السرير وأغمض عينيه. ثم غط في النوم بأنفاس متلاحقة. تأكدت أنه ما زال حياً، ثم خرجت لأغلي الماء لإعداد الشاي مرة أخرى. وحين كنت أحتسي السائل الساخن، تنبهت أنني بدأ ينمو لدي نوع من الحب لهذا الرجل الصغير على حافة الموت.

عادت زوجة المريض الآخر بعد دقائق وسألت هل كل شيء على ما يرام. أكدت لها أن كل شيء بخير. كان زوجها أيضاً يغط في النوم، ويتنفس بعمق. عادت ميدوري بعد الثالثة.

قالت: «كنت في المنتزه، أتجول. فعلت ما قلته لي، لم أتحدث مع أحد، فقط أفرغت رأسي من كل شيء».

«كيف كان الحال؟»

«شكراً، أشعر بأنني أفضل. ما زال يخالطني ذلك الشعور الجارف، المتعب، لكني أحس أن جسدي أخف من السابق. أظن أنني كنت مرهقة أكثر مما تخيلت».

لأن أباها يغط في النوم، كان لدينا ما نقوم به، لذلك اشترينا قهوة من البائع الآلي وشربناها في غرفة التلفزيون. رويت لميدوري ما حدث في غيابها، أن أباها نام نوماً جيداً، ثم صحا وأكل بعضاً مما بقي من طعامه، ثم رآني آكل خيارة فطلب واحدة، أكلها كلها وتبول.

قالت ميدوري: «واتانابي، أنت مذهل. كدنا نجن في محاولة جعله يأكل شيئاً، وأنت جعلته يأكل خيارة كاملة! شيء لا يصدق!».

«لا أعرف، أعتقد أنه رآني أتمتع بأكل خيارتي».

«أو ربما لديك هذه الموهبة في خلق الطمأنينة لدى الناس».

قلت بضحكة: «على الإطلاق. سيقول لك كثير من الناس أشياء معاكسة عني».

«ما رأيك بأبي؟»

«أحبه. لا لأننا تبادلنا مع بعضنا كثيراً من الحديث. لكن، لا أعرف، يبدو لطيفاً».

«هل كان هادئاً؟»

«جداً».

«كان ينبغي أن تراه قبل أسبوع. كان فظيعاً». قالت ميدوري وهي

تهز رأسها: «كأنما جُنَّ وتوحش. رمى زجاجة في وجهي ونطق بكلمات فظيعة: أتمنى أن تموتي، أيتها القحبة البلهاء!. هذا المرض يسبب هذا للناس. لا يعرفون لماذا، لكنه يمكن أن يجعل الناس متوحشين فعلاً على حين غرة. حصل الشيء نفسه مع أمي. ماذا تتصور قالت لي؟ أنت لستِ ابنتي! أكره الأحشاء التي حملتك! اسودَّ العالم كله في وجهي لثانية حين قالت ذلك. لكن هذا الشيء هو أحد أعراض هذا المرض الخاص. يضغط شيء ما على جزء من الدماغ ويدفع الناس إلى قول هذه الأشياء البغيضة. أنت تعرف هي مجرد جزء من مرض، لكنها مع ذلك مؤلمة. ماذا تتوقع؟ ها أنا ذي ألطم لطماً من أجلهما، وهم يقولون لي هذه الأشياء الفظيعة».

قلت: «أعرف ما تقصدين». ثم تذكرت النتف الغريبة التي تمتم بها أبوها لي.

قالت ميدوري: «تذكرة؟ محطة يونو؟ أتساءل ماذا تعني هذه؟»

«ثم قال: رجاء، وميدوري».

«هل تعني أنه قال: رجاء اهتم بميدوري؟»

«أو ربما أرادك أن تذهبي إلى يونو لشراء تذكرة. ترتيب هذه الكلمات الأربع يبعث على الفوضى، من يعرف ماذا يقصد؟ هل تعني محطة يونو لك شيئاً محدداً؟»

«ها، محطة يونو». فكرت ميدوري للحظة: «الشيء الوحيد الذي أتصوره هو مرتان هربت فيهما من البيت حين كنت في الثامنة وحين كنت في العاشرة. في المرتين أخذت قطاراً من يونو إلى فوكوشيما. اشتريت تذاكر بالنقود التي أخذتها من درج الخزانة. شخص ما في البيت أغضبني فعلاً، وكان عندي عمة في فوكوشيما، كنت أحبها نوعاً ما، لذلك ذهبت إلى بيتها. وكان أبي هو الذي جلبني. قطع الطريق حتى فوكوشيما لجلبي - مائة ميل! في القطار إلى يونو، أكلنا طعاماً جاهزاً. وقد تحدث معي أبي، ونحن مسافران، عن جميع أنواع الأشياء، حديثاً متقطعاً متعرجاً

تتخلله فجوات كثيرة. تحدث مثلاً عن الزلزال الكبير عام 1932 أو عن الحرب أو عن الوقت الذي ولدت فيه، أشياء لا يتحدث عنها في العادة. دعنا نفكر فيها، كانت تلكما المرتين الوحيدتين اللتين تبادلنا فيهما أنا وأبي حديثاً طويلاً، جيداً، نحن الاثنين. هل تصدق هذا؟ تعرض أبي لدوي صاعق في وسط طوكيو في أثناء واحد من أكبر الزلازل في التاريخ ولم يلاحظه!».

«لا يمكن!»

«هذا صحيح! كان يسوق على طريق كويشيكاوا وعلى ظهر دراجته عربة، فلم يشعر بشيء. حين عاد إلى البيت، كان جميع الآجر قد تساقط من السقوف في المحلة، وكان جميع أفراد العائلة يحتضنون الأعمدة وأقدامهم ترتعش. لكنه لم يفهم شيئاً، يقول إنه سألهم: «ماذا يجري هنا بحق الجحيم؟ هذا هو «ولع أبي بالتذكر» عن زلزال كانتو الرهيب!». ضحكت ميدوري: «كل ما يرويه من قصص عن تلك الأيام الخوالي من هذا النوع. ليس فيه دراما على الإطلاق. قصص مفككة لا مركز فيها. لا أعرف، حين يروي هذه القصص، ينتابك الشعور بأن اليابان لم يحدث فيها شيء مهم في الخمسين أو الستين عاماً الماضية. انتفاضة الضباط الشباب عام 1936، حرب المحيط الهادئ، هذه جميعاً الرد عليها: «آه، نعم، ما دمت قد ذكرتها، أظن شيئاً من هذا النوع قد حدث ذات مرة»، وعلى هذه الشاكلة. شيء مضحك فعلاً!».

«على أية حال، في القطار روى لي تلك القصص متقطعة ونحن نستقل القطار من فوكوشيما إلى يونو. وفي النهاية، كان يردد دائماً: سترين، ميدوري، حيثما ذهبت الشيء نفسه يقع. كنت أصغر سناً من أن أتأثر بشيء كهذا».

سألتها: «إذاً هذا هو «مولع بالتذكر» في محطة يونو؟»

قالت ميدوري: «هل هربت مرة من البيت، واتانابي؟»

«أبداً».

«لم لا؟»

«افتقار إلى الخيال. لم يحصل أبداً أن هربت».

قالت ميدوري وهي ترفع رأسها متأثرة حقاً: «أنت عجيب فعلاً!».

قلت: «أتساءل».

«على أية حال، أعتقد أن أبي كان يحاول أن يقول إنه يريدك أن تعتني بي».

«حقاً؟»

«حقاً! أنا أفهم الأشياء من هذا النوع. حدسياً. لذلك أخبرني، بماذا أجبته؟»

«حسناً، لم أفهم ما كان يقوله، لذلك بقيت أقول OK، لا تقلق، سأعتني بك وبالتذكرة».

«أنت وعدت أبي بهذا؟ لقد قلت إنك ستهتم بي؟» صوبت نظرها في عيني وعلى وجهها تعبير جدي حتى الموت.

«ليس على هذا النحو» بادرت إلى تصحيحها. «لم أعرف فعلاً ما كان يحاول قوله، و...».

قالت بابتسامة: «لا تقلق. أنا أمزح فقط. أحب هذا فيك».

أنهينا أنا وميدوري قهوتنا ورجعنا إلى الغرفة. كان أبوها ما يزال يغط في النوم. إذا اقتربت منه، تستطيع أن تسمع أنفاسه المنتظمة. وحين تعمقت الظهيرة، تغير النور خارج نافذة المستشفى إلى لون الخريف الناعم الطري. حط سرب من الطيور على عمود الكهرباء في الخارج، ثم حلق. جلسنا أنا وميدوري في زاوية الغرفة، ونحن نتحدث بهدوء طوال الوقت. قرأت كفيّ وتنبأت لي بأني سأعيش مائة وخمس سنوات، وأتزوج ثلاث مرات، وأموت في حادث سير. قلت: «ليست هذه بالحياة الرديئة».

حين استيقظ أبوها بعد الساعة الرابعة، ذهبت ميدوري لتجلس إلى

جوار وسادته، تمسح العرق عن جبينه، وتعطيه الماء، وتسأله عن الألم في رأسه. جاءت ممرضة وأخذت درجة حرارته، وسجلت عدد تبولاته، وتأكدت من معدات الأوردة. ذهبتُ إلى غرفة التلفزيون وراقبت مباراة كرة قدم لفترة وجيزة.

في الخامسة أخبرت ميدوري بأني سأغادر. وشرحت لأبيها: «يجب أن أذهب للعمل الآن. أبيع التسجيلات في شنجوكو من السادسة إلى العاشرة والنصف».

أدار عينيه لي وحرك رأسه قليلاً.

«واتانابي، لا أعرف كيف أعبر عن شكري، لكني فعلاً أريد أن أشكرك على ما قمت به اليوم»، قالت ميدوري حين رأتني متجهاً نحو الاستعلامات.

قلت: «لم أقم بالكثير. لكن إذا كان بوسعي تقديم العون، فسأجيء في الأسبوع القادم أيضاً. أريد أن أرى والدك مرة أخرى».

«حقاً؟»

«حسناً، ليس لدي ما أقوم به في المهجع، وإذا جئت إلى هنا سأحصل على الخيار».

طوت ميدوري ذراعيها وركلت الأرض بكعب حذائها.

قالت وهي ترفع رأسها قليلاً: «أود أن أذهب معك للشرب مرة أخرى».

«وماذا عن الأفلام الإباحية؟»

«نقوم بهذا أولاً ثم نذهب للشرب. وسنتحدث عن جميع هذه الأشياء المقززة الاعتيادية».

احتججت: «لست من يتحدث عن الأشياء المقززة. بل أنت».

«على أية حال، سنتحدث عن هذه الأشياء ونسكر وننام».

قلت بتنهيدة: «وتعرفين ما يحدث بعدها. أحاول أن أقوم بها، لكنك لا تسمحين لي، OK؟»

ضحكت من أنفها.

قلت: «على أية حال، مري عليَّ صباح الأحد القادم. وسنأتي إلى هنا معاً».

«وأكون في تنورة أقصر قليلاً؟»

قلت: «بالتأكيد».

لكني لم أذهب إلى المستشفى يوم الأحد التالي. فقد توفي والد ميدوري صباح الجمعة.

كلمتني في السادسة والنصف صباحاً لتخبرني بذلك. أوعز لي الطنان بأن لدي مكالمة تلفونية، فهرعت إلى القاعة في الأسفل وقد رميت سترة على بيجامتي. كان مطر بارد يتساقط بصمت.

قالت ميدوري بصوت هادئ خفيض: «توفي أبي قبل دقائق». سألتها إذا كان بوسعي القيام بشيء. قالت: «شكراً. لا يوجد شيء فعلاً. نحن متعودون على المآتم. فقط أردت أن أعلمك».

أفلتت من شفتيها تنهيدة من نوع ما.

«لا تأت إلى المأتم، OK؟ أكره هذه الأمور. ولا أريد أن أراك هناك».

قلت: «أفهم».

«هل ستأخذني إلى سينما إباحية؟»

«بالطبع سأفعل».

«واحدة مقززة فعلاً؟»

«سأبحث المسألة بعمق».

«جيد. سأتصل بك» قالت ميدوري وعلقت السماعة.

مر أسبوع دون أن أتلقى كلمة من ميدوري. لا مكالمات، لا علامة على الحضور في قاعة المحاضرات. ظللت أتمنى أن تصلني منها رسالة كلما عدت راجعاً إلى المهجع، ولكن لم أتلق شيئاً. ذات ليلة، حاولت أن أفي بوعدي لها بالتفكير فيها عند الاستمناء، ولكن أخفقت المحاولة. أردت أن أتحول إلى ناوكو، ولكن حتى صورة ناوكو لم تنفع تلك المرة. بدا لي الأمر سخيفاً جداً، فكففت. أخذت جرعة من الويسكي، ونظفت أسناني وذهبت إلى السرير.

كتبت رسالة لناوكو صباح الأحد. أخبرتها بوفاة والد ميدوري.

ذهبت إلى المستشفى لزيارة والد فتاة معي في إحدى المحاضرات، وأكلت قليلاً من الخيار في حجرته. وحين سمعني أمضغها، أراد أن يأكل بعضها أيضاً. وقد طحنها بأسنانه مُصدراً صوت طحن. لكنه مات بعد خمسة أيام. ما زلت أحتفظ بالذكرى المفعمة بالحياة لصوت طحن أسنانه وهو يمضغ قطعة الخيار. يترك الناس ذكريات غريبة، صغيرة وراءهم حين يموتون. واستمرت رسالتي:

> **أفكر فيك وفي رايكو وقفص الطيور حين أرقد في السرير بعد أن أستيقظ في الصباح. أفكر في الطاووس واليمام والببغاوات والديك الرومي، والأرانب أيضاً. أتذكر المعاطف المطرية الصفراء التي لبستها أنت ورايكو والقلنسوات في ذلك الصباح المطير. أشعر بالراحة حين أفكر فيك وأنا دافئ في السرير. أحس كأنك تتمددين إلى جانبي، تغطين في النوم. فأفكر ما أعظم ذلك لو تحقق.**
>
> **أفتقدك بغصّة أحياناً، لكني على العموم أستمر في العيش بكل ما**

أستطيع من طاقة. وتماماً مثلما تهتمين برعاية الطيور والحقول كل صباح، أعبئ نابضي(*) كل صباح أيضاً. أديره ستاً وثلاثين دورة حين أستيقظ، وأنظف أسناني، وأحلق، وأتناول فطوري، وأغير ملابسي، وأترك المهجع، وأذهب إلى الجامعة. أقول لنفسي: «حسناً، فلنجعل هذا اليوم يوماً طيباً آخر». لم ألاحظ من قبل، لكن يقولون لي إنني أتحدث مع نفسي كثيراً هذه الأيام. ربما أغمغم مع نفسي وأنا أعبئ منبّهي.

من الصعب ألا أكون قادراً على رؤيتك، غير أن حياتي في طوكيو ستكون أسوأ كثيراً ما لم تكن من أجلك. ولأنني أفكر فيك وأنا في السرير أستطيع أن أعبئ نابضي وأقول لنفسي بأن علي أن أعيش يوماً طيباً آخر. أعرف أن علي أن أبذل قصارى جهدي هنا، كما تبذلين أنت قصارى جهدك هناك.

اليوم الأحد، وهو يوم لا أعبئ فيه نابضي. لقد أكلمت الغسيل، وها أنذا في الغرفة أكتب لك. بمجرد أن أنهي هذه الرسالة وأضع عليها طابعاً وأرميها في صندوق البريد، لا يعود لدي ما أفعله حتى تغيب الشمس. لا أدرس في الآحاد أيضاً. إذ أقضي كثيراً من الوقت في بقية الأيام في القراءة في المكتبة بين المحاضرات، لذلك لا يتبقى لدي ما أفعله في الآحاد. ظهيرات الأحد هادئة ومريحة، وهي عندي للوحدة مع الذات. أقرأ الكتب أو أصغي إلى الموسيقى. أحياناً أعود بتفكيري للطرق المختلفة التي تعوّدنا أن نسلكها يوم الأحد في جولاتنا حول طوكيو. أستطيع أن أستعيد صورة واضحة تماماً عن الملابس التي كنت ترتدينها في أية جولة منها. أستطيع تذكر جميع

(*) نابضي: my spring، ويقصد استعادة طاقته، كما يعبئ المرء الساعة أو المنبّه ليصحو في الوقت المناسب ويقوم بعمله كما يجب. (م)

الأشياء التي حدثت في ظهيرات الأحد.
بلغي تحياتي لرايكو. فعلاً أفتقد قيثارها ليلاً.

حين أنهيت الرسالة، تمشيت واجتزت بعض القواطع بغية أن أضعها في صندوق البريد، ثم اشتريت شطيرة بيض وزجاجة كوك من خباز قريب. تناولتهما كغداء وأنا أجلس على مقعد وأراقب بعض الصبية يلعبون البيسبول في ساحة محلية. زاد الخريف في زرقة السماء المتزايدة وعمقها. رفعت رأسي لأرى خيوط بخار تتصاعد باتجاه الغرب في تواز تام كأنها خطوط الترام. اقتربت كرة طائشة تتدحرج باتجاهي، وحين ركلتها للصبيان الصغار رفعوا قبعاتهم: «شكراً، سيدي». كما في أكثر ألعاب الصغار، هناك صراخ كثير، وقواعد مسروقة.

بعد الظهر عدت إلى غرفتي للقراءة، لكنني لم أستطع التركيز. بدلاً من ذلك وجدت نفسي أحدق في السقف وأفكر في ميدوري. تساءلت هل كان والدها يحاول فعلاً أن يطلب مني العناية بها بعد أن يرحل، ولم يكن بوسعي أن أجزم على الإطلاق بما كان يدور في رأسه. لعله خلط بيني وبين شخص آخر. على أية حال، لقد مات صباح الجمعة حين كان يتساقط مطر بارد، والآن من المستحيل معرفة الحقيقة. تخيلت أنه، في الموت، ذوى وتصاغر أكثر من السابق. ثم دفنوه في فرن حتى لم يعد سوى رماد. ما الذي تركه وراءه؟ مكتبة لا تساوي نقيراً في محلة لا تساوي شيئاً وابنتين، تمتاز إحداهما في الأقل بقدر غير قليل من الغرابة. تساءلت: أية حياة هذه؟ ما الذي كان يجول في رأسه حين تطلع إليّ، ممدداً على سرير المستشفى برأسه المفتوح ودماغه المشوش؟

جعلني التفكير في هذه الخواطر عن والد ميدوري في مزاج بائس بحيث أنزلت الغسيل عن السطح قبل أن يجف فعلاً وذهبت إلى شنجوكو لقتل الوقت متسكعاً في الشوارع. وقد أعطاني زحام الأحد شيئاً من الراحة. كانت المكتبة تغص بالزبائن وكأنها قطار سريع. اشتريت نسخة

من رواية فوكنر (نور في آب) وذهبت إلى أكثر قاعة جاز ضجيجاً أعرفها، أقرأ كتابي وأصغي إلى أورينت كولمان وبد باول وأشرب قهوة ساخنة، مركزة، ذات مذاق نتن. عند الساعة الخامسة والنصف، طويت كتابي، وخرجت لتناول عشاء خفيف. كم من أحد، كم من مئات الآحاد مثل هذا، تكمن في انتظاري؟ قلت لنفسي بصوت عال: «هادئ ومسالم ووحيد». في الآحاد، لا أعبئ نابضي.

(8)

في منتصف الأسبوع تسببت بجرح راحة يدي بقطعة زجاج مكسورة. لم ألاحظ أن حافة الفواصل الزجاجية على رف التسجيلات كانت مكسورة. ولا أكاد أصدق كم من الدم تدفق مني، صابغاً الأرض عند قدميَّ بالأحمر القاني. وجد مدير المحل بعض الأربطة وشدها بقوة حول الجرح. ثم أجرى مكالمة مع الإسعاف. في العادة هو عديم النفع تماماً، لكنه تصرف بنشاط مذهل حينئذ. كان المستشفى قريباً، لحسن الحظ، لكني حين وصلت إلى هناك كانت الأربطة منقوعة بالأحمر، وقد جرى الدم الذي لم تستطع الأربطة امتصاصه على الأسفلت. يعدو الناس مسرعين لإفساح المجال لي. يبدو أنهم يعتقدون أنني انجرحت في نزاع. لم أشعر بألم لأتحدث عنه، لكن الدم لا يريد أن يتوقف.

كان الطبيب بارداً وهو يزيل الأربطة المنقوعة بالدم، وقد أوقف النزيف عن طريق الضغط على رسغي، فعقم الجرح وخاطه، وطلب مني أن أعود إليه في اليوم التالي. وحين عدت إلى محل التسجيلات، أخبرني المدير بأن أذهب إلى البيت: سيدوِّن لديه أنني قد أديت واجبي. أخذت الحافلة إلى المهجع وذهبت مباشرة إلى غرفة ناغاساوا. بأعصاب متوترة على حافة الجرح، أردت أن أتحدث مع أحد، ولم أكن قد رأيت ناغاساوا منذ مدة طويلة.

وجدته في غرفته، يشرب علبة من البيرة وهو يشاهد درساً لتعلم اللغة الإسبانية على التلفزيون. «ماذا حدث لك بحق الجحيم؟» قال لي

حين رأى اللفافة. قلت جرحت يدي، لكنه ليس بمؤلم. قدّم لي بيرة فقلت لا وشكرته.

«انتظر قليلاً. سينتهي الدرس خلال لحظة» قال ناغاساوا، وذهب لممارسة التلفظ بالإسبانية. سخنت ماءً وعملت لنفسي قدح شاي بكيس شاي جاهز. كانت امرأة تقرأ الجمل بالإسبانية: «لم أر من قبل مثل هذا المطر الرهيب!»، «لقد غُسلت جسور كثيرة في برشلونة». قرأ ناغاساوا النص في الإسبانية بصوت مرتفع. قال: «أية جمل قبيحة هذه! لا يعطونك دائماً سوى هذه الجمل الخرائية».

حين انتهى البرنامج، أغلق التلفزيون وأخذ بيرة أخرى من ثلاجته الصغيرة.

سألته: «هل أنت متأكد أنني لا أعطّلك عن شيء؟»

«على الإطلاق. لقد مللت منه. هل أنت متأكد أنك لا تريد بيرة؟»

قلت: «لا، لا أريد فعلاً».

«آ. . نعم. . لقد بعثوا بنتائج الامتحانات قبل يوم. وقد نجحت!».

«امتحان وزارة الخارجية؟»

«هو بعينه. من الناحية الرسمية اسمه امتحان الفئة الأولى لأفراد الخدمة العامة في الشؤون الخارجية. يا للنكتة!».

«تهانينا!» قلت وأنا أعطيه يدي اليسرى للمصافحة.

«شكراً».

«بالطبع نجاحك ليس بمفاجأة لي».

«لا، ولا لي» وضحك ناغاساوا: «ولكن من الجميل أن تحصل عليه رسمياً».

«هل تعتقد أنك ستسافر إلى الخارج بمجرد التحاقك؟»

«لا، في البداية، تبقى سنة تحت التدريب. ثم يرسلونك إلى الخارج لفترة».

ارتشفت شايي، وشرب بيرته بتلذذ واضح.

قال ناغاساوا: «سأعطيك هذه الثلاجة إذا شئت حين أخرج من هنا. ربما ستعجبك، هل تعجبك؟ إنها عظيمة للبيرة».

«نعم، أريدها، ولكن ألن تحتاج إليها؟ ستعيش في شقة أو شيء شبيه».

«لا تكن غبياً! حين أغادر هذا المكان، فسأشتري لنفسي ثلاجة كبيرة. سأعيش حياة راقية! أربع سنوات في مثل هذا الجحر تكفي. لا أريد أن ألقي نظرة على شيء استخدمته في هذا المكان. سمِّ ما شئت، أعطه لك - التلفزيون، الثرمس، الراديو....».

قلت: «سآخذ كل ما تعطيه لي». والتقطت مذكرة اللغة الإسبانية وتمعنت فيها: «بدأت تتعلم الإسبانية؟»

«أجل. كلما عرفت لغات أكثر، كان أفضل. وقد اكتسبت براعة بها. علمت نفسي الفرنسية. اللغات كالألعاب. تتعلم قوانين إحداها، فتتعلم الأخريات جميعاً بالطريقة نفسها. كالنساء».

قلت: «آه.. الحياة التأملية».

«على أية حال، فلنذهب للأكل بسرعة».

«تعني أن نتجول بحثاً عن نساء؟»

«لا، أعني أكلاً حقيقياً. أنت وأنا وهاتسومي في مطعم جيد. للاحتفال بوظيفتي الجديدة. والدفع من جيب العجوز، لذلك سنذهب إلى مكان غال فعلاً».

«ألا يجب أن تكون أنت وهاتسومي وحدكما؟»

«لا، من الأفضل أن تكون أنت معنا. سأكون أكثر ارتياحاً، وكذلك هاتسومي».

أووو، ها نحن كيزوكي وناوكو وأنا مرة أخرى.

«سأقضي الليلة في شقة هاتسومي بعدئذ، لذلك اشترك معنا بمقدار الوجبة فقط».

قلت: «حسناً، إذا كنتما تريدان أن أجيء فعلاً. ولكن على أية حال، ما الذي تخطط له بشأن هاتسومي؟ سيعينونك في الخارج حين تنتهي فترة تدريبك، وربما لن تعود إلا بعد سنين. ما الذي سيحدث لها؟»

«هذه مشكلتها».

قلت: «لا أفهم».

وضع ناغاساوا قدمه على الطاولة، وتناول جرعة من البيرة وفغر فاه.

«انظر. لا أخطط للزواج على الإطلاق. وقد أوضحت ذلك غاية التوضيح لهاتسومي. إذا كانت تريد الزواج من أحد، فيجب أن تمضي قدماً وتتزوج. ولن أوقفها. وإذا كانت تريد أن تنتظرني، فلتنتظر. هذا ما أعنيه».

قلت: «أنت أعرف».

«أنت تعتقد أنني خراء، أليس كذلك؟»

«نعم، هو كذلك».

«انظر. العالم مكان ظالم بالفطرة. لم أكتب قوانينه. ولقد كان دائماً على هذا النحو. لم يسبق أبداً أن خدعت هاتسومي. وهي تعرف أنني خراء دائماً وأنها تستطيع أن تتركني، ومهما قررت لا تستطيع تنفيذ قرارها. وقد أخبرتها بذلك على نحو صريح منذ البداية».

أنهى ناغاساوا بيرته وأشعل سيجارة.

سألته: «ألا يوجد شيء ما في الحياة يخيفك؟»

قال ناغاساوا: «إسمع. لست غبياً تماماً. بالطبع، تخيفني الحياة أحياناً. لكني لا أتخذ من ذلك قياساً لكل ما عداه. سأعطيها مائة بالمائة وأذهب إلى أبعد ما أستطيع. سآخذ ما أريد، وأترك ما لا أريد. هذه هي

الطريقة التي أنوي فيها أن أعيش حياتي، وإذا ساءت الأمور، سأتوقف وأنظر في هذه النقطة. إذا فكرت في المجتمع الظالم، ستجده المجتمع الذي يمكِّنُكَ من استغلال إمكانياتك حتى الحد الأقصى».

قلت: «تبدو وكأنها طريقة حياة متمركزة حول الذات».

«ربما، لكني لا أتطلع إلى السماء وأنتظر أن تسقط الفاكهة. فأنا أسعى جاهداً بطريقتي. أنا أعمل عشرة أضعاف ما تعمل».

قلت: «ربما هذا صحيح».

«أتطلع أحياناً حولي وأشمئز من معدتي. لماذا بحق الجحيم لا يفعل أولاد الحرام شيئاً؟ أتساءل. لا يقومون بأي فعل لعين، ثم يشرعون بالنواح».

نظرت إلى ناغاساوا، وأنا منذهل لفظاظة ألفاظه: «أرى أن الناس تعمل بمشقة. وهم يدحسون أصابعهم حتى العظم. أم أنني أنظر إلى الأشياء نظرة مغلوطة؟»

«ليس هذا بالعمل الشاق. بل هو مجرد عمل يدوي» قال ناغاساوا بلهجة حاسمة: «العمل الشاق الذي أقصده أكثر اتجاهاً نحو الذات وأكثر قصدية».

«تعني مثل دراسة الإسبانية بينما يعدها كل شخص آخر أمراً يسيراً؟»

«هو ذلك. سأسيطر على اللغة الإسبانية في الربيع القادم. لقد تعلمت الإنجليزية والألمانية والفرنسية بيسر، وأنا تقريباً ملمّ بالإيطالية. هل تعتقد أن أشياء كهذه تأتي من دون عمل شاق؟»

نفث ناغاساوا دخان سيجارته بينما كنت أفكر في والد ميدوري. هناك شخص ربما لم يفكر أبداً في أخذ دروس في الإسبانية على التلفزيون. ربما لم يفكر أبداً في الفرق بين العمل اليدوي والعمل الشاق أيضاً. ربما كان لديه من الأعباء ما يشغله عن مثل هذه الأشياء - أعباء العمل، وإعادة ابنته التي هربت إلى فوكوشيما إلى البيت.

قال ناغاساوا: «إذاً عن عشائنا، هل السبت مناسب لك؟». .

قلت: «رائع».

اختار ناغاساوا مطعماً فرنسياً فاخراً في شارع خلفي هادئ في أزابو. أعطى اسمه على الباب، فاقتادونا إلى غرفة خاصة حسب قائمة لديهم. ما يقرب من 15 قصاصة مطبوعة على جدار الغرفة الصغيرة. حين كنا بانتظار وصول هاتسومي، تذوقنا أنا وناغاساوا خمرة لذيذة، وتحاورنا عن روايات جوزيف كونراد. كان يرتدي بدلة رمادية غالية المظهر. أما أنا فكنت أرتدي سترة اعتيادية زرقاء.

وصلت هاتسومي متأخرة ربع ساعة. تزينت بعناية ولبست قرطين ذهبيين، وبدلة زرقاء عميقة جميلة، وحذاء أحمر يدل على ذوق. حين أطريتها على لون ملابسها، أخبرتني أنها تدعى زرقة منتصف الليل. قالت: «يا له من مطعم فاخر!».

قال ناغاساوا: «العجوز يأكل هنا دائماً حين يأتي إلى طوكيو. وقد جئت معه ذات مرة. لست مجنوناً بمثل هذه الأماكن المتكبرة».

قالت هاتسومي: «ليس مما يؤلم الأكل هنا مرة كل فترة»، ثم استدارت نحوي وسألت: «ألا تتفق معي؟»

«أعتقد ذلك، ما دمت لا أدفع شيئاً».

قال ناغاساوا: «العجوز يأتي في العادة بخليلته هنا. تعرفون لديه خليلة في طوكيو».

سألت هاتسومي: «حقاً؟»

أخذتُ رشفة من الخمر وكأنني لم أسمع شيئاً.

أخيراً جاء نادل وأخذ طلباتنا. بعد اختيار المقبلات والحساء، طلب ناغاساوا بطة، وطلبنا أنا وهاتسومي ذئب البحر. جاء الطعام على مهل مرفّه. مما سمح لنا أن نتمتع بالخمرة والحديث. في البداية تحدث

ناغاساوا عن امتحان وزارة الخارجية. قال إن أكثر الممتحنين لم يكونوا سوى حثالة يجب أن تطرح في سلة مهملات لا قعر لها. وإن كان يفترض وجود قلة محترمة في المجموعة. سألته هل يعتقد أن نسبة الجيدين إلى الحثالة أكثر أو أقل مما هي عليه في المجتمع باتساعه.

قال: «النسبة نفسها بالطبع. وهي النسبة نفسها في كل مكان» ثم أضاف: «قانون لا يتعدل».

طلب ناغاساوا قنينة من الخمر وسكوتش المضاعف لنفسه. ثم بدأت هاتسومي بالحديث عن فتاة أرادتني أن أقيم علاقة معها. كان هذا الموضوع الدائم بيننا. تخبرني دائماً عن «فتاة جذابة في النادي الذي أرتاده»، وأنا أتهرب دائماً.

«إنها فعلاً لطيفة، وإن كانت جذابة فعلاً. سآتي بها معي في المرة القادمة. يجب أن تتحدث معها. أنا واثقة أنها ستعجبك».

قلت: «هذا مضيعة للوقت، هاتسومي. أنا أفقر من أن أخرج مع فتيات من جامعتك. ولا أستطيع التحدث معهن».

قالت: «لا تكن سخيفاً. هذه الفتاة بسيطة وطبيعية وغير متكلفة».

قال ناغاساوا: «هيا واتانابي، فقط قابلها. لا نقول انكحها».

قالت هاتسومي: «يجب أن أقول لا. إنها فتاة عذراء».

قال ناغاساوا: «كما تعودت أنت أن تكوني».

قالت هاتسومي بابتسامة صغيرة: «تماماً، كما تعودت أن أكون». ثم قالت لي: «لا تعطني أشياء من نوع: «أنا أفقر من أن». لا علاقة لها بهذا الأمر. بالتأكيد هناك طالبات مشدودات إلى الطبقة الراقية في كل فصل، أما بقيتنا فاعتيادية تماماً. جميعاً نتناول الغداء في كافتريا المدرسة بـ250 يناً».

قلت وأنا أقاطعها: «انتظري لحظة هاتسومي. في مدرستي تقدم الكافتريا ثلاث وجبات من الغداء: (أ) و(ب) و(ج). غداء (أ) سعره 120

يناً، وغداء (ب) 100 ين، وغداء (ج) ثمانون يناً. إذا أكلتُ من غداء (أ)، يلقي عليَّ الجميع نظرات قذرة، وكل من لا يستطيع أن يطلب الغداء (ج)، يأكل المعكرونة بستين يناً. هذه هو المكان الذي أرتاده. أما زلت تعتقدين أن بوسعي التحدث إلى فتيات مدرستك؟»

طفقت هاتسومي بالضحك: «ما أرخصه من أكل!» قالت: «ربما يجب أن أذهب إلى هناك لتناول الغداء! لكن حقاً تورو، أنت شاب لطيف. وأنا واثقة أنك ستوفق في علاقتك بهذه الفتاة. ولعلها ستحب وجبة الطعام بمائة وعشرين يناً».

قلت ضاحكاً: «على الإطلاق. ما من أحد يأكل هذا الأكل لأنه يحبه، بل يأكلونه لأنهم لا يستطيعون الحصول على أفضل منه».

«على أية حال، لا تحكم على الكتاب من غلافه. صحيح أننا نذهب إلى هذه الأماكن المتعجرفة، لكن كثيرين منا أناس جادون يفكرون أفكاراً جدية عن الحياة. ولا يبحث الجميع عن صديق عنده سيارة سبورت».

قلت: «أعرف ذلك جيداً».

قال ناغاساوا: «واتانابي لديه صديقة! إنه يحب. لكنه لا يريد أن ينبس بكلمة عنها. حين يصل إلى ذكرها، تزم شفتاه بإحكام. أحجية يغلفها لغز».

سألتني هاتسومي: «حقاً؟»

قلت: «حقاً. ولكن لا وجود للغز هنا. الخلاصة أن الأمر معقد ويصعب الحديث عنه».

«حب محظور! أوووه! تستطيع التحدث معي!».

أخذت رشفة من الخمر لأتحاشى الجواب.

«هل تفهمين ما أقصده؟» قال ناغاساوا وهو يتناول كأسه الثالثة من الويسكي: «مزموم الشفتين بإحكام. حين يقرر هذا الفتى أن لا يتحدث مع أحد عن شيء ما، فلن يستطيع أحد استخراج الكلام منه».

«يا للعار!» قالت هاتسومي وهي تقتطع شطيرة من طبقها وتنقلها إلى شفتيها: «إذا انسجمتَ معها، فيمكننا أن نعقد لقاء مزدوجاً».

قال ناغاساوا: «نعم، نستطيع أن نسكر ونتقايض الحبيبات قليلاً».

قالت هاتسومي: «كفَّ عن هذا النوع من الحديث».

«ماذا تقصدين بهذا النوع من الحديث؟ عين واتانابي مصوبة إليك» قال ناغاساوا.

تمتمت هاتسومي: «لا علاقة لهذا بما أتحدث عنه. ليس هو من ذلك النوع. فهو صادق وجاد. أجزم بذلك. ولهذا أريده أن يقيم علاقة مع هذه الفتاة».

«آه، بالتأكيد، إنه صادق حقاً. مثل تلك المرة التي تبادلنا فيها النساء. هل تذكر واتانابي؟» قال ناغاساوا ومظهر التخمة بادٍ على وجهه، ثم تجرع بقية الويسكي وطلب آخر.

وضعت هاتسومي سكينها وشوكتها على الطاولة ومسحت بمنديلها على فمها. ثم سألتني وهي تتطلع إليَّ:

«تورو، هل فعلت هذا حقاً؟»...

لم أعرف كيف أجيبها، ولذلك لم أقل شيئاً.

قال ناغاساوا: «أخبرها بحق الجحيم». تحول مزاجه إلى النكد. وحين يسكر ناغاساوا يصير فظاً. غير أن فظاظته الليلة كانت تستهدف هاتسومي، ولا تستهدفني. أدركت أنه أصبح من العسير عليّ الاستمرار جالساً هناك.

قالت هاتسومي: «أود سماع هذا. يبدو أنه أمر مثير جداً!».

قلت: «كنا سكرانين».

«لا بأس، تورو، لست ألومك. أريدك فقط أن تخبرني بما حصل».

«كنا نحن الاثنين نشرب في بار في شيبويا، وتعرفنا على هاتين الفتاتين اللطيفتين. كانتا طالبتين في كلية، وثملتين تماماً أيضاً. على أية

حال، ذهبنا إلى فندق ونمنا معهما. كانت غرفتانا متلاصقتي الأبواب. في منتصف الليل، طرق ناغاساوا على بابي وقال إننا يجب أن نتبادل الفتاتين، فذهبت إلى غرفته وجاء إلى غرفتي».

«ألم تمانع الفتاتان؟»

«لا، كانتا سكرانتين أيضاً».

قال ناغاساوا: «على أية حال، كان عندي سبب جيد».

«سبب جيد؟»

«نعم، كانت الفتاتان مختلفتين تماماً. إحداهما جميلة فعلاً، والأخرى أبشع من الكلب. وقد بدا لي ذلك ظلماً. أخذت الجميلة، وكانت الأخرى من نصيب واتانابي. لهذا تبادلناهما. أليس صحيحاً، واتانابي؟»

قلت: «نعم، أفترض هذا». لكنني في الحقيقة كنت قد أحببت القبيحة فيهما. كانت فتاة لطيفة المعشر جميلة الشخصية. بعد أن مارسنا الجنس، تمتعنا بالحديث مع بعضنا في السرير، حينها ظهر ناغاساوا واقترح تبادل الشريكات. سألت الفتاة: هل تمانع، فقالت لا بأس بذلك إذا كان هذا ما نريده. ولعلها اعتقدت أنني أردت الممارسة مع الجميلة.

سألتني هاتسومي: «هل كان ممتعاً؟»

«تقصدين التبادل؟»

«هذا الشيء كله».

«ليس فيه ما يميزه. شيء نفعله. مضاجعة الفتيات على هذا النحو تخلو من المتعة».

«إذاً لماذا تفعلها؟»

قال ناغاساوا: «بسببي».

«أنا أسأل تورو» صرخت هاتسومي بوجه ناغاساوا: «لماذا تفعل شيئاً كهذا؟»

«لأنني أحياناً تنتابني رغبة جامحة في النوم مع فتاة».

«إذا كنت تحب شخصاً ما، ألا يمكن أن تتدبر طريقة أو أخرى معه؟» سألت هاتسومي بعد بضع لحظات من التفكير.

«الأمر معقد».

تنهدت هاتسومي.

في تلك اللحظة انفتح الباب وجلب النادل الطعام. قدم لناغاساوا بطته المحمصة، وتلقينا أنا وهاتسومي ذئب البحر. كوّم النُّدُل الخضروات المطبوخة على صحوننا وقطروا فوقها الصلصة قبل أن ينسحبوا ويتركونا نحن الثلاثة وحدنا ثانية. قطع ناغاساوا شريحة من البطة وأكلها بتلذذ، مشفوعة بمزيد من الويسكي. وأخذت مقدار شوكة من السبانخ. أما هاتسومي فلم تمس طعامها.

قالت: «أنت تعرف تورو، ليست لدي فكرة عما يجعل موقفك بهذا التعقيد، لكني أعتقد أن هذا النوع من الأشياء التي تحدثت عنها تواً ليست صحيحة بالنسبة لك. لستَ شخصاً من ذلك النوع. ماذا تعتقد؟» وضعت يدها على الطاولة وركزت على عيني.

قلت: «حسناً، أشعر أحياناً بهذه الطريقة».

«إذاً لماذا لا تتوقف؟»

أجبت صادقاً: «لأنني أحياناً بحاجة إلى الدفء البشري. أحياناً إذا لم أشعر بشيء له دفء جلد امرأة، أحس بوحدة لا أستطيع احتمالها».

تدخّل ناغاساوا: «هنا، دعيني أختصر الأمر. لدى واتانابي فتاة يحبها، ولكن لبعض الأسباب المعقدة، لا يستطيعان النوم معاً. ولذلك يقول لنفسه: «الجنس هو الجنس» ويحرص على نيل حاجته من واحدة أخرى. ما العيب في ذلك؟ هذا شيء مفهوم تماماً. لا يستطيع أن يظل محتجزاً في غرفته يتقلب طوال الوقت، هل يستطيع؟»

«لكن إذا كنت تحبها حقاً، تورو، ألا يمكنك السيطرة على نفسك؟»

«ربما يمكنني» قلت وأنا أنقل قطعة من ذئب البحر إلى فمي.

قال ناغاساوا لهاتسومي: «أنت فقط لا تفهمين حاجات الرجل الجنسية. انظري إليّ على سبيل المثال. أنا معك منذ ثلاث سنوات، وفي هذا الوقت ضاجعت عدداً لا حصر له من البنات. لكنني لا أتذكر عنهن أي شيء. لا أعرف أسماءهن، ولا أتذكر وجوههنّ. نمت مع كل واحدة منهن مرة واحدة تماماً. أقابلهن، أمارس معهن، إلى اللقاء. هذا كل شيء. ما العيب في ذلك؟»

«ما لا أحتمله هو لهجتك المتغطرسة» قالت هاتسومي بصوت ناعم. «سواء أكنت تنام مع نساء أخريات أم لا، ليس هذا هو الموضوع. لم يسبق لي في الواقع أن تبرمت لكونك تضاجع أخريات، هل تبرمت يوماً؟»

قال ناغاساوا: «لا تستطيعين حتى أن تسميها مضاجعة. إنها مجرد لعبة. لا تؤلم أحداً».

قالت هاتسومي: «أنا تؤلمني. لماذا لا أكفيك؟»

بقي ناغاساوا صامتاً للحظة، وتناول الويسكي من كأسه: «لا تتعلق المسألة بكونك لا تكفينني. هذا جانب آخر، قضية أخرى. إنه مجرد جوع ينزو في داخلي. إذا كنت قد آلمتك، فأنا آسف. لكن المسألة لا تتعلق بكونك لا تكفينني. لا أستطيع الآن أن أتعايش مع هذا الجوع. هذا هو طرازي. هذا ما يجعل مني ما أنا عليه. ولا أستطيع القيام بأي شيء بصدده. ألا ترين؟»

في النهاية التقطت هاتسومي آنية مائدتها الفضية وبدأت بأكل سمكتها.

«على الأقل كان يجب ألا تسحب تورو إلى ألعابك؟»

قال ناغاساوا: «كنا متشابهين كثيراً، أنا وواتانابي. فكلانا لا يهتم في الجوهر بأي شيء عدا نفسه. OK، أنا متغطرس، وهو لا، لكن أياً منا لا يشعر بالاهتمام بأي شيء آخر إلا ما نفكر فيه نحن أو نحسه أو نفعله. ولهذا السبب نستطيع أن نفكر في الأشياء بطريقة مختلفة تماماً عن أي

شخص آخر. وهذا ما أحبه فيه. الفرق الوحيد أنه لم يعرف هذا عن نفسه، ولذلك يتردد ويشعر بالألم».

تساءلت هاتسومي: «أي إنسان لا يتردد أو يشعر بالألم؟ هل تحاول القول إنك لم تشعر أبداً بهذه الأمور؟»

«بالطبع شعرت، لكني علمت نفسي أين يمكنني اختزالها إلى الحد الأدنى. حتى الجرذ يختار الطريق الأقل إيلاماً إذا صدمته بما يكفي».

«لكن الجرذان لا تقع في الحب».

«الجرذان لا تقع في الحب». تطلع إليَّ ناغاساوا: «هذا عظيم. يجب أن تكون لدينا موسيقى تصويرية لهذا - فرقة موسيقية بالأعواد و...».

«لا تستهزئ بي. أنا جادة».

قال ناغاساوا: «نحن نأكل. وواتانابي هنا. قد يكون الأولى والأكثر تحضراً أن نؤجل الحديث الجاد إلى مناسبة أخرى».

قلت: «أستطيع أن أغادر».

قالت هاتسومي: «لا، رجاءً، ابق».

قال ناغاساوا: «على الأقل تناول الحلويات».

«لا أمانع حقاً».

بقينا نحن الثلاثة صامتين لفترة. أكملت سمكتي. وتركت هاتسومي نصف سمكتها. وكان ناغاساوا قد انقض على بطته قبل ذلك بكثير، وصار يكثر الآن من شرب الويسكي.

«ذئب بحر ممتاز» قلت، دون أن يبالي أحد بما قلته. ربما أكون قد ألقيت حجراً في بئر عميقة.

أخذ النُّدُل صحوننا، وجلبوا شراب الليمون وقهوة الإكسبرس. لم يلمس ناغاساوا الحلويات أو القهوة، وانتقل فوراً إلى سيجارة. وتجاهلت هاتسومي شرابها. «يا للفتى» فكرت مع نفسي حين أنهيت شرابي

وقهوتي. حدقت هاتسومي في يديها على الطاولة. ومثل كل ما تلبسه، بدت يداها جميلتين وأنيقتين وغاليتين. فكرت في ناوكو ورايكو. تساءلت ما الذي تعملانه الآن؟ ربما كانت ناوكو ممددة على أريكة تقرأ كتاباً، وربما كانت رايكو تعزف «الغابة النروجية» على قيثارها. شعرت برغبة شديدة تساورني للعودة إلى غرفتهما الصغيرة. ما الذي أفعله بحق الجحيم في هذا المكان؟

قال ناغاساوا: «ما نتشابه فيه أنا وواتانابي هو أننا لا نعير التفاتة إذا لم يفهمنا أحد. وهذا ما يجعلنا مختلفين عن كل من عدانا. الجميع يقلق إذا لم يفهمهم الناس حولهم. لكن لست أنا، ولا واتانابي. نحن لا نعير ذلك أدنى التفاتة. الذات والآخرون شيئان منفصلان».

سألتني هاتسومي: «هل هذا صحيح؟»

قلت: «لا، لست بتلك القوة. لا أشعر بأني على يرام إذا لم يفهمني أحد. يجب أن أفهم الناس الذين أريدهم ويفهموني. ولكن بصرف النظر عن هؤلاء القلة، حسناً أشعر بنوع من ضعف الحيلة. لا أتفق مع ناغاساوا. أنا فعلاً أحرص على أن يفهمني الناس».

«عملياً هذا هو الشيء نفسه الذي أقوله» قال ناغاساوا وهو يلتقط ملعقة قهوته: «إنه الشيء نفسه! إنه الفرق بين الفطور المتأخر والغداء المتقدم. الوقت نفسه، الطعام نفسه، والاسم مختلف».

استدارت هاتسومي إلى ناغاساوا وسألته: «ألا تبالي إذا فهمتك أو لا؟»

«أنت لم تفهمي قصدي. يفهم الشخص أ الشخص ب لأن الوقت مناسب لحصول ذلك، لا لأن الشخص ب يريد أن يكون مفهوماً من قبل أ».

«لذلك من الخطأ بالنسبة لي أن أشعر بالرغبة في أن يفهمني شخص ما - أنت على سبيل المثال؟»

أجاب ناغاساوا: «لا، ليس من الخطأ. أكثر الناس يسمي ذلك حباً،

إذا فكرت في الرغبة في أن تفهميني. نظامي في الحياة طريقة تختلف عن نظم بقية الناس».

«إذاً أنت تقول إنك لا تحبني، أهذا ما تقوله؟»

«حسناً، نظامي ونظامك...»

«إلى الجحيم بنظامك اللعين!» صرخت هاتسومي. وكانت هذه أول وآخر مرة أسمعها تصرخ.

ضغط ناغاساوا على زر على المائدة، فجاء النادل بالقائمة. وسلمه ناغاساوا بطاقته الائتمانية.

قال ناغاساوا: «آسف لذلك، واتانابي. سأذهب لرؤية هاتسومي في البيت. ستذهب إلى المهجع وحدك، OK؟»

«لا ينبغي أن تعتذر لي. وجبة عظيمة» قلت، ولكن لم يرد عليّ أحد بجواب.

عاد النادل بالبطاقة ووقع ناغاساوا على الورقة بالقلم الجاف بعد التأكد من المبلغ. وقفنا نحن الثلاثة ومضينا خارجين. مشى ناغاساوا بضع خطوات إلى الشارع ليوقف سيارة تكسي، لكن هاتسومي أوقفته.

«شكراً لكني لا أريد قضاء مزيد من الوقت معك اليوم. لا ينبغي أن نلتقي في البيت. شكراً على العشاء».

قال ناغاساوا: «مهما يكن».

«أريد أن أرى تورو في البيت».

قال ناغاساوا: «مهما يكن. لكن واتانابي يشبهني عملياً. قد يكون فتى لطيفاً، لكنه في أعماق قلبه لا يقدر على منح الحب لأحد. هناك دائماً جزء منه غائر في مكان ما ومنفصل. لديه أيضاً جوع لا يريد أن يبارحه. صدقيني، أنا أعرف ما أتحدث عنه».

أشرت لإيقاف تكسي وتركت هاتسومي تصعد أولاً. قلت لناغاساوا: «على أية حال، سأتأكد من وصولها إلى البيت».

«آسف لوضعك في هذه الوضعية» قال ناغاساوا، لكني كان بوسعي أن أدرك أنه كان يفكر في شيء آخر.

ما إن صعدنا في سيارة الأجرة، حتى سألتُ هاتسومي: «هل تريدين أن تذهبي؟ تعودين إلى أبيسو؟» شقتها في أبيسو.

هزت رأسها.

«حسناً، ما رأيك بتناول الشراب في مكان ما؟»

قالت وهي تهز رأسها: «نعم».

قلت للسائق: «شيبويا».

غطست هاتسومي في زاوية المقعد، وهي تطوي ذراعيها، وتغمض عينيها. وحين كانت السيارة تتأرجح، كانت أقراطها الذهبية الصغيرة تعكس الأضواء. بدت ملابس زرقة منتصف الليل التي ترتديها قد أُعدت لتلائم ما في داخلها من ظلمة. بين الحين والآخر تبدو شفتاها المزينتان بلطافة، والمكونتان بجمال، تنفرجان وكأنها أمسكت نفسها على وشك الحديث مع نفسها. أستطيع أن أعرف وأنا أراقبها لماذا اختارها ناغاساوا كشريك مميّز. هناك عدد كبير من النساء أجمل من هاتسومي، وكان بوسع ناغاساوا أن يتخذ أياً منهن شريكة له. لكن هاتسومي تمتاز ببعض الخصال التي تبعث الرعشة في قلبك. كانت القوة التي تمارسها شيئاً رهيفاً، لكنه يدعو إلى ترجيعات عميقة. راقبتها طوال الطريق إلى شيبويا، وتساءلت، دون أن أحظى بجواب، أي تذبذب انفعالي تحس به في داخلها.

أخيراً داهمني بعد ما يقرب من عشر سنوات. كنت قد ذهبت إلى «سانتا في» لمقابلة رسام، وجلست في ردهة بيتزا محلية، آكل البيتزا وأشرب البيرة، وأراقب الغروب الجميل المعجز. كان كل شيء منقوعاً

بالأحمر الوهاج - يدي واللوح والمائدة والعالم - وكأن نوعاً خاصاً من عصير الفاكهة نشر رذاذه على كل شيء. وفي غمرة هذا الغروب الجارف، التمعت صورة هاتسومي في ذهني، وفي تلك اللحظة فهمت ماذا كانت تلك الرعشة التي تبعثها في القلب. لقد كانت نوعاً من الحنين الطفولي الذي بقي دائماً، وسيبقى إلى الأبد، لا يتحقق. كنت قد نسيت وجود ذلك الحنين البريء، الذاوي: نسيت لسنين أن تلك المشاعر قد وجدت ذات مرة في داخلي. حركت هاتسومي في داخلي جزءاً من ذاتي كان هاجعاً لمدة طويلة. وحين داهمني هذا الإدراك، سبب لي حزناً شديداً أوشكت الدموع معه أن تتساقط من عينيّ. لقد كانت امرأة مميزة على نحو مطلق. وكان يجب على أحد ما أن يفعل شيئاً، أي شيء، لإنقاذها.

لكن لا ناغاساوا ولا أنا قررنا القيام بذلك. وقد وصلت هاتسومي، مثلما فعل كثيرون ممن عرفتهم، إلى مرحلة معينة من الحياة قررت فيها عفو الخاطر تقريباً أن تنهيها. فبعد سنتين من مغادرة ناغاساوا إلى ألمانيا، تزوجت، وبعد سنتين قطعت شريانها بشفرة حلاقة. بالطبع كان ناغاساوا هو من أخبرني بما حصل. كانت رسالته من بون تقول ما يأتي: «لقد أطفأ موت هاتسومي شيئاً ما. وهذا مبعث حزن لا يطاق وألم لا ينتهي، حتى بالنسبة إليّ». مزقت هذه الرسالة إرباً إرباً ورميتها. ولم أكتب له بعدها أبداً.

ذهبنا أنا وهاتسومي إلى بار صغير وطلبنا عدة مشروبات. لم يتحدث أحد منا كثيراً. ومثل زوجين مملين عجوزين، جلس كل منا قبالة الآخر نشرب بصمت ونطحن فستق العبيد. وحين ابتدأ المكان يغص بالزبائن، خرجنا لنتمشى. قالت هاتسومي إنها تود أن تدفع الفاتورة، لكنني أصررت على الدفع لأن فكرة الشرب كانت فكرتي.

سرت قشعريرة عميقة في هواء الليل. دثرت هاتسومي نفسها بسترتها الصوفية الرمادية الشاحبة ومشت إلى جواري بصمت. لم تكن في بالي غاية معينة، ونحن نتهادى في الطرقات الليلية، ويداي مدسوستان عميقاً في جيبيّ. وقد تراءى لي أنه مشي مماثل للمشي مع ناوكو.

«هل تعرف مكاناً يمكننا أن نلعب فيه البليارد قريباً من هنا؟» سألتني هاتسومي دون إنذار.

«بليارد؟ هل تلعبين؟»

«نعم، أنا العب بشكل جيّد. وماذا عنك؟»

«ألعب قليلاً. لكنني لست متمرساً فيه».

«حسناً، إذاً، دعنا نذهب».

وجدنا قاعة بليارد قريبة ودخلنا. كان مكاناً صغيراً في النهاية القصوى لممشى. اقتحمنا نحن الاثنين -هاتسومي بملابسها الأنيقة وأنا ببلوزتي الزرقاء وربطتي العسكرية - قاعة البليارد الوضيعة، ولكن لم يظهر أن ذلك عنى شيئاً لهاتسومي على الإطلاق حين اختارت كرتها وأشرت عليها. أخرجت مشبك شعر من حقيبتها وثبتت شعرها إلى جانب أحد الصدغين لكي تمنعه من مقاطعتها أثناء اللعب.

لعبنا جولتين. وقد ظهر أن هاتسومي أحسن مما ادعته، في حين كان لعبي مشوشاً بسبب اللفافة التي ما زلت ألبسها على يدي المجروحة. سحقتني سحقاً بفوزها.

قلت بإعجاب: «أنت عظيمة».

«تعني أن المظاهر قد تخدع أحياناً؟» سألت وهي توجه تسديدة، بابتسامة.

«أين تعلمت اللعب بهذه الكيفية؟»

«جدي لأبي كان لاعباً قديماً. كان لديه طاولة في بيته. وقد تعودت أن ألعب البليارد مع أخي على سبيل التسلية، وحين كبرت قليلاً علمني

جدي النقلات الصحيحة. كان رائع الأسلوب، أنيق المظهر. لقد مات الآن. كان دائماً يتباهى كيف قابل ذات مرة ديانا دورين في نيويورك».

حصلت على ثلاث نقاط صفاً، لكنها أخطأت في المحاولة الرابعة. بدأت بالضغط على نقطة معينة، ثم ضيعت ضربة سهلة.

«اللفافة هي السبب» قالت هاتسومي لتريحني.

قلت: «لا، بل لأنني لم ألعب منذ زمن طويل. سنتان وخمسة شهور».

«كيف تأكدت من هذا الزمن بالضبط؟»

قلت: «مات صديقي بعد آخر ليلة لعبنا فيها معاً».

«ومنذ ذلك الحين توقفت عن اللعب؟»

«في الحقيقة لا»، قلت بعد شيء من التفكير: «لم تتح لي الفرصة للعب بعد ذلك الوقت. هذا كل شيء».

«كيف مات صديقك؟»

«في حادث سير».

وجهتْ تسديدات متعددة كثيرة، تستهدفها بجدية قاتلة وتسدد قوة كل ضربة بدقة. شعرت وأنا أراقبها - شعرها المتراجع بعناية عن عينيها، أقراطها الذهبية التي تتلامع، حذاؤها المتروك على الأرض، أصابعها الغضة المحببة وهي تضغط على نسيج البليارد الأخضر بعد أن تسدد ضربتها- وكأن جانبها من قاعة البليارد الوضيعة قد تحول إلى جزء من حدث اجتماعي رائع. لم يحدث لي أن قضيت معها وقتاً من قبل، وقد كانت هذه تجربة مذهلة بالنسبة إليّ وكأنني ارتفعت إلى مستوى أعلى في الحياة. في نهاية الجولة الثالثة - التي سحقتني فيها مرة أخرى بالطبع - بدأ جرحي ينبض ولذلك توقفنا عن اللعب.

«أنا آسفة» قالت بما بدا لي اهتماماً أصيلاً: «ما كان يجب أن أقترح هذا».

قلت: «لا بأس، ليس بالجرح الخطير. وقد تمتعت باللعب فعلاً».

حين كنا نغادر قاعة البليارد، قالت المرأة النحيفة صاحبة القاعة لهاتسومي: «لديك طلعة جميلة، أيتها الأخت». ردت عليها هاتسومي بابتسامة عذبة وشكرتها ودفعت المطلوب.

«هل تؤلم؟» سألتني ونحن نخرج.

قلت: «ليس كثيراً».

«هل تعتقد أنه انفتح؟»

«لا، ربما يكون على ما يرام».

«أعرف! يجب أن تأتي إلى بيتي. سأغير اللفافة. لدي معقم وكل شيء. هيا. ليس ببعيد عن هنا».

أخبرتها بأنه شيء لا يستحق القلق، وأنني سأكون على ما يرام، لكنها أصرت بأننا يجب أن نتأكد مما إذا كان الجرح قد انفتح أم لا.

«أم أنك لا تريد أن تكون معي؟ تريد أن تعود إلى غرفتك بأسرع ما يمكن، هل هذا صحيح؟» قالت بابتسامة دلال.

قلت: «على الإطلاق».

«حسناً، إذاً، لا تقف متحجراً. مجرد خطوة».

كانت شقة هاتسومي تبعد 15 دقيقة من المشي عن شيبويا باتجاه أبيسو. مبنى فاخر على نحو واضح، أكثر من محترم، فيه صالة صغيرة جميلة ومصعد. أجلستني هاتسومي إلى طاولة المطبخ وذهبت إلى غرفة النوم لتغيير ملابسها. جاءت وهي ترتدي قميص برنستون بغطاء رأس، وبنطالاً قطنياً، ولم تعد في آذانها أقراط. حلت الأربطة حول يدي، بعد أن وضعت صندوق الإسعاف الأولي على الطاولة، وتفحصت الجرح لترى هل ما زال ملتئماً، ووضعت قليلاً من المطهرات على المنطقة وشدت لفافة جديدة حول الجرح. وقد قامت بكل هذه الأشياء بحذاقة خبير.

سألتها: «كيف امتلكت الخبرة بكل هذه الأشياء الكثيرة؟»

«كنت أقوم بعمل طوعي في أحد المستشفيات. نوع من التمريض. وهكذا تعلمتها».

حين انتهت هاتسومي من شد اللفافة، ذهبت وأحضرت علبتين من البيرة من الثلاجة. شربت نصف علبتها، وشربت أنا علبتي زائداً النصف الذي تركته. ثم أرتني صوراً لفتيات أخريات في ناديها. لقد كانت على صواب: بعضهن في غاية الجاذبية.

قالت: «أي وقت تقرر أن تريد صديقة، فقط تعال إليَّ. وسأتدبر لك واحدة على الفور».

«نعم، آنستي».

«حسناً، تورو، قل لي الحقيقة. هل تعتقد أنني صديقة من طراز قديم؟»

«إلى حد ما» قلت، لكي أخبرها بالحقيقة، ولكن بابتسامة. ابتسمت هاتسومي أيضاً. كانت تبدو جميلة حين تبتسم.

قالت: «قل لي شيئاً آخر، تورو، ماذا تعتقد بشأن ناغاساوا وشأني؟»

«ماذا تقصدين ماذا أعتقد؟ بشأن ماذا؟»

«بشأن ما ينبغي أن أفعله. من الآن فصاعداً».

«لا يهم ما أعتقده». قلت، وأنا أتناول جرعة من البيرة الباردة.

«حسناً. إذاً قل لي بالضبط ما تعتقد».

«حسناً، لو كنت مكانك، لتركته. كنت سأبحث عن شخص اعتيادي في نظرته إلى الأشياء وعشت معه بسعادة. لا مجال للسعادة معه بحق الجحيم. فالطريقة التي يعيش وفقها، لم يخطر بباله مطلقاً أن يحاول أن يسعد نفسه أو يسعد الآخرين. لن يجلب لك البقاء معه سوى إتلاف جهازك العصبي. بالنسبة إليَّ تبدو معجزة أنك بقيت معه ثلاث سنوات. بالطبع أنا مفتون به بطريقتي الخاصة. فهو لطيف ويتمتع بكثير من

الخصال الحميدة. لديه قوى وإمكانيات لا أستطيع أن أحلم بامتلاكها. ولكن في النهاية، أفكاره والطريقة التي يعيش حياته وفقها ليست اعتيادية. أحياناً حين أتحدث معه، أشعر بأني أدوخ وتضيق عليَّ الدوائر. والعملية نفسها التي تبث فيه البهجة والغرور تأخذ بخناقي وتدوخني. تشعرني بالفراغ إلى حد كبير! ثم إن نظامينا مختلفان كلياً. هل تفهمين ما أقول؟»

«أفهم» قالت هاتسومي وجلبت لي بيرة أخرى من الثلاجة.

«زيدي على ذلك أنه حين يلتحق بوزارة الخارجية ويكمل سنة التدريب، سيسافر إلى الخارج. ماذا ستفعلين كل هذا الوقت؟ تنتظرينه؟ ليست لديه نية في الزواج من أية فتاة».

«أعرف هذا أيضاً».

«إذاً لم يعد لديّ ما أقوله».

قالت هاتسومي: «أعرف».

ببطء ملأت كأسي بالبيرة.

قلت: «أنت تعرفين، حين كنا نلعب البليارد قبل قليل، خطر على بالي شيء. لقد كنت طفلاً وحيداً لأبويَّ، لكني لم أشعر مرة خلال الزمن الذي كبرت فيه أنني متوحد، أو لم أرغب في أن يكون لديّ إخوان أو أخوات. كنت سعيداً بكوني وحدي. ولكن فجأة، وأنا ألعب البليارد، داهمني الشعور بالرغبة في أن تكون لي أخت صغرى مثلك، رائعة فعلاً وجذابة في ملابس زرقة الليل، وتضع أقراطاً ذهبية، ومتمرسة في كرة البليارد».

التمعت أسارير هاتسومي بابتسامة سعادة. قالت: «هذا أجمل شيء سمعته من أحد طوال السنة الماضية فعلاً».

قلت على استحياء: «كل ما أريده لك أن تكوني سعيدة. لكنه جنون. أنت تتمنين أن تلحق السعادة بالآخرين، فكيف انتهيت إلى ناغاساوا من دون الناس كلهم؟»

«تحدث أشياء مثل ذلك. ربما لا تستطيع فعل الكثير من أجلهم. وهذا بالتأكيد صحيح في حالتي. بالطبع يقول ناغاساوا إنها مسؤوليتي، لا مسؤوليته».

«أنا واثق أنه يقول ذلك».

«لكن على أية حال، تورو، لست أذكى فتاة في العالم. بالعكس ربما أقف على الجانب الغبي والطراز البالي. فلم أكن لأحرص على الأنظمة والمسؤولية. كل ما أريده هو أن أتزوج ويصير عندي رجل أحبه يأخذني بين ذراعيه كل مساء وننجب الأطفال. هذا كثير بالنسبة لي. وهو كل ما أريده من الحياة».

«ما يريده ناغاساوا من الحياة لا علاقة له بهذا على الإطلاق».

«لكن الناس تتغير مع ذلك، ألا تعتقد هذا؟» سألتني هاتسومي.

«تقصدين أنهم يخرجون إلى المجتمع، ويصفعهم على قفاهم، ويكبرون؟»

«نعم. وإذا ابتعد عني لمدة طويلة، فقد تتغير مشاعره نحوي، ألا تعتقد ذلك؟»

قلت: «ربما، لو كان فتى سوياً. لكنه مختلف. إنه قوي الإرادة على نحو لا يصدق، أقوى مما نتخيل أنا وأنت. وفي كل يوم يمر يزداد قوة. إذا اندفع، فهو يعمل فقط على جعل نفسه أقوى. يأكل اليرقانات قبل أن يعود إلى أحد. ما الذي تتوقعينه من إنسان كهذا؟»

«لكن لا يوجد ما أفعله سوى انتظاره» قالت هاتسومي وذقنها في يدها.

«هل تحبينه إلى هذا الحد؟»

«أحبه» أجابت دون لحظة من التردد.

«يا للفتى» قلت متنهداً، وشربت ما تبقى في كأسي من البيرة.

«لا بد أنه شيء رائع أن تكوني متأكدة من أنك تحبين شخصاً ما».

قالت: «أنا فتاة غبية، من الطراز القديم. هل تريد بيرة أخرى؟»

«لا، شكراً. يجب أن أذهب. شكراً على اللفافة والبيرة».

وأنا ألبس حذائي في صالة الخروج، رن التلفون. نظرت إليّ هاتسومي، ونظرت إلى التلفون، ثم إليّ مرة أخرى.

«ليلة طيبة» قلت وأنا أخطو خارجاً. وحين أغلقتُ الباب، لمحت هاتسومي تلتقط سماعة التلفون. وكانت تلك آخر مرة رأيتها فيها.

كانت الساعة 11,30 حين عدت إلى المهجع. ذهبت مباشرة إلى غرفة ناغاساوا وطرقت على بابه. بعد الطرقة العاشرة تذكرت أنها ليلة السبت. وفي ليالي السبت يحصل ناغاساوا على إجازة ليلية يفترض فيها أنه يقيم في بيت أقاربه.

عدت إلى غرفتي، وفككت ربطة عنقي، وعلقت بنطالي وسترتي على الشماعة، وغيرت ملابسي بلبس البيجامة، ونظفت أسناني. آه، كلا، فكرت مع نفسي، غداً الأحد مرة أخرى. بدا وكأن الآحاد تتدحرج كل أربعة أيام. سبتان آخران وسأبلغ العشرين من العمر. تمددت على السرير، وحدقت في روزنامتي، حين كانت المشاعر المظلمة تنهال عليَّ.

جلست إلى طاولتي لأكتب رسالة صباح الأحد إلى ناوكو، وأنا أشرب القهوة من كوب كبير وأصغي إلى شريط قديم لمايلز دافيس. كان المطر يتساقط في الخارج، في حين كانت تسري في غرفتي قشعريرة حوض أسماك. انبعثت رائحة معقم العثة من البلوزة السميكة التي أخرجتها تواً من صندوق ملابسي. تشبثت ذبابة سمينة، ضخمة، بلوح النافذة دون حراك. مع عدم وجود ريح تحركها، تهدلت راية الشمس الساطعة على السارية مثل إزار نبيل روماني. كان كلب نحيف جبان المظهر يتجول في الساحة ويتشمم كل برعم في أصص الأزهار. لم أستطع أن أتخيل لماذا يجري كل كلب ليتشمم الأزهار في اليوم المطير.

كانت رسالتي طويلة، حينما تبدأ راحة يدي الجريحة اليمنى بإيلامي من حمل القلم، كنت أدع عيني تتجولان في الساحة الممطرة.

بدأت بإخبار ناوكو كيف تسببت بإحداث جرح غائر في يدي اليمنى وأنا أعمل في محل التسجيلات، ثم مضيت أقول لها بأننا أنا وناغاساوا وهاتسومي قد احتفلنا قبل ليلة من اجتياز ناغاساوا امتحان وزارة الخارجية. وصفت لها المطعم والطعام. قلت كانت الوجبة عظيمة، لكن سرعان ما تلبدت الأجواء.

تساءلت هل يجب أن أكتب لها عن كيزوكي وما أحسست به بصدد لعب البليارد مع هاتسومي وقررت أن أمضي قدماً. شعرت أنه شيء يجب أن أكتب عنه.

ما زلت أتذكر آخر تسديدة صوبها كيزوكي ذلك اليوم - اليوم الذي مات فيه. كانت تسديدة صعبة مرتاحة لم أتوقعها منه. برغم ذلك بدا أن الحظ يحالفه: فقد كانت التسديدة كاملة على نحو مطلق، ولم تكد الكرات الحمراء والبيضاء تصدر صوتاً وهي تتدافع على اللوح الأخضر في هدف اللعبة الأخير. كانت تسديدة بالغة الجمال، حتى أنني ما زلت أتذكرها حتى اليوم. ومنذ ما يقرب من سنتين ونصف، لم ألمس بعدها كرة.

في الليلة التي لعبت فيها البليارد مع هاتسومي، مع ذلك، لم يخطر على بالي التفكير في كيزوكي إلى أن انتهت اللعبة الأولى، فأحدث هذه بي صدمة حقيقية. لقد افترضت دائماً أنني سأتذكر كيزوكي حالما ألعب البليارد. لكنني لم أفكر فيه حتى بعد أن انتهت اللعبة الأولى، واشتريت البيبسي من البائع الآلي وبدأت بشربها. ما ذكرني به هو البائع الآلي، إذ كان في قاعة البليارد بائع آلي، وكنا عادة نتراهن على نتيجة الألعاب.

شعرت بالذنب لكوني لم أتذكر كيزوكي مباشرة، كأنما تخليت عنه بطريقة ما. على أنني في غرفتي صرت أنظر إلى القضية على النحو التالي: لقد مرت سنتان ونصف منذ أن حدث الأمر، وما

زال كيزوكي في السابعة عشرة من العمر. هذا لا يعني أن ذاكرتي عنه قد شحبت. فالأشياء التي أحدثها موته ما زالت موجودة، ساطعة وواضحة، في داخلي، بعضها أوضح مما لو كانت جديدة. ما أريد قوله هو التالي: سأتحول سريعاً إلى العشرين من العمر. لقد اختفى جزء مما كنا نشترك به أنا وكيزوكي حين كنا في السادسة عشرة والسابعة عشرة، ولن يفلح أي قدر من البكاء في استرداد ما فات. لا أستطيع تفسير الأمر أفضل من هذا، لكني أعتقد أنك ربما تحسنين فهم ما شعرت به وما أحاول أن أقوله. والحقيقة ربما تكونين الشخص الوحيد على الأرض الذي يمكنه فهمه.

أفكر فيك الآن أكثر من السابق. تمطر السماء اليوم. الآحاد الممطرة صعبة عندي. حين تمطر يصعب عليّ القيام بالغسيل، وهذا يعني أنني لن أكوي الملابس. لا أستطيع التمشي، ولا أستطيع الخروج إلى السطح. كل ما أفعله هو أن أستمع إلى المسجل وهو يعيد أغنية (نوع من الأزرق) مراراً بينما أراقب هطول المطر في الساحة. وكما كتبت لك سابقاً، لا تهب رياح ربيعي في الآحاد. ولهذا السبب هذه الرسالة اللعينة طويلة إلى هذا الحد. ها أنا أتوقف عنها. سأذهب إلى غرفة الطعام لتناول الغداء.

إلى اللقاء.

(9)

لم تظهر علامة على حضور ميدوري في محاضرة اليوم التالي أيضاً. ما الذي حدث لها؟ لقد مرت عشرة أيام منذ أن تحدثنا على الهاتف آخر مرة. فكرت في مكالمتها، لكنني حسمت أمري عن هذه الفكرة. لقد قالت إنها قد تتصل بي.

في تلك الثلاثاء رأيت ناغاساوا في قاعة الطعام. جلس إلى جواري وهو يحمل طبقاً ممتلئاً بالطعام، واعتذر لتنغيصه «حفلتنا».

قلت: «دعك من ذلك، يجب أن أفكر أن تتناول غداء عظيماً. برغم ذلك عليَّ أن أعترف بأن من المضحك الاحتفال بوظيفتك الأولى».

«يمكنك قول ذلك مرة أخرى».

مرت بضع دقائق أكلنا فيها بصمت.

قال: «لقد تصالحت مع هاتسومي».

«لا يدهشني هذا».

«لقد كنت خشناً معك أيضاً على ما أتذكر».

سألته: «ما بك تسرف في الاعتذار؟ هل أنت مريض؟»

قال وهو يهز رأسه هزات خفيفة: «ربما، تقول هاتسومي إنك طلبت منها أن تتركني».

قلت: «هذا شيء مفهوم».

قال ناغاساوا: «نعم، أفترض ذلك».

قلت وأنا أحتسي حساء الميزو: «إنها فتاة عظيمة».

قال وهو يتنهد: «أعرف، أعظم قليلاً من أن أستحقها».

* * *

كنت أنام نوم الموت حين رنّ الطنان ليخبرني بأن لدي مكالمة. استردني من صميم النوم المطلق بارتباك كامل. شعرت وكأنني كنت أنام ناقع الرأس في الماء حتى تورّم دماغي. تشير الساعة إلى أنها 6,15 ولكن لم أكن أدري أصباحاً أم مساءً، ولم أستطع أن أتذكر أي يوم من أيام الأسبوع. نظرت من النافذة وأدركت أنه لا يوجد علم على السارية. ربما كان المساء، وهكذا قد ينفع رفع العلم ذات مرة في جلب بعض الفائدة.

قالت ميدوري: «أين أنت واتانابي، هل لديك وقت الآن؟»

«لا أعرف، ما هو اليوم؟»

«الجمعة».

«صباحاً أم مساءً؟»

«مساء بالطبع، هل أنت على ما يرام! دعني أرى، إنها 6,18 مساء».

إذن فهو المساء أخيراً! هذا حسن، لقد تمددت على السرير أقرأ كتاباً فغلبني النعاس. الجمعة. بدأ رأسي يعمل. لم يكن من واجبي أن أذهب إلى محل التسجيلات مساء الجمعة. «نعم، لديّ وقت. أين أنت؟»

«في محطة وينو. لم لا تقابلني في شنجوكو؟ سأذهب الآن».

اتفقنا على الزمان والمكان وأنهينا المكالمة.

حين ذهبت إلى الموعد، كانت ميدوري تجلس في النهاية القصية من الصالة وأمامها شراب. كانت ترتدي معطفاً مجعداً أبيض، وكنزة صفراء ضيقة، وجينزاً أزرق، وإسوارين في الرسغ.

سألتها: «ماذا تشربين؟»

«توم كولنز».

طلبت ويسكي وصودا، ثم تنبهت إلى وجود حقيبة عند قدمي ميدوري.

قالت: «كنت في رحلة.. وقد عدت تواً».

«أين ذهبت؟»

«جنوباً إلى نارا، وشمالاً إلى أوموري».

«في الرحلة نفسها؟»

«لا تكن غبياً. قد أكون غريبة، لكني لا يمكن أن أذهب شمالاً وجنوباً في الوقت نفسه. لقد ذهبت إلى نارا بصحبة صديقي، ثم توجهت إلى أوموري وحدي».

ارتشفت الويسكي والصودا وتناولت القداحة لإشعال سيجارة المالبورو التي حملتها ميدوري بين شفتيها. «لا بدّ أنك مررت بوقت عصيب، مع المأتم وكُل شيء».

«لا، المأتم أسهل ما في الأمر. لقد جرّبناه كثيراً. تلبس كيمونو سوداء وتجلس مثل سيدة، وسيهتم الآخرون بعمل كل شيء -عم، خال، جيران، أقارب... إلخ. يجلبون الساكي، ويقدمون السوشي، يقولون أشياء مريحة، يبكون، يحلمون، يتبادلون التذكارات. المأتم نزهة. سفرة. قياساً برعاية شخص مريض يوماً بعد آخر، هو بالتأكيد رحلة. كنا مستنزفتين، أنا وأختي. لم نستطع حتى البكاء. لم تبق لدينا دموع نذرفها. فعلاً. باستثناء شيء واحد أنك حين تجلس هادئاً، يبدأون بالهمس والتقول عليك: «هاتان الفتاتان باردتان كالثلج». من هنا قررنا حينئذ ألا ننخرط في البكاء، هكذا كانت حالنا نحن الاثنتين. أعرف أنه كان بإمكاننا التظاهر بالتباكي، لكننا لم نحاول ذلك أبداً. أبناء الحرام. كلما ازدادوا رغبة في أن يرونا نبكي، ازددنا تصميماً على أن لا نشبع هذه الرغبة لديهم. أنا وأختي من نمطين مختلفين تماماً، ولكن حين نصل إلى شيء من هذا النوع، كنا نتوافق توافقاً مطلقاً».

أصدرت الأساور على ذراع ميدوري صوتاً وهي تلوح للنادل طالبة كأس توم كولنز آخر وعلبة صغيرة من الفستق.

«بعد ذلك حين انتهى المأتم وذهب كل واحد إلى بيته، ظللنا أنا وأختي نشرب الساكي حتى غابت الشمس. قضينا على قنينة نصف غالون كبيرة، ونصف واحدة أخرى، وطوال الوقت كنا نتناول الجميع: هذا أحمق، وذاك خرائي الرأس، ذلك الشاب يبدو مثل كلب أجرب، والآخر مثل خنزير، وفلان منافق، وعلان نصاب. لا تعرف كم شعرنا براحة كبيرة».

«أستطيع أن أتخيل ذلك».

«تبولنا وذهبنا للسرير -في غاية البرود. نمنا ساعات، وإذا رن الهاتف أو حصل شيء ما، كنا نتجاهله ونتركه كما هو. الموت للعالم. وأخيراً، بعد أن صحونا، طلبنا السوشي وتحدثنا عما ينبغي أن نفعل. قررنا أن نغلق المحل لفترة من الوقت ونمتع أنفسنا. لقد ظللنا نقتل أنفسنا شهوراً، وكنا نستحق فترة من الراحة. أرادت أختي أن تتسكع مع صديقها مدة من الزمن، وأنا قررت أن أذهب في رحلة لبضعة أيام وأتضاجع كمجنونة». أطبقت ميدوري فمها بإحكام وحكت أذنها:

«آه.. آسفة».

قلت: «لا بأس.. إذن ذهبت إلى نارا».

«نعم، كنت دائماً أحب ذلك المكان. المعابد. حديقة الظباء».

«وهل تضاجعت كمجنونة؟»

«لا، على الإطلاق، ولا حتى مرة واحدة». قالت بتنهيدة: «في اللحظة التي دخلنا فيها غرفة الفندق، وأفرغنا حقائبنا بدأت دورتي الشهرية. بئر حقيقية».

لم أستطع منع نفسي من الضحك.

«أليس هذا مضحكاً! كانت قبل موعدها بأسبوع! لم أستطع منع

نفسي من البكاء حين حصل ذلك. أعتقد أن جميع أنواع المكابدة تجمعت عليّ وطرحتني. استبد الغضب بصديقي جداً جداً. وكان يعتريه الغضب فوراً لأي شيء. لم تكن غلطتي، برغم ذلك. لم أرغب أن تأتيني الدورة. ودوراتي عادة من النوع الثقيل المزعج. يوماً أو يومين لا أرغب في فعل شيء. لذلك احرص على أن تبقى بعيداً عني عندما أكون في الدورة».

سألتها: «أود أن أبقى بعيداً، ولكن كيف سأعرف؟»

قالت ضاحكة: «حسناً، سألبس قبعة لعدة أيام بعد أن تبدأ الدورة. قبعة حمراء. لعل ذلك ينفع. إذا رأيتني في الشارع أرتدي قبعة حمراء، فلا تحدثني، بل اهرب».

قلت: «عظيم. أتمنى أن تفعل ذلك جميع الفتيات. على أية حال، ماذا فعلتم في نارا؟»

«ماذا كان يمكن أن نفعل؟ أطعمنا الغزلان وتمشينا في المكان. كان قبيحاً. ثم تبادلنا شجاراً كبيراً، ولم أره منذ أن عدنا. ظللت أتجول عدة أيام وقررت أن أقوم برحلة جميلة وحدي. لذلك عدت إلى أوموري. بقيت مع صديقة في هيروساكي في الليلتين الأوليتين، ثم شرعت بالسفر: شيموكيتا، تابي، أماكن من هذا النوع. وهي جميلة. مرة رسمت مخططات للمنطقة. هل سبق لك أن رأيتها؟»

«أبداً».

قالت ميدوري وهي ترتشف من كأسها «توم كولنز»، ثم تكسر حبة فستق: «على أية حال، طوال سفري وحدي، كنت أفكر فيك. كنت أفكر كم هو جميل لو أنني كنت معك».

«كيف يمكن؟»

«كيف يمكن؟!». تطلعت ميدوري إليَّ بعينين لا تركزان على شيء.

«ماذا تعني بقولك: كيف يمكن؟...؟»

«كيف يمكن لك أن تفكري فيَّ؟»

«ربما لأنني معجبة بك! هذا يمكن! وإلا لماذا أفكر فيك؟ من يمكن أن يفكر أن يكون مع شخص لا يحبه؟»

قلت: «لكن لديك صديقاً. ولا يجوز أن تفكري فيَّ». وأخذت رشفة من الويسكي والصودا.

«تقصد أنه من غير المسموح لي أن أفكر فيك إذا كان لديَّ صديق؟»

«لا، ليس هذا، أنا فقط...».

«لا تلف وتدرْ، واتانابي». قالت ميدوري وهي تشير إليَّ: «أنا أحذرك، لديَّ شهر بكامله من البؤس المحشور في داخلي، وأنا على استعداد للانفجار في أية لحظة. لذلك احرص على مراقبة ما تقوله لي. أي زيادة من هذا النوع سأغرق هذا المكان بالدموع. وحالما أبدأ، سأستمر الليلة بطولها. فهل أنت مستعد لذلك؟ أنا حيوانة مطلقة حين أجهش بالبكاء، ولا يهمني أين أنا! لست أمزح».

هززت رأسي وبقيت صامتاً. طلبت كأساً ثانية من الويسكي والصودا وأكلت بضع فستقات. من مكان ما وراء أصوات خلط الصحون وخشخشة الزجاج وصرير الثلج، كانت سارة فوغان تغني أغنية حب قديمة الطراز.

«لم تجرِ الأشياء بيني وبين صديقي على ما يرام منذ حادثة الحشوة».

«حادثة الحشوة؟»

«نعم، خرجت لأشرب معه وعدد من أصدقائه قبل شهر تقريباً ورويت قصة امرأة جارتنا عطست فطيرت حشوة أسنانها. مضحك، أليس كذلك؟»

«مضحك» قلت ضاحكاً.

«نعم، وهكذا اعتبره الفتيان الآخرون جميعاً. لكنه جن جنونه وقال: إنني ما كان ينبغي أن أتفوه بأشياء قذرة من هذا النوع. أشياء من نوع بطانية مبللة!».

«واو».

«إنه فتى رائع، لكنه قد يتحول إلى ضيق الأفق حين يصل الأمر إلى قضايا من هذا النوع» قالت ميدوري: «على سبيل المثال، يجن جنونه إذا لبست كلسوناً أبيض. ألا تعتقد أن هذا ضيق أفق؟»

قلت: «قد يكون، لكن المسألة مسألة ذوق». وقد بدا أمراً غير قابل للتصديق أن يتعلق فتى كهذا بصديقة مثل ميدوري، لكنني احتفظت بهذه الفكرة لنفسي.

سألتُ: «إذاً ماذا كنت تفعل؟»

«لا شيء كالسابق» قلت ثم تذكرت محاولتي الاستمناء عند التفكير في ميدوري كما وعدت أن أفعل. فأخبرتها بها بصوت خفيض حتى لا يسمعه الآخرون حولنا.

التمعت عينا ميدوري وطقطقت أصابعها: «وكيف جرى الأمر؟ هل كانت جيدة؟»

«لا، ارتبكت في منتصف الطريق وتوقفت».

«تعني أنك فقدت انتصابك؟»

«تقريباً».

قالت وهي تلقي نظرة انزعاجٍ عليَّ: «اللعنة، يجب ألا تدع نفسك ترتبك. فكر في شيء ما مثير حقاً. لا بأس في ذلك. أنا أسمح لك به. أعرف ما السبب! في المرة القادمة سأتصل بك تلفونياً: آه.. آه.. عظيم.. آه.. أحس به... توقف، سأصل إلى الذروة.. آه.. لا تفعل ذلك.. سأقول أشياء من هذا النوع وأنت تستمني».

شرحت لها: «تلفون المهجع في الممر أمام الباب الرئيسي، والناس يدخلون ويخرجون طوال الوقت. سيقتلني مدير المهجع بيديه العاريتين إذا رآني أستمني في مكان كهذا».

«آه، هذا سيئ».

قلت: «لا يهمك.. سأحاول مرة أخرى وحدي في أحد الأيام».

قالت ميدوري: «ابذل قصارى جهدك».

قلت: «سأفعل».

قالت: «لعل السبب يكمن فيّ. ربما لا أكون مثيرة. بالفطرة».

أكدت لها: «لا، ليس هذا السبب. بل هي مسألة موقف».

قالت: «أنت تعرف، لدي هذه الخلفية الحساسة جداً. لمسة ناعمة بالأصابع وينتهي كل شيء... ممم».

«سأبقي ذلك في بالي».

اقترحت ميدوري: «لماذا لا نذهب الآن ونرى فيلماً قذراً؟ فيلم فاحش حقاً».

خرجنا من البار إلى محل أنقليس، ومن هناك إلى واحدة من أكثر سينمات شنجوكو انحطاطاً، فهي المكان الوحيد الذي يمكننا أن نجد فيه عرض أفلام الفحش. في داخل السينما تضوع رائحة غير محددة. كان توقيتنا جيداً. فقد بدأ الفيلم في اللحظة التي وصلنا فيها إلى مقاعدنا. كانت قصة سكرتيرة وأختها الطالبة تختطفهما عصابة رجال ويعرضانهما لتعذيب سادي. أجبر الرجال الأخت الكبرى على القيام بأبشع الأشياء عن طريق تهديدها باغتصاب أختها، ولكن سرعان ما تتحول الأخت الكبرى إلى فورة من العنف المازوكي. بينما التوت الصغرى من المراقبة التي أجبروها عليها. كان فيلماً من الكآبة والتكرارية بحيث مللته بعد فترة وجيزة.

«لو كنت مكان الأخت الكبرى، لما قبلت بهذه السهولة» قالت ميدوري: «سأظل أشاهده».

قلت: «أنا واثق أنك ستشاهدينه».

«على أية حال، ألا تعتقد أن حلمتيها أكثر سواداً من حلمتي فتاة مدرسة - عذراء؟»

كانت عينا ميدوري متوهجتين أمام الشاشة. كنت منذهلاً: كل من يراقب فيلماً بمثل هذا التركيز الشديد لن يحصل على أكثر من قيمة نقوده. ظلّت تواصل نقل أفكارها لي: «آه، يا إلهي، هل ترى ذلك؟» أو «ثلاثة فتيان مرة واحدة! سيمزقونها إرباً إرباً». أو «أود أن أجرب ذلك مع أحدهم، واتانابي». وكنت أتمتع بمشاهدة ميدوري أكثر من الفيلم.

حين اشتعلت الأضواء خلال الاستراحة، فطنت أن ليس في الصالة كلها امرأة أخرى. شاب يجلس قريباً منا - لعله طالب- ألقى نظرة على ميدوري وغيّر مقعده على الجانب البعيد.

«أخبرني واتانابي، هل تثابر على مشاهدة أفلام من هذا النوع؟»

قلت: «نعم، أحياناً. لهذا السبب يُنتجون هذه الأفلام».

«ما تقوله هو أنه في كل مرة يبدأ أي من هذه المشاهد يبدأ كل شاب في السينما في الانتصاب؟ ثلاثون أو أربعون منهم يتهيّجون فوراً؟ إنه لأمر غريب إذا توقفت وفكرت فيه، ألا تعتقد ذلك؟»

«نعم، أتوقع ذلك، وها أنت تقولينه».

كانت السمة الثانية هي عرض لقطة إباحية خاطفة، وهذا يعني أنها أكثر إملالاً من الأولى. إذ تنطوي على الكثير من المشاهد الجنسية الشفوية، ومع كل مرة تبدأ فيها أصوات الخضخضة أو الانتشاء تمتلئ السينما بأصوات اللعق والمصمصة. وأنا أصغي إليها، شعرت أنني مدفوع على نحو غريب إلى التفكير في أنني أعيش خارج حياتي في كوكب هذا السوق الذي يتاجر بنا.

قلت لميدوري: «أتساءل من يصدر هذه الأصوات».

قالت: «أعتقد أنها عظيمة!».

كان هناك صوت آلة تخرج وتدخل في فتحة. لم أكن أعرف بوجود مثل هذه الأصوات. كان الرجل متقطع الأنفاس، وتصدر المرأة تعبيرات اعتيادية من نوع «نعم» أو «أكثر»، وهي تتلوى تحته. كما يمكنك سماع

أصوات صرير الفراش. استمرت هذه المشاهد. بدت ميدوري تتمتع بها في البداية، لكنها بعد فترة سئمت منها واقترحت أن نغادر. خرجنا والتقطنا بعض الأنفاس العميقة. وكانت هذه أول مرة في حياتي شعرت فيها بأن هواء شنجوكو صحي لي.

قالت ميدوري: «كان ممتعاً، فلنجربه مرة أخرى ذات يوم».

قلت: «لا يفعلون سوى القيام بهذه الأشياء».

«حسناً، أي شيء آخر يستطيعون القيام به؟ نحن جميعاً نظل نقوم بهذه الأشياء».

لقد أصابت في قولها.

وجدنا باراً آخر وطلبنا شراباً. طلبت المزيد من الويسكي، وشربت ميدوري ثلاث أو أربع كؤوس من كوكتيل غير معروف النوع. وفي الخارج مرة أخرى، قالت ميدوري إنها تريد أن تتسلق شجرة. قلت: «لا توجد أشجار هنا، وحتى لو كانت هناك أشجار، فأنت أوهن من أن تتسلقيها».

«أنت دائماً تفكر بطريقة عقلية لعينة، وتفسد كل شيء. لقد سكرت لأنني أريد أن أسكر. ما العيب في ذلك؟ وحتى لو سكرت، فما زلت قادرة على تسلق شجرة. اللعنة، سأتسلق كل ما في الطريق من أشجار كبيرة، شامخة، طويلة حتى القمة، وسأشخّ على كل من يعترض طريقي».

«هل تحتاجين إلى الذهاب إلى الحمام؟»

«أجل».

أخذتُ ميدوري إلى حمام محطة شنجوكو، وضعتُ قطعة نقود في الفتحة، ودفعتها إلى الداخل، ثم ذهبت لشراء جريدة مسائية من موقف قريب وانشغلت بقراءتها وأنا بانتظار أن تخرج. لكنها لم تخرج. بدأت أقلق بعد مرور خمس عشرة دقيقة، وصرت على استعداد للدخول والتأكد

منها، ولكنها خرجت أخيراً بادية الشحوب. قالت: «آسفة. لقد نمت».

سألتها، وأنا أضع معطفي على كتفيها: «هل أنت على ما يرام؟»

قالت: «لست تماماً».

«سآخذك إلى البيت. يجب أن تصلي البيت، خذي حماماً طويلاً وممتعاً واذهبي إلى النوم. أنت مرهقة».

«لن أذهب إلى البيت. ما الأمر؟ لا يوجد أحد هناك. لا أريد أن أنام وحدي في مكان كهذا».

قلت: «رائع. إذاً ما الذي ستفعلينه؟»

«سأذهب إلى فندق حب في مكان قريب هنا وأقضي الليل بطوله بين ذراعيك. كالسجن. وغداً صباحاً نتناول فطورنا ونذهب إلى المحاضرات معاً».

«كنت تخططين لهذا طوال الوقت، أليس كذلك؟ ولهذا دعوتني؟».

«بالطبع».

«كان يجب أن تكلمي صديقك، لا أنا. هذا هو الشيء الصواب الوحيد. ومن أجله وجد صديقك».

«لكني أريد أن أكون معك».

قلت: «لا تستطيعين أن تكوني معي. أولاً يجب أن أعود إلى المهجع ليلاً. وإلا سأكسر الحظر. وقد دفعت مبلغاً حين فعلت ذلك لمرة واحدة. وثانياً، إذا أردت أن أنام مع فتاة، فسأضطر إلى مضاجعتها، وآخر شيء أريده هو أن أتمدد محاولاً كبح جماح نفسي. لست أمزح، وقد أنتهي بالضغط عليك».

«تقصد أنك قد تضربني وتقيدني وتغتصبني من الخلف؟»

«انظري. أنا أتكلم جدياً».

«لكني وحيدة فعلاً. وأريد أن أكون مع أحد! أعرف أنني أسبّب لك

كثيراً من الإزعاج، وأملي عليك الطلبات دون أن أقدم مقابلها أي شيء، وأقول كل ما يخطر على بالي، أجرُّك من غرفتك وأجبرك على أخذي إلى أي مكان، لكنك الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أقوم بهذه الأشياء معه. لم أستطع أبداً أن أنال ما أريد مع أي شخص، ولا حتى مرة واحدة في السنوات العشرين التي عشتها. أبي، أمي، لم يُظهِروا لي أدنى اهتمام، وصديقي، حسناً، ليس من النوع المناسب لي. ينتابه الغضب إذا حاولت أن أنال ما أريد. وهكذا ننتهي بالنزاع. أنت الشخص الوحيد الذي أستطيع قول هذه الأشياء له. والآن أنا فعلاً، فعلاً، فعلاً، متعبة وأريد أن أغط في النوم وأنا أصغي لمن يقول لي كم يحبونني وكم أنا جميلة وما أشبه. هذا كل ما أريده. وحين أستيقظ، سأمتلئ بالعنفوان، ولن أكرر مثل هذه الطلبات الذاتية مرة أخرى. أقسم. سأكون فتاة طيبة».

«أسمعك، صدقيني، ولكن لا أستطيع فعل شيء».

«آه.. أرجوك. وإلا سأجلس هنا على الأرض وأظل أبكي بهيجان الليل بطوله. وسأضاجع أول فتى يتحدث معي».

أثّر بي هذا. كلمت المهجع وطلبت ناغاساوا. وحين جاء إلى التلفون سألته هل بإمكانه أن يساعدني في التظاهر وكأنني عدت إلى المهجع مساءً. شرحت له أنني مع فتاة.

قال: «جميل. هذا سبب وجيه. من دواعي سعادتي أن أساعدك. سأضع على اسمك تأشيرة الحضور في السجل، لا تقلق. خذ الوقت الذي تحتاج إليه. وتستطيع أن تدخل في الصباح من نافذتي».

«شكراً. أنا مدين لك بواحدة». قلت وأغلقت السماعة.

سألتْ ميدوري: «هل حُلّت؟»

«نعم» قلت بتنهيدة.

«عظيم، فلنذهب إلى مرقص ديسكو. ما زال الوقت مبكراً».

«انتظري دقيقة. تصورتك متعبة».

«لكن لأمرٍ كهذا، أنا في تمام العافية».

«أيّ فتى».

وكانت على صواب. ذهبنا إلى مرقص ديسكو، فعاد لها عنفوانها شيئاً فشيئاً حين رقصنا. شربتْ كأسين من الويسكي، وقنينتي كوكس، وبقيت على أرضية المرقص حتى تبلل جبينها بالعرق.

«هذا رائع جداً» هتفت ونحن نستريح على الطاولة. «لم أرقص على هذا النحو منذ عصور. لا أعرف، حين تحرِّكُ جسدَكَ، كأنما تتحرَّرُ روحُكَ».

«أرى أن روحك متحررة دائماً».

«على الإطلاق». قالت وهي تهز رأسها وتبتسم: «على أية حال، والآن وقد تحسنت حالتي، صرت أتضور جوعاً! فلنذهب لتناول بيتزا».

أخذتها إلى مطعم بيتزا أعرفه وطلبت بيرة جاهزة وبيتزا بسمك الأنشوفة. لم أكن جائعاً جداً فلم أتناول سوى أربع شطائر من الاثنتي عشرة. وأكملت ميدوري البقية.

قلت: «فعلاً تعافيت بسرعة. قبل قليل كنت شاحبة ومرتجفة».

أجابت: «لأن طلباتي الذاتية وجدتْ من ينفذها. لقد أطلقت سراحي. واو، هذه البيتزا عظيمة!».

«مع ذلك، أخبريني. هل فعلاً لا أحد في البيت؟»

«هذا صحيح. أختي تقيم في بيت صديقتها. الآن، صارت تلك الفتاة تصاب بحالة ذعر فعلي. لا تستطيع أن تنام وحدها في البيت إذا لم أكن موجودة».

«إذن فلنترك فندق الحب جانباً. الذهاب إلى هذا النوع من الفنادق يعطيك الشعور بأنك رخيصة. فلنذهب إلى بيتكم. لا بدَّ أن لديك ما يكفي من الأفرشة لي؟».

فكرت ميدوري للحظة، ثم هزت رأسها موافقة: «حسناً، سنقضي الليلة في بيتي».

أخذنا خط يامانوتي إلى أوتسوكا، وسرعان ما كنا نرفع المصراع المعدني الذي يغلق واجهة مكتبة كوباياشي. عُلقتْ علامة ورقية على المصراع تقول: «مغلق في الوقت الحاضر». أفعمت رائحة الورق القديم المحل المظلم، وكأن المصراع لم يرفع منذ مدة طويلة. كانت نصف الرفوف خالية، وأغلب المجلات مربوطة في حزم لإعادتها. لم يحدث سوى أن تعمق ذلك الشعور الأجوف، الفاتر الذي جربته في الزيارة الأولى. بدا لي ذلك المكان وكأنه سفينة مهجورة على الشاطئ.

سألتُ: «ليس في نيتك أن تفتحي المحل ثانية؟»

قالت ميدوري: «لا، سنبيعه، ونقتسم نقوده ونعيش في بيتنا لفترة من دون «حماية» أحد. ستتزوج أختي في السنة القادمة، ولدي ثلاث سنوات أخرى في الجامعة. في الأقل سيساعدنا هذا فترة، وسأحتفظ بعملي الجزئي أيضاً. وما إن يباع المحل، سأعيش مع أختي في شقة لمدة من الزمن».

«هل تعتقدين أن هناك من يريد شراءه؟»

«محتمل. أعرف امرأة تريد أن تفتح محل ملابس. لقد سألتني مؤخراً إذا كنت أريد بيعه. ما أشقى أبي! بذل قصارى جهده للحصول على هذا المكان، وكان يدفع القرض الذي أخذه شيئاً فشيئاً، وفي النهاية لم يترك أي شيء. لقد تلاشى كله كالزبد على صفحة النهر».

قلت: «كان يمتلكك أنت».

«أنا؟؟!!» قالت ميدوري ضاحكة وأخذت نفساً عميقاً ثم لفظته: «لنصعد إلى الأعلى. هنا المكان بارد».

في الأعلى، أجلستني إلى طاولة المطبخ وذهبت لتسخين ماء الحمام. وحين شغلتْ نفسها بذلك، وضعتُ الغلاية لتسخينها وإعداد الشاي. وبانتظار أن يسخن الخزان، جلسنا قريبين من بعضنا إلى طاولة

المطبخ وشربنا الشاي. ألقت عليَّ نظرة طويلة، فاحصة، وذقنها في يدها. لا توجد أصوات سوى تكتكة الساعة وهمهمة مضخة الثلاجة وهي تروح وتجيء كلما قرعها الترموستات. وقد أظهرت الساعة أن منتصف الليل كان سريع الاقتراب.

«تعرف، واتانابي، لقد تمعنت جدياً، لديك وجه مثير جداً».

«هل تظنين ذلك؟» سألتها متألماً قليلاً.

قالت: «وجه جميل يحلو لي تماماً... وجهك... حسناً، كلما تطلعت إليه، ازددت اعتقاداً بأنه يفعلها».

قلت: «أنا أيضاً. كلما فكرت بنفسي، ما الذي أفعله بحق الجحيم؟»

«لا، لا أعني ذلك بالطريقة السيئة. لست بارعة في التعبير عن نفسي بالكلمات. ولهذا السبب يسيء الناس فهمي. كل ما أحاول قوله هو أنني معجبة بك. هل قلت لك ذلك من قبل؟»

قلت: «نعم، قلته».

«أعني لست الوحيدة التي تواجه الصعوبات التي يواجهها كل الناس. لكنني أتورط فيها بمرور الزمن».

جلبت ميدوري علبة مارلبورو وأشعلت سيجارة: «حين تبدأ من الصفر، فقد حصلت على ما تتعلمه».

«لن يفاجئني هذا».

«آه، أوشكت أن أنسى! أتريد إشعال عود من البخور لأبي؟»

تبعتُ ميدوري إلى الغرفة ذات المذبح البوذي، أشعلتُ عود بخور أمام صورة أبيها، وضممتُ يدي معاً.

سألتْ ميدوري: «هل تعرف ما فعلتُه قبل فترة؟ تعريتُ تماماً أمام صورة أبي. نزعت كل قطعة ثياب على جسمي، وجعلته يلقي نظرة طويلة فاحصة عليَّ. كأنما في وضع يوغا. وقلت له: انظر يا أبي، هذه حلمتاي، وهذا فرجي».

سألتها: «لماذا بحق الجحيم تفعلين هذا؟»

«لا أعرف، فقط أردت أن أريه. أعني أن نصفي يأتي من حيواناته المنويّة، صحيح؟ لماذا إذن لا أريه؟ «ها هي البنت التي صنعتها». كنت سكرانة قليلاً ذلك الوقت. أعتقد أن لذلك علاقة بالسكر».

«أغلب الظن».

«دخلت أختي وأوشكت أن تسقط من طولها. أنا أمام الصورة التذكارية لأبي عريانة تماماً وساقاي مفتوحتان. أظنك تتوقع أنها تفاجأت».

«أفترض هذا».

«شرحت لها لماذا أفعل ذلك وقلت: لذلك انزعي ملابسك مومو (هذا هو اسمها) واجلسي إلى جواري واعرضي نفسك أمامه. لكنها لم توافق. خرجت مصدومة. لديها طابع محافظ فعلاً».

«بعبارة أخرى، تقصدين هي اعتيادية نسبياً».

«قل لي، واتانابي، ما الذي تعتقده بأبي؟»

«لست خبيراً بالناس الذين قابلتهم تواً، لكن لم يزعجني أن أكون وحدي معه. شعرت بالراحة تماماً. وقد تحدثنا عن أشياء كثيرة».

«مثل ماذا؟»

قلت: «يوربيدس».

ضحكت ميدوري بصوت مرتفع: «يا لك من شخص غريب! ما من أحد يتحدث عن يوربيدس مع إنسان يحتضر وهو يلتقيه تواً!».

«حسناً. ولكن أيضاً ما من فتاة تجلس أمام الصورة التذكارية لأبيها منفرجة الساقين!».

شخرتْ ميدوري بضحكة وقرعتْ جرس المذبح: «ليلاً- ليلاً، يا أبي. ستنال قسطاً من المتعة الآن، لذلك لا تقلق، وليطب نومك. لم تعد تعاني، أليس كذلك؟ أنت ميت، صحيح؟ أنا واثقة أنك لم تعد تعاني.

وإذا عانيتَ، فالأفضل أن تشكو للآلهة. قل لهم هذا قاسٍ جداً عليك. وأرجو أن تقابل أمي وتمارس معها فعلاً كلاكما. لقد رأيتُ خرطومك حين كنت أساعدك على التبول. كان مثيراً جداً. لذلك دع عنك كل ما أصابك. طابت ليلتك».

تناوبنا على الحمام. لبسنا بيجامات. استعرت بيجاما من بيجامات أبيها. كان حجمها صغيراً قليلاً، لكنها أفضل من لا شيء. فرشتْ ميدوري لي فرشةً على أرضية غرفة المذبح.

سألتْ: «لن تنام خائفاً أمام المذبح؟»

قلت بابتسامة: «لا، على الإطلاق. لم أفعل شيئاً سيئاً».

«لكنك ستبقى معي وتمسك بي حتى أغط في النوم، أليس كذلك؟»

قلت: «هو كذلك».

وفعلاً تمددت على حافة فراش ميدوري الصغير، وأحطتها بذراعيَّ. وضعتْ يديها على أوراكي، وأنفها على صدري. والتفتّ يدي اليمنى حول ظهرها بينما كنت أحاول ألا أسقطَ بالتشبث بإطار السرير بيدي اليسرى. لم تكن بالوضعية التي تسمح بإثارة جنسية. أنفي يستريح على رأسها وشعرها الناصع يهفهفُ بين الحين والآخر.

«هيا، قل لي شيئاً» قالت ميدوري ووجهها مدفون في صدري.

«ماذا تريدينني أن أقول؟»

«أي شيء. أي شيء يبعث فيَّ الراحة».

قلت: «أنت حقاً جذابة».

قالت: «قل: ميدوري، انطق باسمي».

صححت نفسي: «أنت حقاً جذابة يا ميدوري».

«ما الذي تقصده بجذابة حقاً؟»

«جذابة بحيث تتصدع الجبال وتجف البحار».

رفعت ميدوري رأسها وتطلعت إليَّ: «الديك طريقتك المميزة في استعمال الكلمات».

قلت مبتسماً: «أحس بقلبي ينخطف حين تقولين هذا».

«قل شيئاً ألطف من هذا».

«أنا فعلاً أودك ميدوري. كثيراً».

«كم هذه الكثير؟»

قلت: «مثل دب ربيعي».

«دب ربيعي» تطلعت ميدوري إليَّ ثانية: «ما معنى هذا؟ دب ربيعي؟»

«أنت تمشين في حقل ذات يوم من أيام الربيع وحدك، فيأتي هذا الدب الوديع الصغير بفرائه المخملي وعينيه الصغيرتين الساطعتين ليمشي معك. يقول لك: مرحباً، يا من هناك، أيتها السيدة الصغيرة. ألا تريدين أن تتشقلبي معي؟ وهكذا تقضيان أنت والدب الصغير النهار بطوله كل منكما على ذراع الآخر، تتشقلبان على التل الذي يغطيه البرسيم. أليس هذا جميلاً؟»

«نعم، جميل فعلاً».

«هذا هو مقدار مودتي لك».

«هذا أفضل شيء سمعته في حياتي» قالت ميدوري وهي تضم رأسها إلى صدري: «إذا كنت تحبني بهذا القدر، فستفعل كل ما أريد منك، أليس كذلك؟ ولن تغضب، أليس كذلك؟»

«لا، بالطبع لا».

«وستعتني بي دائماً وأبداً».

«بالطبع سأعتني بك» قلت وأنا أربت على شعرها الولادي القصير الناعم: «لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام».

قالت: «لكنني خائفة».

احتضنتها بنعومة، وسرعان ما بدأ كتفاها يرتفعان وينخفضان، وصار بوسعي سماع أنفاس نومها المنتظمة. انزلقت خارجاً من سريرها، وذهبت إلى المطبخ، حيث شربت بيرة. لم يراودني النعاس أبداً، ولذلك فكرت في قراءة كتاب، لكني لم أعثر على شيء يستحق القراءة بالقرب مني. فكرت في العودة إلى غرفة ميدوري بحثاً عن كتاب، لكني لم أشأ أن أوقظها بالتفتيش حولها بينما هي نائمة.

جلست محدقاً بالمكان للحظة، مرتشفاً بيرتي، فتذكرت أنني في مكتبة. نزلت إلى الأسفل، وأشعلت النور وبدأت بالبحث بين رفوف الكتب. ليس هناك الكثير مما يحوز على إعجابي. وأحسن ما رأيته كانت كتباً قرأتها من قبل، ولكن كان يجب العثور على شيء ما أقرأه مهما يكن نوعه. التقطت نسخة حائلة الألوان من رواية هيرمان هسة (تحت العجلة) التي لا بد أنها بقيت مرمية في المحل دون أن تباع لمدة طويلة، وتركت ثمنها نقوداً عند الخزانة. كانت هذه مساهمتي المتواضعة في التقليل من ديون مكتبة كوباياشي.

جلست إلى طاولة المطبخ، أشرب بيرتي وأقرأ (تحت العجلة). لقد قرأت الرواية للمرة الأولى في السنة التي دخلت فيها الثانوية. وها أنا أعود هنا، بعد ثمان سنوات، لقراءة الكتاب نفسه في مطبخ فتاة، وأنا أرتدي بيجامة أبيها الميت التي تصغرني حجماً. شيء مضحك. لو لم أكن في هذه الظروف، لربما ما عدت أبداً إلى مطالعة (تحت العجلة).

يمتاز الكتاب بلحظاته القديمة الطراز، لكنه كرواية لم يكن عملاً رديئاً. طالعته ببطء، متمتعاً به سطراً فسطراً، في المكتبة الخاوية في منتصف الليل. كانت قنينة من البراندي موضوعة على رف في المطبخ. صببت قليلاً منها في قدح قهوة وترشفته. دفأتني، لكنها لم تساعدني على الشعور بالنعاس. ذهبت للتأكد من ميدوري قبل الثالثة بقليل، لكنها كانت تغط في النوم. لا بد أنها مرهقة. أضواء صف من المحلات وراء النافذة

تلقي وهجاً أبيض ناعماً، كأنما ضوء القمر، على الغرفة. كانت ميدوري نائمة وظهرها إلى الضوء. تتمدد ساكنة تماماً، كأنما هي تجمدت. انحنيت عليها، واستمعت إلى صوت أنفاسها. لقد كانت تنام نوم أبيها.

كانت حقيبة سفراتها الأخيرة موضوعة قرب السرير. ومعطفها الأبيض مطروح على ظهر كرسي. وجه منضدتها مرتب بعناية، وقد علقت على الجدار تقويماً مثيراً للفضول. أزحت الستارة جانباً، وتطلعت إلى الأسفل نحو المحلات المهجورة. جميعها مغلقة، وقد ثبتت أقفالها المعدنية. العلامة الوحيدة على انتظار الفجر هي إشارات الإعلان أمام بيت دعارة. وبين الحين والآخر يُحدث صوت شاحنات المسافات البعيدة هديراً عميقاً في الهواء. عدت إلى المطبخ، صببت لنفسي قدحاً آخر من البراندي، ومضيت في قراءة (تحت العجلة).

حين أنهيتها كان الضوء يزداد تدريجياً في السماء. حضّرت لنفسي بعض القهوة الجاهزة، واستخدمت ورقة وقلماً وجدتهما على الطاولة وكتبت ملاحظة لميدوري: **شربت بعض البراندي، اشتريت نسخة من رواية (تحت العجلة). بدأ النور يسطع في الخارج، ولذلك أنا ذاهب إلى البيت. إلى اللقاء**. وبعد قليل من التردد كتبت: **أنت فعلاً تبدين جذابة في نومك**. غسلت قدح قهوتي، وأطفأت ضوء المطبخ، ونزلت إلى الأسفل، وبهدوء رفعت الباب، وخطوت خارجاً. تخوفت أن يجدني الجيران مبعث ريبة، ولكن لم يكن أحد في الشارع عند حوالي الساعة 5,50 صباحاً. كانت الغربان وحدها على الأعمدة العليا الاعتيادية، تلقي بنظراتها إلى الشارع. رفعت بصري إلى الستائر الأقحوانية الشاحبة في نافذة ميدوري، ومشيت إلى موقف الترام، وركبت حتى نهاية الخط، ومشيت إلى مهجعي. في الطريق وجدت كافتريا مفتوحة، فتناولت فطوراً من الرز وحساء الميزو والخضروات المخللة والبيض المسلوق. استدرت من خلف المهجع، ونقرت على النافذة الأرضية في غرفة ناغاساوا. ففتح لي فوراً.

سألني: «قهوة؟»

«لا».

شكرته، وصعدت إلى غرفتي، نظفت أسناني، ونزعت بنطالي، وتدثرت تحت الأغطية، وأغمضت عيني. وأخيراً أطبق عليَّ نوم لا أحلام فيه مثل باب رصاصي ثقيل.

كنت أكتب لناوكو كل أسبوع، وغالباً ما كانت تجيبني. لم تكن رسائلها طويلة جداً أبداً. سرعان ما بدأت تظهر الإشارات إلى صباحات نوفمبر وأماسيه الباردة.

لقد عدتَ إلى طوكيو مع حلول أجواء الخريف تقريباً، ولذلك لم أستطع لمدة من الزمن أن أعرف هل الفجوة التي انفتحت في داخلي كانت بسبب غيابك أم بسبب تغير الموسم. نتحدث أنا ورايكو عنك طوال الوقت. تقول تأكدي من أنك تقولين له «مرحباً». وهي لطيفة معي كعادتها دائماً. لا أعتقد أنني كنت قادرة على احتمال هذا المكان لو لم تكن هي معي. حين أكون وحيدة، أجهش في البكاء. تقول رايكو من الجيد أن أبكي. لكن الشعور بالوحدة مؤلم حقاً. وحين أكون وحدي في الليل، يتحدث الناس معي من الظلمة. كيزوكي، وأختي: يحدثانني بهذه الطريقة طوال الوقت. هما وحيدان أيضاً، ويتطلعان إلى من يتحدث معهما.

غالباً ما أعيد قراءة رسائلك ليلاً حين أكون وحيدة ومتألمة. تربكني كثير من الأشياء التي تأتي من الخارج، لكن أوصافك للعالم حولك تبعث فيّ ارتياحاً مذهلاً. يا له من أمر غريب! أتساءل لماذا يحدث ذلك؟ وهكذا أقرأها مراراً وتكراراً، ورايكو تقرأها أيضاً. ثم نتحدث عن الأشياء التي ترويها لي. فعلاً

أحببت ذلك الجزء المتعلق بوالد الفتاة ميدوري. نتطلع إلى استلام رسائلك كل أسبوع كواحدة من الأشياء القليلة التي نتمتع بها - نعم في مكان كهذا الرسائل هي متعتنا.

أحاول جاهدة أن أتفرغ مرة في الأسبوع للكتابة لك، لكنني ما إن أجلس أمام قصاصة الورق البيضاء، حتى أبدأ بالشعور بالإحباط. والحقيقة أنني أدفع نفسي دفعاً لكتابة هذه الرسالة أيضاً. رايكو كانت تستحثني على أن أجيبك. برغم ذلك لا تسئ فهمي. لديَّ أطنان من الأشياء التي أود الحديث عنها معك، وإخبارك بها. ولكن من الصعب أن أصوغها في كلمات. وهذا هو السبب في الألم الذي أحسه عند كتابة الرسائل.

أما إذا تحدثنا عن ميدوري، فيبدو أنها شخص مثير للاهتمام. ومن خلال قراءة رسائلك تكوّن لديَّ شعور بأنها تحبك. وحين أخبرت رايكو بهذا، قالت: «بالطبع تحبه! حتى أنا أحب واتانابي!». نحن نلتقط الكمأ ونجمع الكستناء ونأكلها كل يوم. أنا أعني كل يوم: رز مع كستناء، رز مع كمأ، طعمها رائع، فلا نمل منها أبداً. برغم ذلك رايكو لا تأكل كثيراً. بالنسبة لها تكفي سيجارة بعد أخرى. الطيور والأرانب بخير.

إلى اللقاء.

بعد ثلاثة أيام من عيد ميلادي العشرين، وصلني طرد من ناوكو. في داخله وجدت بلوفراً خمري اللون ذا رقبة ومعه رسالة.

عيد ميلاد سعيد! أتمنى لك سنة سعيدة في عيد ميلادك العشرين. يبدو أن سنتي العشرين تنتهي بي إلى البؤس كما هي دائماً، لكنني فعلاً سأحبها إذا جمعتَ نصيبك ونصيبي من السعادة. حقاً. لقد حكنا لك أنا ورايكو كل منا نصف هذه

البلوزة. لو حكتها وحدي، لما انتهيت منها حتى عيد الحب القادم. النصف المتقن من عمل رايكو، والنصف الرديء من عملي. رايكو مذهلة في كل عمل تقوم به، حتى أنني أكره نفسي أحياناً حين أراقبها. أعني أنه لا يوجد شيء أتقنه حقاً. !.

إلى اللقاء.

كن بخير.

وفي الطرد ملاحظة صغيرة من رايكو أيضاً:

كيف أنت؟ بالنسبة لك قد تكون ناوكو قمة السعادة، أما عندي فهي مجرد فتاة خرقاء. لكننا قررنا الانتهاء من هذه البلوزة في وقت عيد ميلادك. أنيقة، أليست كذلك؟ لقد اخترنا اللون والطراز. عيد ميلاد سعيد.

(10)

حين أعود بتفكيري إلى العام 1969، لا يخطر على بالي سوى مستنقع، هوة عميقة لزجة أحس أنها تلتصق بحذائي كلما خطوت خطوة. أمشي في الوحل، خائر القوى. أمامي، ورائي، لا أرى شيئاً سوى ظلمة مستنقع لا نهاية لها.

كان الزمن نفسه يخوض على وقع خطاي المترنحة. سبقني الناس حولي في السير إلى الأمام، بينما بقينا أنا وزمني نتردد في الخلف، نكافح في غمرة الوحل. كان العالم حولي على وشك تحولات كبرى. اختطف الموت جون كولتران الذي صار الآن ينضم إلى آخرين كثيرين. وصارت الناس تهتف بأن هناك تغيرات ثورية - وذلك ما كان يعني دائماً المضي قدماً عند المنعطف في الطريق. لكن «التغيرات» التي حصلت لم تكن سوى خلفيات مسرحية ثنائية الأبعاد، بلا جوهر أو معنى. أقضي كل يوم متثاقل الخطى تباعاً، ونادراً ما أتطلع إلى الأمام، وعيناي مشدودتان إلى المستنقع الذي لا ينتهي وهو يمتد أمامي، غارزاً قدمي اليمنى، ورافعاً اليسرى، وغارزاً قدمي اليسرى، رافعاً اليمنى، دون أن أعرف أين أنا، ودون أن أعرف هل أنا ماض في الاتجاه الصحيح، عارفاً فقط أن عليَّ أن أستمر في الحركة، خطوة كل مرة.

بلغت العشرين، وفسح الخريف الطريق للشتاء، ولكن لم يتغير شيء في حياتي تغيراً ذا قيمة. واصلت الذهاب إلى محاضراتي، على مضض، وبقيت أعمل ثلاث ليال في الأسبوع في محل التسجيلات، أعيد بين

الحين والآخر قراءة «غاتسبي العظيم»، وحين يأتي الأحد أستحم وأكتب رسالة مطولة لناوكو. أحياناً أخرج مع ميدوري للذهاب إلى مطعم أو إلى حديقة الحيوانات أو السينما. جرى بيع مكتبة كوباياشي كما هو مخطط، وانتقلت ميدوري وأختها إلى شقة فيها حمامان بالقرب من ميوغاندي، حيث جيرانهم الأسواق أكثر من السابق. أرادت ميدوري أن تنتقل منها حين تزوجت أختها، لتؤجر شقة وحدها كما قالت. وفي الوقت نفسه، دعتني إلى مكانهما الجديد على الغداء مرة. كانت شقة مشمسة، أنيقة، وبدا أن ميدوري كانت تتمتع في السكنى بها أكثر بكثير من السكن في أعلى مكتبة كوباياشي.

بين الحين والآخر، كان ناغاساوا يقترح عليَّ أن نمضي في واحدة من جولاتنا، لكني دائماً كنت أجد شيئاً آخر أنشغل به بدلاً منه. فقط لم أرد المشاحنة. لا أقول إنني لا أحب فكرة النوم مع الفتيات، بل يقتصر الأمر على أنني حين كنت أفكر في العملية برمتها، إذ يجب أن أنزل للشرب في المدينة، وأبحث عن النوع المناسب من الفتيات، وأتحدث معهن، ثم نمضي إلى الفندق، وكان هذا يتطلب جهداً فائقاً. ويجب أن أعرب عن إعجابي الكبير بناغاساوا للطريقة التي يستمر فيها بممارسة هذا الطقس دون أن يمل أو يتعب منه. لعل ما قالته هاتسومي كان له بعض التأثير؛ إذ يمكنني أن أغمر نفسي بالسعادة بمجرد التفكير في ناوكو أكثر بكثير من النوم مع فتاة مجهولة، غبية. وقد بقي الإحساس بأصابع ناوكو وهي تقودني إلى الذروة في حقل معشب حياً في داخلي.

كتبت لها في مطلع ديسمبر لأسألها عما إذا كان من الممكن أن أجيء وأزورها خلال العطلة الشتوية. فجاءني الرد من رايكو يقول إنهما سيسران برؤيتي. وقد أوضحت لي أن ناوكو تستعسر الكتابة وأنها تجيب بدلاً عنها. ولم أجد أن ذلك يجب أن يعني أن ناوكو كانت تعاني من ظرف نفسي سيئ: لم تكن هناك حاجة إلى القلق. انتابتني هذه الهواجس على شكل موجات.

حين جاءت العطلة، جمعت حاجاتي في حقيبة ظهري، ولبست حذاء الجليد وانطلقت إلى كيوتو. كان الطبيب الغريب الأطوار على صواب: فجبال الشتاء المتدثرة بالثلج جميلة جمالاً لا يصدق. وكما في السابق، نمت ليلتين في الشقة مع ناوكو ورايكو، وقضيت ثلاثة أيام ونحن نقوم بالأشياء نفسها كالسابق تماماً. حين تغيب الشمس، تعزف رايكو على قيثارها ونجلس نحن الثلاثة نتبادل أطراف الحديث. وبدلاً من القيام برحلة، فقد ذهبنا للتزلج في الأراضي الوعرة. وقد تركتنا ساعة من الدوس على الزلاجات في الغابة لاهثين متعرقين. وانضممنا كذلك إلى المقيمين والطاقم في جرف الثلج. اندفع الدكتور مياتا إلى مائدتنا عند العشاء لكي يشرح لنا لماذا أصابع الناس الوسطى أطول من بقية الأصابع، في حين أنها في القدم تسلك مسلكاً آخر. حارس البوابة، أومورا، تحدث معي عن خنزير طوكيو ومطاعمها مرة ثانية. سرَّت رايكو التسجيلات التي جلبتها كهدايا من المدينة. سجلت بعض النغمات ثم أدتها على قيثارها.

أما ناوكو فكانت أقل ثرثرة مما كانت عليه في الخريف. حين كنا نجلس نحن الثلاثة معاً، كانت تجلس على أريكة، مبتسمة، ولا تنبس ببنت شفة. وتبدأ رايكو بالهذر لتسري عنها. قالت لي ناوكو: «لكن لا تقلق، هذه واحدة من تلك المرات. الإصغاء لك أروح من الحديث مع نفسي».

انشغلت رايكو بعمل روتيني تطلب منها أن تخرج من الشقة وهكذا ذهبنا أنا وناوكو إلى السرير. قبّلت رقبتها وكتفيها، ونهديها، واستعملتْ يديها لتوصلني إلى الذروة كالسابق. بعد ذلك، وهي ما زالت في أحضاني، أخبرتها كيف أن لمستها ظلّت تلازمني طوال هذين الشهرين، إلى حد أنني فكرت فيها واستمنيت.

سألتني ناوكو: «ألم تنم مع واحدة أخرى؟»

قلت: «ولا مرة».

«حسناً، إذاً، سأعطيك شيئاً آخر تتذكره!».

انزلقتْ إلى الأسفل وقبّلتْ ذكري، ثم غمرته بفمها الدافئ ومررت لسانها عليه، وكان شعرها المسترسل الطويل يهفهف فوق بطني وأوراكي في كل حركة من شفتيها حتى انتشيت مرة ثانية.

سألتني: «هل تعتقد أنك ستتذكر ذلك؟»

قلت: «بالطبع سأتذكره. سأتذكره دائماً».

أمسكتها بقوة ودسست يدي في داخل كلسونها، ملامساً فرجها الذي ما زال جافاً. هزت ناوكو رأسها وأبعدت يدي. بقينا متعانقين فترة، دون أن نقول شيئاً.

قلت: «إنني أفكر في ترك المهجع حين ينتهي الفصل الدراسي، والبحث عن شقة. لقد مللت من حياة المهجع. وإذا بقيت أعمل بالساعة فأستطيع تغطية التكاليف بيسر. ما رأيك بالمجيء إلى طوكيو لتعيشي معي، بالطريقة التي اقترحتها من قبل؟»

«آه، تورو، شكراً. أنا في غاية السرور لأنك تدعوني لهذا».

قلت: «لا أقول هذا لأنني أعتقد بوجود خطأ في هذا المكان. فهو مكان هادئ، ومحيطه مثالي، ورايكو امرأة رائعة. لكنه ليس مكاناً للإقامة فترة طويلة. وهو مخصص أصلاً لإقامة طويلة. وأنا واثق أنك كلما بقيت هنا أكثر، ازدادت صعوبة المغادرة عليك».

بدلاً من الإجابة، أشاحت ناوكو بنظرها إلى الخارج. ووراء النافذة، لم يكن هناك شيء تراه العين سوى الثلج. الغيوم الثلجية تتعلق بطيئة وثقيلة في السماء، إلا فيما يفصل بينها من فجوات صغرى، والأرض المكسوة بالثلج.

قلت: «خذي وقتك، فكري ملياً. ومهما حصل، فإنني سأنتقل في نهاية مارس. تستطيعين أن تجيئي إليّ، متى قررت الالتحاق بي».

هزت ناوكو رأسها. طوقتها بذراعي بعناية وكأنني أحمل لوحة فنية رهيفة أخاف أن تنكسر. وضعت ذراعيها حول رقبتي. كنت عارياً، ولم

تكن ترتدي سوى كلسون أبيض صغير. كان جسدها جميلاً جداً، وقد تمتعت برؤيته طوال النهار.

تمتمت ناوكو: «لماذا لا أبتل؟ كانت تلك المرة الوحيدة التي حدث فيها ذلك. يوم عيد ميلادي العشرين، في أبريل ذاك. الليلة التي حملتني فيها بين ذراعيك. ما العيب فيَّ؟»

قلت: «أنا واثق أنها مسألة نفسية. أعطي نفسك بعض الوقت. لا داعي للعجلة».

قالت ناوكو: «جميع مشكلاتي مشكلات نفسية. ماذا لو لم تتحسن حالتي؟ ماذا لو لم أستطع ممارسة الجنس لبقية حياتي؟ هل ستبقى تحبني كالسابق؟ هل ستكون اليدان والشفتان كافيتين وحدهما لك دائماً؟ أم أنك ستحل المشكلة الجنسية بالنوم مع أخريات؟»

قلت: «أنا متفائل بالفطرة».

جلست ناوكو في السرير ووضعت عليها تي شيرت. لبست فوقه قميصاً من الفانيلا، وامتدت يدها إلى جينزها. ولبست ملابسي أيضاً. قالت ناوكو: «دعني أفكر في الأمر. ولتفكر فيه أنت أيضاً».

قلت: «نعم، سأفكر. وما دمنا نتحدث عن الشفتين، ما فعلته بهما كان عظيماً».

احمرت وجنتاها قليلاً وافتر ثغرها عن ابتسامة: «تعوّد كيزوكي أن يقول ذلك أيضاً».

«كنا أنا وهو نشترك بكثير من أذواقنا وآرائنا» قلت مبتسماً.

جلسنا قبالة بعضنا إلى مائدة المطبخ، نشرب القهوة ونتحدث عن الأيام الفائتة. شرعت بمزيد من الحديث عن كيزوكي. ترددت، وصارت تختار كلماتها بعناية. وبين الحين والآخر، كان الثلج يتساقط لفترة ويتوقف. لم تصحُ السماء أبداً بكاملها طوال الأيام الثلاثة التي قضيتها هناك. قلت وأنا أغادر: «أعتقد أنني أستطيع أن أعود إلى هنا في مارس».

احتضنتها حضنة أخيرة وطوقتها بقوة ومعطفي الشتوي عليَّ، وقبّلتها في شفتيها.

قالت: «إلى اللقاء».

حلّت سنة 1970 - تلك السنة بما أثارته من ضجيج - ووضعت حداً لسنوات صباي. وصار بوسعي الآن أن أغذ الخطى نحو مستنقع جديد بكامله. ثم هي سنة الامتحانات، التي اجتزتها بسهولة نسبياً. إذا لم يكن لديك ما تنشغل به وقضيت وقتك كله تذهب إلى المحاضرات، فلن يتطلب منك مهارة خاصة اجتياز امتحانات نهاية السنة.

مع ذلك ظهرت بعض المشكلات في المهجع. فبعض الفتيان الناشطين في الشجارات السياسية، أبقوا خوذهم وأنابيبهم المعدنية في غرفهم. وقد اشتبكوا مع لاعبي البيسبول تحت جناح مدير المهجع، ونتيجة لذلك جُرِحَ اثنان منهم، وفُصِلَ ستة. وقد ظلَّ كثيرون يشعرون بصدمة الحدث لفترة طويلة، مما أسفر عن نزاعات صغرى على أساس يومي تقريباً. كان المناخ الذي يخيم فوق المهجع قمعياً، وتكاد أعصاب الناس تتلف. وأنا نفسي كنت على وشك أن يضربني أحد لاعبي البيسبول، لولا أن ناغاساوا تدخّل وصدّ عني الضربة بشيء ناعم. وفي حالتي، فقد أزف موعد الخروج من المهجع.

بدأت بالبحث عن شقة جدياً، حين كانت امتحاناتي ما زالت بعيدة. وبعد أسبوع من التقصي، واتاني الحظ بالعثور على المكان الملائم في ضواحي كيتشجوجي. لم يكن موقعها مناسباً جداً، لكنها كانت بيتاً؛ بيت مستقل، ولقية حقيقية. كانت في الأصل كوخ بستاني أو شيئاً من هذا القبيل، تقف بنفسها في زاوية قطعة واسعة من الأرض، بمعزل عن بقية البيت، إذ يفصلهما امتداد واسع أو حديقة مهملة. يستخدم صاحب البيت البوابة الأمامية، وأنا الخلفية، مما يتيح لي ان أحتفظ بخصوصيتي. كانت تنطوي على غرفة واحدة ذات مساحة جيدة، ومطبخ صغير وحمام،

ومختلى كبير على نحو لا يتخيله أحد. بل إن فيه شرفة تطلُّ على الحديقة. كان زوجان عجوزان لطيفان يؤجران البيت بقيمة أدنى من قيمة السوق بشرط أن يكون المستأجر على استعداد للمغادرة من البيت في السنة التالية إذا قرر حفيد صاحب البيت المجيء إلى طوكيو. وقد أكدا لي أنني أستطيع العيش فيه ما طاب لي؛ إذ ليس لديهما أية طلبات.

ساعدني ناغاساوا عند الانتقال. فقد تدبر لي مركبة صغيرة لنقل حاجياتي، وكما وعد، تنازل لي عن ثلاجته وتلفزيونه وبراده. ربما لم يعد بحاجة إليها، لكنها بالنسبة إليَّ كانت مثالية. وهو نفسه كان يتهيأ للانتقال خلال يومين، إلى شقة في ميتا، في مكان قريب.

قال لي وهو يتركني: «أحسب أننا لن نرى بعضنا لفترة طويلة، لذلك كن بخير. وما زلت واثقاً أننا سنلتقي مرة أخرى في مكان غريب بعد سنين من الآن».

قلت: «إنني أتطلع إلى هذا اللقاء».

«أيام اقتناصنا للفتيات وبحثنا المضحك عنهن كانت أجمل».

قلت بضحكة: «مضبوط. ولكن على أية حال، ناغاساوا، ارفق بهاتسومي. من الصعب العثور على فتاة طيبة مثلها. وهي هشّة أكثر بكثير مما يبدو عليها».

«أجل، أعرف» قال وهو يهز رأسه: «لهذا كنت أتمنى أن تأخذها أنت حين أسافر. أنتما الاثنين يمكن أن تشكلا زوجاً عظيماً».

قلت: «نعم، صحيح!».

قال ناغاساوا: «مجرد مزحة. على أية حال، كن سعيداً. لديَّ إحساس بأن كثيراً من الزفت سيعترض طريقك، ولكنك ابن حرام عنيد، أنا واثق أنك ستتمكن من اجتيازه. هل تمانع إذا وجهت لك نصيحة؟»

«قل ما تشاء».

قال: «لا تشعر بالأسف من نفسك. الأطياز وحدهم يفعلون ذلك».

قلت: «سأضع ذلك نصب عيني». تصافحنا، وذهبنا في طريقين منفصلين؛ هو إلى عالمه الجديد، وعدت أنا إلى مستنقعي.

بعد أيام من انتقالي، كتبت لناوكو. وصفت بيتي الجديد، وشرحت لها كم أشعر بالارتياح لابتعادي عن البلداء في المهجع ونوبات جنونهم الغبية. الآن صار بوسعي أن أبدأ حياة جديدة بتصوّر جديد:

تطل نافذتي على حديقة واسعة، تستعمل كملتقى لمواعيد قطط الجيران جميعاً. يحلو لي أن أستلقي على الشرفة وأراقبها. لست أدري كم منها تجتمع هنا، لكنها عصابة كبيرة من القطط. تستحمّ في الشمس زرافات. ولا أتصور أنها سُرَّت جداً لرؤيتي أعيش هنا، لكني حين رميت ذات مرة قطعة قديمة من الجبن زحف عدد منها لقضمها. وربما صارت جميعها من أصدقائي قبل مرور فترة طويلة. يأتي مع المجموعة قط مخطط له أذنان مقرومتان. والغريب أنه يشبه شبهاً كبيراً مدير المهجع القديم الذي كنت فيه. أتوقعه الآن يبدأ برفع الراية كل يوم.
أنا بعيد قليلاً عن الجامعة هنا، لكني ما إن أبدأ سنتي الثالثة، حتى لا يكون لدي كثير من المحاضرات الصباحية، لذلك لن يسوء الأمر كثيراً. ولعله سيكون أفضل، لأنني سأتمكن من القراءة في القطار. وكل ما يجب عليَّ القيام به هو أن أجد عملاً سهلاً هنا أستطيع أن أؤديه ثلاثة أيام أو أربعة في الأسبوع. وحينئذ يمكنني العودة إلى حياتي التي يلفها الربيع.
لا أريد أن أستعجل، لكن أبريل وقت جيد من السنة لبدء أشياء جديدة، ولا أستطيع الكف عن الشعور بأن أفضل شيء لنا هو أن نشرع في الحياة معاً حينئذ. وإذا جرت الأمور على ما يرام، فستستطيعين العودة إلى الجامعة أيضاً. وإذا حدثت مشكلة لنا

في العيش معاً، فأستطيع أن أجد شقة لك في الجوار. أهم شيء بالنسبة إلينا أن نكون دائماً قريبين من بعضنا. وهذا لا يعني بالطبع أن يحصل كل شيء في الربيع. لأن الصيف أفضل، إذا فكرتِ، وهو ملائم لي أيضاً. فقط أعلميني بما تفكرين، اتفقنا؟ أخطط لقضاء مزيد من الوقت الفائض في العمل حالياً. لتغطية تكاليف انتقالي. ذلك أنني سأحتاج إلى مقدار معين من المال لشراء بعض الأشياء حالما أبدأ بالعيش وحيداً: قدور وأوان وأطباق وأشياء من هذا القبيل. سأفرغ في مارس، وبالتأكيد، سأجيء لأراك. أي تاريخ يناسبك أكثر؟ سأخطط للقيام برحلة إلى كيوتو حينئذ. أتطلع إلى رؤيتك وسماع جوابك.

قضيت الأيام القليلة في شراء الأشياء التي كنت بحاجة إليها من أسواق ضاحية كيتشيجوجي القريبة، وبدأت أطبخ وجبات بسيطة لنفسي في البيت. اشتريت بعض الألواح من محل أخشاب محلي، وطلبت أن تقطع وفق مقاس معين لأصنع منها طاولة. فكرت أنني أستطيع الدراسة عليها، كما أستطيع الأكل عليها أيضاً في الوقت الحاضر. صنعت بعض الرفوف وأحسنت اختيار المطيبات. قررتْ قطة ربما يكون عمرها ستة أشهر أن تحبني وبدأت الأكل بالقرب مني. سميتها (نورسة).

حالما تمكنت من تهيئة مكاني إلى حد ما، نزلت إلى المدينة ووجدت عملاً مؤقتاً كمساعد رسام. قضيت أسبوعين متواصلين على هذا النحو. كان المبلغ جيداً، لكن العمل جريمة، فالروائح تجعل رأسي يدور. كل يوم بعد العمل يجب أن آكل في مطعم رخيص، وأغسله بالبيرة، وأذهب إلى البيت لألعب مع القطة، ثم أنام كميّت.

لم يأتني رد من ناوكو خلال تلك المدة.

كنت في معمعان الرسم حين خطرت ميدوري على بالي. أدركت أنني لم أتصل بها منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع، بل لم أقل لها إنني

انتقلت من سكني. لقد ذكرت لها بأنني أفكر في الانتقال، وقد قالت: «أوه... حقاً؟» وكانت تلك آخر مرة تحدثنا فيها.

ذهبت إلى علبة تلفون وطلبت رقمها. ربما كانت المرأة التي ردت عليَّ أختها. حين أعطيتها اسمي، قالت: «لحظة»، لكن ميدوري لم تأت للتلفون.

عادت أختها، أو كائنة من كانت، إلى الخط. «تقول ميدوري إنها غاضبة جداً بحيث لا تستطيع الحديث معك. لقد انتقلتَ ولم تقل لها شيئاً أبداً، صحيح؟ اختفيت ولم تخبرها أين أنت ذاهب، صحيح؟ حسناً، ها قد جعلتها تغلي جنوناً. وحين تجن، تبقى على هذه الحال. مثل حيوان حرون».

«انظري. فقط أعطينيها على التلفون، بوسعي أن أفسر الأمر لها».

«تقول إنها لا تريد سماع أية تفسيرات».

«إذاً هل أستطيع أن أفسر لك؟ أكره أن أشركك، ولكن هل بوسعك الاستماع وإخبارها بما أقول؟»

«لا، ليس معي. ما شأني أنا؟ أي إنسان أنت؟ إنها مسؤوليتك، ويجب أن تصحح الأمر بنفسك».

كان أمراً عديم الجدوى. شكرتها وأغلقت السماعة. والحقيقة أنني لا ألوم ميدوري على غضبها. فطوال مدة الانتقال والتهيؤ والعمل للحصول على مال إضافي، لم أمنحها ثانية من التفكير. بل إن ناوكو نفسها لم تمر ببالي هذا الوقت كله. ولم يكن هذا بالأمر الجديد عليّ. فحين أنشغل بشيء ما، أتغافل عن كل ما عداه. لكني بعدئذ بدأت بالتفكير ماذا كنت سأشعر لو أن الأشياء انقلبت، فكانت ميدوري هي التي انتقلت إلى مكان ما دون أن تخبرني أو دون أن تتصل بي لمدة ثلاثة أسابيع. لا شك أن ذلك كان سيؤلمني إيلاماً بالغاً. لا، لم نكن حبيبين، لكننا بطريقة ما فتحنا قلبينا لبعضنا أعمق بكثير مما يفعل المتحابّان. وقد

سبب لي التفكير مقداراً كبيراً من الحزن. فما أشق أن تجرح من تحرص عليه حقاً، وأن تجرحه بطريقة لاشعورية على هذا النحو.

حالما عدت إلى البيت من العمل، جلست إلى طاولتي الجديدة وكتبت لميدوري. أخبرتها بما أحسست به بكل نزاهة. اعتذرت، دون تفسيرات أو أعذار، لأنني كنت لامبالياً ومتوانياً إلى هذه الدرجة. كتبت لها: **أفتقدك، وأريد أن أراك بأسرع ما يمكن. أريدك أن تري بيتي الجديد.** رجاء اكتبي لي، قلت، وأرسلت الرسالة بالبريد المستعجل باليد.

لم يصلني رد أبداً.

كانت هذه بداية ربيع مشؤوم. قضيت العطلة بكاملها في انتظار الرسائل. لم أستطع القيام برحلة، لم أستطع العودة إلى أهلي لرؤية أبويّ، بل لم أستطع البحث عن عمل جزئي، لأني لم أعرف متى تصلني رسالة من ناوكو تقول إنها تريدني أن أزورها لأراها في الموعد الفلاني. كنت أقضي العصريات في أسواق الضاحية القريبة في كيتشيجوجي، أشاهد السينمات أو أقرأ في الكافتريات. لم أر أحداً، ولم أتحدث مع أحد تقريباً. ومرة في الأسبوع أكتب لناوكو. لم أقترح عليها أبداً أنني أرجو أن ترد عليَّ. لم أرد الضغط عليها بأية طريقة. كنت أحدثها عن عملي في المرسم، عن نورسة، عن براعم الخوخ في الحديقة، عن المرأة العجوز اللطيفة التي ابتاعت الملفوف، والسيدة العجوز المقرفة في المطعم المحلي، عن الوجبات التي كنت أعدها لنفسي. لكنها لم تردَّ عليَّ أبداً.

حين أملُّ من الجلوس والاستماع إلى التسجيلات، كنت أهرع إلى الحديقة لألهو فيها. أستعير من صاحب البيت مقصّاً ومكنسة لتشذيب الأغصان الناتئة، وأقضي وقتي في جز الأعشاب وجرف الأوراق. لم يكن يعنيني أن تظهر الحديقة بمظهر جميل. مرة دعاني صاحب البيت لتناول كوب من الشاي معه، وهكذا جلسنا في شرفة البيت الرئيس نشرب الشاي

الأخضر ونمضغ عيدان الرز، ونتبادل حديثاً قصيراً. بعد التقاعد، وجد له وظيفة في شركة تأمين، كما قال، لكنه تركها أيضاً، بعد سنين، والآن هو يستهون الأمر. البيت والأرض ملك للعائلة منذ وقت طويل، وقد كبر أولاده واستقلوا بأنفسهم، وهو يتدبر شيخوخة مريحة دون عمل. وهذا ما يدعوه إلى أن يسافر مع زوجته دائماً.

قلت: «هذا جميل».

أجاب: «لا، ليس بجميل. السفر ليس بمزحة. أنا أفضل العمل كثيراً».

قال إنه ترك الأعشاب تغزو الحديقة لأنه لم يجد بستانياً محترماً في المنطقة، ولأنه أصيب بحساسية تجعل من المستحيل عليه أن يقوم بالعمل بنفسه. فقطع الأعشاب يسبب له العطاس.

حين فرغنا من شاينا، أراني سقيفة للخزن وأخبرني أنني أستطيع استخدام أي شيء أجده فيها، كطريقة للتعبير عن شكره لاهتمامي بالحديقة. قال: «لم نعد نستعمل أية مادة من هذه المواد، ولذلك تستطيع أخذها».

في الواقع كان المكان يكتظ بجميع أنواع الأشياء - مغسلة خشبية قديمة، مسبح للصغار، مضارب بيسبول. وجدت دراجة قديمة، وطاولة طعام صغيرة الحجم ذات كرسيين، ومرآة وقيثاراً.

قلت: «أود استعارة هذه الأشياء إن لم تمانع».

قال مرة ثانية: «تستطيع أخذها».

قضيت يوماً أعمل على الدراجة: نظفت الصدأ العالق بها، وزيّتُّ حامل الأكر، ونفخت العجلات بالهواء، ونظمت الكوابح، وأخذتها لمحل تصليح دراجات لاستبدال سلك جديد للموقّف. وحين فرغت منها، بدت دراجة مختلفة تماماً. كما أنني نظفت طبقة سميكة من الغبار تراكمت على الطاولة، ومسحتها بطلاء جديد. وأبدلت أوتار القيثار،

وغريت الأجزاء المتهرئة من كتلته. مررت الفرشاة السلكية لإزالة الصدأ عن القيثار ونظمتها. لم يكن قيثاراً بمعنى الكلمة، لكنه في الأقل سيصدر بعض النغمات. وأنا أعرف أنني لم أمسّ قيثاراً بيدي منذ أيام الدراسة. جلست على الشرفة، وحاولت الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه. وعجبت أنني ما زلت قادراً على تذكر الأصوات والنغمات.

بعدئذ أخذت بعض قطع الأخشاب وصنعت منها بنفسي صندوقاً مربعاً للرسائل. صبغته بالأحمر، وكتبت اسمي عليه، ووضعته أمام الباب الخارجي. وحتى الثالث من أبريل، كانت الرسالة الوحيدة التي وجدت طريقها إلى صندوقي ورقة أرسلها المهجع: من لجنة جمع الشمل في مدرستي. ولجنة جمع الشمل آخر شيء أردت أن تربطني به أية علاقة. وهذا هو الصف الذي كنت فيه مع كيزوكي. فرميتها في الزبالة.

وجدت رسالة في الصندوق بعد ظهر الرابع من أبريل. وعلى ظهرها اسم رايكو إشيدا. فصلت المظروف فصلاً رقيقاً لطيفاً قرب الختم بمقصي وذهبت إلى الشرفة لقراءتها. كان لديَّ إحساس بأنها تحمل أنباءً غير سارة، وقد صدق إحساسي.

في البداية اعتذرت رايكو لجعلي أنتظر جواباً كل هذه الفترة. قالت إن ناوكو كانت تكافح لكتابة رسالة لي، لكنها لم تتمكن من كتابتها حتى النهاية:

اقترحت عليها أن أكتب لك رداً مكانها، ولكن في كل مرة أشير عليها بأن من الخطأ أن تدعك تنتظر، كانت تصر على أن القضية من الخصوصية بحيث يجب أن تكتب لك بنفسها، وهذا ما جعلني أتأخر في الكتابة لك. وإنني لآسفة فعلاً. وأرجو أن تسامحني.

أعرف أنك لا بد قد مررت بشهر عصيب في انتظار الجواب، ولكن صدقني، كان شهراً عصيباً بالدرجة نفسها على ناوكو

أيضاً. رجاءً حاول أن تتفهم ما تمرُّ به. فوضعيتها ليست جيدة، يجب عليَّ أن أقول ذلك بكل نزاهة. لقد بذلتْ قصارى جهدها للوقوف على قدميها، لكن النتائج حتى الآن ليست جيدة.

حين أراجع الأشياء الآن، أجد أن أول عرض من أعراض مشكلتها يتمثل في فقدان القدرة على كتابة الرسائل. وقد حدث هذا مع نهاية نوفمبر أو بداية ديسمبر. ثم بدأت تسمع بعض الأشياء. كلما حاولت الشروع بكتابة رسالة، تسمع الناس يتحدثون إليها، وهذا ما جعل من المستحيل عليها أن تكتب حرفاً. كانت الأصوات تتدخل في محاولاتها اختيار الكلمات. ولم تصل الحالة إلى درجة عالية من السوء حتى جاءت زيارتك الثانية، ولذلك لم آخذ الأمر جدياً. بالنسبة لنا جميعاً هنا، تعترينا مثل هذه الأعراض على شكل نوبات بشكل عام. أما في حالتها، فقد تفاقمت الأمور بعد أن غادرتَ. وصارت تعاني مشكلة حقيقية في مجرد المحافظة على الموضوع في أية مناقشة اعتيادية. لم تعد قادرة على العثور على الكلمة الصحيحة التي تنطق بها، وهذا ما يجعلها في حالة ارتباك شديد، ارتباك وهلع. وفي الوقت نفسه، صارت «الكلمات» التي تسمعها تزداد سوءاً.

نعقد لها جلسة كل يوم مع أحد الاختصاصيين. نجلس ناوكو وأنا والطبيب لنتحدث ونحاول العثور على الجزء الدقيق الذي انكسر منها. وقد ساورتني فكرة حضورك ومشاركتك في إحدى جلساتنا إذا أمكن، وحبذ الطبيب هذه الفكرة، لكن ناوكو رفضتها. وأستطيع أن أنقل لك السبب الذي قالته بالحرف الواحد: «أريد لجسدي أن يكون خالصاً من كل هذا حين أقابله». حاولت إقناعها بأن هذه ليست مشكلة، وأن المشكلة الحقيقية أن تسترد عافيتها بأسرع ما يمكن، ودفعت بالأمور إلى أبعد ما أستطيع، لكنها لم تغير رأيها.

أعتقد أنني أوضحت لك ذات مرة أن هذا المستشفى ليس متخصصاً بالعلاج النفسي. بالطبع لدينا اختصاصيون طبيون هنا، وهم يقدمون معالجات ناجعة، لكن العلاج النفسي المركز قضية أخرى. ما يهتم به هذا المكان هو أن يخلق بيئة صالحة يستطيع فيها المريض أن يعالج نفسه، وإذا توخينا الدقة، فهذا لا يشمل العلاج الطبي. وهذا يعني أنه إذا ساءت وضعية ناوكو، فقد ينقلونها إلى مستشفى آخر أو مصح أو ما شئت. شخصياً، أجد ذلك مؤلماً، لكن لا بد من القيام به. لا أقول إنها لن تأتي إلى هنا من باب العلاج على أساس نوع من «الإجازة» المؤقتة. أو لعل الأفضل لها أن تتعالج وتنتهي من المستشفيات تماماً. على أية حال، نحن نقوم بكل ما نستطيع، وناوكو تفعل كل ما تستطيع. وفي الوقت نفسه فإن أفضل ما تفعله هو أن تتمنى لها الشفاء، وأن تظل ترسل لها تلك الرسائل.

كانت الرسالة مؤرخة في 31 مارس. بعد أن قرأتها، بقيت في الشرفة وتركت عيني تتجولان في الحديقة، التي تضمخها الآن غضارة الربيع. كانت تنتصب هناك شجرة كرز عجوز، وقد قاربت براعمها ذروة تألقها. هبّ نسيم عليل، وأضفى ضوء النهار ألوانه الوهاجة الداخنة على كل شيء. تجولت نورسة وعادت من مكان ما وبعد أن خربشت قوائم الشرفة لفترة تمددت إلى جواري وغطت في النوم.

كنت أعرف أن عليَّ أن أفكر في الأمر جدياً، ولكن كانت تنقصني فكرة الشروع بذلك. ولكي أقول الحقيقة، فقد كان التفكير آخر ما أريده. سرعان ما انقضى الوقت ولم أتوصل إلى خيار، كنت أقضي الوقت في التفكير بأن الأشياء قد انتهت. لذلك كان قراري ليس الآن، ليس الآن.

قضيت النهار محدقاً في الحديقة، مستنداً إلى أحد الأعمدة، ممسداً نورسة. شعرت بالاستنزاف تماماً. صار الوقت آخر العصر، واقترب

الغسق وغمرت الحديقة ظلال تميل إلى الزرقة. اختفت نورسة، لكنني بقيت أحدّق في براعم الكرز. بدت في غمة الربيع مثل لحم تفطر تحت الجلد في جرح متقرح. امتلأت الحديقة برائحة نتنة، ثقيلة، عذبة، للحم متعفن. هنا فكرت في لحم ناوكو. يتمدد لحم ناوكو الجميل أمامي في الظلمة، وقد تفطرت منه براعم لا حصر لها فوق جلدها، خضراء، تهتز في نسيم عليل لا تدركه العين. تساءلت: لماذا يجب أن يتداعى هذا الجسد الجميل إلى المرض بهذا الشكل؟ لماذا لا يتركون ناوكو وحدها؟

ذهبت إلى الداخل وأسدلت ستائري، لكن حتى مع إغلاق الأبواب عليَّ في الداخل لم يكن هناك فكاك من رائحة الربيع. لقد ملأت كل شيء ابتداء من الأرض فصاعداً. لكن الشيء الوحيد الذي حملته رائحة الربيع لبالي هو النتانة العفنة. محبوساً وراء ستائري، شعرت باشمئزاز عنيف من الربيع. كرهت ما يدخره الربيع لي؛ كرهت هذا الوجع البليد النابض الذي أحدثه في داخلي. ولم يسبق لي في حياتي أن كرهت شيئاً بمثل هذه الشدة.

قضيت ثلاثة أيام بكاملها لا أفعل شيئاً سوى الخوض في قرار البحر. لم أكن أسمع ما يقوله الناس لي، وكانوا أيضاً يعانون الأمرّين في التقاط ما أقوله. شعرت بأن جسدي برمته يغلفه غشاء من نوع ما، منقطع الصلة عن الاتصال المباشر بيني وبين العالم الخارجي. لا أنا أصل «إليهم»، ولا «هم» يصلون إليَّ. كنت منعدم الحيلة بحق، وكانوا عاجزين عن الوصول إليّ ما دمت في هذه الحالة.

جلست مستنداً إلى الجدار، محدقاً في السقف. حين أشعر بالجوع، أريد أن ألتهم كل ما تطاله يدي، وأشرب بعض الماء، وحين يغمرني حزن، أطرق على رأسي بالويسكي. بهذه الكيفية انقضت الأيام الثلاثة.

وصلتني رسالة من ميدوري في 6 أبريل. دعتني إلى أن نلتقي في مجمع الجامعة، وأن نتناول الغداء في العاشرة حين يجب أن نسجل المحاضرات. **لقد توقفت عن الكتابة لك بأطول ما استطعت، وهذا ما**

يجعل منا متساويين، وهكذا فلنسو المسألة. عليَّ الاعتراف بأنني أفتقدك.
قرأت الرسالة مراراً، أربع مرات معاً، مع ذلك ما زلت لا أعرف ما الذي كانت تحاول قوله. ما الذي يمكن أن تعنيه؟ كان دماغي من التشتت بحيث إنني لم أستطع أن أعثر على الصلة بين جملة وأخرى. كيف يمكن للقائها في يوم التسجيل أن يجعلنا «متساويين»؟ لماذا أرادت أن تتناول «الغداء» معي؟ فعلاً كنت مشتت الذهن. تراخى ذهني، مثل جذور ناقعة لنبات تحت الأرض. لكني بطريقة ما عرفت أن عليَّ أن أخرج عن السياق الذي أدمنته. وحينئذ تبادرت إلى ذهني كلمات ناغاساوا: «لا تشعر بالأسف من نفسك. الأطياز وحدهم يفعلون ذلك».

«حسناً، ناغاساوا، أنت مصيب» سمعت نفسي أفكر. أطلقت تنهيدة ونهضت على قدمي.

قمت بالاغتسال لأول مرة منذ أسابيع، وذهبت للحمام العام، وحلقت، ونظفت بيتي، واشتريت الطعام وطهوت لنفسي وجبة معتبرة من باب التغيير، وأطعمت نورسة التي تتضور جوعاً، وشربت البيرة وحدها، ومارست نصف ساعة من التمارين. وحين كنت أحلق، اكتشفت في المرآة أنني قد هزلت. كانت عيناي جاحظتين، ولم أكد أعرف نفسي.

خرجت في الصباح التالي في جولة مطولة على الدراجة، وبعد الانتهاء من الغداء في البيت، قرأت رسالة رايكو مرة أخرى. ثم فكرت جدياً فيما ينبغي أن أفعله بعد ذاك. السبب الرئيس الذي دعاني إلى اعتبار رسالة رايكو بهذه الصعوبة هو أنها خيبت اعتقادي المتفائل بأن ناوكو تتحسن. لقد أخبرتني ناوكو بنفسها: «إن مرضي أسوأ بكثير مما تعتقد؛ فهو يضرب جذوره في العمق». وقد حذرتني رايكو بأنها قد لا تروي ما يحدث. مع ذلك، رأيت ناوكو مرتين، وتكوّن لدي انطباع أن صحتها تتحسن. وقد افترضت أن المشكلة الوحيدة تكمن في إمكان استردادها شجاعتها للعودة إلى العالم الواقعي، وإذا ما قررت ذلك، فسنستجمع نحن الاثنين قوانا ونواجه المشكلة.

دمرت رسالة رايكو قلعة الأوهام التي بنيتها على ذلك الافتراض الهش، دون أن تترك منها سوى قشرة مسطحة خالية من الإحساس. ويجب أن أفعل شيئاً لاسترداد خطاي. ربما استغرق استرداد ناوكو عافيتها فترة طويلة. وحتى حينئذ، فلا شك أنها ستكون أوهن حالاً، وربما ستفقد حتى ثقتها بنفسها أكثر من السابق. ينبغي أن أهيّئ نفسي لهذه الوضعية الجديدة. مع ذلك، مهما ازدادت قوتي وتضاعفت، فإنها لا تحل المشاكل جميعاً. كنت أعرف ذلك جيداً. ولكن لا يوجد ما أفعله سوى: أن أبقي معنوياتي عالية وأنتظر أن تتعافى.

فكرت مع نفسي: هيا، كيزوكي. خلافاً لك، لقد اخترتُ أن أعيش، وأن أعيش بأفضل طريقة ممكنة أعرفها. بالتأكيد كان صعباً عليك. وهو صعب عليَّ بحق الجحيم. صعب حقاً. كل ذلك لأنك قتلت نفسك وتركت ناوكو خلفك. لكن هذا شيء لن أفعله أبداً. لن أدير لها ظهري أبداً. أولاً لأنني أحبها، ولأنني أقوى منها. وسأستمر في البقاء قوياً. سأبلغ الرشد. سأبلغ سن الرجولة. لأن ذلك هو ما يجب أن أفعله. كنت دائماً أفكر بأن أبقى ما استطعت في سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. لكن ليس الآن. لم أعد مراهقاً أبداً. لقد صار لدي إحساس بالمسؤولية. لم أعد الشخص نفسه الذي تعودت أن أكونه حين كنا نخرج معاً. عمري الآن عشرون سنة. وعليَّ أن أدفع ثمن الاستمرار في الحياة.

سألتني ميدوري: «اللعنة، واتانابي، ماذا حصل لك؟ أنت جلد وعظام!».

«إلى هذا الحد؟»

«أراهن أن ذلك بسبب صديقتك المتزوجة».

ابتسمت وهززت رأسي نفياً: «لم أنم مع فتاة منذ بداية أكتوبر».

«يا للهول! لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. أنت تتحدث عن ستة شهور!».

«لقد سمعتني».

«إذاً كيف فقدت كل هذا الوزن؟»

قلت: «بالكبر».

وضعت ميدوري يديها على كتفي ونظرت إليّ بعين ملؤها تقطيبة ملتوية سرعان ما تحولت إلى ابتسامة حلوة. قالت: «هذا صحيح. هناك شيء من الاختلاف. لقد تغيرت».

«أخبرتك أنني كبرت. لقد بلغت سن الرشد».

«أنت رائع، الطريقة التي يشتغل بها دماغك» قالت وكأنها مذهولة بحق: «فلنأكل. إنني أتضور جوعاً».

ذهبنا إلى مطعم صغير خلف قسم الأدب. طلبت غداء خاصاً وفعلت الشيء نفسه.

«هيا واتانابي، هل أنت مجنون بي؟»

«لماذا؟»

«لعدم الرد عليك، فقط لكي نتساوى. هل تعتقد أنني ما كان يجب أن أفعل ذلك؟ أعني أنك اعتذرت وكل شيء».

«نعم، لكني لم أقصد ما حصل. لقد جرت الأشياء على هذا النحو».

«تقول أختي إنني ما كان يجب أن أفعل ذلك. ردي كان غير متسامح بالمرة، وطفولياً جداً».

«نعم، لكنه جعلك تشعرين بتحسن، أليس كذلك؟»

«نوعاً ما».

«حسناً إذاً، ذلك يكفي».

قالت ميدوري: «إذاً أنت تسامحني، ألا تسامحني؟ لكن قل لي الحقيقة واتانابي، ألم تمارس الجنس لمدة ستة أشهر؟»

«ولا مرة».

«إذاً تلك المرة التي نقلتني فيها إلى السرير، لا بد أنك فعلاً أردتها أن تكون سيئة».

«نعم، أظن أنني أردت».

«لكنك لم تفعلها، أليس كذلك؟»

قلت: «انظري، أنت أفضل صديقة لدي الآن. ولا أريد أن أخسرك».

«أنت تعرف، لو أنك حاولت أن تجبر نفسك معي تلك المرة، لما كان في وسعي المقاومة، كنت مستهلكة تماماً».

«لكنني كنت كبيراً وصعباً».

ابتسمت ميدوري ولامست رسغي: «قبل ذلك بقليل، كنت قد قررت أن أمشي في طريق الإيمان بك. مائة في المائة. ولهذا السبب حزمت أمري أن أنام مطمئنة البال تماماً. كنت أعرف أنني سأكون على ما يرام، سأكون في أمان معك هناك. ولقد نمت مثل الكلاب، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد نمت».

«من ناحية أخرى، لو أنك قلت لي: حسناً ميدوري، فلنَنَمْ. وسيكون كل شيء عظيماً، لربما كنت فعلتها معك. الآن، لست أحاول إغراءك أو مضايقتك. أنا فقط أخبرك بما كان يدور في رأسي بصدق تام».

«أعرف، أعرف».

حين كنا نتناول الغداء عرض كل منا بطاقة تسجيله أمام الآخر ووجدنا أنني سجلت في مادتين مشتركتين معها. لذلك سأراها مرتين في الأسبوع على الأقل. وعلى نحو لافت أخبرتني ميدوري بترتيبات سكناها. لمدة من الزمن، لم تتعود هي ولا أختها على السكن في شقة، لأنها كما قالت سهلة جداً. فقد تعودتا دائماً أن تركضا كالمجنونتين كل يوم، وهما تعنيان بالمرضى، وتعملان في المكتبة، وتقومان بهذا الشيء أو ذاك.

قالت: «أخيراً وجدنا أننا مع ذلك قد تعودنا. هذه هي الطريقة التي يجب أن نقضي بها حياتنا، لا تجاهل احتياجات الآخرين، بمجرد التمدد كيفما اتفق، شعرنا بهذا. وقد جعلنا ذلك عصبيتين في البداية، وكأن أجسادنا تطفو عدة أشبار فوق الأرض. لم يبد لنا الأمر واقعياً، فالحياة الواقعية لا تبدو كذلك فعلاً. كنا متوترتين، وكأن كل شيء سينهار رأساً على عقب في أية لحظة».

«جملة من المخاوف» قلت بابتسامة.

قالت ميدوري: «حسناً، حتى الآن الحياة قاسية معنا. لكن لا بأس. سنسترجع كل ما يخصنا».

قلت: «أراهن أنك ستفعلين. أنا أعرفك. لكن قولي لي ماذا تفعل أختك هذه الأيام؟»

«إحدى صديقاتها فتحت محل مواد زينة صغيراً قبل فترة وجيزة. وأختي تساعدها هناك ثلاث مرات في الأسبوع. كما أنها تدرس الطبخ، وتذهب في مواعيد مع خطيبها، تذهب إلى السينما، وتسترخي، وتتمتع بالحياة».

حينئذ سألتني ميدوري: «هل تسلي نفسك؟»

قلت: «كثيراً جداً».

قالت ميدوري: «بلا استغفال».

قلت: «نعم، وهو فصل الربيع أيضاً».

«وأنت تلبس بلوزتك الباردة التي حاكتها لك صديقتك».

بصدمة مفاجئة ألقيت نظرة على بلوزتي الخمرية: «كيف عرفت؟»

قالت ميدوري: «ما أشد نزاهتك، تخميناً بالطبع! على أية حال، ما الغلط في حياتك؟»

«لا أعرف. أحاول أن ألملم قليلاً من الحماس».

«فقط تذكر أن الحياة علبة شكولاتة».

هززت رأسي عدة مرات وتطلعت إليها: «قد لا أكون ذكياً جداً، لكني أحياناً لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه على أرض الواقع».

«تعرف، أنهم ينسقون علبة الشكولاتة، والإنسان قد يحب هذا النوع ولا يحب ذاك. وأنت تأكل منها كل ما تحب، ولا يبقى سوى ما لا تحبه كثيراً؟ دائماً أفكر في هذا حين يعتريني شيء مؤلم. والآن عليَّ طلاء هذه الأشياء وسيكون كل شيء على ما يرام. الحياة علبة شكولاتة».

«أفترض أنك تستطيعين تسميتها فلسفة».

«هذا صحيح. لقد تعلمتها من التجربة».

كنا نتناول قهوتنا حين دخلت فتاتان. يبدو أن ميدوري تعرفهما من الجامعة. قارنت الثلاث بطاقات تسجيلهن وتحدثن عن ملايين الأشياء المختلفة: «ما الدرجة التي حصلت عليها بالألمانية؟»، «فلانة تأذت من أعمال الشغب في الجامعة»، «أحذية رائعة، من أين اشتريتها؟». بنصف إصغاء، شعرت أن تعليقاتهن تأتي من الجانب الآخر للعالم. رشفت من قهوتي وراقبت المشهد الذي يجري من خلال نافذة المحل. كان مشهداً ربيعياً نموذجياً في الجامعة والسنة الجديدة مقبلة: قطع الغيم المعلقة في كبد السماء، براعم أشجار الكرز، الطلبة الجدد (من نظرة خاطفة تستطيع أن تعرفهم) وهم يحملون أكواماً من الكتب الجديدة. شعرت أنني أنساق قليلاً للتفكير في ناوكو، التي لا تستطيع العودة إلى دراستها هذه السنة أيضاً. كانت زجاجة صغيرة ملأى بشقائق النعمان تنتصب عند النافذة.

حين عادت الفتاتان إلى طاولتهما، تركنا أنا وميدوري المكان وخرجنا إلى الجوار. زرنا بعض مكتبات بيع الكتب المستعملة، واشترينا بعض الكتب، وذهبنا إلى كافتريا أخرى، لعبنا لعبة الكرة والدبابيس، وجلسنا على مقعد في حديقة، لنتحدث، أو بالأحرى ميدوري هي التي تحدثت، بينما بقيت أتلعثم بالردود. حين قالت إنها عطشانة، هرعت إلى

أحد المحلات واشتريت قنينتي كوك. عدت لأجدها تخربش بقلمها الجاف على ورقة مسطَّرة.

سألتها: «ما هذا؟»

قالت: «لا شيء».

أعلنت عند الساعة الثالثة والنصف: «يجب أن أذهب. المفترض أن أقابل أختي عند الجينزا».

تمشينا حتى محطة النفق، ثم افترقنا في اتجاهين مختلفين. وحين غادرت ميدوري، دست قطعة الورق، مطوية أربع طيات هذه المرة، في جيبي. قالت: «اقرأ هذه حين تصل إلى البيت». قرأتها وأنا في القطار.

أكتب لك هذه الرسالة، بينما ذهبت أنت لشراء المشروبات. وهذه أول مرة في حياتي أكتب فيها رسالة إلى شخص يجلس إلى جواري في المقعد نفسه، لكني أشعر أنها الطريقة الوحيدة للوصول إليك. أقصد أنك لا تكاد تصغي لشيء أقوله. ألست على صواب؟

هل تدرك أنك فعلت شيئاً مريعاً لي اليوم؟ لم تلاحظ أبداً أن تسريحة شعري تغيرت، هل لاحظتها؟ منذ الأبد وأنا أعمل عليها، محاولة أن تكبر، وأخيراً وعند نهاية الأسبوع الماضي، قررت أن أصففها على الطراز الذي تسميه بنّاتياً فعلاً، لكنك حتى لم تلاحظها. كانت تبدو جميلة جداً، ولذلك فكرت أنها قد تُحدث لك صدمة صغيرة وأنت تراني للمرة الأولى بعد هذه الفترة الطويلة، لكنها لم تحظ منك حتى ولا بانتباهة. هل تعتقد أن ذلك قبيح؟ أراهن أنك لا تتذكر حتى ما كنت ألبسه اليوم. أنا فتاة! ماذا لو جرى شيء ما لعقلك؟ يمكنك أن توفر لي نظرة معتبرة! كل ما كان عليك أن تقوله: «شعر رائع»، وكنت سأسامحك لانغماسك في ملايين الخواطر، ولكن لا!

لهذا قررت أن أكذب عليك. ليس صحيحاً أنني سأقابل أختي عند الجينزا. كنت أخطط لقضاء الليل في بيتك. بل إنني جلبت بيجامتي معي. هذا صحيح. معي بيجامتي وفرشاة أسناني في حقيبتي. ما أغباني! أقصد أنك حتى لم تدعني لرؤية بيتك الجديد. حسناً، من الواضح بحق الجحيم أنك تريد أن تكون وحيداً، ولهذا سأتركك وحيداً. امض وفكر في محتوى قلبك!

لكن لا تفهمني خطأً. لست مجنونة بك بالكامل. أنا فقط حزينة. كنت لطيفاً معي حين كنت أواجه المشاكل، أما الآن وأنت تواجه مشاكلك، لا يبدو أن لدي شيئاً أفعله من أجلك. يبدو أنك أوصدت عليك الباب في عالمك الصغير، وحين أحاول أن أطرق الباب عليك، لا تبدي سوى نظرة صغيرة لثانية ثم تنصرف عائداً إلى الداخل.

ها أنا أراك الآن عائداً بالمشروبات- تمشي وتشرب. كنت أتمنى أن نقوم بنزهة، لكنك لم تهتم بذلك. والآن ها أنت تجلس إلى جواري تشرب مشروبك. كنت أحمل آخر أمل لدي بأن تلاحظ وتقول: «واو، لقد تغير شعرك» لكنك لم تقل هذا. لو أنك فعلت ذلك لمزقت هذه الرسالة وقلت: «فلنذهب إلى بيتك. سوف أطهو لك عشاء لذيذاً. وبعد ذلك نستطيع أن نمضي إلى السرير ونتعانق». لكنك تكاد تكون حساساً حساسية لوح من الفولاذ.

إلى اللقاء.

ملاحظة: رجاء لا تتحدث معي في المرة القادمة حين نلتقي.

ضربت على رقم تلفون شقة ميدوري من المحطة حين نزلت من القطار في كيتشجوجي، ولكن لا جواب. وحين لم يعد لدي ما يستحثني، ظللت أمشي على مهل في الجوار منتظراً أن يبدأ وقت العمل

بالساعة الذي أقوم به بعد المحاضرات. سأتفرغ تماماً يومي السبت والأحد وأستطيع العمل بعد الخامسة أيام الإثنين والأربعاء والخميس، غير أن العثور على عمل يناسب جدولي الخاص ليس بالأمر السهل. تخليت عن الفكرة وعدت إلى البيت. وحين خرجت لشراء بعض الخضروات للعشاء، حاولت الاتصال ببيت ميدوري مرة أخرى. أخبرتني أختها أن ميدوري لم تعد للبيت حتى الآن وليست لديها فكرة متى ستعود. شكرتها وعلقت السماعة.

بعد الأكل، حاولت الكتابة لميدوري، لكنني تخليت عن الفكرة بعد عدة بدايات كاذبة وكتبت لناوكو بدلاً منها.

قلت لقد حل الربيع هنا، وبدأت السنة الجامعية الجديدة. أخبرتها أنني أفتقدها، وأنني كنت أتمنى بطريقة أو أخرى أن أتمكن من مقابلتها والتحدث إليها. على أية حال، كتبت، **لقد قررت أن أجعل نفسي قوياً، بحيث يمكنني القول إن هذا أقصى ما أستطيعه.**

هناك شيء آخر. لعله يعنيني، وربما كنت لا تهتمين به بطريقة أو أخرى، لكنني لم أعد أنام مع أية فتاة. وهذا لأني لا أريد أن أنسى آخر مرة لامستني بها. لأنها تعني لي أكثر بكثير مما تتصورين. وإنني لأفكر فيها طوال الوقت.

وضعت الرسالة في مظروف، وألصقت عليها طابعاً، وجلست على طاولتي فترة طويلة محدقاً بها. كانت رسالة أقصر بكثير من المعتاد، لكن لدي الشعور بأن ناوكو قد تفهمني أفضل بهذه الطريقة. صببت لنفسي قليلاً من الويسكي، وشربته على جرعتين، وذهبت للنوم.

في اليوم التالي وجدت عملاً قرب محطة كيتشجوجي يمكن أن أؤديه يومي السبت والأحد: الانتظار عند الموائد في مطعم إيطالي صغير. كانت الأجور بائسة جداً، غير أنها تشمل تكاليف التنقل والغداء. وحين يطلب أحد العاملين الإذن في الوجبات المتأخرة أيام الإثنين والأربعاء والخميس

(وهذا ما يحدث في العادة) أحل محله. كان هذا مثالياً لي. قال المدير إنهم سيرفعون أجوري حين أبقى معهم ثلاثة شهور، وأرادوني أن أبدأ ذلك السبت. كان شاباً محترماً أكثر من ذلك البليد الذي يدير محل التسجيلات في شنجوكو.

حاولت مكالمة شقة ميدوري مرة أخرى، فردت أختها أيضاً. قالت إن ميدوري لم تعد منذ الأمس، وبدت متعبة، وقد بدأت هي نفسها الآن بالقلق: هل لدي فكرة أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟ كل ما أعرفه أن ميدوري حملت معها بيجامتها وفرشاة أسنانها في حقيبتها.

رأيت ميدوري في قاعة المحاضرات يوم الأربعاء. كانت تلبس بلوزة خضراء غامقة ونظارة شمسية سوداء تلبسها عادة ذلك الصيف. كانت تجلس في الصف الأخير، وهي تتحدث مع فتاة ذات نظارة رأيتها مرة من قبل. اقتربت منها وقلت إنني أود التحدث معها فيما بعد. تطلعت إليَّ الفتاة ذات النظارة أولاً، ثم تطلعت إليَّ ميدوري. في الحقيقة كانت تسريحة شعرها أكثر أنوثة إلى حد ما وأكثر نضجاً من السابق.

«يجب أن أقابل أحداً» قالت وهي ترفع رأسها قليلاً.

قلت: «لن آخذ الكثير من وقتك. خمس دقائق».

نزعت ميدوري نظارتها الشمسية وضيقت عينيها. وكأنها تنظر إلى بيت خاو يتهاوى على بعد مائة ياردة منها.

قالت: «لا أريد أن أتحدث معك. آسفة».

نظرت إليّ الفتاة ذات النظارة وعيناها تقولان: إنها تقول لا تريد الحديث معك. آسفة.

جلست في النهاية اليمنى من الصف الأول لسماع المحاضرة عن أعمال تنيسي وليامز ومكانته في الأدب الأمريكي، وحين انتهت المحاضرة عددت عداً طويلاً حتى الثلاثة ثم استدرت. لقد ذهبت ميدوري.

أبريل أكثر وحشة من أن تقضيه وحدك بطوله. في أبريل بدا كل شيء حولي سعيداً. يرمي الناس عنهم معاطفهم ويتمتعون برفقة بعضهم في حديث تحت الشمس، يلعبون ويتصافحون. لكنني كنت دائماً وحدي. ناوكو، ميدوري، ناغاساوا؛ كلهم تفرقوا عني. والآن لم يعد لديَّ من أقول له: «صباح الخير» أو «نهاراً طيباً». بل إني لأفتقد حتى جندي العاصفة. قضيت الشهر برمته في هذا الإحساس الخاوي بالعزلة. حاولت التكلم مع ميدوري عدة مرات، لكن الجواب الذي أحصل عليه منها دائماً كان نفسه: لا أريد أن أتحدث معك الآن. وكنت أعرف من نبرة صوتها أنها كانت تعني ما تقول. كانت دائماً برفقة الفتاة ذات النظارة، ومرة رأيتها مع فتى طويل، قصير الشعر. كان لديه ساقان طويلتان على نحو لا يصدق ودائماً يرتدي حذاء كرة سلة أبيض.

انتهى أبريل وجاء مايو، لكن مايو كان أسوأ من أبريل. في ربيع مايو المتأخّر، لم يعد لدي خيار سوى معرفة رعشة قلبي. كان ذلك يحدث في العادة حين تغيب الشمس في الأصيل. وفي ظلمة المساء الشاحبة، حين يتضوع عطر المغنوليا الناعم في الهواء، يتورم قلبي دون إنذار، ويرتعش ويترنح بطعنة ألم. أحاول إغماض عيني، وصر أسناني، والانتظار حتى ينقضي. وهو ينقضي ولكن ببطء، آخذاً معه زمنه، تاركاً في طريقه وجعاً ممضاً.

في تلك الأوقات كنت أكتب لناوكو. في رسائلي لها، لا أصف إلا الأشياء الباهرة والسارة والجميلة: عطر الأعشاب، هفهفة نسيم الربيع، ضوء القمر، فيلم رأيته، أغنية أحببتها، كتاب قرأته وهزَّني. وكنت أنا نفسي أرتاح لرسائل كهذه حين أعيد قراءة ما أكتبه. فأشعر أن العالم الذي عشت فيه كان عالماً رائعاً. كتبت رسائل لا حصر لها من هذا النوع، لكني لم أتلق رسالة واحدة من ناوكو أو رايكو.

في المطعم الذي عمِلت فيه تعرفت على طالب بعمري اسمه إيتوه. وقد استغرق وقتاً طويلاً حتى يدخل هذا الطالب المهذب، الهادئ، من

قسم الرسم الزيتي في إحدى الكليات، معي في حوار، ثم شرعنا نخرج معاً إلى بار قريب بعد العمل ونتحدث عن جميع أنواع الأشياء. كان أيضاً يحب القراءة والاستماع للموسيقى، ولذلك كنا نتحدث في العادة عن الكتب والتسجيلات التي أحببناها. كان فتى نحيفاً، جميل الطلعة، بشعر أقصر وملابس أنظف من التي يلبسها طلاب الفن العاديون. لم يكن لديه الكثير ليقوله أبداً، لكنه يحتفظ بذوقه وآرائه. كان يحب الروايات الفرنسية، ولا سيما روايات جورج باتاي وبوريس فيان. أما الموسيقى فكان يفضل موزارت ورافيل. ومثلي، كان يبحث عن صديق يتحدث معه عن هذه الأشياء.

دعاني إيتوه مرة إلى شقته. لم يكن بيته بالهدوء وصعوبة الوصول كما هو حال شقتي، إذ كان بيتاً غريباً ذا طابق واحد وراء حديقة إنوكاشيرا. كانت غرفته محشورة بتجهيزات الرسم واللوحات الزيتية. طلبت أن أرى أعماله، لكنه قال إنه مرتبك ولا يستطيع أن يعرض عليّ شيئاً. شربنا شراباً أخرجه من غرفة أبيه بهدوء، وشوينا بعض الأسماك البحرية على الفحم في الموقد، وأصغينا إلى روبيرت كاساديسوس وهو يعزف قطعة بيانو لموزارت.

كان إيتوه من ناغاساكي. كان لديه صديقة ينام معها متى ما عاد إلى البيت، كما قال، لكن الأمور لا تجري معها على ما يرام هذه الأيام. قال: «أنت تعرف الفتيات. بمجرد أن يصرن في العشرين أو الإحدى والعشرين وعلى حين غرة تداهمهن الأفكار الواقعية. يصبحن أكثر من واقعيات. وحين يحدث ذلك يبدأ كل شيء حلو ومحبوب فيهن يبدو عادياً وكئيباً. الآن حين أراها، عادة بعد أن نفعلها، تبدأ بطرح الأسئلة: ما الذي ستفعله بعد أن تتخرج؟»

«حسناً، ما الذي ستفعله بعد أن تتخرج؟» سألته.

هز رأسه وهو يمضغ قطعة من السمك: «ماذا أستطيع أن أفعل؟ إنني طالب في قسم الرسم الزيتي! مهما أبديت من قلق بأشياء كهذه، فلن

يدرس أحد الرسم الزيتي! ما من أحد يدرس الرسم الزيتي ليعيش من خلاله. لذلك يبدو لي هذا السؤال وكأنه يقول: لماذا لا تعود إلى ناغاساكي وتصبح مدرّس فن؟ إنها تخطط لتصير مدرّسة لغة إنجليزية».

«أنت لم تعد مفتوناً بها كالسابق، صحيح؟»

أقرَّ إيتوه: «لقد اختصرت المسألة برمتها. مَنْ على الأرض يريد أن يكون مدرس فن؟ لن أقضي حياتي اللعينة برمتها في تعليم قردة صغار كيف يرسمون!».

قلت: «ليس هذا هو الموضوع. ألا تعتقد أنك يجب أن تقطع علاقتك بها؟ من أجلكما أنتما الاثنين».

«بالتأكيد، أعتقد ذلك. لكني لا أعرف كيف أقولها لها. فهي تخطط لقضاء حياتها معي. كيف سأقول لها بحق الجحيم: يجب أن ننفصل. لم أعد أحبك؟»

شربنا مشروبنا مع الثلج، وحين اندفعنا للسمك قطعنا بعض الخيار والخضرة وغمسناها في الصحن. وحين طحنت أسناني شرائح الخيار، فكرت في والد ميدوري، فذكرني هذا كم صارت حياتي مسطحة لا طعم لها من دون ميدوري. وهذا ما جعلني في مزاج سيئ. دون وعي مني، تضاعف حضورها الضخم في داخلي.

سأل إيتوه: «ألديك صديقة؟»

«نعم» قلت، وأضفت بعد صمت: «لكني لا أستطيع أن أكون معها في الوقت الحاضر».

«لكنكما تفهمان مشاعر بعضكما، صحيح؟»

«أتمنى أن يكون ذلك صحيحاً. وإلا فلا معنى ذلك؟» قلت بضحكة خافتة.

تكلم إيتوه بنبرات هادئة عن عظمة موزارت. كان يعرف موزارت ظهراً لبطن، بالطريقة التي يعرف بها فتى ريفي ممرات الجبال في قريته.

أحب أبوه الموسيقى ولقنه إياها منذ أن كان صغيراً. لم أكن أعرف الكثير عن الموسيقى الكلاسيكية، ولكني بإصغائي لمعزوفة موزرات هذه وتعليقات إيتوه الذكية النابعة من القلب (انظر هنا، هذا الجزء، ما رأيك بهذه) شعرت بالهدوء يغمرني لأول مرة منذ عصور. بدأنا مع هلال الشهر نتجول في حديقة إنوكاشيرا وشربنا مشروبنا حتى آخر قطرة. ويسكي فنطازي.

قال إيتوه إنني أستطيع قضاء الليل عنده، لكني قلت له إنني يجب أن أقوم بشيء، فشكرته على الويسكي وتركت شقته قبل التاسعة. وفي الطريق إلى بيتي، اتصلت بميدوري من علبة هاتف. ومما زاد في مفاجأتي أنها فعلاً أجابت.

قالت: «آسفة. لكني لا أريد الحديث معك الآن».

«أعرف، أعرف، لكني لا أريد لعلاقتنا أن تنتهي هذه النهاية التعيسة. أنت واحدة من أفضل أصدقائي القليلين، ومن المؤلم أن لا أراك. متى سأكون قادراً على التحدث إليك؟ في الأقل أريدك أن تخبريني متى».

قالت: «حين أشعر بالرغبة في الحديث معك».

سألتها: «كيف أنت؟»

«بخير» قالت وأغلقت السماعة.

وصلتني رسالة من رايكو في منتصف مايو.

شكراً لمواصلتك في الكتابة. ناوكو تتمتع برسائلك. وكذلك أنا. وأنت لا تمانع بأن أقرأها، أليس كذلك؟

آسفة لعدم تمكني من الرد طوال هذا الوقت. ولكي أقول الحقيقة، فأنا مرهقة، وليست لدي أنباء طيبة جداً أنقلها لك. صحة ناوكو لا تتحسن. أمها جاءت من كوبي أمس. وقد

جلسنا نحن الأربعة هي وناوكو والطبيب وأنا، وتحدثنا حديثاً طويلاً مستفيضاً، وتوصلنا إلى نتيجة بأن ناوكو يجب أن تنتقل إلى مستشفى حقيقي لفترة لكي تحصل على علاج مركز، وقد تعود إلى هنا ، ذلك رهن النتائج. ناوكو تقول إنها تود الإقامة هنا إذا أمكن حتى تتحسن، وأنا أعلم أنني سأفتقدها وأقلق عليها، لكن الحقيقة أن أمر بقائها هنا تحت السيطرة يزداد صعوبة. هي بخير أغلب الوقت، ولكن أحياناً تندلع انفعالاتها اندلاعاً، وحين يحدث هذا لا نستطيع رفع عيوننا عنها. لا أستطيع أن أكتب لك عما تفعله. حين تساورها الحكايات المكثفة عن سماع الأصوات، تنغلق على ذاتها تماماً، وتختبئ في جحرها.

لهذا السبب أرى أن أفضل ما تفعله ناوكو هو أن تتلقى علاجاً طبياً في مؤسسة متخصصة لفترة من الوقت. أكره قول ذلك، ولكنه الشيء الوحيد الذي نستطيع فعله. وكما قلت لك سابقاً، الصبر هو الشيء الأهم. يجب أن نستمر في فك عقدة الخيوط المتشابكة مرة كل فترة، دون أن نفقد الأمل. ومهما بدت وضعيتها عديمة الرجاء، فلا بد لنا أن نعثر عاجلاً أو آجلاً على رأس خيط. حين تكون في ظلمة مدلهمة، لا يكون بوسعك سوى الجلوس متوتراً حتى تعتاد عيناك على الظلام.

ستكون ناوكو قد انتقلت إلى هذا المستشفى الآخر حين تتلقى هذه الرسالة. آسفة لأنني انتظرت ولم أخبرك حتى تم اتخاذ القرار، لكن الأشياء جرت بسرعة بالغة. المستشفى الجديد مستشفى جيد وفيه أطباء مرموقون. سأكتب لك عنوانه في الأسفل، وأرجو أن تكتب رسالة لناوكو هناك. وسيظللون يخبرونني بأي تطور أيضاً، وسأعلمك بما أسمع منهم. وأتمنى أن تكون أخباراً طيبة. أعرف أن ذلك صعب، ولكن حاول أن لا

تتخلى عن الأمل. وحتى لو لم تعد ناوكو هنا، أرجو أن تكتب لي بين الحين والآخر.

إلى اللقاء.

في ذلك الربيع كتبت عدداً كبيراً من الرسائل: رسالة كل أسبوع لناوكو، عدة رسائل لرايكو، وعدة رسائل أخرى لميدوري. كتبت رسائل في قاعة المحاضرات، كتبت رسائل على طاولتي في البيت ونورسة في حضني، كتبت رسائل على الموائد الفارغة في فترات الاستراحة في المطعم الإيطالي. كأنما كنت أكتب الرسائل لأستجمع أجزاء حياتي المتداعية.

لميدوري كتبت: **كان أبريل ومايو شهرين مؤلمين، من الوحدة بالنسبة إليّ، لأنني لم أستطع التحدث إليك فيهما. لم أعرف أبداً أن الربيع يمكن أن يكون مؤلماً وموحشاً إلى هذا الحد. من الأفضل أن نعيش شهري فبراير على أن نعيش ربيعاً كهذا. أدرك تماماً أن الوقت متأخر على قول هذا الشيء، لكن تسريحتك تبدو رائعة جداً عليك. جذابة فعلاً. أنا أعمل الآن في المطعم الإيطالي، وقد علمني الطباخ طريقة بديعة في صنع السباغيتي. وأود أن أعملها لك قريباً.**

ظللت أذهب إلى الجامعة كل يوم، وأعمل في المطعم مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، وأتحدث مع إيتوه عن الكتب والموسيقى، وقرأت بضع روايات من تأليف بوريس فيان أعارها لي، وكتبت رسائل، ولعبت مع نورسة، وأعددت السباغيتي، واشتغلت في الحديقة، واستمنيت مستحضراً ناوكو، ورأيت الكثير من الأفلام.

تقريباً في منتصف يونيو بدأت ميدوري تتحدث معي. لم نتبادل كلمة واحدة مع بعضنا طوال شهرين. بعد نهاية إحدى المحاضرات، جلست إلى جواري، وقد وضعت ذقنها في يدها، دون أن تقول شيئاً. وراء النافذة، كانت الدنيا تمطر، مطر موسم ممطر فعلاً، تتصبب ملبدة دون

ريح، مبللة كل ما تحتها. بعد أن غادر جميع الطلاب الآخرين القاعة، واصلت ميدوري الجلوس إلى جواري دون كلمة. ثم أخرجت سيجارة من علبة المارلبورو من جيب بنطالها الجينز، ووضعتها بين شفتيها، وناولتني ولاعتها، أمسكت الولاعة وأشعلت سيجارتها. زمت ميدوري شفتيها ونفثت غيمة من الدخان الرقيق في وجهي.

سألتني: «هل تحب تسريحتي؟»

«إنها عظيمة».

«ما مقدار عظمتها؟»

«عظيمة بما يكفي لقلع جميع الأشجار في جميع غابات العالم».

«هل تعتقد ذلك حقاً؟»

«فعلاً أعتقد ذلك».

أبقت عينها عليَّ للحظة، ثم مدت يدها اليمنى نحوي. أخذتها. بدت مرتاحة أكثر مما شعرت. نفضت رماد سيجارتها على الأرض ونهضت على قدميها.

قالت: «فلنأكل. إنني أتضور جوعاً».

سألتها: «أين تريدين أن تذهبي؟»

«إلى مطعم المتجر العام في نيهونباشي».

«لماذا إلى هناك من دون الأمكنة كلها؟»

«أحب الذهاب إلى هناك أحياناً، هذا كل شيء».

هكذا سلكنا الطريق إلى نيهونباشي. عملياً كان المكان فارغاً، ربما لأنها ظلت تمطر طوال الصباح. ملأت رائحة المطر القاعة الكهفية الفسيحة، واستولى شعور بعدم الجدوى والعطالة على وجوه جميع العاملين. ذهبنا أنا وميدوري إلى المطعم السرداب، وبعد بحث حميم عن الطعام الجاهز في النافذة، قررنا كلانا أن نتناول تشكيلة طعام باردة على الطراز القديم مع الرز والمخللات والسمك والمقليات والدجاج. في

الداخل كان المكان أكثر من مزدحم، برغم أن النهار بدأ ينتصف.

«يا إلهي، منذ متى لم أتناول طعامي في مطعم متجر عام؟» تساءلت بصوت مرتفع، وأنا أشرب الشاي الأخضر من واحد من تلك الأكواب الملساء البيضاء التي تجدها في مطاعم المتاجر العامة.

قالت ميدوري: «أحب أن أفعل هذه الأشياء، لا أعرف، إنها تجعلني أشعر بأني أقوم بشيء مميز. ربما تذكرني بالطفولة. لم يأخذني أبواي أبداً إلى مطعم متجر عام».

«أشك في أن والدي قاما بغير ذلك. كانت أمي مهووسة بها».

«ما أسعدك حظاً!».

«عمَّ تتحدثين؟ أنا لا أحب الذهاب إلى المطاعم العامة».

«لا، أعني أنك محظوظ لكونهما كانا يحرصان على أخذك إلى مثل هذه الأماكن».

«حسناً، كنت ابنهما الوحيد».

«حين كنت صغيرة تعودت أن أحلم بالذهاب إلى مطعم متجر عام وحدي حين أكبر وآكل كل ما أشتهيه. لكن يا له من حلم خاو! ما اللذة في تحريك فكيك وفمك مملوء بالرز في مكان كهذا؟ ليس الطعام بتلك الجودة، وهو مجرد مكان كبير مزدحم وضجيج وضجة. مع ذلك، بين الحين والآخر أفكر في المجيء إلى هنا».

قلت: «لقد كنت وحيداً خلال الشهرين الماضيين».

«نعم، أعرف. لقد أخبرتني في رسائلك» قالت ميدوري بصوت مسطح. «على أية حال، لنأكل. هذا كل ما أستطيع التفكير فيه الآن».

أنهينا المقليات والمشويات والمخللات في صحوننا، وشربنا الحساء الصافي في الأواني الصقيلة، وشاينا الأخضر في تلك الأكواب البيضاء. ميدوري أتبعت الطعام بسيجارة. وحين فرغت من التدخين، نهضت دون كلمة وأخذت مظلتها. نهضت أنا أيضاً وأخذت مظلتي.

سألتها: «إلى أين تريدين أن تذهبي؟»

«السطح بالطبع. فهو الخطوة الثانية حين تتناول الغداء في مطعم متجر».

لم يكن على السطح تحت المطر أحد، واجهات المحلات مغلقة، وكذلك أكشاك تذاكر ألعاب الأطفال. فتحنا مظلّتينا وتمشينا بين الأحصنة الخشبية الناقعة وكراسي الحدائق والمقاعد. بدا لي من غير المعقول أن يوجد مكان فارغ من الناس إلى هذا الحد في وسط طوكيو. قالت ميدوري إنها تريد أن تنظر في التلسكوب، ولذلك وضعت قطعة نقدية وأمسكت بمظلتها فوقها وهي تنظر بإحدى عينيها في فتحة المنظار وتغلق الأخرى.

في إحدى زوايا السطح كانت هناك منطقة ألعاب مغطاة فيها صف لركوب الأطفال. جلسنا أنا وميدوري على رصيف منها وتطلعنا إلى المطر.

قالت ميدوري: «إذاً تحدث. لديك شيء ما تريد قوله. أعرف».

قلت: «لا أحاول أن أقدم أعذاراً، لكني فعلاً كنت مكتئباً تلك الأيام. دماغي تشوش تماماً. لم يسر شيء على ما يرام معي. لكن شيئاً واحداً اتضح لي غاية الاتضاح حين لم أعد أقدر على رؤيتك. أدركت أن الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها الاستمرار في الحياة هي أن تشاركيني حياتي. وحين فقدتك، استبد بي الألم والوحشة حقاً».

«هل لديك فكرة عن مقدار الألم والوحشة اللذين عانيتهما من دونك خلال الشهرين الماضيين؟»

جرحني هذا القول وتركني أعزل تماماً. قلت: «لا، لم أفكّر في ذلك. كنت أعتقد أنك غاضبة مني ولا تريدين رؤيتي».

«كيف يمكن أن تكون غبياً إلى هذا الحد؟ بالطبع أردت رؤيتك! أخبرتك مقدار حبي لك! حين أحب شخصاً أحبه حقاً. لا تتراوح المسألة عندي صعوداً وهبوطاً. ألا تدرك هذا على الأقل عندي؟»

«حسناً، بالتأكيد، لكن. . .».

«لهذا السبب كنت مجنونة منك إلى هذا الحد! أردت أن أعطيك صفعة على القفا. أعني، أننا لم نر بعضنا كل هذه المدة، وقد اعتزلت العالم تفكر في تلك الفتاة الأخرى إلى حد أنك لم تلق نظرة عليّ! كيف لا يستبد الغضب بي منك؟ ولكن بمعزل عن هذا، لقد كنت أشعر لفترة طويلة بأن من الأفضل لي أن أظل بعيدة عنك لمدة. حتى تتضح الأشياء في رأسي».

«أي نوع من الأشياء؟»

«علاقتنا بالطبع. لقد وصلت إلى نقطة صرت أتمتع فيها معك أكثر بكثير مما أتمتع معه. أعني، ألا تعتقد أن في ذلك شيئاً غريباً؟ وصعباً؟ بالطبع ما زلت أحبه. هو أناني قليلاً وضيق الأفق وفاشي نوعاً ما، لكن لديه بعض المزايا لصالحه، وهو الرجل الأول الذي أحسست به جدياً. أما أنت فشيء خاص. حين أكون معك، أشعر باطمئنان كبير. أنا أؤمن بك. أحبك. ولن أدعك تمضي. لقد صرت أزداد اختلاطاً وتشوشاً، لذلك ذهبت إليه وسألته ماذا يجب أن أفعل. قال يجب أن أتوقف عن رؤيتك. وقال إذا ذهبت لرؤيتك، فسينهي العلاقة معي».

«وماذا فعلت؟»

«أنهيت علاقتي معه. ببساطة». وضعت ميدوري سيجارة مارلبورو في فمها، وحمتها بيدها لتشعلها، ودخنت.

«لماذا؟»

صرختْ: «لماذا؟ هل أنت مجنون؟ أنت تعرف أدوات الشرط في اللغة، وتفهم المثلثات، وتستطيع أن تقرأ ماركس، ولا تعرف جواب سؤال بسيط كهذا؟ بل لماذا تسأل؟ لماذا تضطر فتاة إلى قول شيء كهذا؟ أحبك أكثر مما أحبه، هذا كل شيء. أتمنى لو وقعت في حب شخص آخر أكثر أناقة بالطبع. لكن هذا لم يحصل. ما حصل هو أنني وقعت في حبك أنت!».

حاولت أن أتكلم، لكنني شعرت أن الكلمات تكلست في حنجرتي.

رمت ميدوري سيجارتها في بركة وحل. «رجاء هل ستتخلى عن تلك النظرة في وجهك؟ ستجعلني أبكي. لا تقلق، أعرف أنك تحب فتاة أخرى. لا أتوقع منك أي شيء. لكن أقل ما تمنحه لي هو أن تهبني حضنة. لقد مر عليّ شهران قاسيان».

رفعت مظلتي، وذهبنا وراء منطقة الألعاب وضممنا بعضنا. تحاضن جسدانا، والتقت شفاهنا. علقت رائحة المطر بشعرها وسترتها الجينز. أجساد الفتيات كانت ناعمة ودافئة! كنت أشعر بضغط نهديها على صدري من وراء ملابسنا. منذ كم كان آخر تماس جسدي لي بإنسان آخر؟ قالت ميدوري: «آخر يوم رأيتك فيه، في تلك الليلة تحدثت معه، وفضضنا الأمر».

«أحبك» قلت لها: «من قرار قلبي. ولا أريدك أن تذهبي مرة أخرى. ولكن لا يوجد ما أستطيع فعله. لا أستطيع أن أتحرك».

«بسببها؟»

هززت رأسي.

«قل لي، هل نمت معها؟»

«مرة واحدة. منذ سنة».

«ولم ترها بعد، منذ ذلك الحين؟»

«لم أرها: مرتين. لكني لم أفعل شيئاً».

«لماذا؟ ألا تحبك؟»

قلت: «من الصعب شرح الأمر. فهو معقد فعلاً. ومختلط. وقد مر عليه زمن طويل، حتى اختلط عليَّ. كما اختلط عليها. كل ما أعرفه أنني أتحمل نوعاً من المسؤولية في هذا كله كإنسان، ولا أستطيع أن أدير ظهري. على الأقل هذا ما أشعر به الآن. حتى لو لم تكن تحبني».

«دعني أقول لك شيئاً، واتانابي» قالت ميدوري وهي تضغط خدها

على عنقي: «أنا فتاة حقيقية، حية، بدم حقيقي يجري في عروقي. تحملني أنت بين ذراعيك، وأنا أقول لك إنني أحبك. أنا مستعدة لفعل كل ما تريدني أن أفعله. قد أكون مجنونة قليلاً، لكنني فتاة طيبة وصادقة، وأعمل ما بوسعي، ونوعاً ما أنا جذابة، لدي نهدان لطيفان، وأنا طباخة ماهرة، وقد ترك لي والدي قليلاً من المال. أعني أنني صفقة مربحة، ألا ترى ذلك؟ إذا لم تأخذني، فسأنتهي بالذهاب إلى مكان آخر».

قلت: «أحتاج إلى وقت. أحتاج إلى وقت للتفكير وترتيب الأشياء، واتخاذ بعض القرارات. آسف، لكن هذا كل ما أستطيع قوله عند هذه النقطة».

«نعم، ولكن أنت تحبني من قرارة قلبك، صحيح؟ ولن تسمح لي بالذهاب مرة أخرى، صحيح؟»

«قلتها وأعنيها».

سحبت ميدوري نفسها عني بابتسامة على وجهها. «حسناً، سأنتظر! أنا أؤمن بك» قالت: «ولكن حين تأخذني، تأخذني وحدي. وحين تحملني بين ذراعيك، ستفكر فيَّ وحدي. هل هذا واضح؟»

«أفهم تماماً».

«لا أبالي بما تفعله لي، لكني لا أريدك أن تجرحني. نلت من الجراح في حياتي ما يكفي. وأكثر من الكفاية. والآن أريد أن أكون سعيدة».

سحبتها إليّ وقبلتها في فمها.

«أبعد مظلتك اللعينة، وطوقني بذراعيك - بشدة!» قالت.

«لكننا سنتبلل بالمطر!».

«وإذا؟ أريدك أن تكف عن التفكير وتشدني إليك! لقد انتظرت شهرين كاملين من أجل هذا!».

أنزلت المظلة واحتضنتها تحت المطر. غلفنا ما يتطاير من رشاش

العجلات في الطريق السريع كالضباب. تساقط المطر دون توقف، دون صوت، مبللاً شعرها وشعري، جارياً كالدموع فوق خدينا، ومتصبباً على سترتها القطنية الزرقاء، وبلوزتي النايلون الصفراء، منتشراً في بقع مظلمة.

قلت: «ما رأيك بأن نعود تحت السطح؟»

«تعال معي إلى البيت. ما من أحد في البيت الآن. سنصاب كلانا بالبرد هكذا».

«هذا صحيح».

قالت ميدوري وهي تبتسم: «كما لو أننا عبرنا نهراً سباحة. يا له من شعور عظيم!».

اشترينا منشفة من الحجم الكبير من قسم البياضات وذهبنا إلى الحمام لتجفيف شعرنا. ثم سلكنا طريق النفق، مع التذاكر الضرورية، إلى شقتها في ميوغاداني. تركتني أستحم أولاً ثم استحمت. وأعارتني ثوب حمام ألبسه ريثما تجف ملابسي، وغيرت هي ملابسها إلى قميص وتنورة. جلسنا إلى مائدة المطبخ نشرب القهوة.

قالت ميدوري: «حدثني عن نفسك».

«ماذا أقول؟»

«ها، لا أعرف. ماذا تكره؟»

«الدجاج والأمراض التناسلية والحلاقين الذين يثرثرون».

«ماذا أيضاً؟»

«ليالي أبريل الموحشة وأغطية الهاتف المخرمة».

«ماذا أيضاً؟»

هززت رأسي: «لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر».

«صديقي، أو إذا جاز لي القول صديقي السابق، يعرف جميع الأشياء التي يكرهها. مثلما إذا ارتديت تنورة قصيرة جداً، أو حين أدخن، أو إذا سكرت بسرعة، أو قلت أشياء مقززة، أو انتقدت أصدقاءه. لذلك إذا كان

هناك ما تكرهه ولا تريدني أن أفعله فأخبرني به، وسأحاول تحاشيه بقدر ما أستطيع».

«لا أستطيع أن أفكر في شيء» قلت وبعد قليل من التفكير: «لا يوجد شيء».

«حقاً؟»

«أحب ما تلبسينه، وأحب ما تفعلينه وتقولينه وأحب كيف تمشين وكيف تسكرين. كل شيء».

«تقصد أنني على ما يرام كما أنا؟»

«لا أعرف كيف يمكن أن تتغيري، ولذلك فأنت جميلة كما أنت».

سألتني ميدوري: «كم تحبني؟»

قلت: «بما يكفي لتذويب جميع نمور العالم إلى زبدة».

«ما أكثره!» قالت ببادرة رضا. «هلا ضممتني ثانية؟»

اندسسنا في فراشها، وضممنا بعضنا ونحن نتبادل القبل بينما صوت المطر يملأ أسماعنا. ثم تحدثنا عن كل شيء من الجامعة حتى أفضلياتنا في فظاظة البيض المسلوق.

سألت ميدوري: «أتساءل ما الذي يفعله النمل في الأيام الممطرة؟»

قلت: «لا فكرة عندي. النمل عامل دؤوب. لذلك ربما يقضون النهار في تنظيف البيت أو المخزن».

«إذا كانوا بهذا الدأب، لماذا لا يتطورون؟ بل بقوا النمل نفسه أبداً؟»

«لا أعرف» قلت: «ربما لأن بنيتهم الجسدية لا تتناسب مع التطور، قياساً بالقردة مثلاً».

«انظر واتانابي، هناك الكثير من الأشياء التي لا تعرفها. تصورت أنك تعرف كل شيء».

قلت: «العالم كبير وواسع».

«جبال عالية، ومحيطات عميقة» قالت ميدوري. مدت يدها داخل ثوبي وأمسكت بانتصابي. وبشيء من التردد قالت: «هيا، واتانابي، دع عنك النكات، هذا لا ينفع. لا أستطيع احتمال هذا الشيء الكبير، الصلب في داخلي».

قلت بتنهيدة: «أنت تمزحين».

قالت: «نعم، أمزح. لا تقلق. أنا واثقة أنه مناسب تماماً. هل تمانع إذا ألقيت عليه نظرة؟»

«خذي راحتك».

اختبأت ميدوري تحت الأغطية، وتحسستني طولاً وعرضاً، وهي تأخذ قضيبي وخصيتي براحة يدها. ثم أخرجت رأسها وتنهدت. قالت: «أحبه، لا أتملق. فعلاً أحبه!».

قلت بامتنان بسيط: «شكراً».

«لكن حقاً، واتانابي، أنت لا تريد أن تفعلها معي، حتى تسوي الأمور نهائياً؟»

قلت: «على الإطلاق، لا يتعلق الأمر بأني لا أريد أن أفعلها معك، أكاد أجن لأني أريدك. ولكن ذلك سيكون خطأ الآن».

«أنت عنيد بشكل لعين! لو كنت مكانك، لفعلتها، وبعدئذ أفكر».

«هل ستفعلين؟»

قالت ميدوري بصوت خفيض: «مجرد مزاح. ربما لا أفعلها أيضاً، لو كنت مكانك. وهذا ما أحبه فيك. هذا فعلاً، فعلاً ما أحبه فيك».

سألتها: «كم تحبينني؟»، لكنها لم تجب. بدلاً من ذلك، تمددت فوقي، وضعت شفتيها على حلمتي وبدأت بتحريك يدها التي كانت تلتف على ذكري. أول شيء توارد على بالي هو كم تختلف طريقتها عن الطريقة التي كانت ناوكو تحرك بها يدها. كانت كلتاهما رقيقة وعجيبة، غير أن شيئاً في طريقتيهما يختلف، لذلك شعرت بأنها تجربة تختلف كلياً.

«أراهن، واتانابي، أنك تفكر في الفتاة الأخرى».

كذبت عليها: «ليس صحيحاً».

«حقاً؟»

«حقاً».

«لأنني فعلاً سأكره ذلك».

قلت: «لا أستطيع أن أفكر في أي شخص آخر».

سألتني ميدوري: «هل تريد أن تتلمس نهدي وأسفلي؟»

«أووه، أحب ذلك بالطبع، لكن الأفضل ألا أفعل. إذا قمنا بهذه الأشياء مرة واحدة، سيكون هذا كثيراً عليَّ».

هزت ميدوري رأسها بالموافقة واندست تحت الأغطية، نزعت كلسونها وحملته أمام طرف قضيبي.

قالت: «تستطيع أن تقذف عليه».

«لكنه سوف يلوثه».

قالت ميدوري: «كف عن ذلك، هل ستفعل؟ ستجعلني أبكي». وكأن الدموع على وشك الانهمار من عينيها. «كل ما أفعله هو أن أغسله. لذلك لا تتراجع. بل خذ راحتك بقدر ما تستطيع. إذا قلقت على كلسوني، فاشتر لي واحداً جديداً. أم أنه سيحول بينك وبين الوصول إلى الذروة، لمجرد أنه كلسوني؟»

قلت: «على الإطلاق».

«هيا إذاً. لا تبال».

وحين كنت في غمرة النشوة، تمعنت ميدوري في منيّي: «يا للهول، هذه كمية ضخمة!».

«أهي كثيرة؟»

قالت بابتسامة: «لا بأس. خذ راحتك كما تريد». ثم قبلتني.

في المساء، تسوقت ميدوري من المتاجر المجاورة وأعدّت العشاء. أكلنا التمبورا مع الباقلاء الخضراء على مائدة المطبخ وغسلناها جميعاً بالبيرة.

قالت ميدوري: «كل كثيراً، وتجهز بالحيوانات المنويّة (الحيامن)، وسأكون لطيفة معك وأخلصك منها».

قلت: «شكراً جزيلاً».

«أعرف جميع الطرق في الممارسة. تعلمتها من المجلات النسائية حينما كنا في المكتبة. ذات مرة أصدروا نشرة خاصة عن الطريقة التي ترضين زوجك حتى لا يخدعك حين تكونين حاملاً ولا تستطيعين ممارسة الجنس. هناك أطنان من الطرق. هل تريد تجريبها؟»

قلت: «لا أستطيع الانتظار».

بعد أن ودعت ميدوري، اشتريت جريدة من المحطة، ولكن حين فتحتها في القطار، أدركت أنني لا أرغب في قراءة الجريدة، وفي الواقع لم أفهم ما تقوله. كل ما فعلته هو التحديق في الصفحة المبهمة بينما أتساءل مع نفسي ما الذي سيحصل معي من الآن فصاعداً، وكيف ستتغير الأشياء من حولي. شعرت بأن العالم يتخافق بين الحين والآخر. تنهدت بعمق وأغمضت عيني. وفيما يتعلق بما فعلته ذلك اليوم، لم تساورني ذرة ندم. لأنني كنت أعرف معرفة يقينية لو أنني مارست معها، لعشت ذلك اليوم بالطريقة نفسها تماماً. لكنت ضممت ميدوري على السطح تحت المطر، لتبللت من المطر معها، لأوصلتني أصابعها إلى الذروة في فراشها. لم تكن عندي شكوك في هذه الأشياء. كنت أحب ميدوري، وقد سعدت حقاً بعودتها لي. كان بوسعنا نحن الاثنين أن نفعلها بالتأكيد. وكما قالت ميدوري نفسها، فهي فتاة حقيقية حية، يجري في عروقها دم حقيقي، وقد وضعت جسدها الدافئ بين ذراعي. وقد فعلت ما بوسعي لكي أكبت رغبتي الشديدة في تعريتها، واستكشاف جسدها، والانغمار في دفئها. ولم يكن هناك مجال لإيقاف نفسي بمجرد أن أخذت أداتي

وشرعت بتحريك يديها. أردتها أن تفعلها، وأرادت هي أن تفعلها، وكنا نحب بعضنا. من يستطيع إيقاف شيء كهذا؟ حقاً: لقد أحببت ميدوري. وربما كنت أعرف الكثير، لكنني كنت أتحاشى النتيجة لفترة طويلة جداً.

المشكلة أنني لم أستطع شرح هذه التطورات لناوكو. من ناحيتي قد يكون هذا الأمر كافياً جداً، لكن مع ناوكو، في وضعيتها الحالية، لا توجد طريقة أستطيع أن أقول لها بها إنني وقعت في حب فتاة أخرى. بالإضافة إلى ذلك، ما زلت أحب ناوكو. مهما كان ذلك الحب منحرفاً، فقد أحببتها. ما زال ينبض في داخلي مكان مفتوح، فسيح، بكر، لناوكو لا لغيرها.

كل ما استطعته هو أن أكتب رسالة لرايكو أعترف بها بكل شيء بنزاهة مطلقة. في البيت، جلست في الشرفة، مراقباً المطر وهو يتصبب على الحديقة في الليل، مجمعاً العبارات في رأسي. ثم ذهبت إلى منضدتي وكتبت الرسالة. وقد بدأتها على النحو التالي: **إنه لأمر لا يكاد يطاق لي أنني يجب أن أكتب رسالة كهذه.** واختصرت علاقتي بميدوري وشرحت لها ما حصل ذلك اليوم.

> **لقد كنت دائماً أحب ناوكو، وما زلت. لكن ما يوجد بيني وبين ميدوري حقيقة حاسمة. ولديها القوة التي لا تقاوم ولا بد أن تسحبني نحو المستقبل. ما أشعر به نحو ناوكو هو حب هادئ ومهذب وشفاف، أما ما أشعر به نحو ميدوري فعاطفة تختلف كلياً. حين يقف ويمشي كما يشاء، حياً، نابضاً، خفاقاً، يهزني حتى جذور وجودي. لا أعرف ما ينبغي أن أفعله. إنني مرتبك. لست أحاول إيجاد الأعذار لنفسي، لكنني أعتقد جازماً أنني عشت بإخلاص بقدر ما أعرف. لم أكذب مرة على أحد، وقد حرصت طوال سنين على أن لا أجرح الآخرين. مع ذلك أجد نفسي أتخبط في هذه المتاهة. كيف يمكن لهذا أن يقع؟ لا أستطيع تفسيره. ولا أعرف ما يجب أن أفعله. هل تستطيعين**

إخباري رايكو؟ أنت الوحيدة التي أستطيع أن أتوجه طلباً لنصيحتها.

أرسلت الرسالة بالبريد الخاص.

جاءني رد رايكو بعد خمسة أيام، يحمل تاريخ 17 يونيو.

دعني أبدأ بالأخبار الطيبة. لقد تحسنت صحة ناوكو أسرع بكثير مما يتوقع أحد. وقد تحدثت معها مرة تلفونياً، وتكلمت بوضوح حقيقي. بل قد تتمكن من العودة إلى هنا قبل مضي وقت طويل.

والآن فلنتحدث عنك.

أعتقد أنك تأخذ كل شيء بجدية مبالغ فيها. حب شخص آخر شيء رائع، وإذا كان ذلك صادقاً، فما من أحد يتخبط في المتاهة. لا بد أن يكون لديك إيمان أكثر بنفسك.

نصيحتي لك بسيطة جداً. إذا كنت قد انجررت بقوة إلى شخص ميدوري، فالشيء الطبيعي الوحيد بالنسبة لك أن تقع في حبها. وقد يجري الأمر كما تشاء، وقد لا يجري. لكن هذا هو الحب. حين تقع في الحب، فالأمر الطبيعي أن تهب نفسك له. هذا ما أعتقده. إنه نوع من الإخلاص.

ثانياً، فيما يتعلق بقضية ممارسة الجنس مع ميدوري أو عدمه، هذا الشيء أنت تقرره. ولا أستطيع أن أقطع بشيء. تحدث به مع ميدوري وتوصلا إلى نتيجة مناسبة، تصلح لكما.

ثالثاً، لا تخبر ناوكو بأي شيء من هذا. وحين تتطور الأمور إلى الحد الذي لا بد أن تكاشفها به، فسنُعِدّ أنا وأنت خطة صالحة معاً. أما الآن، فأبق الأمر هادئاً. اتركه لي.

الشيء الرابع الذي يجب أن أقوله هو أنك كنت مصدراً عظيماً

تستمد منه ناوكو القوة بحيث إنك حتى لو لم تعد تملك نحوها مشاعر محب، فما زال هناك الكثير مما تستطيع أن تفعله لها. لذلك لا تركن إلى أي شيء بطريقتك المسرفة في الجدية. فجميعنا (وأعني بجميعنا الأسوياء منا وغير الأسوياء تماماً) كائنات إنسانية ناقصة تعيش في عالم يعوزه الكمال. نحن لا نعيش بدقة الحسابات الآلية في المصارف، ولا نقيس جميع خطوطنا وزوايانا بالمساطر والمناقل. هل أنا على صواب؟

إحساسي الشخصي أن ميدوري تبدو فتاة رائعة. وأتفهم من خلال قراءة رسالتك لماذا انسقت إليها. وأتفهم أيضاً لماذا لا تستطيع التخلي عن ناوكو. في الأقل ما من شيء يدعو إلى الإحساس بالذنب في ذلك. في عالمنا الواسع هذا تحدث أمور من هذا النوع باستمرار. والأمر مثل الإبحار في قارب فوق بحيرة جميلة ذات يوم تفكر فيه بجمال السماء والبحيرة معاً. لذلك توقف عن أكل نفسك. ستمضي الأمور إلى حيث من المفترض لها أن تمضي، إذا تركتها تسير في مجراها الطبيعي. وبرغم ما تبذله من جهود، فإن الناس ستتألم حين يحين موسم ألمها. هذه هي الحياة. أعرف أنني أظهر كمن يبشر من فوق منبر وعظ، لكنك بمرور الزمن تعلمت أن تعيش على هذا النحو. وأنت تبذل قصارى جهدك في جعل الحياة تتناسب مع طريقتك في فعل الأشياء. وإذا كنت لا تريد أن تقضي عمرك في مأوى مجانين، فعليك أن تنفتح أكثر قليلاً وتجري مع الحياة في تدفقها الطبيعي. لست سوى امرأة ناقصة عديمة الحيلة، غير أن هناك أزمنة أفكر فيها أن الحياة بالغة الروعة. صدقني، هذا حقيقي! لذلك كف عما تفعله الآن وامتلئ بالسعادة. اعمل على جعل نفسك سعيداً!

أنا في غنى عن القول إنني أشعر بالأسف لأن قصتكما أنت

وناوكو لن تصل إلى نهايتها السعيدة. لكن من يستطيع الجزم بما هو الأفضل؟ وهذا ما يجعلك تحتاج إلى اغتنام أية فرصة للسعادة تسنح أمامك، وأن لا تقلق على الآخرين كثيراً. وتقول لي تجربتي إننا لا نحصل على هذه الفرص سوى مرتين أو ثلاث في أعمارنا، وحين ندعها تمضي، سنأسف عليها ما تبقى من حياتنا.

أعزف القيثار كل يوم لا لأحد على وجه التحديد. ويبدو أمراً عديم القيمة. ولا أحب الليالي الظلماء الممطرة أيضاً. أتمنى أن تسنح لي الفرصة لعزف القيثار وأكل العنب معك أنت وناوكو في الغرفة معي.

وحتى ذلك الحين تقبل مودتي.

رايكو إشيدا.

(11)

كتبت لي رايكو بعد موت ناوكو مراراً. قالت: إنها لم تكن غلطتي. لم تكن غلطة أحد، مثلما لا تستطيع توجيه اللوم إلى أحد على سقوط المطر. لكنني لم أجبها أبداً. ما عساني أقول؟ أي خير عاد لي من ذلك؟ ناوكو لم تعد توجد في هذا العالم؛ وأصبحت حفنة من رماد.

أقاموا لها مأتماً هادئاً في كوبي مع نهاية أغسطس، وحين انتهى، رجعت عائداً إلى طوكيو. أخبرت صاحب العمل أنني سأتغيّب لمدة من الزمن، ورئيسي في المطعم الإيطالي بأنني لن أجيء للعمل. أما ميدوري فقد كتبت لها ملاحظة وجيزة: لم أستطع حتى الآن قول أي شيء، لكنني تمنيت أن تنتظر وقتاً أطول قليلاً. قضيت الأيام الثلاثة التالية في السينمات، وبعد أن رأيت كل فيلم جديد في طوكيو، حزمت حقيبتي، وأخذت كل ما لدي من مدخرات من المصرف، وذهبت إلى محطة شنجوكو، واستقللت أول قطار سريع وجدته يغادر المدينة.

من المستحيل أن أتذكر متى بدأت في سفراتي. أتذكر المشاهد والأصوات والروائح بما يكفي من الوضوح، لكن أسماء المدن زالت، مثلما غاب عني الإحساس بالنظام الذي اتبعته في السفر من مكان إلى آخر. كان بوسعي الانتقال من مدينة إلى مدينة بواسطة القطار أو الحافلة أو بالتأشير طلباً للتوصيلة (أوتو ستوب) من أية شاحنة، ناشراً حقيبة نومي في مواقف السيارات الفارغة أو المحطات أو الحدائق أو على ضفاف

الأنهار أو السواحل. مرة أقنعتهم أن يسمحوا لي بالنوم في قلب مركز الشرطة، وفي ذات مرة نمت في مقبرة. لم أكن أبالي أين أنام، مبرهناً على أني بارحت ما يتبعه الناس، وأستطيع أن أبقى في حقيبة نومي ما دمت أشعر بالرغبة فيها. حين يستهلكني تعب المشي، أدبُّ إليها، متجرعاً جرعات من الويسكي الرخيص، لأغط في النوم سريعاً. في المدن اللطيفة، يجلب الناس لي الطعام، وفي المدن السمجة، ربما يتصل الناس بالشرطة لتطاردني خارج الحدائق والمواقف. ولم أعد أبالي لكوني في هذه الحالة أو تلك. كل ما كنت أريده أن أحكم على نفسي بالنوم في مدن لم أرها سابقاً. حين تشح لديَّ النقود، أعمل عملاً يدوياً لعدة أيام حتى أحصل على ما كنت أريده. وكان العمل دائماً يتوفر لي. بقيت مواصلاً التنقل من مدينة إلى أخرى، دون أن يكون في ذهني هدف أصل إليه. كان العالم واسعاً ومملوءاً بالأشياء العجيبة والناس الغرباء. مرة كلمت ميدوري لأنني أردت أن أسمع صوتها.

قالت: «لقد بدأ الموسم الدراسي منذ فترة طويلة، كما تعلم. بل إن بعض الدروس صارت تطلب إعداد البحوث. ماذا ستفعل؟ هل تعلم أنك لم تتصل منذ ثلاثة أسابيع بكاملها حتى الآن؟ أين أنت؟ ماذا تفعل؟»

«آسف. لكني لا أستطيع العودة إلى طوكيو، ليس الآن».

«أهذا كل ما تريد قوله لي؟»

«في الحقيقة لا يوجد شيء آخر أقوله حول هذه النقطة. ربما في أكتوبر...».

أغلقت ميدوري السماعة دون كلمة.

مضيت في سفراتي. بين الحين والآخر أقيم في بيت فيه سرير وأستحم وأحلق. ما رأيته في المرآة كان شيئاً مهولاً. جففت الشمس جلدي، وغارت عيناي، ووسمت البقع الغريبة والتقاطيع وجنتي. بدوت لنفسي كما لو أنني زحفت تواً خارجاً من كهف في مكان ما، لكنه في النهاية أنا. نعم كان أنا.

في ذلك الوقت كنت أنتقل إلى جنوب الساحل، مبتعداً عن طوكيو بقدر ما أستطيع، ربما في توتوري أو في جانب خفي من هيوغو. كان المشي على الساحل سهلاً. دائماً أستطيع أن أجد مكاناً مريحاً للنوم في الرمال. أشعلت نارا من الأخشاب التي يلفظها البحر وطهوت سمكة مجففة جلبتها من بائع أسماك محلي. ثم ابتلعت بعض الويسكي مصغياً للأمواج وأنا أفكر في ناوكو. كان غريباً جداً أن أفكر أنها ماتت ولم تعد جزءاً من هذا العالم. لم أستطع استيعاب حقيقتها. لم أصدقها. لقد سمعت المسامير وهي تغوص في غطاء تابوتها، لكني ما زلت لا أستطيع التلاؤم مع حقيقة أنها عادت إلى العدم.

لا، ما زالت صورتها مفعمة بالعنفوان في ذاكرتي. ما زلت أراها وهي تطبق فمها على جسدي، وشعرها يتناثر على بطني. ما زلت أشعر بدفئها، وأنفاسها الحرّى، وتلك اللحظة اليائسة التي لا أستطيع سوى أن أصلها. استطعت استرجاع ذلك كله بمنتهى الوضوح وكأنه حصل قبل خمس دقائق فقط، وشعرت بيقين أن ناوكو ما زالت بجانبي، لكني لم أستطع الوصول إليها ولمسها. ولكن لا، لم تعد هناك، ولم يعد جسدها يوجد في هذا العالم.

في الليالي التي يستعصي عليَّ فيها النوم، كانت صور ناوكو تنهال عليَّ. لم يكن هناك سبيل لإيقافها. تحتشد ذكريات كثيرة لها في داخلي، وحالما تجد إحداها منفذاً صغيراً، تنهال الأخريات في دفق لا ينتهي، وطوفان لا يمكن إيقافه: ناوكو في قبعتها المطرية الصفراء تنظف قفص الطيور وتحمل حقيبة الطعم في ذلك الصباح المطير؛ كعكة عيد الميلاد المتفحمة والإحساس بدموع ناوكو تبلل قميصي (نعم، كانت تمطر حينذاك أيضاً)؛ ناوكو وهي تمشي إلى جانبي في الشتاء لابسة معطفها الوبري؛ ملامسة ناوكو لمشبك شعرها كلما انتابها الإرهاق؛ ناوكو وهي تحدق بي في عينيها الصافيتين على نحو لا يصدق؛ ناوكو وهي تجلس القرفصاء على الأريكة وقد ثنت ساقيها، وأراحت ذقنها على ركبتيها.

تغمرني الذكريات كأمواج بحر هائج، فتجرف جسدي إلى بعض الأماكن الغريبة الجديدة - مكان عشت فيه مع الموتى. كانت ناوكو تعيش هناك، فكان بوسعي التحدث إليها واحتضانها بين ذراعي. لم يكن الموت في ذلك المكان عنصراً حاسماً يضع حداً للحياة، بل هو عنصر من عناصر كثيرة تضم الحياة. هناك تعيش ناوكو مع الموت في داخلها. ولقد قالت لي: «لا تقلق، إنه مجرد موت. فلا تجعله ينغّص حياتك».

لم أشعر بالحزن في ذلك المكان الغريب. كان الموت موتاً، وناوكو ناوكو. سألتني بابتسامة خجولة: «ما المشكلة؟ أنا هنا، ألستُ هنا؟» غمرت إيماءاتها الأليفة الصغيرة قلبي بالطمأنينة مثل بلسم شاف. ففكرت مع نفسي: «إذا كان هذا هو الموت، فالموت ليس بالسيئ إلى هذا الحد». قالت ناوكو: «هذا صحيح، الموت ليس أكثر من ذلك. بل هو مجرد موت. الأشياء سهلة جداً لديَّ الآن». تحدثت ناوكو معي من الفسحات التي تتخلل اندفاع الأمواج المظلمة.

وفي نهاية المطاف، كان لا بد أن يهدأ الموج، فأظل متروكاً على الساحل وحدي. يائساً، لم يكن بوسعي الذهاب إلى أي مكان، وقد غمرني الحزن نفسه في الظلمة العميقة حتى انهمرت دموعي. لم أشعر بأني أبكي، بل شعرت أن الدموع تنضح مني وكأنها أشبه بالتعرق.

لقد تعلمت شيئاً واحداً من موت كيزوكي، وأعتقد أنني جعلته جزءاً من نفسي على شكل فلسفة: «يوجد الموت لا بوصفه نقيض الحياة، بل بوصفه جزءاً منها».

حين نحيا حياتنا، فنحن نغذي الموت. ومهما تكن حقيقة ذلك، فإنها الحقيقة الوحيدة التي يجب أن نتعلمها. وما تعلمته من موت كيزوكي هو التالي: ما من حقيقة يمكنها معالجتنا من الحزن الذي نحس به عند فقداننا محبوباً. ما من حقيقة، ما من خلاص، ما من قوة، ما من عطف يمكنه معالجة هذا الحزن. كل ما نستطيع فعله هو أن نرى ذلك الحزن حتى نهاياته ونتعلم منه شيئاً، لكن ما نتعلمه لن يكون ذا جدوى عند

مواجهة حزن آخر يتتابنا دون إنذار. وأنا أصغي إلى الأمواج، وأستمع إلى صوت الريح، يوماً بعد يوم، صرت أركز على خواطري هذه. انتقلت، وحقيبتي على ظهري، والرمال في شعري، وأوغلت في الغرب، وأنا أعتاش على الويسكي والخبز والماء.

ذات مساء عاصف، وأنا ممدد متدثراً في حقيبة نومي، باكياً، إلى جانب هيكل سفينة مهجورة، مرَّ بي صياد شاب، وقدم لي سيجارة. قبلتها ودخنت لأول مرة منذ ما يزيد على السنة. سألني لماذا أبكي، وتقريباً بتلقائية أجبته بأن أمي ماتت. قلت له: لم أستطع احتمال الحزن، ولذلك أنا مشرد في الطرقات. أعرب عن تعاطفه العميق معي وجلب لي زجاجة من الساكي وكأسين من بيته.

عربدت الريح على الساحل الرملي حين جلسنا نشرب. أخبرني أنه فقد أمه حين كان في السادسة عشرة. كانت عليلة، ومع ذلك أرهقت نفسها بالعمل من الصباح إلى المساء. أصغيت له نصف إصغاء، مترشفاً كأسي من الساكي، ومتلعثماً بإجاباتي بين الحين والآخر. شعرت وكأنني أصغي لقصة من عالم بعيد. ما الذي يتحدث عنه بحق الجحيم؟ تساءلت مع نفسي، وعلى حين غرة، غمرني حنق شديد: فأردت خنقه. من يعير أمك اللعينة أدنى التفاتة؟ لقد فقدت ناوكو! لقد اختفى قوامها الجميل من هذا العالم! لماذا بحق الجحيم تروي لي قصة أمك اللعينة؟

لكن حنقي تلاشى بالسرعة التي شب فيها. أغمضت عيني وبقيت مصغياً نصف إصغاء لحديث الصياد الذي لا ينتهي. وفجأة سألني هل أكلت شيئاً؟ قلت: لا، ولكن لديَّ في حقيبتي خبز وجبن وطماطم وقطعة من الشوكولاتة. سألني ماذا أكلت في الغداء؟ أجبته: خبزاً وجبناً وقطعة من الشوكولاتة. قال: انتظر هنا، واندفع راكضاً. حاولت إيقافه، لكنه اختفى في الظلمة دون أن يلقي نظرة إلى الوراء.

لم يكن بوسعي سوى المضي في شرب الساكي. كانت البقايا الورقية

لأعمال المفرقعات النارية التي فجرت في الرمل تتناثر على الشاطئ، وقد دمدمت الأمواج على الساحل بهدير مجنون. اقترب كلب أعجف وهو يهز ذيله ويتشمم حول موقدي الصغير بحثاً عما يأكله، لكنه سرعان ما كفَّ عن ذلك وانصرف مبتعداً.

عاد الصياد الشاب بعد نصف ساعة ومعه علبتان من السوشي وقنينة من الساكي. قال إنني يجب أن آكل العلبة العليا مباشرة لأن فيها سمكة، أما العلبة السفلى فليس فيها سوى الملفوف والأكل الذي يستطيع أن ينتظر إلى الغد. شكرته وأتيت على كامل العلبة العليا وحدي، برغم أنها كانت تفيض عن حاجة اثنين للأكل. وبعد أن شربنا من الساكي ما يزيد على طاقتنا، اقترح عليّ أن يستضيفني هذه الليلة، لكنه ترك الأمر عند هذا الحد حين أخبرته أنني أفضل النوم وحيداً على الساحل. وحين نهض ليذهب، طوى ورقة بـ5,000 ين أخرجها من جيبه وأودعها في جيب قميصي. قال: «حاول أن تحصل على طعام جيد، شكلك شاحب». قلت: لقد أسدى لي من الجميل أكثر من اللازم، ولا أستطيع أن أقبل النقود فوق ذلك كله، لكنه رفض استرجاعها. قال: «ليست هذه نقوداً، إنها مشاعري. لا تفكر فيها كثيراً، خذها وحسب». وكان كل ما بوسعي فعله أن أشكره وأقبلها.

حين ذهب، فكرت فجأة في صديقتي القديمة، أول من نمت معها في سنتي الدراسية الأخيرة. فانتابتني القشعريرة حين أدركت كم عاملتها بجفاء. لم أفكر أبداً في أفكارها ومشاعرها أو الألم الذي سببته لها. كانت شيئاً وديعاً وعذباً، لكنني في ذلك الوقت أخذت عذوبتها مأخذ التسليم ولم أُعِدْ النظر فيها. تساءلت ما الذي تفعله الآن؟ وهل سامحتني؟

غمرتني موجة من الغثيان، فتقيأت عند السفينة القديمة. تصدع رأسي من كمية الساكي التي تجرعتها، فشعرت بالاشمئزاز لكذبي على الصياد وأخذي نقوده. حزمت أمري، لقد حان وقت العودة إلى طوكيو؛ فلا أستطيع الاستمرار في هذا الوضع إلى الأبد. لففت حقيبة نومي

ووضعتها في حقيبة الظهر، وأطلقت ذراعيَّ عبر أشرطتها، ومضيت إلى محطة القطار المحلية. أخبرت الرجل الجالس في شباك حجر التذاكر أنني أريد الوصول إلى طوكيو بأسرع ما يمكن. تمعن في الجدول الزمني لديه وقال يمكنني الوصول بأسرع ما يمكن إلى أوساكا عند الصباح، وإذا انتقلت من قطار ليلي إلى آخر، فأستطيع أخذ القطار السريع من هناك. شكرته واستعملت قطعة الخمسة آلاف ين التي أعطانيها الصياد لشراء تذكرة إلى طوكيو. وبانتظار القطار، اشتريت جريدة وتأكدت من التاريخ: إنه 2 من أكتوبر، 1970. وهكذا فقد قضيت شهراً كاملاً في السفر. وعرفت أن عليَّ العودة إلى العالم الواقعي.

لم يرفع شهر السفر من معنوياتي ولا هو لطّف الصفعة التي سددها لي موت ناوكو. وصلت عائداً إلى طوكيو في الحالة نفسها التي تركتها بها. لم أستطع حتى حمل نفسي على مكالمة ميدوري. ما عساني أقول لها؟ كيف أبدأ الحديث معها؟ «لقد انتهى كل شيء، والآن نستطيع أن نسعد ببعضنا؟». كلا، ذلك ما لا يمكنني فعله. على أنني أستطيع أن أصوغه بعبارة أن الحقائق لم تتغير: لقد ماتت ناوكو، وميدوري ما زالت حية هنا. ناوكو ليست سوى كوم من الرماد الأبيض، أما ميدوري فإنسان حي يتنفس.

غمرني إحساس بدناستي. فبرغم أنني عدت إلى طوكيو لم أفعل شيئاً طوال أيام سوى إغلاق الباب عليَّ في غرفتي. ذاكرتي بقيت مشتبكة مع الموتى، لا الأحياء. الغرف التي خصصتها لناوكو مغلقة المصاريع، والأثاث مغطى بالأبيض، وقد جلل الغبار الستائر. قضيت أفضل الأوقات من كل يوم في تلك الغرف. وفكرت في كيزوكي. سمعت نفسي أقول له: «أخيراً لقد أفلحتَ في الحصول على ناوكو. نعم، منذ البداية كانت لك. ولعلها الآن تقيم في العالم الذي تنتمي له. أما في هذا العالم، في عالم الأحياء الناقص هذا، لقد بذلت قصارى جهدي من أجل ناوكو. حاولت أن أقيم حياة جديدة لكلينا. ولكن دعك من ذلك كيزوكي. إنني

أتنازل عنها لك. فأنت الشخص الذي اختارته، في النهاية. لقد شنقت نفسها في غابة مظلمة ظلام أعماق قلبها. ذات مرة سحبت أنت جزءاً مني إلى عالم الموتى، وها هي الآن تسحب جزءاً آخر مني إلى ذلك العالم. أحياناً أشعر وكأنني ناظر متحف، متحف مترامي الأطراف فارغ، لا يزوره أحد، وأنا لا أجد فيه من أهتم به سوى نفسي».

في اليوم الرابع بعد عودتي إلى طوكيو، وصلتني رسالة من رايكو. تسليم خاص. كانت ملاحظة بسيطة: **لم أستطع الاتصال بك منذ أسابيع، وأنا قلقة. أرجو أن تتصل بي. سأنتظر عند الهاتف من التاسعة صباحاً إلى التاسعة مساءً.**

كلمتها في الساعة التاسعة من تلك الليلة. التقطت رايكو السماعة بعد أول رنة للجهاز.

سألت: «هل أنت بخير؟»

قلت: «إجمالاً، نعم».

«هل تمانع إذا جئت وزرتك بعد غد؟»

«تزورينني؟ تقصدين هنا في طوكيو؟»

«هذا ما أعنيه بالضبط. أريد أن أخوض معك في حوار طويل».

«هل ستغادرين المصحة؟»

«هذه هي الطريقة الوحيدة لكي أجيء وأراك، أليس كذلك؟ على أية حال، لم أغادر هذا المكان منذ مدة طويلة، منذ ثمان سنوات، في النهاية. وإذا أبقوني فيه مدة أخرى، فسأبدأ بالتعفن».

وجدت صعوبة في الحديث. وبعد فترة قصيرة من الصمت، استأنفت رايكو: «سأستقل القطار السريع في الساعة 3,20 بعد غد. هل لك أن تقابلني في المحطة؟ هل ما زلت تتذكر شكلي؟ أم أنك لم تعد تعبأ بي بعد موت ناوكو؟»

قلت: «لا، أبداً. سأقابلك في محطة طوكيو في الساعة 3,20 بعد غد».

«لن يصعب عليك التعرف عليَّ. أنا المرأة المسنة ذات حقيبة القيثار. لا أظن أن الكثيرين يحملونها».

في الحقيقة لم أجد صعوبة في العثور على رايكو وسط الزحام. كانت ترتدي جاكيتة تويد رجالية، وبنطالاً أبيض، وحذاءً أحمر. شعرها قصير كالسابق، مع الكعكولة الاعتيادية المثبتة عليه. في يدها اليمنى حقيبة جلد رمادية، وفي يدها اليسرى صندوق السجائر الأسود. ابتسمت لي ابتسامة عريضة متجعدة، في اللحظة التي رأت فيها موضعي فوجدتني أرد عليها بتكشيرة مماثلة.

أخذتُ حقيبتها منها ومشيت بجانبها إلى جهة القطار متجهين صوب الضواحي الغربية.

«ما هذا يا واتانابي، منذ كم وأنت ترتدي هذا الوجه القبيح؟ أم أن هذا مظهركم هنا في طوكيو هذه الأيام؟»

قلت: «لقد كنت مسافراً مدة من الزمن، ولا آكل إلا الطعام الجاهز دائماً. كيف وجدت القطار السريع؟»

قالت: «شنيعاً. لا تستطيع فتح النوافذ. أردت شراء طعام جاهز من أحد البوفيهات في إحدى المحطات».

«تعلمين، يبيعونها في القطار».

«نعم، ولكنها سندويشات بلاستيكية بأسعار مضاعفة. حتى حصان يتضور جوعاً لا يستطيع مضغها. كنت دائماً أتمتع بتناول الأغذية الجاهزة في محطة غوتينبا».

«كان ذلك أيام زمان، قبل ظهور القطار السريع».

«حسناً، أنا أنتمي إلى أيام زمان قبل ظهور القطار السريع».

على القطار الذاهب إلى كيتشجوكي، راقبت رايكو منظر ماساشينو عبر النافذة بفضول سائح.

سألتها: «هل تغير كثيراً في غضون ثمان سنين؟»

«هل تعرف، يا واتانابي، ما أحس به الآن؟»

«لا، لا أعرف».

قالت: «أنا خائفة، خائفة، وقد أصاب بالجنون. لا أعرف ما يجب أن أفعله، لقد لفظتني الأقدار إلى هنا وحدي» صمتت. «لكن الجنون بهذه البساطة نوع من التعبير البارد، ألا تعتقد ذلك؟»

ابتسمت وأخذت يدها قائلاً: «لا تقلقي. ستكونين على ما يرام. قوتك هي التي أوصلتكِ إلى هذا الحد».

قالت رايكو: «ليست قوتي هي التي أخرجتني من ذلك المكان. بل ناوكو وأنت. لم أستطع احتمال المكان من دون ناوكو، وكان يجب عليَّ أن أجيء إلى طوكيو للحديث معك. هذا كل شيء. لو لم يحدث شيء لربما قضيت بقية حياتي هناك».

هززت رأسي موافقاً.

سألتُ رايكو: «ماذا تخططين للقيام به من الآن فصاعداً؟»

قالت: «سأذهب إلى أساهيكاوا. ومن هناك إلى براري هوكايدو. لي صديقة قديمة منذ الجامعة تدير مدرسة موسيقى هناك، وكانت تطلبني منذ سنتين أو ثلاث لمساعدتها في العمل. أخبرتها أنه مكان بارد جداً بالنسبة لي. أعني أنني سأحصل أخيراً على حريتي مجدداً والمفروض أن أذهب إلى أساهيكاوا. من الصعب أن تفرح بمكان كهذا، مجرد حفرة في الأرض».

قلت ضاحكاً: «ليس بهذه الدرجة من البشاعة. لقد كنت هناك. ليست مدينة صغيرة ورديئة. ستتمتعين بجوها المميز».

«هل أنت متأكد؟»

«تمام التأكد. أفضل بكثير من البقاء في طوكيو».

قالت: «حسناً إذاً، ليس لديَّ مكان آخر أذهب إليه. ولقد أرسلت أغراضي إلى هناك أصلاً. عدني يا واتانابي بأنك ستأتي لزيارتي في أساهيكاوا».

«بالطبع سأفعل. ولكن هل ينبغي عليك المغادرة فوراً؟ ألا تستطيعين البقاء في طوكيو لفترة؟»

«أودُّ أن أقضي هنا عدة أيام إذا استطعت. هل لك أن تصطبر عليَّ؟ لا أريد التطفل في طريقك».

قلت: «لا مشكلة. لدي مختلى كبير أستطيع أن أنام فيه، في حقيبة نومي».

«لا أستطيع إزعاجك».

«لا، حقاً. إنه مختلى ضخم».

نقرت رايكو لحناً على صندوق القيثار بين ساقيها: «ربما ينبغي عليَّ أن أكيف نفسي قليلاً قبل الذهاب إلى أساهيكاوا. لم أتعود أن أحيا في العالم الخارجي. هناك الكثير من الأشياء التي لا أفهمها، وأنا عصبية. فكر في أنك تستطيع مساعدتي قليلاً؟ وأنت الوحيد الذي أستطيع أن أطلب منه».

قلت: «سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك».

قالت: «أتمنى ألا أكون متطفلة عليك».

قلت: «لا طريق لديَّ لتتطفلي عليه».

تطلعت إليَّ وثنت زوايا فمها في ابتسامة لكنها لم تقل شيئاً.

لم نتحدث عن شيء في بقية الطريق إلى محطة كيتشجوكي أو في الحافلة حين عدنا إلى بيتي. تبادلنا بضع تعليقات اعتباطية عن التغيرات التي طرأت على طوكيو وزمن رايكو في كلية الموسيقى ورحلتي اليتيمة إلى أساهيكاوا، لكننا لم نقل شيئاً عن ناوكو. لقد مرت تسعة شهور منذ أن رأيت رايكو لآخر مرة، لكنني شعرت وأنا أمشي إلى جانبها بهدوء وراحة غريبين. وفكرت أن هذا شعور أليف حصل لي حينئذ لأنه الطريقة التي تعودت أن أشعر بها عند التجوال في طرقات طوكيو مع ناوكو.

وتماماً مثلما اشتركنا أنا وناوكو مع كيزوكي الميت، اشتركنا أنا ورايكو مع ناوكو الميتة. وقد جعلت هذه الخاطرة من المستحيل عليَّ أن أمضي في الحديث. استمرت رايكو في التحدث فترة، ولكنها حين تنبهت إلى أنني لا أقول شيئاً، ركنت إلى الصمت بدورها أيضاً. فلم ينبس أي منا ببنت شفة في الحافلة.

كانت عصرية من عصريات الخريف المبكر حيث يكون النور حاداً وواضحاً، تماماً مثلما كانت قبل سنة حين زرت ناوكو في كيوتو. كانت الغيوم بيضاً ونحيفة كالعظام، والسماء فسيحة وعالية، أشعرني عبق النسيم، ورنة الضوء، والأزاهير الصغيرة المتفتحة في العشب، والأصداء الرقيقة المترجعة التي تصحب الأصوات أن الخريف أطلَّ ثانية، مضاعفاً المسافة بيني وبين الموتى مع كل دورة موسم. كيزوكي ما زال في السابعة عشرة، وناوكو في الحادية والعشرين إلى الأبد.

قالت رايكو، وهي تتطلع حولها حين كنا نخطو من الحافلة: «رباه، أية راحة تغمر هذا المكان!».

قلت: «لأنه لا يوجد شيء هنا».

وأنا أقود رايكو من الباب الخلفي عبر الحديقة إلى كوخي، غمرتها الدهشة لرؤية كل ما تراه.

قالت: «هذا رائع. أنت صنعت الرفوف والطاولة؟»

قلت: «نعم»، وحضّرت الشاي.

«من الواضح أنك ماهر في استخدام يديك. وتحافظ على المكان بهذه النظافة!».

قلت: «هذا من تأثير جندي العاصفة. لقد جعلني فلتة في النظافة. فلا يتذمّر مني صاحب البيت».

«ها، صاحب البيت! يجب أن أتعرف عليه. أعتقد أن بيته في الجانب الآخر من الحديقة».

«تتعرفين عليه؟ لم؟»

«ماذا تعني بقولك: لم؟ تظهر امرأة عجوز في بيتك وتبدأ بعزف القيثار، سيتساءل ما الذي يجري. الأفضل أن نبدأ بالخطوة الصحيحة. بل إنني جلبت له معي علبة من الحلويات».

قلت: «شاطرة جداً».

«الحكمة التي تأتي مع العمر. سأقول له إنني خالتك، أزورك من كيوتو، ولذلك لا تناقضني. اختلاف العمر لصالحنا في أوقات كهذه. لن تساور الشكوك أحداً».

أخرجت رايكو علبة الحلويات من حقيبتها وذهبت للتعبير عن احترامها. جلستُ في الشرفة، أشرب قدحاً آخر من الشاي وأعبث بالقطة. انقضت عشرون دقيقة، وحين عادت رايكو أخيراً، سحبت علبة بسكويت رز من حقيبتها وقالت إنها هدية لي.

سألتها وأنا أطحن قطعة بسكويت: «عم كنتما تتحدثان كل هذا الوقت؟»

قالت رايكو وهي تمسد القطة: «عنك بالطبع. يقول إنك شاب كفوء جداً، وتلميذ مجد».

«هل أنت متأكدة أنه كان يتحدث عني؟»

قالت ضاحكة: «ليس لديَّ أدنى شك في أنه كان يتحدث عنك». وحين انتبهت رايكو إلى وجود قيثار لديَّ، التقطته، ودوزنته، ثم عزفت عليه معزوفة (ديسافندو) لأنطونيو كارلوس جوبيم. لقد مرت شهور منذ أن سمعت قيثار رايكو لآخر مرة، وقد منحني عزفها الإحساس القديم بالدفء.

سألتني: «ألديك خبرة بالقيثار؟»

«مجرد نقر قرب بيت صاحب البيت. لقد استعرته لأدندن عليه بين الحين والآخر. هذا كل شيء».

«سأعطيك دروساً فيما بعد، مجانية تماماً». وضعت رايكو القيثار جانباً ونزعت سترتها التويد. دخنت سيجارة وهي تعطي ظهرها للشرفة. كانت ترتدي قميصاً قطنياً قصير الأردان.

قالت: «ألا ترى أنه قميص جميل؟»

قلت: «فعلاً جميل». والحقيقة أنه كان قميصاً بهي المنظر وأنيقاً.

قالت رايكو: «إنه قميص ناوكو. أراهن أنك لا تعلم أن مقاسنا واحد. ولا سيما حين جاءت لأول مرة إلى المصحة. لقد زاد وزنها قليلاً بعد ذلك، لكن مقاسنا بقي واحداً تقريباً: البلوزات، البناطيل، الأحذية، القبعات. ربما حمالة الصدر هي الشيء الوحيد الذي لا نشترك فيه. عملياً لا أملك أي شيء هنا. كنا نتبادل الملابس دائماً. والحقيقة أنها كانت أشبه بالملكية المشتركة».

لاحظتُ، وهي تتحدث عن ذلك، أن قوام رايكو مشابه تماماً لقوام ناوكو. وبسبب شكل وجهها ونحافة ذراعيها وساقيها، أعطتني انطباعاً بأنها أنحف وأصغر قامة من ناوكو، لكن الغريب أنهما متشابهتان تماماً.

قالت رايكو: «السترة والبنطال لها أيضاً. كل ما لدي من ثياب لها. هل يزعجك أن تراني ألبس ثيابها؟»

قلت: «على الإطلاق. أنا واثق أن ناوكو ستسعد لأن أحداً يلبس ملابسها، وعلى الخصوص أنت».

قالت رايكو وهي تطقطق أصابعها طقطقة خفيفة: «من الغريب أن ناوكو لم تترك وصية أو أي شيء، إلا فيما يتعلق بملابسها. خربشت سطراً واحداً في مذكرة على المنضدة قرب وسادتها: «أرجو أن تعطوا جميع ملابسي لرايكو». كانت تمزح ألا ترى ذلك؟ لماذا تهتم بملابسها من بين جميع الأشياء وهي تتهيأ للموت؟ من يعير أدنى التفاتة للملابس؟ ولا بد أنها كانت عندها أطنان من الأشياء الأخرى التي أرادت قولها».

قلت: «ربما، لا».

بدت رايكو وهي تنفث الدخان على سيجارتها ضائعة في التفكير.

ثم قالت: «أعتقد أنك تريد أن تسمع القصة بكاملها بالترتيب؟»

قلت: «أجل، أريد. أرجو أن تخبريني بكل شيء».

«أظهرت الفحوص الطبية في المستشفى أن وضع ناوكو كان يتحسن مؤقتاً ولكنها يجب أن تبقى هناك على أساس علاج طويل المدى نوعاً ما ليستمروا في إعطائها علاجاً مكثفاً لمصلحتها في المستقبل. وقد أخبرتك بذلك في رسالة سابقاً - الرسالة التي ربما كتبتها في العاشر من أغسطس».

«نعم، لقد قرأت تلك الرسالة».

«حسناً، في الرابع والعشرين من أغسطس تلقيت مكالمة من أم ناوكو تسأل إذا كان بإمكان ناوكو أن تزورني في المصحة. أرادت ناوكو أن تحزم الأغراض التي تركتها معي، ولأنها لم تتمكن من رؤيتي لفترة، فقد أرادت أن نخوض في حديث لطيف ومستفيض، وربما نقضي ليلة في شقتنا. قلت هذا مناسب تماماً. أردت أن أراها على نحو ملح حقاً، وأن أخوض في حديث معها. وهكذا وصلت ناوكو وأمها في اليوم التالي، الخامس والعشرين، في سيارة تكسي. وقد عملنا نحن الثلاثة معاً. حزمنا أغراض ناوكو وثرثرنا سوية. وفيما بعد في العصرية، قالت ناوكو إن من الأفضل لأمها أن تذهب إلى البيت، لأنها بخير، وهكذا دعتا سيارة تكسي وغادرت الأم. لم نقلق على الإطلاق لأن ناوكو ظهرت بمعنويات جيدة جداً. والحقيقة أنني بقيت قلقة جداً حتى ذلك الحين. كنت أتوقع أن تكون مكتئبة وذاوية وهزيلة. أعني أنني كنت أعرف كم تنتزع منك الفحوص والعلاج والحاجات التي يقدمونها في تلك المستشفيات، ولذلك كانت تساورني شكوك واقعية حول تلك الزيارة. لكن نظرة واحدة أقنعتني أنها يجب أن تكون على ما يرام. لقد بدت أكثر عافية مما توقعت وكانت تبتسم وتمزح وتتحدث بطريقة أكثر اعتيادية مما رأيتها آخر مرة. ذهبت إلى مصفف الشعر وغيرت من تسريحتها. لذلك فكرت أنه لا يوجد ما يدعو للقلق حتى لو تركتنا أمها وحدنا. أخبرتني ناوكو بأنها هذه

المرة ستترك أطباء المستشفى هؤلاء يعالجونها دفعة واحدة وإلى الأبد، فقلت لعل هذا أفضل شيء تفعله. وهكذا خرجنا نحن الاثنتين وتجولنا، وتحدثنا طوال الوقت، في الأساس عن المستقبل. أخبرتني ناوكو بأن ما كانت توده فعلاً هو أن نغادر نحن الاثنتين المصحة ونعيش معاً في مكان ما».

«تعيشان معاً؟ أنت وناوكو؟»

قالت رايكو باهتزازة خفيفة: «هذا صحيح. أخبرتها من ناحيتي لا يوجد ما يمنع، ولكن ماذا بشأن واتانابي؟ قالت: لا تقلقي سأسوي كل شيء معه. هذا ما حدث. ثم تحدثت عن المكان الذي نعيش فيه، وماذا ينبغي أن نفعل، وهذا النوع من الأشياء. بعد ذلك ذهبنا إلى قفص الطيور ولعبنا معها».

أخرجت زجاجة بيرة من الثلاجة وفتحتها. وأشعلت رايكو سيجارة أخرى، والقطة تتمدد في حضنها.

«كانت الفتاة قد حزمت أمرها بخصوص كل شيء. وأنا واثقة أن هذا هو السبب في أنها كانت مفعمة بالحيوية وتبتسم وتبدو متعافية. لا بد أنه كان عبئاً ثقيلاً أزاحته عن ذهنها، أشعرها أنها تعرف تماماً ما كانت تريد فعله. وهكذا أنهينا ما كانت تريد أخذه من أغراضها ورمي ما لا تحتاج إليه في صندوق الزبالة المعدني في الحديقة وإحراقه: دفتر الملاحظات الذي كتبت عليه يومياتها، وجميع ما تلقته من رسائل. رسائلك أيضاً. وقد بدا لي هذا غريباً نوعاً ما، ولذلك سألتها لماذا تحرق هذه الأشياء. أعني أنها كانت دائماً حريصة على وضع رسائلك بمنأى عن بقية الرسائل في مكان آمن، لتعيد قراءتها مراراً وتكراراً. قالت: «أحاول التخلص من كل ما ينتمي للماضي، لأولد من جديد في المستقبل». وقد اطمأننت إلى كلامها كثيراً. كان لديها نوع من التفسير المنطقي. وأنا أتذكر مقدار ما بذلته من تفكير لتبدو متعافية وسعيدة. ولقد كانت زاخرة بالحلاوة واللطف ذلك النهار. تمنيت لو رأيتها!.

حين انتهى ذلك، ذهبنا إلى غرفة الطعام لتناول العشاء بالطريقة التي تعودناها. ثم أخذنا حماماً وفتحت زجاجة خمر جيدة كنت أحتفظ بها لمناسبة خاصة كهذه، فشربنا وعزفت القيثار. الخنافس، كما هو الحال دائماً، «الغابة النروجية»، «ميتشيل»، المفضلة لديها. كان كلانا يشعر بالسعادة المفرطة. ثم أطفأنا الأضواء، وتخففنا من ملابسنا، وهرعنا إلى أسرَّتنا. كانت ليلة ساخنة حارّة. أبقينا الشبابيك مفتوحة على اتساعها، ولكن لم تهب نسمة واحدة من الهواء. في الخارج كانت سوداء كالحبر، الجراد يتصايح، ورائحة العشب الصيفي تسطع في الغرفة الخانقة. وعلى حين غرة، بدأت ناوكو بالحديث عنك، عن الليلة التي مارستْ فيها الجنس معك. وبالتفاصيل المملة. كيف عرَّيتَها من ملابسها، كيف لامستها، كيف وجدتْ نفسها تطفح بالبلل، كيف ولجتَ فيها، كم شعرتْ بالمتعة. روت لي كل هذه الأشياء بأدق التفاصيل. ولذلك سألتُها: لماذا تخبرينني بهذا الآن، وعلى حين غرة؟ أعني، حتى تلك اللحظة، لم تكن تتحدث معي عن الجنس على نحو مكشوف. بالطبع كنا قد تبادلنا حديثاً جنسياً صريحاً كنوع من العلاج، لكنها كانت تبتعد عن الخوض في التفاصيل. والآن لم أستطع إيقافها. كنت مصدومة.

قالت: «لا أعرف، ولكني فقط أشعر بالراحة للحديث عنه. سأتوقف إذا كنت لا تريدين سماعه». قلت: «لا، لا بأس. إذا كان هناك ما تحتاجين إلى الحديث عنه، فيجب أن تفرغي ما في جعبتك. وسأصغي لكل ما تقولينه».

وهكذا استمرت في قصتها: «حين ولج في داخلي، لم أصدق كم هو مؤلم. وفي النهاية، كانت تلك تجربتي الأولى. كنت مبللة تماماً، فاندفع في داخلي، لكن دماغي تشوش، فالأمر مؤلم غاية الألم. فكرت أنه أوغل في داخلي بقدر ما يستطيع، لكنه بعد هذا رفع ساقيَّ وغاص في داخلي أكثر. وقد أحدث هذا هزة في جسدي كله، كأنما تنقعت بمياه متجمدة. دبَّ الخدر في ذراعيَّ وساقيَّ، وغمرتني موجة من البرد. لم

أكن أدري ماذا يحدث. فكرت في أنني يجب أن أموت في تلك اللحظة، مهما تكن الطريقة التي أموت بها. لكنه أدرك أنني أتألم، فتوقف عن الحركة، وظل في داخلي عميقاً، ثم غمرني بفيض من القبل، في شعري، ورقبتي، ونهديَّ، فترة طويلة، طويلة. وشيئاً فشيئاً، عاد الدفء إلى جسدي، وببطء بالغ بدأ هو بالحركة. آه يا رايكو... كان شيئاً رائعاً. شعرت وكأن دماغي بدأ يذوب. أردت أن أبقى على تلك الحالة إلى الأبد، أن أبقى بين ذراعيه بقية حياتي. كان شيئاً مذهلاً حقاً».

قلت لها: «إذا كان هذا رائعاً إلى هذا الحد، فلم لا تبقين مع واتانابي وتظلين تمارسينه كل يوم؟» لكنها قالت: «لا، رايكو، أعرف أن هذا لن يتكرر. أعرف أن هذا شيء يأتيني في العمر مرة واحدة، ويغادرني، ولن يعود ثانية. هو شيء مما يحدث مرة واحدة في العمر. لم أشعر بشيء مثله قبله، ولن أشعر بشيء مثله بعده. لم أشعر أبداً بالرغبة في تكراره ثانية، ولن أسمح لنفسي بالبلل على ذلك النحو مرة أخرى».

بالطبع شرحت لها أن هذا شيء غالباً ما يحدث للفتيات الشابات، وأنه في أغلب الحالات يعالج نفسه مع العمر. في النهاية كانت قد حزمت أمرها في ذلك الوقت: لا داعي للقلق من لزوم عدم تكراره. وقد جربت أنا نفسي كل صنوف المتاعب حين تزوجت للمرة الأولى.

لكنها قالت: «لا يا رايكو، ليس الأمر هكذا، لست قلقة من هذا على الإطلاق. ينحصر الأمر في أنني لا أريد لأحد أن يلج في داخلي مرة أخرى. لا أريد أن أنتُهك على هذا النحو ثانية من قبل أي شخص».

شربت كأسي من البيرة، وأنهت رايكو سيجارتها الثانية. اضطجعت القطة في حضن رايكو، وجدت لها موقعاً جديداً، فعادت للنوم. بدت رايكو مشتتة كيف ستستطيع الاستمرار حتى أشعلت سيجارتها الثالثة.

«بعد ذلك بدأتْ ناوكو بالنشيج. جلستُ على حافة سريرها ومسدت شعرها. قلت: «لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام. فتاة شابة وجميلة مثلك لا بد أن تجد رجلاً يتمسك بها ويسعدها». كانت ناوكو

مبللة بالعرق والدموع. جلبت منشفة الحمام وجففت وجهها وجسدها. حتى ملابسها الداخلية كانت مبللة. ولذلك ساعدتها على التخلص منها، والآن انتظر دقيقة، ولا تشرد بك فكرة غريبة، فلا مزاح في الأمر. كنا قد تعودنا دائماً الاستحمام معاً. كانت مثل أختي الصغرى».

قلت: «أعرف، أعرف».

«حسناً، على أية حال، قالت ناوكو إنها تريدني أن أحتضنها. قلت إنها من السخونة بحيث لا يمكن احتضانها. لكنها قالت إنها المرة الأخيرة التي نرى فيها بعضنا، وهكذا احتضنتها. فقط لمدة وجيزة. مع وجود منشفة الحمام بيننا، لم يتلاصق جسدانا المبللان. وحين هدأت، جففتها مرة أخرى، وألبستها ملابسها الليلية ووضعتها في السرير. سرعان ما غطت في نوم عميق. أو ربما كانت تتظاهر بالنوم. مهما يكن الأمر، فقد بدت تلك الليلة جميلة ورائعة، كان لها وجه فتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة لم يمسسها سوء منذ اليوم الذي ولدت فيه. رأيت تلك النظرة على وجهها، فعرفت أنني أستطيع النوم مطمئنة البال.

حين صحوت في الساعة السادسة صباحاً كانت قد غادرت. كانت ملابسها الليلية مرمية هناك، حيث نزعتها، أما ملابسها وأحذيتها والمشعل الذي أحتفظ به تحت وسادتي فقد اختفت. عرفت فوراً أن هناك أمراً جللاً. أعني أن كونها قد أخذت المشعل يعني أنها غادرت في الظلمة. تأكدت من طاولتها من باب الاحتياط، فوجدت ملاحظة: **أرجو إعطاء ملابسي جميعاً لرايكو**. أوقظت الجميع فوراً، وسلكنا مختلف الطرق بحثاً عنها. بحثنا في كل شبر في المكان، بدءاً من داخل المهاجع حتى الغابة المجاورة. واستغرق العثور عليها خمس ساعات من البحث. لقد جلبتْ معها حتى أثوابها».

تنهدت رايكو وربتت على القطة.

سألتها: «هل تريدين بعض الشاي؟»

قالت رايكو: «نعم، شكراً».

غليتُ ماءً وعدت بالغلاية إلى الشرفة. كان الغروب يقترب. وبدأت تشحب أضواء النهار، حتى وصلت ظلال الأشجار الطويلة إلى أقدامنا. ترشفت شايي وتطلعت إلى الحديقة العشوائية الغريبة بخلطتها المضحكة من الأزاهير الكروية الصفراء والأزاليا القرمزية والناندينة الطويلة الخضراء.

«جاءت سيارة الإسعاف وأخذت ناوكو وبدأت الشرطة باستجوابي. لا لوجود شكوك تحوم حولي، إذ سجلت القضية كنوع من الانتحار، وكان من الواضح أنه انتحار، وكانوا يسلمون بأن الانتحار هو أحد الأشياء التي يلجأ إليها المرضى عقلياً. لم يعْدُ الأمر حدود الإجراء الشكلي. وحالما غادروا، أبرقت لك».

قلت: «أي مأتم بائس صغير عملوا لها. من الواضح أن عائلتها كانت متضايقة لكوني عرفت أن ناوكو ماتت. وأنا واثق أنهم لم يرغبوا في أن يعلم الناس أنه انتحار. وربما كان ينبغي ألا أحضر. حالما عدت، توصلت إلى معرفة الحقيقة».

«هيا، واتانابي، دعنا نتمشى. يمكنني شراء بعض الأشياء للعشاء، ربما. إنني أتضور جوعاً».

«أكيد. هل هناك ما ترغبين في أكله؟»

قالت: «سوكياكي، لم أذق طعمه منذ سنين. تعودت أن أحلم بتناول السوكياكي، وأكتفي بحشو أمعائي باللحوم والأبصال الخضراء والمعكرونة والفاصوليا المحمصة والخضراوات».

«أكيد. نستطيع تحضيره، لكني لا أمتلك قِدر سوكياكي».

«دع الأمر لي. سأستعيرها من جارك صاحب البيت».

هرعت إلى البيت المجاور وعادت ومعها قِدرٌ جيدة الحجم وطباخ غازي وخرطوم مطاطي.

«لا بأس بهذا؟»

«لا بأس!».

جلبنا جميع المكونات من الدكاكين الصغيرة في الجوار، اللحوم والبيض والخضروات والفاصوليا. التقطت خمرة بيضاء معتبرة. حاولت أن أدفع، لكن رايكو أصرت على دفع ثمن كل شيء.

قالت: «فكر كيف ستسخر مني العائلة إذا سمعت أن ابن أختي يدفع عني الطعام! زد على ذلك أنني أحمل مبلغاً جيداً من المال. لذا لا تقلق. لم أكن لأغادر المصحة مفلسة».

نظفت رايكو الرز ووضعته ليغلي بينما رتبت كل شيء للطبخ في الشرفة. وحين جهز كل شيء، تناولت رايكو قيثارها وكأنها تختبره بمعزوفة بطيئة من معزوفات باخ. في المقاطع الصعبة تبطئ قصداً أو تستعجل أو تجعلها منفصلة أو عاطفية. وتصغي بمتعة واضحة إلى تنوع الأصوات التي تستخرجها من الآلة. وحين كانت رايكو تعزف، خيل إليَّ أنها فتاة في السابعة عشرة تستمتع برؤية ثوب جديد. التمعت عيناها، وافتر ثغرها عن شبه ابتسامة. وحين انتهت من عزف القطعة، تراجعت إلى الخلف واستندت إلى ركن وتطلعت إلى السماء وكأنها توغل في تفكير عميق.

سألتها: «هل تمانعين إذا سألتك سؤالاً؟»

قالت: «على الإطلاق. كنت أفكر كم أنا جائعة فقط».

«ألا تخططين لرؤية زوجك وابنتك وأنت هنا؟ لا بد أنهم في مكان ما من طوكيو».

«قريبون جداً. يوكوهاما. ولكن لا، لا أخطط لرؤيتهم. أنا واثقة أنني أخبرتك سابقاً: من الأفضل لهم ألا تكون لهم علاقة بي بعد. لقد بدأوا حياة جديدة. وقد أشعر بالإرهاق إذا رأيتهم. لا، الأفضل أن أظل بعيدة».

قلبت علبتها الفارغة من سجائر النجوم السبع، وأخرجت علبة جديدة من حقيبتها. فتحتها، وثبتت سيجارة في فمها، لكنها لم تشعلها.

قالت: «لقد انتهيت ككائن بشري. كل ما تراه هو مجرد ذكرى متبقية

مما تعودت أن أكونه. مات أهم جزء مني، ما كان في داخلي، منذ سنين، ولا أعمل الآن إلا من خلال ذاكرة ذاتية».

«لكنك تعجبينني، رايكو، سواء أكانت طريقتك ذكرى متبقية أو غير ذلك. وما يجب أن أقوله عنها لا يشكل أي فرق، غير أني مسرور فعلاً لأنك ترتدين ملابس ناوكو».

ابتسمت رايكو وأشعلت سيجارتها بقداحة: «أنت كشاب، تعرف كيف تهب السعادة للمرأة».

شعرتُ أن وجهي يحمر خجلاً: «لا أقول سوى ما أفكر فيه حقاً».

«أعرف، أنا متأكدة»، قالت رايكو مبتسمة.

حين جهز الرز بعد ذلك بقليل، صببت الزيت في القدر ورتبت مكونات السوكياكي.

«قل لي إن هذا ليس حلماً»، قالت رايكو، وهي تستنشق الهواء.

قلت: «لا، إنه سوكياكي واقعي مائة بالمائة، أعني من الناحية التجريبية بالطبع».

وبدلاً من الحديث هجمنا على السوكياكي بعيداننا، وشربنا الكثير من البيرة، وأتينا على الرز. عادت نورسة، جذبتها الرائحة، فتشاركنا اللحم معها. وحين أكلنا كفايتنا، جلسنا مستندين إلى أعمدة الشرفة نتطلع إلى القمر.

سألتها: «هل اكتفيت؟»

تأوهت: «تماماً. لم آكل في حياتي بهذا القدر».

«ماذا تريدين أن تفعلي الآن؟»

«أدخن ثم أمضي إلى حمام عام. شعري في حالة فوضى. وأحتاج إلى غسله».

«لا مشكلة. هناك واحد أسفل الشارع».

«أخبرني، واتانابي، إن لم تمانع. هل نمت مع تلك الفتاة ميدوري؟»

«تقصدين هل مارسنا الجنس؟ لا، ليس بعد. لقد قررنا تأجيل الأمر حتى تتضح الأشياء».

«الآن اتضحت، أليس كذلك؟»

هززت رأسي: «تقصدين الآن بعد موت ناوكو؟»

«لا، ليس ذاك. أنت اتخذت قرارك قبل أن تموت ناوكو بفترة طويلة، بأنك لن تتخلى عن ميدوري. واختارت ناوكو الموت. وقد كبرتَ الآن، وعليك أن تتحمل مسؤولية اختياراتك. وإلا فستدمر كل شيء».

قلت: «لكني لا أستطيع نسيانها. لقد أخبرت ناوكو بأنني سأستمر في انتظارها، غير أني لم أستطع. أدرت لها ظهري في النهاية. لا أعني أن ألقي باللائمة على أحد، بل هي مشكلتي أنا نفسي. وأعتقد أن الأشياء كانت ستجري بالطريقة نفسها حتى لو لم أدر لها ظهري. منذ البداية اختارت ناوكو الموت. لكن هذا خارج الموضوع. أستطيع أن أسامح نفسي. أنت تقولين لي بأني لا أستطيع فعل شيء مع التغير الطبيعي في المشاعر، لكن علاقتي بناوكو لم تكن بتلك البساطة. إذا توقفتِ قليلاً وتأملتِ فيها، ستجدين أننا، أنا وناوكو، كنا مرتبطين معاً على الحدود بين الحياة والموت. وقد بدا لنا الأمر على هذا النحو منذ البداية».

«إذا كنتَ تشعر ببعض الألم فيما يخص موت ناوكو، فأنا أنصحك في الاحتفاظ بالشعور بذلك الألم لبقية حياتك. وإذا كان هناك شيء يمكن أن تتعلمه منه، فيجب أن تتعلمه وتحتفظ به أيضاً. ولكن بصرف النظر عن هذا، يجب أن تكون سعيداً مع ميدوري. ألمك لا علاقة له بها. إذا سببتَ لها الألم أكثر مما فعلتَ حتى الآن، فإن الجرح قد لا يندمل. يجب أن تكون قوياً بما يكفي لتحمله. يجب أن تكبر أكثر وتبلغ الرشد. لقد تركتُ المصحة وقطعتُ كل هذا الطريق إلى طوكيو هنا لكي أقول لك ذلك، قطعتُ كل هذا الطريق في تابوت ذلك القطار».

قلت لرايكو: «أفهم ما تقولينه لي. لكني لست مستعداً للاستمرار

فيه. أعني لقد كان المأتم صغيراً وحزيناً. يجب ألا يموت المرء بهذه الطريقة».

مدت رايكو يدها وضربت رأسي: «كلنا سنموت بهذه الطريقة يوماً ما. سأموت أنا وتموت أنت أيضاً».

مضينا في جولة لمدة خمس دقائق على طول ضفة النهر حتى الحمامات المحلية العامة، وعدنا إلى البيت أكثر انتعاشاً. فتحتُ قنينة خمر وجلسنا في الشرفة لشربها.

«هيا واتانابي، هل تستطيع جلب كأس أخرى؟»

قلت: «بالتأكيد، ولكن لم؟»

«سنقيم لناوكو مأتمنا الخاص، فقط نحن الاثنين. مأتم بلا حزن».

حين ناولتُها الكأس، ملأتْها حتى الحافة ووضعتْها على الدكة الحجرية في الحديقة. ثم جلستْ في الشرفة تستند إلى عمود، والقيثار بين ذراعيها، ودخنت سيجارة.

«والآن هل تستطيع جلب علبة ثقاب؟ اجعلها أكبر ما لديك من علب».

جلبتُ علبة ثقاب من الحجم الكبير لدي في المطبخ وجلست إلى جانبها.

«والآن ما أريدك أن تفعله هو أن تضع عود ثقاب في كل مرة أعزف فيها أغنية، فقط ضعها صفاً. وسأعزف كل ما أستطيع التفكير فيه من أغان».

في البداية عزفتْ عزفاً ناعماً، رائقاً لأغنية هنري مانسيني «حبيب القلب».

سألتني: «أعطيتَ شريط تسجيل من هذه الأغنية لناوكو، أليس كذلك؟»

«نعم، كانت هدية عيد الميلاد السنة قبل الفائتة. وقد أحبت الأغنية حقاً».

قالت رايكو: «أنا أحبها أيضاً... عذبة وجميلة...». ومضت تعيد بعض أجزاء اللحن قبل أن تتناول رشفة من الخمر. «أتساءل كم من الأغاني أستطيع أن أعزف قبل أن أسكر تماماً. سيكون هذا مأتماً جميلاً، ألا تظن ذلك، خالياً من الحزن؟»

انتقلت رايكو إلى الخنافس، عازفة: «الغابة النروجية» و«الأمس» و«ميتشيل» و«شيء ما». عزفت وغنتْ «ها قد أطلت الشمس»، ثم عزفت «الحمقى على التل». فوضعتُ سبعة أعواد ثقاب صفاً.

قالت رايكو: «سبع أغان» وهي ترتشف مزيداً من الخمر وتدخن سيجارة أخرى. «بالتأكيد كان هؤلاء الشباب يعرفون شيئاً عن حزن الحياة ونعومتها».

وحين قالت رايكو «هؤلاء الشباب» فقد كانت تعني بالطبع جون لينون وبول ماكرتني وجورج هاريسن. بعد نفس بطيء، فركت رايكو سيجارتها والتقطت قيثارتها مرة أخرى. «بيني لين» و«الطائر الأسود» و«جوليا» و«حين يكون عمري 64» و«رجل اللامكان» و«أحبها» و«رباه».

«كم وصل عددها؟»

قلت: «أربعة عشر».

تنهدت وسألتني: «وماذا عنك؟ ألا تستطيع عزف شيء؟ ولو أغنية واحدة؟»

«لا مجال، أنا مرهق».

«إذن اعزفها بإرهاق».

جلبت قيثارتي وتعثرت في عزف «هناك فوق السطح». أخذت رايكو قسطاً من الراحة، لتدخن وتشرب. وحين انتهيت صفقت. ثم عزفت على القيثار لحن أغنية رافيل «رقصة للملكة المحتضرة» وأداءً جميلاً وناصعاً لمعزوفة ديبوسي: «وضوح القمر».

قالت رايكو: «لقد تمكنت من هاتين الاثنتين بعد موت ناوكو. لم يرتفع ذوقها حتى النهاية عن المستوى العاطفي». ثم أدت بضع أغان لبكراك: «قريباً منك»، «المطر يتساقط على رأسي»، «إمش بالجوار»، «أجراس الزفاف».

قلت: «عشرون».

هتفت رايكو: «كأنما أنا مغنٍّ آلي بشري، سيعتري الشحوب أساتذتي لو رأوني الآن».

استمرت ترشف، وتنفث الدخان، وتعزف الموسيقى: أغاني البوسانوفا، روجرز وهارت، جرشوين، بوب دايلان، راي تشارلز، كارول كنغ، فتيان الساحل، ستيفي وندر، «أغنية السوكياكي» لكيو ساكاموتو، «المخمل الأزرق»، «الحقول الخضراء». أحياناً تغمض عينيها وتهز رأسها، أو تهمهم مع اللحن.

حين نفدت الخمرة، عدنا للويسكي. الخمرة في الكأس الموضوعة في الحديقة صببتها فوق الدكة الحجرية وأبدلتها بالويسكي.

سألت رايكو: «أين وصل حسابنا؟»

قلت: «ثمان وأربعون».

عزفت رايكو «إليانور رجبي» لتكون الأغنية التاسعة والأربعين، أما الخمسون فقد أعادت تأدية «الغابة النروجية». بعد ذلك أراحت يديها وشربت بعض الويسكي.

قالت: «لعل هذا يكفي».

أجبت: «يكفي. مذهل».

تطلعت رايكو في عيني وقالت: «والآن أصغِ لي يا واتانابي. أريدك أن تنسى كل ما يتعلق بذلك المأتم الحزين البائس الذي رأيته. تذكر فقط مأتمنا هذا المذهلَ لها».

هززت رأسي موافقاً.

قالت: «بقيت واحدة من باب الزيادة»، وعزفت معزوفة باخ المفضلة لديها باعتبارها القطعة الحادية والخمسين. حين فرغت منها، قالت بصوت لا يكاد يرتفع فوق الهمس: «ما رأيك بأن نفعلها معاً، واتانابي؟»

قلت: «عجيب! كنت أفكر في الشيء نفسه».

ذهبنا إلى الداخل، وأرخينا الستائر. وفي الغرفة المدلهمة، بحثنا رايكو وأنا كل منا في جسد الآخر، وكأن ذلك أكثر الأشياء طبيعية بالنسبة لنا أن نفعله في العالم. نزعت عنها بلوزتها وبنطالها، ثم ملابسها الداخلية.

قالت رايكو: «لقد عشت حياة غريبة. لكنني لم أتصور أبداً أن ينزع عني كلسوني رجل عمره تسعة عشر عاماً بعمر ابني».

«هل تريدين أن تنزعيه بنفسك؟»

«لا، امض في شأنك. ولكن لا تخف من تجاعيدي».

«أحب تجاعيدك».

همستْ: «ستجعلني أبكي».

قبّلتها في كل مكان، مراعياً أن أتابع مواطن التجاعيد بلساني. لديها نهدا فتاة صغيرة. مرغتهما وأخذت حلمتيها بأسناني، وغرزت إصبعي في فتحتها الدافئة، الرطبة، وبدأت بتحريكها.

«بقعة خطأ، واتانابي»، همست رايكو في أذني، «إنها مجرد جعدة».

«لا أصدق أنك تقولين النكات في وقت كهذا».

قالت: «آسفة، أنا خائفة. لم أفعل هذا منذ سنين. وأشعر وكأنني فتاة في السابعة عشرة: ذهبت لزيارة فتى في غرفته، وفجأة أجد نفسي عارية».

«للحقيقة، أشعر أنني أنتهك فتاة في السابعة عشرة».

مع إصبعي في «جعدتها»، نقلت شفتي بين رقبتها وأذنيها، وأخذت

حلمتها بأصابعي. وحين اشتد لهاثها وبدأت حنجرتها بالاهتزاز، فرقت ساقيها الطويلتين، الناحلتين، وولجت في داخلها.

تمتمت رايكو في أذني: «لن تجعلني أحبل الآن، أليس كذلك؟ ستنتبه إلى هذا الأمر، صحيح؟ ستتعقد الأمور كثيراً إذا حبلت في هذا العمر».

قلت: «لا تقلقي. استرخي وحسب».

حين ولجت فيها كاملاً، ارتجفت وأطلقت تنهيدة. ممسداً ظهرها، تحركت فيها جيئة وذهاباً، ودون حذر، أنزلت. كان قذفاً شديداً لا يمكن إيقافه. تمسكت بها وبذوري تصب في رحمها مراراً. قلت: «آسف. لم أستطع إيقاف نفسي».

«لا تكن سخيفاً» قالت رايكو وهي توجه لي صفعة على الكتف: «لا ينبغي أن تقلق لذلك. هل تحتفظ بذلك في ذهنك حينما تفعله مع الفتيات؟»

«نعم، كثيراً جداً».

«حسناً، لا ينبغي أن تفكر فيه معي. دعك منه. فقط افعل ما طاب لك. هل كان شيئاً حلواً؟»

«رائعاً. ولهذا لم أستطع السيطرة على نفسي».

«لا وقت للسيطرة على نفسك. هذا جميل. كان عظيماً حتى بالنسبة لي».

قلت: «أنت تعرفين يا رايكو».

«ماذا؟»

«ينبغي أن يكون لديك حبيب. أنت مذهلة. لا تضيعي الوقت».

قالت: «حسناً، سأفكر في ذلك. لكني أتساءل هل لدى الناس أحباء وأشياء في أساهيكاوا».

بعد دقائق من الراحة، ولجت في داخلها مرة أخرى. حبست رايكو أنفاسها وتمايلت تحتي. تحركتُ ببطء وهدوء وذراعاي تحيطان بها، وتحدثنا. بدا الأمر مذهلاً عند التحدث في الذروة. إذا قلت دعابة وجعلتها تضحك، تصلني الهزة من خلال قضيبي. تمسكنا ببعضنا على هذه الحال وقتاً طويلاً جداً.

قالت رايكو: «آه، ما أجمل ما يبدو هذا!»

قلت: «التحرك ليس بالشيء السيئ أيضاً».

«امضِ. جربه».

رفعت وركيها وولجت فيها بأبعد ما أستطيع، وحين تذوقت طعم الحركة على نحو دائري حتى تمتعت متعة كاملة، سمحت لنفسي بالإنزال.

تمتعنا بجسدينا، إجمالاً، أربع مرات تلك الليلة. عند نهاية كل مرة، كانت رايكو تضطجع بين ذراعي وهي ترتجف قليلاً، وعيناها مغمضتان، وتطلق تنهيدة طويلة.

قالت رايكو: «لن أفعل ذلك مرة أخرى لبقية حياتي. أرجوك، واتانابي، أن تقول لي أهذا حقيقي. قل لي إنني أستطيع الاسترخاء الآن لأنني عشت عمراً كاملاً حتى النهاية».

قلت: «ما من أحد يستطيع قول ذلك لك. ما من سبيل للمعرفة».

حاولت إقناع رايكو بأخذ الطائرة لأنها أسرع وأسهل من القطار، لكنها أصرت على الذهاب إلى أساهيكاوا بالقطار.

قالت: «أحب المعبر إلى هوكايدو. لا رغبة لدي في الطيران في الهواء». رافقتها إلى محطة يونو. حملتْ قيثارتها وحملتُ حقيبتها. جلسنا على مقعد في الرصيف بانتظار وصول القطار. كانت رايكو تلبس

السترة التويد نفسها وبنطالاً أبيض كانت تلبسه حين وصلت إلى طوكيو.

«هل تعتقد حقاً أن أساهيكاوا ليست بالمكان السيئ جداً؟»

«إنها مدينة جميلة، وسأزورك قريباً هناك».

«حقاً؟»

هززت رأسي: «وسأكتب لك».

«أحب رسائلك. أحرقت ناوكو جميع الرسائل التي أرسلتها لها. وكانت رسائل عظيمة جداً».

قلت: «ليست الرسائل سوى قطع من الورق. أحرقيها، وسيبقى ما في القلب في القلب، احتفظي بها وسيختفي ما يختفي».

«تعرف، واتانابي، أخشى أن الحقيقة هي الذهاب إلى أساهيكاوا وحدي. حاول أن تكتب لي. متى أقرأ رسائلك، أشعر أنك تقف إلى جواري».

«إذا كان هذا ما تريدينه، فسأكتب لك دائماً. ولكن لا تقلقي. أنا أعرفك: أنت رائعة حيثما تذهبين».

«هناك شيء آخر. يراودني شعور بشيء ما في داخلي، هل يمكن أن يكون خيالاً؟»

«مجرد ذكرى متبقية» قلتُ وابتسمت. وابتسمت رايكو أيضاً.

قالت: «لا تنسني».

قلت: «لن أنساك، أبداً».

«قد لا نلتقي مرة أخرى، ولكن حيثما سأكون سأتذكرك دائماً أنت وناوكو». رأيت أنها تبكي. وقبل أن أتأكد، بدأت بتقبيلها. كان الآخرون على الرصيف يحدقون بنا، لكني لم أعد أبالي بمثل هذه الأمور. كنا أحياء، هي وأنا. وكل ما ينبغي علينا أن نظل أحياءً.

«كن سعيداً» قالت رايكو وهي تصعد القطار. «لقد أعطيتك جميع

النصائح التي يجب أن أنصحك بها. ولم يبق شيء أقوله. فقط كن سعيداً. خذ نصيبي ونصيب ناوكو واجمعهما لنفسك».

تشابكنا بالأيدي للحظة، ثم افترقنا.

هاتفت ميدوري.

قلت: «يجب أن أتحدث معك. لديَّ ملايين الأشياء التي أتحدث بها معك. لدينا ملايين الأشياء نتحدث عنها. كل ما أريده في العالم هو أنت. أريد أن أراك وأتحدث معك. أريد لكلينا أن نبدأ كل شيء من البداية».

ردت ميدوري بصمت طويل، طويل... صمت جميع الأمطار السديمية في العالم التي تتساقط على جميع حزازات العشب الجديد في العالم. أغمضت عيني وانتظرت، وجبهتي على الزجاج. وأخيراً قطع صوت ميدوري الهادئ الصمت: «أين أنت الآن؟»

حقاً، أين أنا الآن؟

رفعت رأسي، والسماعة في يدي، وتطلعت لأرى ما يقع وراء علبة التلفون. أين أنا الآن؟ ليست لديَّ فكرة. لا فكرة على الإطلاق. أين يقع هذا المكان؟ كل ما التمع أمام ناظري كان أشكالاً لا تحصى من الناس تمشي إلى لا مكان. مراراً كلمت ميدوري من هذا المكان الميت الذي لم يكن مكاناً.

هاروكي موراكامي

الغابة النروجية

يعتبر موراكامي اليوم من أبرز روائيي اليابان والعالم، تصدر رواياته بعدة لغات، وتحصد الجمهور والجوائز والصفحات الثقافية. كل رواية لموراكامي هي حدث.

الغابة النروجية من أشهر ما كتب موراكامي.



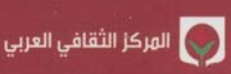
شاب جامعي يموت صديقه فيعيش الموت كمفصل من مفاصل الحياة، ويكتشف أن الحدود بين الأشياء تتداعى ويختلط فيها الواقع بالخيال، والموت بالحياة والعقل بالجنون.

حين يكتب واتانابي، بطل الرواية، غابة أخيلته، بعد عشرين سنة من حدوثها، يجد أن ما يكتبه هو ما يتذكره، وأن ما يتذكره هو ما يتمناه. هكذا يعيش تجربة المصح العقلي كأنها تراث سردي يمتد من شهرزاد حتى **الجبل السحري** لتوماس مان، تلك الرواية التي تروي قصة مصح عقلي آخر. السرد هو الحياة، والحياة هي السرد، لكن النتيجة التي تعصف بوجوده فعلاً، في هذا التداخل، أنه في انكفائه في هذه الصدفة الذاتية، أضاع «الحدود» بين العوالم. لم يعد يدري أين يوجد. يصطدم بهشاشة الواقع الفعلي، ويصدمنا نحن القراء معه، يتداخل بين السرد والواقع، والوعي واللاوعي.

سعيد الغانمي

لوحة الغلاف للفنان كاورو كاوانو


ISBN 978-9953-68-166-5
9 789953 681665



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com